سلسلة غريب على الطريق

عبد اللطيف الحرز

نقد «وهم الإله»

غرور النقد وإغراق الصنمية العلمانوية

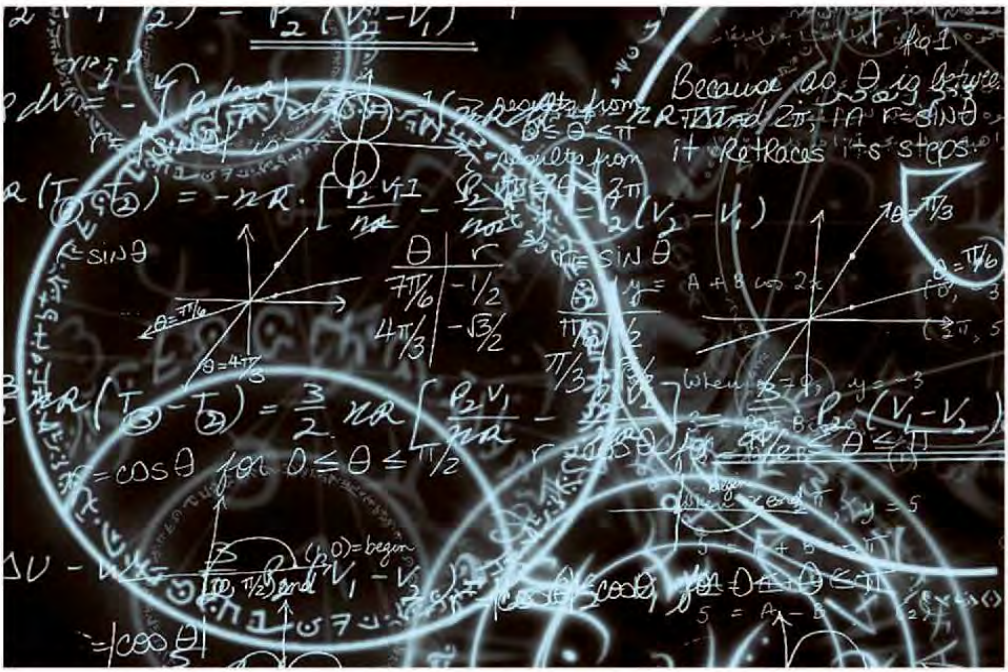

الفلق

نقد «وهم الإله»

عبد اللطيف الحرز

نقد «وهم الإله»

غرور النقد وإغراق الصنمية العلمانوية

دار الفارابي

الكتاب: نقد «وهم الإله»
المؤلف: عبد اللطيف الحرز
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: حزيران ٢٠١٦
ISBN: 978-614-432-569-8

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

الإهداء..... ١١

تمهيد ١٣

عجز الاختزال ١٣

الفصل الأول: مناقشات عامة..... ١٧

هشاشة البداية ١٩

هل يمكن أن يكون العِلم لاهوتاً..... ٢٧

عودة أفلاطونية ٣٤

تضخيمات الميديا وليس علوم التجربة ٤٠

العضو الأثري ودعوى هدم العلمي للديني ٥٢

نقص التفسير وحتميات نقد البداهة ٦١

ميم الولع بنرجسة الأخطاء..... ٧٢

الحتمية الجينية ومعضلة الرؤية الكلية ٩٥

الجانب الشخصي لكاهن العلم..... ١٣٦

فيروسات العلمي والمعتقد الشعبي ١٤٣

الإله الاستدلالي وإخبارية العلوم ١٥٧

مطران الإلحاد ولاهوت البداية ١٧٥

الفصل الثاني: وهميات استدلالات وهم ١٧٩
طفولية المصادرة ١٨١
شيطنة الدين خطاب علمي أم إعلامي ١٨٨
الإله الكمومي والدين مُرتدّاً ٢٠٤
مع توما الأكويني: المناقشة بترك المناقشة ٢٥١
صانع الساعات الأعمى: وهم الناظر لا المنظور ٢٧٣
الإله ذو الأزرار السّتة ٣٠٢
القمر القاتل إله حشرة العِث ٣٣٦
الفصل الثالث: محو المعلوم وإحكام الموهوم ٣٤٧
أخلاقية المادة ٣٤٩
هاجس هتك الإنسان ٣٥٩
تساؤلات العمى ٤١٩
خاتمة ٤٣٣
دوكنز ينقض نفسه ٤٣٥
من إصدارات المؤلف ٤٤٥

سلسلة: غريب على الطريق..شوارع خالية في منتصف الليل والألم (٣٣).

الإهداء

إلى عزلة الروح، أعزّ الأصدقاء.

تمهيد

عجز الاختزال

في مقابل التعصب والأصولية الدينية لدى بعض المؤمنين الذين يستبيحون كل مخالف لهم تبعاً لمقالة ابن سينا: (لقد ابتلينا بقومٍ يظنون أن الله لم يهدِ غيرهم)، هناك أصولية ثقافية وانغلاقية علموية لدى بعض الأكاديميين، الذين أغراهم انسجام ميولهم النفسانية مع الخطاب السياسي العالمي السائد، الذي بات جذلاً بانتصاره على اللاهوت والدين، ليتحول إلى آليات قمعية للمخالفين. فكأن ليس هناك غيرهم قرأ وتعلم الطب وكتب الفيزياء، وبالتالي كأن الذكاء حكر عليهم. وهو أمر ينتهي إلى مشكلة مُكررة تتمثل بالسقوط في فخ التأويل الأرسطي للنظريات العلمية وإدخالها في صراعات استعمالية في إرادات استحواذات السلطة[1]. وبهذا يتم صبغ و«مكيجة» الإبادة الخُلقية والمعنوية للإنسان، واعتبارها إطاراً معرفياً ونموذجاً أعلى يُحتذى للفهم، بما يمثل، كما أطلق عليه ريموند آرون، أفيون المثقفين. حيث ينقلب كل «إجماع» إعلامي أو علمي، في مرحلة ما، إلى بيرق إشهاري على الجميع الانجذاب إليه وترديده بوصفه ختام الحقيقة ونهاية التاريخ والوعي. وهو أمر يقلب العلم إلى ميثولوجيا خصامية. وقد كان كتاب (وهم الإله) لريتشارد دوكنز، وكتاباته الأخرى، جزءاً من هذه النماذج التي تخلط بين الإعلام والعلم، وتجنح بالبحث العلمي إلى سجالات جدالية عنيفة، ما كنا نستطيع محاورته ونقده إلا باستعمال منهجه بشكل معاكس. لذا لم نخرج في هذه

(١) عبداللطيف الحرز، جدل التشكل والاستلاب، دار الفارابي، ص٢٠٥.

المراجعة عن كتابات دوكنز نفسه، بعيداً عن تكثير الأدلة والدخول في عرض كتب اختصاصية مطولة، بل لم نجد ثمة حاجة حتى إلى استعمال جملة المصطلحات الأكاديمية في كل حقل، فطريقة دوكنز الجدالية المشحونة بخطاب عنيف واستهزائي أكثر من كونه استدلالياً، ونقلي أكثر منه إبداعياً، وتكراري أكثر منه امتيازياً، أغنانا عن كل ذلك وسهّل عملية تبسيط الكتاب والمحاجّة معاً. لذا اعتمدنا على ما كتبه دوكنز نفسه، مع ملاحظة أننا لسنا بصدد شرح الداروينية أو الرد عليها كما فعل جملة من الإسلاميين إلى مستوى بلغ تسطيحها وتشويهها واعتماد لغة التكذيب والمؤامرة، وبعض هذه المستويات مُحرج فعلاً في سذاجته وقصور معلوماته التي تبلغ انتقائية مثيرة للشفقة حقاً. ذلك أن موضوعنا الأساس هو وقفة نقدية إزاء جدوى توريط العلوم التجريبية كتاريخ الحياة الطبيعية على الأرض وجعلها دليلاً على نفي الإله وتقويض الإيمان.

أما من يرد توسعات أكثر فقد وقفنا في أكثر من كتاب مع ادعاءات خطاب الإلحاد، كي لا يكون التكرار جُهد العاجز، والقارئ الذي يمل كثرة المطالعة وطولها حري بأن يبتعد عن أصل المناقشة.

الفصل الأول

مناقشات عامة

هشاشة البداية

بعد موجة الكتب الكبيرة وسهلة التناول لم يعد من النافع تضييع الوقت بإعادة التعريف بالداروينية وتطورها، خصوصاً وأن هذه الأوراق ليست في نقد نظرية الانتخاب الطبيعي التي هي أطروحة قدمها معاصر داروين «ألفرد راسل والاس»، لكن داروين طورها وبرهنها. وأصل الفكرة موجود في كتابات سابقة عديدة منها بعض الكتابات لجد داروين نفسه. وفي سنة ١٧٣٥ جعل عالم نباتي سويدي تصنيفاً للحيوانات وضع فيها الإنسان في عداد القرود العليا. وقد أثار ذلك غضب أسقفيته في الكنيسة عليه. أما داروين ففي سنة ١٨٧١ فقط وضع «نشأة الإنسان» وعده سليلاً متطوراً لسلف له ذيل. وقد كان أقرب الأصدقاء لداروين والمقتنعين بالانتخاب الطبيعي لا يرون أن الانتخاب الطبيعي يمكنه تفسير القدرات العقلية المميزة للإنسان[١].

أما كيف صار السلف البهيمي للإنسان حقيقة؟! فهذا مُعتمد على الاحتماليات حيث الحفريات ضئيلة وفي أغلب المسائل الأساسية معدومة تماماً ولن نصل إليها أبداً!![٢]، من ناحية استدلالية خالصة (أسماء المتحجرات البشرية لا يمكن أن تؤخذ بجدية جداً)[٣].

(١) لماذا التطور حقيقة؟ مرجع سابق، ص٢٠٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠٥.

(٣) لماذا التطور حقيقة؟ مرجع سابق، ص٢٠٥.

لقد أقر داروين بوجود ثغرات هائلة في نظريته وأن نظريته بحاجة إلى دعائم وشواهد، وحتى حينما يدافعون عن لافتة كون الانتخاب الطبيعي أكثر علمية من الجاذبية، فهم يفتحون ثغرة أكبر بإقرارهم أن نيوتن (لم يفهم) الجاذبية وإنما جعلها أكثر تفسيرية في جعلنا نتوقع نتائج ملموسة، عبر معادلته الرياضية المشهورة[1]. حتى جاء آينشتاين وقدم توضيحاً للجاذبية هو الآخر ليس فهماً لماهية الجاذبية وحقيقتها، بل إتقاناً رياضياً وعمقاً تفسيرياً أكبر لتوقع النتائج التي على أساسها نُسمي أي قول (علمياً)؛ وعلى هذا، حينما يُقال إن الانتخاب الطبيعي علمي، فهو أبداً لا يتحدث عن حقيقة الوقائع وماهياتها، بل هو صيغة تفسيرية فقط للعلاقات بين الموجودات وليس لحقيقتها.

وحتى اليوم لايزال الداروينيون يقرّون بوجود ثغرات حساسة في نظرية التطور الطبيعي، فضلاً عن عدد غير قليل من علماء الطبيعيات في مختلف أرجاء العالَم مازالوا يرفضونها بشكل أكيد.وهذا يعني أن ثمة إيماناً منفصلاً عن وجود حقائق ومقدمات تامة توصلنا إلى النتيجة بشكل ضروري. وهذا ما يجعل الداروينية لدى كثيرين حالة إيمان وليس اقتناعاً محايداً:

«ما هو الإيمان؟ هو حالة عقلية تدفع بالناس إلى تصديق شيء ما ـ بغض النظر عمّا هو هذا الشيء ـ في ظل غياب أي إثبات يدعمه. وإن كانت الأدلة

(١) وحتى حينما تم تقديم النموذج القياسي المتعلق بالقوة الكهرومغناطيسية والقوة النووية القوية والضعيفة، فإنها بقيت فارغة تماماً عن توضيح الجاذبية، مع أنها ظاهرة كما يُفترض حقيقة ملموسة جداً، فكيف والحال مع أمور لا يطاولها الحسّ البتة، أو هذه أقله هي فرضيتها، ليُقال لنا إن العلم بالانتخاب الطبيعي أو بغيره، ينفي الدين أو ينفي الإله؟!

الداعمــة الجيــدة متوافــرة، فســيكون الإيمــان عندئــذ فائضــاً لأن الدلائــل ســتجبرنا أصـلاً علـى تصديقـه فـي مختلـف الأحـوال. وهـذا تحديـداً مـا يجعـل الادعـاء الـذي يُـردد كحديـث الببغـاوات عـن أن «التطـور هـو نفسـه مسـألة إيمـان» ادعـاءً سـخيفاً جـداً. فالنـاس يؤمنـون بالتطـور ليـس لأنهـم يريـدون ذلـك اعتباطيـاً وإنمـا بسـبب توافـر كـم كبيـر مـن الأدلـة التـي تثبـت هـذا التطـور»[1].

بغض النظر عن علاقات الحتمية بين الاقتناع واليقين والإيمان وبين الأدلة التي (تجبرنا) على الخضوع لمداليلها، الأمر الذي يلغي كل فرض لجعل الصدفة أساساً، فالقضية في جوهرها قراءة واقتناع برصد بعض الظواهر الطبيعية التي تتحول إلى قانون شامل للطبيعة برمتها، وبينما تقوم هذه القراءة بتقديم نفسها على أنها الحقيقة، كأي خطاب أصولي آخر، فإنها تقرّ بوجود حزم كبيرة من الاقتناعات والتفسيرات المتضاربة حتى في أبسط قضايا الحياة التي تتعارض مع المبدأ الداروينى حيث الدفاع عن الحياة والتمسك بقيمة البقاء مهما كان الثمن، كما هو حال صيحات الإنذار التي تطلقها الطيور لتحذّر بقية بني جنسها، فتضحي بذلك بنفسها وتكون هي الفريسة والقربان الذي يُقدّم لكي تنجو البقية، كما تفعل بعض أنواع الغزلان بقفزاتها العالية الانتحارية التي تلفت المفترسات وتستفزها، أي تماماً عكس تصور المبدأ الداروينى، لنجد عاصفة من الردود التي لا ينسجم بعضها مع بعض، وفي النهاية يُقال لك: إن هناك نظريات غزيرة ووفيرة «يمكنكم أن تختاروا منها ما يرضيكم»[2]!!.

(١) ريتشارد دوكنز، الجينة الأنانية،ص٩، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٩، ص٣٣٤.

(٢) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٢٧٣.

فالداروينية في محيط المؤمنين بها هي نفسها عبارة عن مادة لقراءات مختلفة، فضلاً عن متعلق هذه النظرية حيث الطبيعة نفسها:

«عندما نقول إن جميع علماء الأحياء يؤمنون في أيامنا هذه بنظرية داروين، لا نعني بذلك أن نسخة مطابقة من كلمات تشارلز داروين الحرفية قد حُفرت في دماغ كل عالم أحياء. فلكل فرد طريقته الخاصة في تفسير أفكار داروين»[1]. بمعنى أن هؤلاء الذين يبذلون جُهداً كبيراً في تسخيف الدين وتحويل العلم إلى سلاح سخرية، هم أنفسهم من يتكئون على آلية دينية، حيث الدين مقولة تأويلية وقرائية متعددة، لكل مؤمن تلقيه وصياغته الخاصة به، ولا توجد كلمات حرفية محفورة في دماغ كل القائلين بالدين.

فالجينة الأنانية لم تخرجنا عن الدرس الفلسفي القديم حول علاقة الضرورة، ومادامت هناك علاقات حتمية بين الأدلة والنتائج، فنحن محكومون في دائرة المحدودية وبكون السببية هي المُنطق.

كما اتضح أن الداروينية، كأي نظرية علمية طبيعية، سيرة من تطورات علاقات الإنسان بالواقع وتأملات الفكر، لذا تطورت النظرية من داروين الذي لم يكن مبدعها، إلى التنوعات الهائلة لمكتشفات ومقترحات المعاصرين اليوم. وبالتالي فالداروينية بهذا التغيّر لا تملك رصيداً للثبات لمحاسبة غيرها لكونها هي نفسها ليس لها مرجعية عامة للانطلاق، وهي في النهاية مستندة إلى طائفة من قراءات وتأويلات وفهومات مختلفة ومتباينة، بحيث لا يبقى من العناصر المُشتركة فيها إلا الغلاف العام واللقب كمصطلح علمي يعاني المغالون به أنفسهم من كثرة الخفايا واللادقة فيه.

(١) المرجع نفسه، ص٣١٧.

لعل وحدة الخطاب الإلحادي هي التي تجعلنا نجد وحدة آليات التطابق بين فهمنا للطبيعة ومقدار اكتشافنا من قوانين، وبين الطبيعة نفسها، وقبول احتمالات تفوق عدمية الصفر رياضياً، هي التي تجعل دوكنز يكرر خيالاته حول مخلوقات الفضاء الذين يؤمنون مثله بالداروينية، فكل من ستيفن هويكنغ وريتشارد دوكنز يكرران الحديث عن مخلوقات الفضاء وطرحهما دليلاً على صحة تنظيرهما، فهناك آخرون (عوالم أخرى، أجسام أخرى للجين)، ورغم تطورهم وتقدمهم الحضاري إلا أنهم لا يطرحون سوى أسئلة الاطمئنان على عقيدتنا «وإذا حدث أن زارت كائنات فضائية ما، كوكب الأرض فإن أول ما ستبادر إليه في سياق تقويمها مستوى حضارتنا، هو السؤال: هل كان سكان الأرض قد اكتشفوا نظرية التطور؟»[1].

إحالة على غائب من أجل تطويع الشاهد كي ينزوي في معلبات ذات ماركة أكاديمية مُعينة، مختومة بختم مؤسسات الميديا العملاقة مالياً وسياسياً. ودائماً يتم نسيان أن كل اكتشاف علمي هو فعل إنساني وبالتالي هو ليس الواقع حقاً بمقدار ما هو اقتناع شخصي أو اقتناع كادر محدود وفق شروط وإمكانات مُعينة، وأن المصادقة والتعميم ليسا سوى قول مشروط، وتقدم العلم نفسه يجعل ذات هذا الاقتناع مجرد ذكرى غير مُحببة طال الوقت أم قصر.

وسيرى القارئ كيف أن التطور لولا أنه مرتبط بتصور الداروينية هدماً للدين ونفياً لفكرة الإله، فليس من السهل حصولها على تعاطف واقتناع

(١) الجينة الأنانية، ص٩، وهذه المقدمة للكتاب هي سطور ثابتة في كل مؤلفات دوكنز يكررها بشكل ممل، ورغم أن المسافة الزمنية بين عام ١٩٧٣ وآخر برامج ومقالات دوكنز في ٢٠١٥، فإننا نجد شكوى دوكنز وتبرمه نفسيهما من وجود شرائح وتجمعات علمية ترفض نظرية التطور وتناقشها، بالرغم من أنه يعتبر الداروينية حقيقة ثابتة بمنزلة حقيقة كروية الأرض!.

حقيقيين. والتطور في النهاية قراءة لبعض الجزئيات الطبيعية وليس هو تلكم الجزئيات نفسها، فالداروينية تنسى نفسها أنها في حصيلة الأمر عبارة عن (قراءة) لذهن بشري لا يدعي أبداً الاستقراء التام للكون ولا المعرفة الكاملة بالأحقاب التي مضت من الحياة. وشاهد بسيط قد نجده خارج التحقيب الداروينـي لسلّم الكائنات يُبدد النظرية قبض ريح.

وإن كنا نحب ترديد أننا لسنا ضد الداروينية في ذاتها، فهذا شأن اختصاصي مستقل في علوم الطبيعة، لكننا نناقش جعلها قاعدة في مسائل اللاهوت الأولى بالقول: «إنها تفسر التصميم الظاهر في الطبيعة بعملية مادية صرفة لا تتطلب خلقاً أو توجيهاً من قوى فوق الطبيعة»[1].

هذا هو ما لا نوافق عليه ولا نراه سليماً بالمرة. فالطبيب مثلاً حينما يراقب نمو الجنين ثم توليده، لا يرى بعينه ولا يلمس بيده سوى البُعد المادي، فهذا مطلب وكون لا شيء سوى المادة فمطلب آخر.

ليست فكرة عملاقة ولا ثورية تلك التي نقولها حينما نتابع نمو بذرة فاصولياء مثلاً، ونرقب تأثير التربة والهواء والماء، وبعد ذلك نقول: إن هذه العوامل مؤثرة وعليّة في تكوين البذرة، وبما أننا لا نرى ولا نلمس بحواسنا أي شيء غير مادي إذن لا فاعل ميتافيزيقياً خلف هذه الظاهرة وكل ظاهرة، والدليل قدرة هذه الرؤية المادية الصرفة على التنبؤ بمنتوجات المحصول وكل عملية زراعية أخرى.

هذا كله تعميم غير مُبرر وطفرة استنتاجية، فالاستقراء التجريبي ورصد المشاهدة، مداره محدود بعناصر مُعينة وطبيعي أن تكون النتيجة من جنس هذه العناصر ومتوافقة معها، لكن أن ننفي كل ما لم تحط به التجربة خبراً،

(١) لماذا التطور حقيقة؟ مرجع سابق، ص٢٦.

ونعمم الحقيقة على الوجود كله (حتى الكواكب والمخلوقات الفضائية التي لم نرها) فهذه نتيجة غير علمية لكونها مقطوعة الصلة بالعناصر المادية المدروسة، وفاقدة لشرط العلم نفسه.

فلنكن بسيطين أكثر ونبتعد عن منفوخات الاصطلاحات الأجنبية والبلاغة التنطعية المُتشددة: تخيل شخصاً يقول إن مرجع كل قوة إلى قوة أكبر. فيعترض عليه آخر بالقول: «دعني أوجه لك صفعة وستتألم، وهذه معلومة لها قدرة تنبؤية كبيرة وهي صحيحة دائماً «كلما سأضربك ستتألم» إذن أطروحتي أبسط وأنفع من نظريتك الغامضة عن القوة الكبرى».

هذه خلاصة لُباب ما يتم طرحه إلحاداً اعتماداً على كون البايولوجيا تُفسّر كل شيء. «لأن «نظرية» تُقبَل كـ«حقيقة» فقط عندما تُختبر توكيداتها وتنبؤاتها مراراً وتكراراً، وتؤكد على نحو متكرر»[1].

في حين أنك لو استمررت بسؤال (لماذا) عن قوى اليد وأنسجتها والجهاز العصبي، فلن تجد أي جواب، ومثله متابعة أي كائن أو خلية أو موجود، لأن البايولوجيا، وكل علم طبيعي، لا يمكنهما تفسير ذاتية الذاتيات. ومن جانب آخر، فإن الإنسان المؤمن هو ككل إنسان عادي يُدرك أن اليد تحدث صفعة مؤلمة وهو لا يشكك في هذه القضية حتى يتم النقض عليه بوضوح هذه المسألة وقدرتها التنبؤية. بل هو يسأل عن قطعة اللحم هذه هل هذه القوة ذاتية لها؟ هو ينفي ذلك ويربط يد كل قوة وظاهرة بأمر ذكي أعلى، كنتيجة مرتبطة بقدرة العقل نفسها، تلك القدرة التي جعلتنا نلحظ الزواحف والطيور وغيرها كمجموعات مشتركة، بناءً على صفاتها المشتركة، ثم بعدها سُئِل العقل هل يوجد لها سلف مُشترك؟!

(١) لماذا التطور حقيقة؟ مرجع سابق، ص٣١.

فهذه الأسئلة العقلية هي التي تُحرك علم البايولوجيا وهي الأسئلة الفلسفية الكبرى نفسها، ففي الطرفين يوجد سؤال العلية وعدم قبول الفوضى، والعشوائية واللاسببية، فكيف نتوصل إلى كل هذه الدراسات الطبيعية بواسطة هذه الأسئلة لنكتفي بنتيجة عامة بعد ذلك بنفي وجود العلة التي بدونها ما تحركنا وما اكتشفنا وما ربطنا أي شيء بشيء؟!.

ولا يكفي في المناقشة القول إن بعض، أو حتى كل، علماء الطبيعيات ملاحدة، حيث بحسب بيرتراند راسل «ليس ما يميز الرجل هو «ما الذي» يؤمن به، وإنما «كيف» و«لماذا» يؤمن به. إن معتقدات رجل العلم ليست نهائية ولا دوغماتية». لأن تسليم كهذا يقلب العلم إلى «إجماع» كهنوتي.

هل يمكن أن يكون العِلم لاهوتاً

سنتعرف على جواب هذا السؤال في نهاية هذا الكتاب، لكن هل فعلاً هناك بينونة وانفصالية كاملة بين التفكير بالنص الديني والتفكير بالطبيعة؟

فعادة يتم انتقاد الفكر الديني عبر التفريق بين النص وبين فهمه وبين استعمالات ذلك الفهم المأخوذ من النص. حيث فهم النص ليس هو النص، وفهم النص لا يعني بالضرورة مطابقته مع المؤسسات والسلوكيات للناس الذين يطرحون أن هويتهم مرتبطة بهذا النص.

لكن الآلية نفسها تُستغفَل في العلم، رغم أن علوم الطبيعة ليست هي الطبيعة، والمؤسسات التي تستكشف الكون وتفرض سيطرتها على الآخرين أو تستحلب مواردهم الطبيعية من خلال هذه المُكتشفات، ليست هي الكون نفسه. خصوصاً وأن هؤلاء الأكاديميين الذين يعيبون على كون مناهج اللاهوت والفلسفة غير علمية وغير تجريبية، هم أنفسهم يبنون معارفهم على «الحدسيات» والظنون والاستحسانات، وهو أمر يصدم غير المتخصص بهذه العلوم، حيث لديه هالة متضخمة توهمه بأن علوم الطبيعة وأبحاثها قائمة على تجريبية صلبة، وحقائق ملموسة واضحة، فإذا بها غير ذلك كلياً![1].

فقولنا علم الأحياء أو علم الفيزياء مثلاً، لا يعني سوى «ما فهمناه نحن»

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق ص١٨.

مـن الكائنـات الحيـة ومـن القوانيـن التـي تتقـوم بهـا الأجسـام والكُتـل، وليـس هـو هـذه المخلوقـات الحيـة نفسـها وهـذه الأجـرام الصغيـرة والكبيـرة. وبالتالـي فالعلـوم الطبيعيـة هـي بالمُختصـر عبـارة عـن: المقـدار الـذي ظهـرت بـه الطبيعـة والحجـم الـذي يمكـن لعقلنـا ومعارفنـا اسـتنطاقه وفهمـه لهـذا الظهـور. وعليـه يكـون كل نقـل وإزاحـة مـن أحـكام العقـل الذاتيـة أو اسـتنباطات الـذات النفسـية، إلـى هـذا المقـدار المُنعكـس مـن مـرآة الطبيعـة، عبـارة عـن تشـويه لهـذه الصـورة وتزويـر لهـا.

ومن هنا ندرك حجم خطورة إدخال الأحكام التقويمية المعيارية على علوم الطبيعية وجعل فهمنا مما أظهرته لنا هو الطبيعة، ثم جعل هذا الفهم منها حكماً معيارياً تقويمياً بسعة اشتماله الدائرة العقائدية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية:

«ما الذي يعنيه العلماء عندماء يقولون إنهم «يعرفون»، ماذا يجري مثلاً داخل إحدى الذرات، أو ماذا حدث في أول ثلاث دقائق من حياة الكون؟ إنهم يعنون أن لديهم ما يسمونه نموذجاً للذرة. أو للكون المبكر أو لأي مما يهتمون به، وأن هذا النموذج يتوافق مع نتائج تجاربهم أو ملاحظاتهم عن العالم. هذا النموذج العلمي ليس تمثيلاً فيزيقياً للشيء الحقيقي بالطريقة التي يمثل بها نموذج لطائرة كاملة المقاييس. وإنما هو صورة ذهنية تصفها مجموعة من المعادلات الرياضية..الحقيقة أن كل النماذج العلمية لها قدرة تطبيقية محدودة. فأي واحد منها لا يكون هو الحقيقة..النماذج العلمية تمثيل للواقع، وليست هي الواقع نفسه، وأيّاً كان نجاح أدائها أو دقة تنبؤاتها

في الظروف الملائمة، فإنها ينبغي أن تعد دائماً أنواعاً من التقريب وأدوات للمساعدة على التصور، وليست الحقيقة النهائية»[1] .

وبالتالي نجد أن أصحاب الخبرة يؤكدون قوة الانقراض العقلي باعتباره مصدر تحرك العلوم وتنشيطها.فالإنسان لا يستطيع قراءة شيء بدون تناسي أشياء أخرى. لابد من الوقوع بلون معين من التحيز كي يُتاح لنا الاختبار والفهم.

وعلى كون المقدرة التفسيرية من الأهمية أنهم يلتزمون بذلك العنصر أو القول الذي يتمتع بقوة تفسير بدون أن يعني ذلك أن تلك النظرية أو القول هو قول علمي صحيح وواقعي فعلاً. وهذا ما نجده مُلتبساً لدى متعصبي التطور الذين يجعلون من القوة التفسيرية مطابقة واقعية ودليلاً قائماً بنفسه على شمولية التطور.

وهذا ما يُلخصه لنا أصحاب الخبرة في فلسفة العلوم من تمثيل تقريبي، من حيث «هناك صيغ رياضية يشير إليها العلماء أحياناً، لتسهيل الاختبار، كأن تصف جزءاً من الواقع وتهمل أجزاء أخرى مهمة، فتكون بذلك سهلة الاختبار رياضياً، وفي نظرية الأوتـار، كانت في البداية متسقة مع ستة وعشرين بعداً، ثم اتسقت بعد ذلك مع عشرة أبعاد، ثم ظهرت صورة أخرى متسقة لا تتطابق مع الواقع، فهي يمكن أن تكون متسقة كذلك في حالة بعدين، بل حتى في بعدين دون الصفر.. وبحسب الفيزيائي ميكائيل غرين، فإن الكلام عن نظرية تعمل في عشرة أبعاد أو أربعة هو كلام تقريبي في واقع بنيته أعداد لانهائية.. وكثيراً ما تمارس نظرية الأوتار الفائقة، اللعب بالأشكال الهندسية، لما يعرف بأشكال (كالابي – يـاو)، في رسم صورة للكون بحيث تتحول الأشكال من شكل إلى آخر، مثل تحول العجين إلى كيك أو خبز أو كعك.. فيقدر الأكوان

(١) جون جريبين،قصة الكون، كلمات عربية، القاهرة، ٢٠١١، ص١٥-١٦.

المنخفضة الطاقة بعدد ضخم لا يمكن تصوره، هو أكثر من (١٠٥٠٠)، في حين أن عدد الذرات في الكون كله لا يزيد على (١٠٦٠)، وأن عدد فوتونات الكون كله هو (١٠٨٧)، لذا لقيت هذه الفكرة عن الكون المتعدد اعتراضات عديدة حتى من قبل المنظرين لنظرية الأوتار.

كما أنه من المعروف أن نظرية الكم مصابة بداء اللانهائيات، فهي مشكلة ثابتة كما في معادلة شرودنجر، فعند البدء بهذه المعادلة تبدأ اللانهائيات في الكتلة والطاقة والشحنة، وكل ما أمكن فعله هو محاولة تطويعها عبر حيلة رياضية دون القدرة على القضاء عليها، وبالتالي ليس لهذه المعادلة من حلول بسبب هذه المشكلة، وهي الحال نفسها في نظريات الكوانتم عموماً.

افترض هايزنبرغ وباولي وفينمان الجسيم على شكل نقطة، كي يتفادوا استحالة انتقال المعلومات بأسرع من الضوء، لكن هذا الافتراض يفضي إلى أن يكون حقله الكهربائي ذا طاقة لا نهائية،ومثل ذلك حقله الثقالي، فكلما صغر نصف قطر دائرة الجسيم، زادت طاقته، والعكس بالعكس، وفي حالة الجسيم النقطة فإن نصف القطر يصبح صفراً والطاقة لانهائية... وبالمثل إذا كان الالكترون نقطة بلا جسم، فإن المسافة يمكن أن تنخفض حتى الصفر، والقسمة على صفر تعطينا نتيجة لا نهائية، وقد تم التحايل على ذلك باستخدام ما يسمى إعادة التطبيع (renormalization)، وفيها يحدث أن نقسم إحدى اللانهائيات على لانهائية أخرى فنحصل على نتيجة معقولة، كما في النموذج المعياري والديناميكا الحرارية.

ومع ذلك فقد تغلبت نظرية الأوتار على المشكلة السابقة، باستبعاد الجسيمة النقطة واستبدلتها بالوتر دون حاجة إلى تلك الحيلة المفتعلة.

عموماً اختلف الفيزيائيون حول تلك الحيل الرياضية، إذا ما كانت تعبر عن واقع حقيقي أما أنها افتراضات لا تمت إلى الواقع بصلة.

ولكـن مـع بدايـة القـرن العشـرين أخـذت النظـرة العلميـة تترسـخ بـأن العلـم

لا يعبـر عـن حقائـق الأمـور بقـدر تعبيـره عـن الكيانـات النظريـة والنزعـة الأداتيـة والاعتبـارات النفعيـة.. وقـد كان الفيزيائـي أدنغتـون يؤكـد أن العقـل البشـري هـو مـن يصنـع أفـكار المكتشـفات مـن غيـر رؤيتهـا، وقـد طبـق ذلـك علـى اكتشـاف رذرفـورد للنـواة، مـع أنـه لـم يرهـا أحـد، كذلـك البوزيتـرون وأيضـاً النيوتريـنـو، الـذي كان يشـك فـي وجـوده، وهـو يـرى أن التجريبييـن ليـس لديهـم البراعـة الكافيـة لصنـع النيوتريـنـوات

في المجال العملي قد تحظى النظرية بالقبول، رغم ما تحمله من شذوذ، فالعلماء – مثلاً – لم يرفضوا نظرية نيوتن في الجاذبية، عندما وجدوا التقادير الأولية بشأن حالات كسوف القمر غير صحيحة.. وقد أثبتت التجارب أن التريث مع حالات الشذوذ الأساسية سلوك له ما يبرره، هكذا تمكن كليروت (عام ١٧٠٥) من تبيان أن الخلل إنما يعزى إلى أخطاء في تطبيق الرياضيات، كذلك لم يرفض العلماء هذه النظرية رغم فشلها في تفسير حركة عطارد وشذوذه، وقد انقضت (٨٥ سنة) استهلكت فيها كل التفاسير التي تعمل على إنقاذ نظرية نيوتن في تفسير شذوذ عطارد، قبل أن يفسر آينشتاين هذا الشذوذ، تبعاً لنظريته النسبية العامة، إذ تفشل نظرية نيوتن عندما يكون المجال قوياً، فبحسب نظرية نيوتن تكون الكتلة هي المسؤولة عن التأثير الثقالي كلياً، في حين أنه بحسب آينشتاين، فإن للمجال الطاقوي دوره البارز في التأثير.. وبهذا اعتبر هذا شاهداً على تكذيب نظرية نيوتن، ولكن بعد ٨٥ سنة من البحث واستهلاك التفاسير الكثيرة.

وبالتالي، أصبح من المعروف أنه يمكن للنظرية العلمية أن تبقى مورداً للقبول حتى لو ظهر دليل يكذبها، طالما لديها قوة تفسيرية كافية في نواح أخرى أوسع، وقد يحتاج الأمر إلى عقود أو حتى قرون للتخلي عن النظرية.

مسـألة أخـرى تتضـح لنـا الآن وهـي خطـأ مقولـة (تعـارض العلـم مـع الديـن أو توافقهمـا)، مـن منظـور علمـي، فالـذي لدينـا هـو مقـدار مـا عرفنـاه مـن ظهـور

الطبيعة لبعض حقيقتها، وما فهمنا من النصوص الدينية وتوابعها. في كلا الطرفين هنا ما اختاره الإنسان من موضوع كشف واختبار وقراءة وفحص. ولا يمكن مطابقة كل الطبيعة أو كل الدين. وبالتالي من الهجاء المحض ما يتعسف به دوكنز وغيره من الملاحدة، بكون العلم التجريبي هو وحده المنهج المقبول في معرفة الحقيقة، والدين ليس ضمن اشتراطات الفحص التجريبي، إذن العلم ينفي الدين.

فهذا بغض النظر عن كونه استدلالاً أرسطياً خالصاً، وهو التعاطي بشأن ما يقبله من فحص تجريبي ممن يرفضه، ذلك أن هناك مرتاضين فعالياتهم معروضة علانية وحتى الآن لا يوجد تفسير علمي لهذه القضايا (الملموسة) جداً.

ليست فكرة التطور بالفكرة الجديدة، وداروين يقر بأن علماء في العصر الفيكتوري قالوا بالانتخاب الطبيعي، وقدم داروين لهم امتنانه، ولم يكن الانتخاب الطبيعي في ذهن داروين قاعدة شمولية للحياة والكون بشكل مُطلق، فهذه وغيرها تطورات وإضافات وتعديلات لاحقة لأصل الفكرة[1] التي تذكرنا بما كان يقول أناكسمندر: (إن الحياة نشأت من الطين على شكل سمكة مزودة بأشواك خارجية).

ولامعنى لتضخيم حراجة المسألة الدينية عند القول بالداروينية، وكأن الداروينية معضلة نقضية للفكر الديني فقط، في حين أن علوماً أخرى

(١) انظر كتاب دوكنز: أعظم عرض على الأرض، الفصل الثاني، نحو الحوض الحيني. ورغم شهرة داروين فإن «ألفرِيد راسل والاس» هو صاحب السبق بالفكرة، قضية محسومة، لكن للشهرة أقدارها وخفاياها. وإلا فداروين كان يعتمد كتاباً جينالوجياً معروفاً ونظريات اقتصادي بالتزامن مع بحث والاس، ووجود كتب تراثية أدبية وفلسفية تقول بأصل الفكرة.

كالأنثربولوجيا وغيرها ليس لديهما مشكلات معها[1]، رغم أنها علوم أكاديمية ولا أحد طالب بهجرها وطردها من ساحة الجامعة كما فعل الداروينيون مع اللاهوت، الأمر الذي يكشف عن مضمر سياسي في المسألة.

مع ذلك يتم طرح قضية الدفاع عن التطور ضد الدين كأنه «حرب بين العقلانية والخرافة» وأن المؤمنين لا أدلة لديهم «فما لديهم هو اعتقاد غير قائم على العقل»[2]. هكذا من متابعات سردية من مصادرات بلا حدّ إلى صاحب هذه الحماسة في «بديهية» التطور هو نفسه الذي يقول إن التطور غير معلوم الأدلة حتى في دائرة القائلين به، وهو الذي قرأنا له سابقاً أن الاقتناع أمر جبري تحققه الأدلة:

«فحتى الكثير من زملائي في علم الأحياء غير مُحيطين علماً بالكثير من مسالك الأدلة على التطور، والكثير من طلابي الجامعيين ـ الذين درسوا التطور في المدارس العليا كما يُفترَض ـ يأتون إلى محاضراتي غير عالمين أي شيء تقريباً عن هذه النظرية الأساسية المنظمة لعلم الأحياء»[3].

مع ذلك فهذا المؤلف يسخر من ضرورة تمييز التطور من بقية الحقائق الأحيائية من جراثيم وأنسجة وأعضاء وأمراض، ويقول إن خصوم التطور وحدهم من لديهم اكتفاء بالإيمان فقط بدون الاعتماد على الأدلة، وهو ما يكرره ريتشارد دوكنز في أكثر من كتاب!.

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص١٧٤.

(٢) لماذا التطور حقيقة؟، ص٩. وفي هذه الصفحة نجد الكلمة نفسها التي يحبذها دوكنز بأن التطور ليس نظرية بل هو حقيقة.

(٣) لماذا التطور حقيقة؟، ص١٥.

عودة أفلاطونية

في النهاية صار من الواضح كيف أن التطورية والإلحاد العلمي لم يتجاوزا النقد الفلسفي، فهما يعيدان صرخات نيتشه ويكرران محورية انتقاد أفلاطون وتحديده بأنه العنصر الأكثر ضرراً على المجتمعات الغربية، ماأدى إلى شيوع المسيحية والفكر غير الإيجابي من الواقع، والداروينية تدور حول هذه النقطة نفسها وتكررها . ومن هنا يقول دوكنز في الفصل الأول تحت عنوان «التأثير المستمر لفلسفة أفلاطون لقرون طوال» في كتابه عن أدلة صحة التطور وأنه أعظم عرض على الأرض:

«في رأي أفلاطون الحقيقة التي نحسبها هي فحسب كالظلال الملقاة على حائط كهفنا من نيران المخيم الوامضة. فالكثير من الفلاسفة الإغريق القدماء كان عالم هندسة من أعماق قلبه. فمن رأيه كل مثلث مرسوم على التراب هو فقط ظل ناقص للجوهر الحقيقي للمثلث.خطوط المثلث الجوهري هي خطوط إقليدية تماماً ذات طول بلا عرض، تُعرف الخطوط بأنها ضيقة بصورة مطلقة ولا تتقابل أبداً إذا توازنت. زوايا المثلث الجوهري تساوي ١٨٠ درجة، لا أكثر ولا أقل من ذلك بقليل. هذا ليس صحيحاً بالنسبة إلى مثلث مرسوم على الرمل، لكن في رأي أفلاطون فإن المثلث المرسوم على الرمل هو مجرد ظل متزعزع للمثلث المثالي الجوهري.

حسب مايـر، فـإن علـم الأحيـاء قـد ابتلـي بنسـخته الخاصـة مـن النظريـة الجوهرية.عاملـت الجوهريـة البيولوجيـة التابيـر والأرانـب، وآكلات النمـل

المغطاة بالقشور اللزجة اللسان والجمال وحيدة السنام، كما لو كانت مثلثات أو معينات أو قطوعاً مكافئة أو شكلاً ثنائي عشر الضلوع. الأرانب التي نراها هي ظلال شاحبة للفكرة المثالية عن الأرنب، الجوهرية المثالية، الأرنب الأفلاطوني معلّق في مكان ما في فضاء المفاهيم معاً مع كل الأشكال الهندسية المثالية.ربما تكون أرانب اللحم والدم «الفعلية» متعددة الأنواع، لكن هذه الاختلافات تُرى دائماً كانحرافات اختلالية للجوهر المثالي للأرنب.

كم هو غير تطوري ذلك التصور على نحو مثير لليأس! اعتبر الأفلاطونيون أي اختلاف بين أنواع الأرانب كانحراف غير مرتب عن الأرنب الجوهري، كما لو كانت كل الأرانب الحقيقية مربوطة برباط مطاطي غير مرئي بالأرنب المثالي في الفضاء. النظرية التطورية للحياة على النقيض جوهرياً.. ووفقاً لماير فإن تأخر وصول شخص كداروين إلى مسرح الحدث كل هذا الزمن غير المعقول، كان سببه هو أننا كلنا ـ سواء بتأثير من الفلسفة اليونانية أو لسبب آخر ـ ينغرز في عقولنا البدهية الوراثية ،وهم الجوهرية.

بالنسبة إلى عقل أُعمي بغمامات الفكر الأفلاطوني، الأرنب هو الأرنب وكان وسيظل هو الأرنب. إن اقتراح أن نوع الأرنب يؤلف سحابة متغيرة للمعادلات الإحصائية، أو أن نمط الأرنب في العصر الحاضر ربما يكون مختلفاً عن نمط الأرنب منذ مليون سنة أو بعد مليون سنة من الآن، يبدو كما لو أنه يعتدي على تابو ذاتي».

لكن المفاجئ بنحو صادم، أن دوكنز الرافض للأفلاطونية، ينتهي بموقف أفلاطوني هو وجمع غفير من الملاحدة التطوريين، حيث يقول مثلاً في كتابه تفكيك قوس قزح:

«أليس سبيلاً نبيلاً ومستنيراً أن نقضي عمرنا القصير تحت الشمس للعمل على فهم الكون وكيف جئنا لنحيا فيه؟ هذه هي كيفية إجابتي عندما أسأل ـ كما يحدث كثيراً على نحوٍ مدهش ـ لماذا أقلق للنهوض في الصباحات؟».

كيف تكون مجرد المعرفة الخالصة حلاً؟!.

لقد عرفنا ثم ماذا؟!. إذا لم يكن لدينا من فرصة سوى بعدنا المادي المحدود، فهذا يجعلنا جزءاً من صقيع الفضاء الفارغ، ولا يوجد أي دافع لتعميق أنانيتنا حد التدمير الجماعي وبأقصى قوة. وهو ما يرفضه دوكنز بشكل مكرر، حيث إن سحب الداروينية على الاجتماعيات لا تؤدي إلى تطور القرد إلى إنسان بل مسخ الإنسان إلى قرد.

*

في عدة شروح يتم طرح نظرية التطور والفكر اللاهوتي والفلسفي الإلهي، وكأنهما طرفا نقيض، فالفكر الإلهي يعتمد التصميم السابق القصدي للمخلوقات، الذي كان أوضحه فكرة المُثُل الأفلاطونية، حيث الكائنات الحية هي منذ البداية أنواع مختلفة، بل هذا التنوع سابق حتى على الوجود الأرضي حيث عالم الملكوت المفارق وأرباب الأنواع، أو الأسماء الإلهية الأزلية التي تترشح منها كائنات جمالية وجلالية تناسبها. وبهذا تظهر الأنواع كاملة بقفزة واحدة من العدم إلى الوجود. حيث الماهية مُقررة مُسبقاً ثم يظهر تعينها الوجودي الخارجي، الذي منه ظهرت فكرة الأعيان الثابتة كقياس للصور الذهنية للإنسان للأمور التي سيصنعها بعد ذلك، بينما العلوم الطبيعية تنفي وجود أية ماهية مُسبقة حيث وجود كل شيء هو ما هيته الخاصة، بالرغم من أنها لم تستطع تفسير ذاتية الأشياء، وتقول: إن القضية ليست خصائص ذاتية وإنما طفرات وصُدف تجعل الكائن يتجه إلى مسار مُحدد نتيجة ظروف

ضغط أو خطأ وراثي، فيظهر اختلاف تدريجي يُفضي به إلى أن يكون نوعاً مختلفاً، أما كيف التغلّب على مشكلة أن الجينات تخلو من طفرات إيجابية؟! فهذا يدخلنا في دهاليز فلسفية تنظيرية بحتة لا علاقة لها بأي حقيقة أمبيريقية!.

بينما نظرية التطور تقول بأن الصدفة هي قوام التنوع، وهذا التنوع سابق لا أصل له، فالكائنات الحية كلها من سلالة واحدة لكائن وحيد، فهي «نوع من الماكينات التي تتغاير وظيفياً باستمرار»[1]. تماماً مثل كوكب الأرض وكل المجرات، فهي في الأصل شيء واحد ثم نشأ التنوع حينما وقع الانفجار في الجوهر الفرد الذي ظهر منه تنوع الكواكب بواسطة الصدفة هو الآخر. ورغم تطابق مدعيات الإلحاد في الفيزياء والإلحاد بعلم الأحياء،إلا أني لم أجد أوضح من هذا التطابق الغريب بينهما.

وعلى أية حال يتم طرح ذلك على بطلان الكتاب المُقدس لليهود والمسيحيين القائل بأن الكون خلقه الله في ستة أيام، فعمر الكرة الأرضية يتجاوز الملايين وعمر الكون يتجاوز البلايين، فكيف بستة أيام، فضلاً عن وجود مخلوقات مثل «الديدان المُسطحة» حديثة الظهور؟!.

وهذه مغالطة غريبة فستة أيام تعتمد اللغة الدينية الرمزية ولا علاقة لها بتحقيب الوقت وتقسيمه بحسب الأيام العربية أو الشمسية، فالأيام تحصل من خلال ملاحظة غياب الشمس وشروقها، فأي معنى لليوم كتقويم يُحدد عُمر الشمس والأرض نفسيهما؟!.

إن هـذه حماقـة تشـبه تحامـق البعـض بسـخرية أن يتـم جمـع الشـمس

(١) ريتشارد دوكنز، العلم والحقيقة، تأملات عن الأمل والأكاذيب والعلم والحب، ص٧، المجلس الأعلى للثقافة-مصر ٢٠٠٥، ص٣٥٦.

والقمـر، وأن الشـمس تبلـغ مسـتوى انفجاريـاً اسـمه الكوكـب الأحمـر، فـي حيـن أن الكوكـب الأحمـر ليـس هـو الشـمس أصـلاً!!.

وبالتالي يرفض الخلقويون توصيفهم «لا شك أنهم كظاهريين حرفيين يعتبرون الله سهل الخداع على نحو شنيع»[1].

نعم هذا يصح على بعض مؤسسات الخلقوية وجملة أتباع الكنيسة التفسيريين بشكل حرفي الذين هم بالفعل مجرد معاندين بحيث يصح وصفهم بالمكابرة، الشبيهة لدى الديانة الوهابية وتابعيها من بعض المسلمين:

«إن كان منكرو التاريخ الذين يشكّون بحقيقة التطور جاهلين بعلم الأحياء. فإن الذين يعتقدون أن العالَم قد بدأ منذ أقل من عشرة آلاف سنة هم أسوأ من جاهلين، فهم مضللون إلى درجة العناد. إنهم ينكرون ليس فقط حقائق علم الأحياء، بل أيضاً تلك الحقائق الخاصة بالفيزياء والجيولوجيا (علم طبقات الأرض) وعلم الكون وعلم الآثار والتاريخ والكيمياء»[2].

والتطوريون متذبذبون حول نظرية التطور، هل تتفرع منها مسائل تخص الأخلاق والمجتمع والدين، وبالتالي ينقلب العلم لاهوتاً كما انقلبت الفلسفة من قبل، أم هي محايدة؟!

خطـوات يسـتدلون بهـا علـى وهـم الإلـه وكـون التطـور انتصـاراً لقيـم المدنيـة والعقلانيـة، وخطـوات تقـول إن الداروينيـة محايـدة، ولا نعلـم كيـف إذن تحـدّث

(١) أعظم عرض على الأرض، مرجع سابق، الفصل الثاني، الحشرات كانت أو المدجنون.

(٢) المرجع نفسه، مطلع الفصل الرابع.

هـؤلاء عـن علـم نفـس تطـوري، وعلـم ثقافـة تطـوري وعلـم أخـلاق تطـوري، بـل وحتـى عـن لاهـوت داروينـي؟!.

إن الدلالات المُستنبَطة المتناقضة من التطور تجعل التطور نفسه محك سؤال وتحديد لم يجر الاتفاق عليه البتة!. وهي أمور كثيرة ومتشابكة تنتهي إلى نتيجة واضحة، بأن التطور والداروينية في النهاية هما استثمار عقلي من الكون، بل لا يمكن أن يكونا إلا: قراءة.

«فهو[أي التطور] لا يقود حتمياً إلى العواقب الرهيبة التي يصفها الخلقيون دوماً عندما يحاولون تنفير الناس من نظرية التطور العلمية. لا يتطلب الاقتناع بالتطور تحولك إلى العدمية النهلستية البائسة، أو تجريد حياتك من الغاية والمعنى. هي لا تجعلك عديم الأخلاق، ولا تُقدّم لك آراء ستالين أو هتلر. ولا يجب أن تدعم الإلحاد، لأن التدين المستنير لطالما وجد دوماً السبيل للتوافق مع تقدم العلوم»[1].

وينتقد خصوم التطور، بأن التطوريين يعيبون فكرة وجود الإله لكونها تعتمد على فكرة الجهل بتفسير الحياة، فإن الداروينية نفسها تقوم على الجهل لماذا تعود الأنواع الحية جميعاً إلى أصل واحد؟!.

(١) لماذا التطور حقيقة، مرجع سابق، ص١٦.

تضخيمات الميديا وليس علوم التجربة

مشكلة أخرى في النقاش هي أن أغلب التطوريين، في الآونة الأخيرة منذ بداية القرن الواحد والعشرين، هم علماء غربيون بريطانيون وأميركيون واستراليون وغير ذلك[١]، لهم مواجهة كبيرة في الولايات المتحدة الأميركية مع مؤسسات مسيحية يُسمون بالخلقويين، وهم الذين يصورون الحياة وفق مخطط التوراة والإنجيل، ومن هنا تتم مطابقة فكرة التصميم الذكي مع الخلقويين على اعتبار أن مصطلح التصميم الذكي هو مجرد تلطيف عن التكوينيين[٢].

(١) وهذه الكثرة ليست اعتباطاً، فليس السرد الروائي الأدبي مرتبطاً بالأمبريالية فقط، كما دبّج إدوارد سعيد، بل العلم الطبيعي كذلك. فالسفر عبر المحيط والاستيلاء على الجُزر مكن البريطانيين من تشريح الجثث الرخيصة واختبار الأدوية والجراثيم، والتعرف إلى أنواع لاحصر لها من الكائنات والمعادن، وكان القصر الملكي يدعم هؤلاء العلماء بسخاء، حيث ترتد عليه المصروفات بكميات أكبر من الغنائم عبر تطور صحة الجنود والأسلحة واكتشاف وسائل أسهل وأنفع في نقل الكنوز وفرض السيطرة، بدون السلطة لم يتحقق العلم ولولا العلم لم تقم تلكم السلطة الاستعمارية، وهي معادلة مازالت قائمة إلى اليوم وستبقى. وهنا كتب عديدة مشهورة مثلاً عن الطب والإمبريالية.

(٢) ريتشارد دوكنز، العلم والحقيقة، ص٣٨١.

في العام ١٩٨١ أقيمت في الولايات المتحدة الأميركية دعوى قضائية لمنع تدريس نظرية التطور للتلامذة في المدارس، وعُرفت بـ «محاكمة سكوب الثانية». وقد أُلفت كتب كاملة عن هذه المسألة. وماله أهمية نظرية هنا أن المؤمنين بالداروينية، بمن فيهم الأرثوذكسيون المبتهجون بكونهم الأكثر تشدداً حيال المسألة، يصرحون بأن النظرية حتى ما بعد الألفية الثانية تعاني مسائل لم «لم يُخض فيها بوضوح في أي موضع. وأن هذه كانت فجوة عميقة تحتاج إلى سدها. وبالتالي فالإيمان بالداروينية والحالة هذه ليس بالضرورة قائماً على أدلة علمية فعلاً، بل بمعونة مساندات سياسية ونفسية وتربوية وإعلامية، تترادف كلها لصنع الاقتناع الشخصي»[1]. وقد اشتهر قول بعض علماء الصين من المركزية الغربية والماركة الأميركية لنظرية التطور، واعتبارها أحد أقانيم التحريم الذهني في الغرب، لذا في بعض دول الشرق لا يمكن انتقاد الرئيس لكن يُمكن نقد الانتخاب الطبيعي، وفي أميركا لا يمكن انتقاد التطور ومسموح لك بانتقاد الرئيس.

وبالنسبة إلى دوكنز نفسه فقد أخذ جملة أفكار أساسية من العالم الكبير «سي. ويكراماسينغ» والعالم الفلكي والأديب الروائي «فريد هويل» وهذا الأخير من أشد خصوم الداروينية وناقديها بوصفها نظرية مرتبطة بالصدفة بينما العلم والتفسير العلمي لا يكونان علماً وعلمياً بدون البناء على التصميم السببي وعلاقات العلية المنضبطة، الأمر الذي يناقض تطابق الداروينية مع العلمية ومطابقة رفض الداروينية مع الخرافة والأساطير والمقولات الشعبية وغير ذلك من توصيفات. الأمر الذي أحرج دوكنز ففشل في إيجاد تأويل

(١) أعظم عرض على الأرض، مرجع سابق، مقدمة الكتاب.

تبريري لكي يُخرج تصلبه الأرثوذكسي حيال الداروينية من عنق زجاجة المفارقة[١].

خصوصاً إذا صحب الأمر حملة ميديا عملاقة جُهزت لها الأفلام والمطبوعات والبرامج لتحتفل بما يشبه ذكرى ميلاد النبي الخاتم والغالق للفكر الديني، لولادة المعتقد الجديد، حيث ظهرت بمناسبة الذكرى المئة والخمسين على كتاب «أصل الأنواع» والمئوية الثانية لميلاد تشارلز داروين. وهي الحملة الإعلامية نفسها التي جرت لستيفن هوكينغ بتعميده بفلم هليوودي حصد الجوائز، وطبع كتابه «التصميم العظيم» وكأنه إنجيل علمي، وتقديم ذلك كاحتفال شخصي بالمؤلف. كل ذلك حيث يتم وصف غير المقتنعين بذلك عبر أمثلة تقزيمية بأنهم «زمرة نابحة من الجهلة الذين، بدعم سياسي وخصوصاً دعماً مالياً، يسعون بلا توقف» لإقناع الناس بالخرافات المضادة للعلم، فهي خرافات «من قبل جماعات قوية سياسياً من منكري الهولوكوست«المحرقة النازية لليهود» منظمة ومدعومة مالياً بشكل قوي»[٢]!.

وكأن كل منكر للهولوكوست لابد أن يكون غير علمي بالضرورة، وكأن ليس هذه البكائية هي بذاتها استدرار مالي من مراكز القوة الإعلامية وألاعيب مافيا العلوم والاتجار بالثقافة!.

---

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص١٠٠.ونحن هنا من أجل الاختصار، ولا ندخل في قفز دوكنز وتصلبه على ما انتقدته ماري ميدغلي، بلامعنى لوصف الجينات بأنها أنانية أو غير أنانية، «إلا بقدر ما يمكن أن تكون الذرّات غيورة، والفيلة أن تكون تجريدية، وقطع الحلوى أن تكون لاهوتية».

(٢) أعظم عرض على الأرض، مرجع سابق، مفتتح الفصل الأول. ولا حاجة للتعليق على طريقة دوكنز لدغدغة مشاعر الغربيين عبر العزف على وتر إعلامي معروف لديهم هناك، حيث المسألة اليهودية أكثر قداسة من نظرية الإله والداروينية معاً!.

وبذلك يكون كل نقد للتطورية كأنه نصرة لهذا التيار المسيحي، أو كل نصرة للتصميم الذكي يعني الإيمان بأطروحة الخلقويين.

مشكلة أخرى لها أهمية في صوغ المحاجّة نفسها: فنحن حينما نكون ماديين نلغي أي شيء وراءها سنكون عندئذ قد قلنا بوحدة الكائنات جميعاً وبأنها جنس واحد وأبناء عمومة متداخلة. فليس هناك سوى المادة وكل الأحياء ماديات، إذن، من الطبيعي أن يكون الإنسان فرداً من هذه العائلة الحيوانية أولاً، وأنه بما أن المادة هي الأصل وهي جنس مشترك ولا شيء يوجد خارجها، إذن، هناك سلسلة واحدة تخصها جميعاً. وهذا يعني أنه حتى بدون كل مستندات الداروينيين وتنظيراتهم، فإنه يكفي استبعاد العنصر الروحي والميتافيزيقي من الوجود حتى نصل إلى دعوة إلحادية تتبنى الأطروحات المادية القديمة نفسها. وبالتالي من الطبيعي أن يتم نفي النسبية العلمية واختزال حجم الاختلاف الداخلي لدى دعاتها، وشطب المخالفين لها للقول بأننا أمام بديهة من قبل فكر يدعي نكران البديهيات، ذلك أن «نظرية التطور هي «حقيقة علمية» غير قابلة للجدل علمياً كأي حقيقة أخرى في العالم»[1].

ما الذي نبتغي قوله في هذه النقطة؟!.

ما نريد تبيانه بشكل أكبر هو أنه إذا كان هذا البيان واضحاً، فإنه يتوضح لنا أن القضية ليست مرتبطة بشكل مركزي لازم بالتمسك بالعلم المعاصر

(١) أعظم عرض على الأرض، المقدمة، مرجع سابق، ونحن نعلم من قراءتنا لكتاب دوكنز «العلم والحقيقة» أن هذه العبارة قد أخذها دوكنز من زميل له، والغريب أنه رغم الشهرة الكبيرة لدوكنز، فإن كتب الرجل مُثقلة بعبارات وأفكار منسوبة إليه، في حين أنها ليست له، وللقارئ أن يُخمن أسباب هذا التقصير النقدي الواضح.

والدفاع عنه، بحيث تبدو لنا القضية وكأنها حرب بين العلم والدين. وبالطبع نحن نتحدث بوضوح عن استبعاد مشكلات اللاهوت المسيحي والهندوسي والسلفية الإسلامية المنغلقة على نصوصها الحرفية، وما شابه من اعتقاد شعبي أو مشايخي. فهي تيارات ومتباينات نحن نرفضها بغض النظر عن كل أطروحة في علوم الطبيعيات، بل بغض النظر عن كل قاعدة عقلية وفلسفية نؤمن بها، حيث إننا نعتقد بهزال هذه المتباينات لو أعملنا الأسس نفسها التي يقوم عليها مفهوم الدين نفسه.

وعليه تكون لدينا عدة نتائج ينبغي عدم تناسيها عند الدخول في لُجة المناقشات وتداخلاتها:

١ ـ بغض النظر عن كشوفات العلم المعاصرة، نصل إلى الدعوة الإلحادية نفسها وتصويرها للكائنات الحية وغير الحية، بما في ذلك ما يخصّ الإنسان.

٢ ـ وبغض النظر عن صحة هذه الدعوة الإلحادية من عدمها، نحن لا نلتزم لا بالخلقوية[1] ولا بالتيارات الدينية والاعتقادية الحروفية التفسير

(١) وإن كان بعض هؤلاء يثير التحسر على كفاءته العلمية لولا ارتباطه الدوغمائي الكنسي، أمثال دكتور البيولوجيا الخلوية والجزئية «جوناثان ويلز»، صاحب المقالات والمحاضرات المثيرة لعصبية الداروينيين حيث قام بإحراجهم في مرات عديدة، ولقد تهرب دوكنز ورفاقه من كل دعوة لمناظرة علنية، لكن كل هذا الجهد يتحول إلى رماد في مهب الريح حينما ينتهي بالعودة إلى حروفية الكتاب المقدس للمسيحيية بحسب عقيدة «الكنيسة المونية». وإن كان تطور البحوث قد تجاوز كلا الطرفين اليوم وبات من غير المُستساغ تضييع الوقت والجهد بالإنصات إلى مكرراتهما المُملة.

والتبني. وهذا يعني عدم وجود تلازم بين تبني الفكر العلمي المعاصر للدراوينية ورفض كل فكر ديني وتصور إلهي.

٣ ـ عدم ضرورة الرؤية الإلحادية المادية وقرابة الإنسان من حيوان ما، والقول بالداروينية.

٤ ـ ليست الداروينية هي المسار الأصلي لاختزال الإنسان بالحيوان والوجود بالمادة، بل هي مسار فرعي يُبنى على إنكار كل ما هو غير مادي.

أي نقد للداروينية، لا يعني بالضرورة نصرة للمسيحية أو الخلقويين أو المذاهب الإسلامية السلفية، وما يشابهها من معتقدات دينية مباشرة الفهم للنصوص الدينية وتفسيرها بطريقة حنبلية أو لاأدرية مالكية، سواء في الإسلام أو الهندوسية أو غيرهما.

٥ ـ وبما أن الداروينية فرع وليس أصلاً في أطروحة الإلحاد، ولا المعتقدات السلفية هي بالضرورة ماهية الدين، فإنه ليس من الضرورة أن تكون ثنائية العلم داروينياً في تناقض تام مع الدين ماهيةً. فضلاً عن أن تكون هناك مشكلة أبستمولوجية بين العلم كبنية اكتشافية، بغض النظر عن مدارسها ورؤاها المتعددة، مع الدين كإيمانية بالمطلق، بغض النظر عن كل تفصيل للمذاهب والديانات.

التناقض هو بالتحديد بين تفسيرات معينة للداروينية وبين معتقدات دينية مُحددة. وهنا تبرز لنا مشكلة جديدة:

فجلُّ هؤلاء العلماء والمثقفين، يتبنون مفهوم النسبية الثقافية ونسبية الحقيقة، لكنهم في مسألة الإلحاد يطرحون قضية صُلبة ثابتة مطلقة كلياً. ولقد وعى دوكنز بعض الشيء، قسماً من هذه المفارقة عبر تصريحه:

«ظللت في هذا الكتاب، وفي مواضع أخرى، أتعامل بقسوة مع نظرة يحبذها بعض الأنثروبولوجيين الاجتماعيين، وهي نظرة «النسبية الثقافية» التي تقر بوجود مكانة متساوية لأنواع كثيرة من الحقائق، بحيث لا يكون للحقيقة العلمية أي مرتبة متميزة بينها»[1].

فبينما تغطي ميديا العولمة مفهوم التعددية الثقافية ونسبية الحقيقة ونظريات ما بعد التفكيك، نجد أن الإلحاد يتم طرحه عبر خطاب صلب ويتم تقديمه كحقيقة مُطلقة، كل جهد نقدي لها يحمل عبء الاتهام بالأصولية ونصرة التخلّف. خصوصاً وأنّا نجد جملة حجاجيات الإلحاد الحديث تتعلق بإشكالات ليست جديدة وأهمها أربعة:

١ ـ العلم بقوانين طبيعية للكائن أو الموجود، يعني استغناءنا عن الإيمان بالعلة الأولى.

٢ ـ وجود عيوب في الكائن ،وهذا يضاد القدرة الكلية والعلم بالألم للمطلق المقدس.

٣ ـ وجود الشرّ في العالم. وزيـادة في الشرّ الوجودي الشرّ السلوكي بسبب مؤسسات الدين وأحزابه وحركاته. هذا بالرغم من اعتزازات العلمونيين والإلحاديين بالحرية والواقعية، وأن بقاء التحديات والأسئلة أفضل من الأجوبة والحياة الجاهزة التي تُفقد مقدرة التطور ولذة التحولات!.

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٨٧.

وتناقضهم بين ضرورة الأخذ بالواقع كما هو بدون إسقاطات الرغبوية الإنسانية عليه، وهو أمر يعني قبول الوجود بذاته حيث نقصه وتصادم العوالم فيه يعني ضرورة وجود الهدم والتصارع والنقص والألم، وأن ذلك من كمالاته التي لولاها لما ظهر وقام واستمر. وبين التعامل العاطفي الطفولي بأن نقرأ الواقع بالتمنيات والتخيلات بأن وجود الإله يعني رفع علاقات القوانين العضوية والفيزيائية في الموجودات بحيث تكون بالتالي مجرد زهرة مرسومة بلا أشواك ولا تعب. وهذا يعني أن عدم فهم الشر هو فرع عدم فهم الوجود وطبيعي أن ينتهي إلى عدم فهم معنى الإله أصلاً.

٤ ـ إمكانية تفسير الحياة وظهور الكون من خلال الصِّدفة. لكن هؤلاء ويالعجب يتناسون أنه بدون مبدأ التعليل لا يمكن الدخول في العِلم، ولا قيمة لأي بحث علمي إذا لم نسر في التفكير في العلل وترابط العلاقات بصورة يمكن أن تنتظِم وتُعمَم. كما أنهم ينسون أن الحقيقة الكونية فيزيائياً هي رياضية موسيقية بالغة الانسجام والتناغم، وهي من ناحية البيولوجيا ليست مكباً للنفايات، بل هناك حفظ للكل الانسجامي، حيث تعود كل النواقص والعيوب لتذوب في الصورة الدقية للوجود، حيث مهما تم نفي القصدية والتناغم الأيكولوجي المسبق عبر تحيز إلحادي لادليل عليه، حيث الازدهار الدقي والجمالي حقيقة ثابتة وبثباتها تقوم كل العلوم باعتبارها هي أساس استنباط القواعد التي يكون بها العلم علماً، وبالتالي نجد أنفسنا أمام عملية «تأويل» للمعطى الحسي لقلبه على ما ليس هو، لأنه بدون ذلك لا معنى للصدفة ومن ثم نفي وجود الإله:

«وجـــود «تصميـــم» لـــكل الكائنـــات الحيـــة وأعضائهـــا هـــو بالطبـــع أحـــد

التوهمات. إنه توهم مسيطر سيطرة فائقة تم اصطناعه بواسطة عملية ملائمة مفعمة بالقوة، هي الانتخاب الطبيعي الداروينـي. هناك توهم ثانٍ لتصميم في الطبيعة، هو أقل سيطرة ولكنه لا يزال جذّاباً، وهو في خطر من أن يُخطأ فهمه على أنه هو التوهم الأول. إنه التصميم الظاهري للمنظومات الأيكولوجية. وإذا كانت للأجساد أجزاء تنسجم في تشابك وتنتظم لإبقائها حية، فإن المنظومات الأيكولوجية لديها أنواع للكائنات يبدو أنها تؤدي شيئاً مماثلاً على مستوى أعلى. فهناك المنتجون الأوليون الذين يحولون الطاقة الشمسية الخام إلى شكل يستطيع الآخرون الاستفادة منه. وهناك العاشبات التي تلتهم هذه المنتجات لتستفيد منها، ثم تصنع منها لحمها الذي يُقدّم متاحاً للاحمات كضريبة العشر. وهكذا دواليك صعوداً في سلسلة الطعام، أو هي بالأحرى هرم حيث إن قوانين الديناميات الحرارية تحكم بألا يُقدم سوى عشر واحد من طاقة كل مستوى إلى المستوى الأعلى. وأخيراً، فإن هناك حيوانات القمامات التي تعيد تدوير الفضلات الناتجة لتجعلها متاحة مرة أخرى، وتقوم في هذه العملية بتنظيف العالم وتمنعه من أن يتحول إلى مكب قمامة. وهكذا فإن كل شيء يتلاءم مع كل شيء آخر مثل أجزاء لعبة الصورة المقطعة التي تتشابك في أحجية هائلة متعددة الأبعاد، وكما تذهب إليه الفكرة المألوفة، فنحن نتخبط في التعامل بالأجزاء في مخاطرة بتدمير الكل الذي لا يُقدّر بثمن.

ثمة إغراء بأن نظن أن هذا التوهم الثاني يتم صنعه وفق نوع العملية نفسه مثلما في التوهم الأول، أي كنسخة من الانتخاب الدارويني، ولكنها على مستوى أعلى. وحسب هذا الرأي الخاطئ، فإن المنظومات الأيكولوجية التي تبقى حية هي تلك التي تتناغم أجزاؤها ـ أي الأنواع ـ تماماً مثلما يحدث أن الكائنات التي تبقى حية في الداروينية التقليدية هي تلك التي تعمل أجزاؤها ـ الأعضاء والخلايا ـ في تناغم من أجل بقائها حية. وفي اعتقادي، إن هذه

النظرية زائفة. المنظومات الأيكولوجية تبدو بالفعل وكأنها مصممة في تناغم مثل الكائنات الحية. ويبدو مظهر التنظيم حقاً كتوهم. ولكن أوجه الشبه تنتهي هنا. فهذا نوع مختلف من التوهم، تأتّى لنا من عملية مختلفة، وهذا ما يفهمه أفضل علماء الأيكولوجيا مثل كروز وريدر.

تدخل الداروينية في هذه العملية، ولكنها لا تقفز بين المستويات. وتظل الجينات حية أو تفشل في البقاء، وذلك في الداخل من المستودع الجيني للنوع، ويكون هذا بفضل تأثيراتها في بقاء وتكاثر الكائنات الحية المفردة التي تحويها. وتوهم وجود تناغم على المستوى الأعلى هو نتيجة غير مباشرة للتكاثر الفردي المتمايز. سنجد في الداخل من أي نوع واحداً من الحيوانات أو النباتات أو البكتريا أو الفطريات مما كان يزدهر من قبل في البيئة. والأمر كما فهمه آدم سميث منذ زمن طويل، أن هناك توهماً بوجود تناغم وكفاءة حقيقية سينشأ في اقتصاد يسيطر عليه اهتمام بالذات على المستوى الأدنى. المنظومة الأيكولوجية المتوازنة جيداً هي اقتصاديات، وليست تكيفات.

النباتات تزدهر لمصلحتها هي نفسها وليس لمصلحة العاشبات. إلا أنه بسبب ازدهار النباتات، ينفتح ملاذ بيئي للعاشبات فتملؤه. ويقال إن الأعشاب تستفيد من كونها مرعى. إلا أن الحقيقة فيها ما يثير اهتمامنا أكثر. فلا يوجد نبات مفرد يستفيد من حقيقة أكله كمرعى في ذاتها. ولكن النبات الذي لا يعاني إلا قليلاً عند أكله كمرعى يتفوق في المباراة على نبات منافس يعاني أكثر من الرعي. وبالتالي، فإن الأعشاب الناجحة تستفيد بطريقة غير مباشرة من وجود حيوانات الرعي. وحيوانات الرعي تستفيد بالطبع من وجود الأعشاب. وبالتالي، فإن أراضي المراعي تتكون كمجتمعات متناغمة من أعشاب وحيوانات رعي بينها توافق نسبي. فهي تبدو وكأنها تتعاون. وهي بمعنى ما تفعل ذلك، ولكنه معنى متواضع يجب تفهمه بحذر وتفهمه بحكمة.

ويصـدق الشـيء نفسـه علـى المجتمعـات الأفريقيـة الأخـرى كمـا يشـرحها كـروز وريـدر.

سبق أن قلت إن توهم التناغم على مستوى المنظومة الأيكولوجية هو توهم من نوع خاص بذاته، يختلف عن التوهم الداروينى الذي ينتج منه كل جسد يعمل بكفاءة، ويجب التشديد على ألا نخلط بينهما. إلا أننا عندما ننظر نظرة أكثر تدقيقاً سيتكشف لنا أنه على أي حال ثمة تشابه بينهما، تشابه يذهب إلى أعمق من ـ أمر يقر الجميع بأنه ملاحظة مثيرة للأهتمام يشيع ذكرها بدرجة أكبر ـ ملاحظة أننا يمكن أن ننظر أيضاً إلى أحد الحيوانات على أنه مجتمع لبكتريا تتعايش معاً في فائدة متبادلة. التيار الرئيسي في الانتخاب الداروينى هو البقاء المتمايز للجينات من داخل المستودعات الجينية. والجينات تبقى حية إذا كانت تبني أجساداً يزدهر نموها في بيئتها الطبيعية. ولكن البيئة الطبيعية لأحد الجينات تتضمن على نحو مهم الجينات الأخرى(أو بمعنى أدق النتائج المترتبة عليها) في المستودع الجيني للنوع. وبالتالي فإن الانتخاب الطبيعي يحبذ تلك الجينات التي تتعاون في تناغم في المشروع المشترك لبناء الأجساد من داخل النوع. أطلقتُ على الجينات اسم «المتعاونون الأنانيون» وقد ثبت في النهاية أنه توجد على أي حال قوة انجذاب بين تناغم أحد الأجساد وتناغم إحدى المنظومات الأيكولوجية، فهناك أيكولوجيا للجينات»[1].

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٩٢، لكنه في ص٥١، وفي «الجين الأناني» يحاول استغفال ذلك، رغم أنه يقول هناك (سحر الواقع، ص٥١) قاعدة مهمة من كون «توجد الجينات نفسها في كائنات مختلفة عديدة» وبالتالي تفتح مشكلة التماثلات الداروينية سواء بين الكائنات عموماً أو بين الإنسان والشمبانزي خصوصاً.

هكذا ينتهي نفي التناغم إلى تبنيه، والاستناد إلى تأويل الواقع الفيزيقي ومنحه صورة شمولية متوافقة مع اعتقاد مسبق، وإلا فهذه المعلومات نفسها لاتعطي بذاتها هذه الأحكام النقضية ضد فكرة الإله. والأظرف أن هذا التصوير على تبيان قاعدة ثابتة في:

طريقة الانتخاب الطبيعي + وجود قوانين ثابتة في الكائن الحي= وجود نسقية أيكولوجية!.

وهذه الثوابت تشمل ما به نستطيع الفهم والاكتشاف فأكثر «ما يُثير الإعجاب في كتاب «الجين الأناني» هو أن النقاش يبدأ من المبادئ الأولى وبمنتهى المنطق»[1].

المشكلة في رفض التناغم الملموس والحسي، هو عدم النتيجة الواقعية لكون الواقع في النهاية متناغماً وهو كما يقول دوكنز في «وهم الإله» فوق مستوى أن نتخيل دقته. وهو أمر سننقله ضمن مناقشاته الكثيرة والطويلة.

(١) آلان جرافن، مارك ريدلي، ريتشارد دوكنز.. عالم غيّر أفكارنا ص٨، كلمات عربية للترجمة والنشر - القاهرة، ٢٠٠٨.

العضو الأثري ودعوى هدم العلمي للديني

هل الاستدلال بالتطور والانتخاب الطبيعي، يوصل فعلاً إلى هدم التفكير الفلسفي أولاً وإلغاء الدين ثانياً؟!

إن التطور عبر متابعته للجزئيات وحياتها واتصالاتها وأسئلته عن الزمن والتسلسل وعلاقات المناخ والتحديات، ليس سوى تفكير فلسفي في جانب كبير منه. والتفكير بكل جزء، لا يمكنه نفي قضية تتعلق بالمطلق، حيث موضوع الدين والفلسفة.

أما علاقته بنقض الدين، فيمكن لنا بالإضافة إلى المناقشات المنفصلة داخل كتاب (وهم الإله) أن نضع نموذجاً تطبيقياً محبباً من قبل الداروينية، وبالتالي يتضح أن هناك تفكيراً نسقياً مكرراً من قبل فريق يضع اعتماده الكُلي على الصدفة:

«كل الطيور غير الطائرة لديها أجنحة، في بعضها ـ كالكيوي ـ تكون الأجنحة صغيرة جداً، فقط بضع بوصات طولاً مدفونة تحت ريشها، إلى حد أنه لا يبدو أن لها أية وظيفة. هي بقايا فقط. في أخرى ـ كما رأينا في النعام ـ للأجنحة

استعمالات جديدة. في البطاريق تطورت الأجنحة السلفية إلى زعانف، تُمكِّن الطائر من السباحة تحت الماء بسرعة مدهشة. ومع ذلك كلها لديها العظام نفسها بالضبط التي نراها في أجنحة الأنواع التي تستطيع الطيران. ذلك لأن أجنحة الطيور غير الطائرة ليست مُنتَج تصميم مُتعمَّداً (لماذا سيستخدم خالقٌ العظام نفسها بالضبط في الأجنحة الطائرة وغير الطائرة، بما في ذلك أجنحة البطاريق السابحة؟) بل منتج التطور من أسلاف طائرة.

يؤكد معارضو التطور دائماً الجدلية نفسها عندما يُستشهد بالسمات الأثرية دليلاً على التطور، يقولون: «السمات ليست بلا فائدة فهي إما مفيدة لشيء ما، أو أننا لم نكتشف بعد لأجل ماذا هي».

هم يدعون ـ بعبارة أخرى ـ أن السمة لا يمكن أن تكون أثرية إن كانت لا تزال لها وظيفة، أو وظيفة لم تُكتشَف بعد.

لكن هذا الجواب يفتقد غرضه. فالنظرية التطورية لا تقول إن الخصائص الأثرية ليس لها وظيفة بالضرورة. فيمكن لصفة أن تكون أثرية ووظيفية في الوقت نفسه. إنها أثرية ليس لأنها لا وظيفية، بل لأنها لم تعد تقوم بالوظيفة التي تطورت لأجلها. فجناحا النعامة مفيدان، لكن هذا لا يعني أنهما لا يقولان شيئاً عن التطور. ألن يكون غريباً لو ساعد خالق النعام على موازنتها بإعطائها لواحق يصادف تماماً أن تبدو مثل الأجنحة الضامرة، وفق الطريقة نفسها التي للأجنحة المستخدمة للطيران؟

في الواقع نحن نتوقع أن الصفات السلفية سوف تطور استعمالات جديدة، هذا هو ما حدث تماماً عندما اكتسب التطور صفات جديدة من القديمة. لاحظ

داروين نفسه أن «عضواً يُجعَل ـ خلال عادات الحياة المتغيرة ـ لا وظيفياً أو مؤذياً لأحد الأغراض، يمكن بسهولة أن يُعدَّل ويُستخدَم لغاية أخرى».

لكن حتى عندما نحدد أن صفة هي أثرية، لا تنتهي الأسئلة. ففي أسلافٍ كانت وظيفية؟ ما الذي كانت تُستعمل له؟ لماذا فقدت وظيفتها؟ لماذا ما زالت موجودة بدلاً من الاختفاء على نحو كامل؟ وأي وظائف جديدة ـ إن يكن هناك أيٌّ منها ـ قد طورتها؟»[1].

بغض النظر عن مشكلة الاستدلال الدائري في الانتخاب الطبيعي، ذلك أننا نجد تلك السخرية المُرة من قبل ناقدي التطور وعدم اكتراثهم للأحفورات، لكونهم يرون أن التطور يعتمد على الأحفورة بينما الأحفورة نفسها لم تُقرأ إلا بواسطة عدسات التطور المُسبقة، كما هو حال المثال الشهير المرتبط بحفرية «تيكتاليك» التي تم اعتبارها الحلقة الانتقالية بين تطور الأسماك والبرمائيات. فالعُمر الذي تم تقديره لهذه الأحفورة هو ٣٨٥ سنة كما قالوا، وهو ما يتوافق وظهور الحياة على ظهر الأرض حيث كانت الحياة بحرية فقط بحسب رؤية الانتخاب الطبيعي. عندئذ يتم وضع الأحفورة ضمن سلسلة شجرة الأنساب التطورية، فالأحفورة هي حلقة انتقالية، لماذا.؟ لكون الانتخاب الطبيعي حدد أن هذه الفترة هي فترة ظهور الحياة البرية. لكن من قال إن رؤية التطور هنا صحيحة؟ الجواب لأن هذه الأحفورة أحد أسلاف سلسلة التطور، وهذا يعني أن التطور دليل على نفسه، طبعاً مع السكوت هل للتيكتاليك علاقة فعلية بالأسماك أو البرمائيات؟!

(١) لماذا التطور حقيقة؟ مرجع سابق، ص٧٠.

وبدل الجواب يتم الاستعانة بقوة الخيال لإتمام هذه الأحفورة التي هي مجرد عظم صغير، لتصويرها على أنها جزء منه سمكة وجزء منه سحلية، ثم يُقال هاكم دليلاً علمياً واقعياً مادياً على صحة التطوّر!.

وأيضاً، بغض النظر عن عدم دقة الأدلة (المادية) المطروحة في شجرة التطور حيث يتم اعتماد رسومات تتميمية لحفريات لم يتبق منها سوى ضرس أو فك أو أمور أخرى، أي هي أنقص بكثير من صورتها الكاملة كحلقة توسطية، فالافتراض يتم دعمه بافتراض تخيّلي يتم تقديمه كدليل مادي ملموس!.

بغض النظر عن كل هذا، حيث لا نبتغي الدخول مع دوكنز في الأمثلة التي ضربها[1] وهي في الغالب إما ليست تامة وإما لا علاقة لها بأصل الكلام، أليس حديثه هذا تفكيراً تعليلياً سببياً؟!

فكيف من جهة التطور نلتزم بالتفكير السببي، لكن ما إن نصل إلى الجانب الديني ومسألة العلة الكبرى، حتى تنتفخ لنا فُقاعات الصدفة على مستوى هستيريا علموية مُخترعة بقوة الميديا وسطوة التسميات والألقاب البحثية والمدرسية؟!. ليكون الدين والقول بالإله نوعاً من التهديد الميدي المُزَّيف.

(١) سواء في كتابه وهم الإله، أو في كتبه الأخرى، والتحقيق في ذلك يصدم القارئ بحقيقة الصورة الإعلامية المرسومة للرجل حتى داخل اختصاصه في الطبيعيات، فكيف بهشاشته في علوم الأدب والنقد الثقافي وتاريخ الأديان والفلسفة؟ هذا بغض النظر عن مشكلة صورة المثقف الشمولي التي يصوغها دوكنز عنه حاله حال بقية تيار الإلحاد، رغم أنه من المتفرض أنهم يُمثلون قطيعة من صورة المثقف القديمة، فإذا بهم أحياء لتقاليدها وصيغ خطاباتها التعميمية، سيقرأ المطلع على تكرار دوكنز لمسألة احترام التخصصات ورفضه لمقولة عدم تداخل العلوم.

وهل دخول عنصر في خلق أو تطوير عنصر آخر لا يجعل الخالق خالقاً أو يلغي فكرته، ما علاقة هذا بذاك؟!

فإن كان ثمة علاقة فهي غير مُبيّنة وسيكون التفكير سببياً وليس صدفوياً في أول بدء المحاورة، وإن لم يكن ثمة علاقة سينهدم كل قول ولا يمكن الدفاع عن أية نظرية وقضية؟!

ونحن نعلم من خلال تاريخ الفلسفة أن الخلق لا من عدم، هو إحدى أقدم المقولات، سواء خلق أجنحة من أصابع سلفية أو لا، لا علاقة لها بقضية إلغاء فكرة الخلق وهدم فكرة الخالق.

طبعاً الكلام أعلاه الذي هو مجرد ذكر مثال جزئي من علم الأحياء هو أقرب للسرد منه بالاستدلال، وهو في المُحصِّلة الحِجاجية: واحدة من الحيل اللغوية:

أولاً: لقد طرح الداروينيون في البدء قائمة بالأعضاء الأثرية ثم تقلصت شيئاً فشيئاً[1]، وآخرها كان حتى وقتٍ قريب وهو أن حلمات صدر الرجل بلا فائدة وأنها بالتالي أعضاء أثرية[2].

(١) العجيب أنه من طرف الملاحدة كل هدم لمثال وقضية دينية معناه إلغاء تام وشامل وجذري لكل قضايا الدين، لكن ظهور خطأ علمي أو حتى خدعة من قبل بعض الأكاديميين والباحثين، لا يخدش خطابهم الإلحادي مجرد خدش!.

(٢) لكن هل هذا الاستدلال سليم، فالقوم الذين هم أشد استنكاراً للمنطق الأرسطي، أرسطيون هنا بالكامل، لذا يصوغون كلية شمولية: كل عضو عديم الأثر هو أثري!. بل إن هذه القضية إما هي صادقة فتكون لدينا كليات نُفكر بواسطتها، وإما كاذبة لم يكن بالإمكان الاحتجاج بها لتوليد مسائل أخرى داخلية فضلاً عن أن تكون خارجية كإثبات عدم وجود حكمة ومن ثم خالق.

ثانياً: هذا المعنى للعضو الأثري، لم يتفقوا عليه منذ البداية. والأسئلة الأخيرة في هذا النص مرتبطة بالعضو الأثري بالمعنى الأول، أي بدون فائدة.

ثالثاً: الخلق ليس نقيض العلية بل هو نتيجة توصلنا إليها من خلالها، ولا معنى أن تختفي أعضاء بشكل كامل ويتم خلق شيء جديد هكذا بدون مقدمات مادية، والمؤمن لا ينكر العلاقات المادية بشأن توالد الأشياء، إذن، من المناسب جداً أن تبقى الأعضاء الأصلية وهذا أدل على وجود الخالق وليس نفيها.

رابعاً: هذه واحدة من الشبهات المبنية على تصور كارتوني للخالق، وتشبيهي حيث يتم تصوير القول بوجود الخالق أن هناك ريشة سحرية تظهر الأشياء من لا شيء دائماً. وليس عبر علاقات بين عناصر الحياة والكون. والمفارقة أن الانتخاب الطبيعي يصور الحياة على أنها مجموعة من العلاقات المتينة التي بدونها يندثر كل شيء. لكن ما إن نصل إلى موضوع الإله حتى يتم تغيير الصياغات التعبيرية كي يبدو أن عدم العلاقة هو الأصل.

خامساً: الإلحاد التطوري يعتمد على التعميم في صوغ إلحاده، بينما هو كعلم مرتبط بالطبيعيات لا يملك سوى الجزيئيات، وهذه حينما ندخل إليها لا يمكن لها سوى أن تُحيلنا على ذكاء مهيمن. فمادام لا يوجد سوى المادة فلا معنى للتناسق العقلي في كل شيء، مثل طريقة محاربة النحل للدبور الذي هو أقوى منها بكثير، عندما تغريه بالدخول إلى الخلية ليجد النحلات العاملات في انتظاره مشكلة كرة مغلقة ثم تبدأ بهز بطونها لتصل الحرارة إلى

٤٧ درجة مئوية، وهي درجة يموت فيها الدبور ولا تخيف النحل[١]. طريقة المعركة وتكتيكها والحسابات العلمية في معرفة تركيبة الذات وتركيبة العدو، كيف تُحال إلى الشبكة العصبية لمخ النحلات، التي هي بدورها مجرد مادة في النهاية؟! يستطيع الإنسان الوقوف على زهرة أو طريقة تركيب النطفة وما تتمتع به من أجزاء مختلفة تتناسب لفتح غشاء البويضة والوصول إلى تلقيحها، وكيفية حفظ الـ (دي إن أي) لآلالف المعلومات، أو تأمل تركيبة زهرة أو أية نبتة صغيرة، حيث لا شيء يخلو من علاقات التوازن والارتباط بالحياة المستقبلية للأجيال، كل ذلك لايمكن الخروج منه بالقول إنه لا يوجد سوى المادة ومع ذلك هذه الماديات تعيش بطريقة تفوق تصور العقل لكبار العباقرة، والتي نتحايل عليها لغوياً بالاكتفاء بكونها مجرد (تكيّفات) لا فاعل عاقلاً وراءها ولا هي ذاتية لهذه الكائنات!!.

فالانتخاب الطبيعي مصحوب بالذكاء الخارق في كل تفاصيل الكائن، في ولادته وفي معيشته وفي تركيبته وفي تمويه كل فصيلة بما يناسب حمايتها، وهي قدرات لا دخل لذات الكائن بها، ولا معنى للتطور والانتخاب الطبيعي من دونها. وهي قاعدة عامة في كل مخلوق باعتراف التطور نفسه الذي لا معنى له بدونها.

ولا يمكن الاكتفاء بتفسير كل هذا بأنها «تُنتَج بالفعل بالطفرات الصدفوية، التي تحدث كيفما اتفق، دون اعتبارأكانت جيدة أم سيئة للفرد»[٢].

خصوصاً وأن كل هذه الطفرات يفترض أن تكون متوافقة بشكل مطرد مع الانتخاب الطبيعي. وبالتالي فلا مقولة إثبات الله ولا نظرية التطور مبنية

(١) لماذا التطور حقيقة، مرجع سابق، ص١٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ص١٣٠.

علـى المجهـولات واللاعليـة، حتـى تكـون المعادلـة «كل مـرة يُحـل فيهـا لغـز، يُجبَـر التصميـم الذكـي علـى التراجـع»[١].

فالتطور يثير مسألة الوعي المصحوب بتحولات المادة التي لاتعي زمن تكونها التام فضلاً عن وعيها قبل ذلك وبعده، كيف مثلا تختار المادة عضلات بعينها لتكون هي عضلات العين في مسيرة تطور العين من نقاط بسيطة من صبغ حساس للضوء وصولاً إلى تطور الشبكية والعصب البصري، وبالتالي ظهور العيون إلى الحياة بشكلها المتألق لأسلاف تطورية في غاية البساطة؟!

خصوصاً وأن التطور مبني على التفسير لكل شيء تعليل بحسب مقولة داروين «لا يمكن ـ على سبيل المثال ـ افتراض أن ذكور طيور الجنة أو الطواويس ينبغي أن تكابد جهوداً كهذه في نصب ونشر وهز ريشها الجميل أمام الإناث بدون غاية»، فالتطور يُفسّر كل شيء بالغرضية والعلية «إن نقاط الانفصال في الطبيعة ليست اعتباطية، بل هي حقيقة موضوعية»[٢]. لينتهي بعضهم بالقول إنهم ملاحدة لأن التطور أوصلهم إلى أن الوجود والحياة بلا علة ولا هدف!!.

إن عملية فهم التطور كلها تقوم على القصدية والتسلسل المنطقي للفهم وللطبيعة، وكلها مبنية على اكتشاف بشري لا يدركه سواه، وينتهي إلى نفعه ككل شيء آخر، لكن مع ذلك تكون النتيجة أن كل الوجود خالٍ من العلية ومن القصدية ولا شيء في خدمة الإنسان وكل شيء مجرد حالة طارئة في الوجود!![٣].

(١) لماذا التطور حقيقة، مرجع سابق، ص١٤٨.

(٢) المرجع نفسه، ص١٨٠.

(٣) لماذا التطور حقيقة، مرجع سابق، ص٢٠١.

إذ نحن في كل مرة نصل إلى الطريق المسدود نفسه في استخدام الداروينية كحامل تقويضي لفكرة الإله: لكي لا يكون هناك إله، نستند إلى عشوائية تقوم عليها الحياة أو الكون. لكن نتائج التطوريين أنفسهم ليست قانونية تعليلية فقط بل هي ذات حسم قاطع:

«إن الوراثة ليست لعبة زَهْرٍ يلعبها القَدَر. إن الاختلافات في بنية الأجسام ووظائف الأعضاء، والخصائص العقلية، هي في جزء منها ذات حتمية وراثية»[1].

إن ثمة خلطاً بين النُّظم نفسه وبين ماهية وشكل وطريقة العلاقات الداخلية التي تكوّن هذا النظم، وهو خلط يجعل الكثير من الأدلة المعروضة لنفي فكرة الإله تعاني مشكلة داخلية مُكررة.

(١) فصول من الكتابة العلمية الحديثة، الهيئة المصرية للكتاب ٢٠١٢، ص٤٤.

نقص التفسير وحتميات نقد البداهة

ورغم تقديم محاجّات بأن الفرضية العلمية ليست دائماً من قبيل التخمينات وأن هناك معنى آخر لمعنى الفرض والفرضية، فإن هذه الأخيرة هي التي يؤكدها حتى دوكنز نفسه:

«إن هذه مجرد تخمينات»[1].

وهذا يكون ما نرفضه كعلاقات سببية وتفكير عِليّ في يد يعود ليظهر كحتمية سببية في اليد الثانية:

«فلا وجود لجينة تتولى بمفردها بناء القوائم، سواء أطويلة كانت هذه الأخيرة أم قصيرة. فبناء القوائم مشروع تعاوني تضطلع به جينات عدة»[2].

كيف إذن، يتم استبعاد الظّن، وكيف إذن، قد افترضتَ إمكانية البدء من جينة واحدة؟!

(١) الجينة الأنانية، ص٦٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٦.

سيكون من المصادرة والبدء بمقدمة انسدادية ضد أي حوار، فيما لو اعتمدنا على مصادرة تعريف العلم باعتباره تراكماً معلوماتياً احتمالياً، وبالتالي فلدينا موقف غير حيادي من موضوع النقاش:

«إن الفرق الكبير والجوهري بين العلم والخرافة هو أن الخرافة تُعطي إجابات يقينية لا سبيل إلى الشك فيها. بينما يقدم العلم منظومة تراكمية غير مطلقة تحمل في طياتها احتمالات الخطأ، وتحمل أيضاً كما يقول كارل ساجان:آلية لتصحيح الأخطاء»[1].

لكن كيف توصلنا إلى هذه النتيجة؟

هل بواسطة الخرافة كي يكون هذا التحديد خرافياً. أم بواسطة العلم، والعلم التجريبي لا علاقة له بهذا الموقف الفلسفي؟!

هل هو بواسطة مدرسة من مدارس فلسفة العلم؟!

إذن، هناك إحالة للعلم في مساحة خارجة عنه، وبالتالي ستكون الفلسفة حاضرة ولم نقم بهدم حجر الزاوية للاهوت ولا أدلة البحث عن الإله. خصوصاً وأن لا أحد من علماء التجربة بقادر على الاستغناء عن الأدب والخيال والحدس، وكل ما ليس له علاقة بالمعرفة المادية الجامدة، لذا كان الخيال صنو العلم:

«إن التفكير العلمي يستدعي الخيال والنظام»[2].

إن القوم يطرحون آراءهم بسخرية جارحة، وبثقة عارمة، فهل هذه الثقة بالنفس وبالعلم «علمية» حقاً؟!:

(١) فصول من الكتابة العلمية الحديثة، مرجع سابق، ص١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠.

«فيما عدا الرياضيات البحتة، فلا شيء معروف على وجه اليقين»[١].

على هذا لا يمكن أن تكون الداروينية بنفسها يقينية فضلاً عن أن نُفرّع عليها ومنها نفي الإله وجعله قضية يقينية، في مدار المعلول والمحدود لا يقين، فكيف في مدار العلة والمُطلق نتعثر بيقين متخشّب؟!!

*

وعلى خلاف التضخيم الإعلامي بأن لنظرية التطور قدرة تفسيرية هائلة لكل شيء، فهي تقف حائرة وتدخل في تعقيدات رياضية منقودة حتى من قبل الداروينيين أنفسهم في واحدة من أهم مسائل حياة الكائن العضوي وهي الجنس، وهي مسألة حرجة بالنسبة إلى الكيان النظري للداروينية[٢]، على اعتبار أن الجنس قضية كبرى لدى الكائن الحي إذ بدونها لا تبقى ثمة حياة كي تكون هنُاك علوم وعلماء يشتغلون عليها[٣].

---

(١) فصول من الكتابة العلمية الحديثة، مرجع سابق، ص٢١.

(٢) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٦٤.

(٣) وبما أن القوم قد تحولت لديهم نظرية الانتخاب الطبيعي إلى عقيدة وإيمان، لذا فمهما اصطدمت بعوائق نقص التفسير وعدم الدقة، فهم يتمسكون بها كأي مؤمن متعصّب.وهنا يضرب لنا بعض المتخصصين في الطب المخالفين للنظرية مثالاً عملياً على ذلك، فقد احتفى التطوريون بنتائج مشروع الجينوم البشري المعتمد على تفحص المتتاليات النيتروجينية للحمض النووي، فبحلول سنة ٢٠٠٣، تم تقديم ورقة تقول إن خمسة وتسعين بالمئة من الحمض النووي هي مجرد «خردة» وتواكب مخلفات السيرة التطورية للإنسان، وبالتالي فالذي يعمل هو فقط خمسة بالمئة والباقي لا وظيفة له. وهذا دليل على نفي التصميم، إذ من غير المعقول أن يخلق الخالق الحكيم مخلوقاً خمسة وتسعون منه أعضاء مُهملة.وبغض النظر عن أن هذا معقول لو تذكرنا فكرة أن الإله هو علة كبرى وليس إلغاء لذاتية الأشياء وقدرتها وإمكانيتها التي قد تقتضي محدوديتها أن تظهر للوجود بأثقال وزوائد أو نواقص.

ونحـن حينمـا نجهـد لاختصـار المناقشـة، ولا ندخـل فـي كل جزئيـة، حيـث اختـلاط المعرفـة باعتبارهـا هـي الواقـع الموضوعـي وبيـن المعرفـة باعتبارهـا مسـتوى الإنسـان التفكيـري والاكتشـافي، حيـث إن «المعانـاة البشـرية نشـأت

فإن علماء الطبيعيات لاحظوا أن الجينوم غير المُشفّر هو الأعلى في الإنسان، لكنه يقل كلما نزلنا في سُلّم تعقيد الأحياء. فبينما يقول التطوريون إن عدد جينوم الإنسان الفعلي هو ٢٥ فقط، ليكون أقل بكثير من جينوم النباتات وبعض الديدان، فإن الجينوم غير المُشفّر يقل كلما ابتعدنا عن الإنسان ويتصاعد كلما اقتربنا منه، وبالتالي فالأقرب أن هذا العدد من الجينوم الذي لم نفهمه وقلنا إنه ببساطة غير مشفر لا قيمة له، ليس هو حطاماً تاريخياً لتطور الإنسان، بل هو جزء من تعقيد الخلية الحيّة نفسها، ومن هنا نهض جماعة من الخبراء بإعادة النظر في المسألة وهو ما عُرف بمشروع الإنكود، الذي بواسطته تجاوز هذا الفريق معرفة أكثر من ثمانين بالمئة من جينومات غير مُشفّرة، لكن كتب التطوريين في الغالب تردد نتائج مشروع الجينوم البشري التي باتت كأنها سلفية معرفية..والأغرب أنهم انتهوا إلى أن عدد جينات الجينوم البشري حوالى ٢٥ ألف جين فقط، وهو عدد أقل بكثير من عدد جينات نبات الذرة (حوالى ٤٠ ألف جين)، وأعلى بقليل من عدد جينات الدودة المستديرة (حوالى ١٩ ألف ونصف جين)!!!. فهل هذا العدد يعبر بالفعل عن تعقد تكوين جسم الإنسان مقارنة بهذه الأنواع؟!!.الصورة تعبر عن ملاحظة غريبة لاحظها العلماء وهي أن النسبة المئوية للجينوم غير المشفر (غير المكود) للبروتين تكون لدى الإنسان أعلى ما يمكن -٩٥٪ من إجمالي الجينوم الإنساني- وتقل وفقًا لرقي الكائنات التصنيفي، فالفقاريات أقل من الإنسان، وأقل منها الحبليات، ثم اللافقاريات، ثم الفطريات والنباتات، ثم باقي حقيقيات النواة وحيدة الخلية، وتأتي نسبته أقل ما يمكن في بدائيات النواة!!. وكما أوضحنا فقد حاول التطوريون اعتباره ركاماً تطورياً يزيد مع رقي الكائنات، ولكن هذا لم يكن مقنعًا للجميع، وبدا أن هذه المساحة الشاسعة من الجينوم ترتبط بشكل ما بتعقد الكائنات الحية. فالتعقيد يحتاج إلى كمية هائلة من المعلومات المنظمة، وهي النتيجة التي انتهى إليها مشروع الإنكود [موسوعة عناصر الحمض النووي (إنكود)]. اكتشف العلماء العاملون بمشروع إنكود وظائف هامة لـ ٨٠٪ من الجينوم البشري مطيحين فكرة الـ DNA الخردة غير المستخدمة التي ليست لها وظيفة.

لأن الكثيريـن منـا لا يدركـون أن الكلمـات مجـرد أدوات نسـتخدمها، وأن مجـرد وجـود كلمـة مثـل «حـي» فـي المعجـم لا يعنـي بالضـرورة وجـوب أن تعنـي هـذه الكلمـة شـيئاً محـدداً فـي العالـم الحقيقـي»[١].

فأشد محاولات الإجابة تطوراً تقع في تأويلات وحجج دائرية وتتورط في دور منطقي يجعلها بدون جواب[٢]. تلك هي حجم المسافة الشاسعة بين حبة الرمل التي نسميها علماً وبين مجرات المجهولات اللامتناهية فـ«نحن لا نعرف أي مواد كيميائية خام كانت متوافرة على سطح الأرض قبل نشأة الحياة»[٣].

ولنتصور حجم الفكاهة الرتيبة لمعرفة في غاية النقص، وغير ثابتة، وتقر بكون كمية الغموض فيما تدرسه مما لابد من الاعتراف به، لكن مجموع ذلك هو معرفة تنفي بصلابة ما لا تحدّه وتستوعبه!:

«ونحن في الواقع نشكّل جميعاً آلات بقاء للنوع نفسه من المتضاعفات، أي الجزيئات المعروفة باسم الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسجين...فالحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسجين يعمل بطريقة غامضة.. إن كتل بناء النوكليوتيد تتوافر بأربعة أنواع مختلفة ..والجدير ذكره أن هذه الأنواع هي نفسها لدى سائر الحيوانات والنباتات، والفرق الوحيد هو ترتيب ترابط بعضها ببعض. فكتلة بناء النوع «جي» لدى الإنسان مطابقة تماماً لكتلة بناء من النوع «جي» لدى الحلزون»[٤].

---

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٣٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٦٥.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٧.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٧-٣٨، ص٣٩.

وهنا لا يتحرّج دوكنز من ذكر حقيقة الحمض النووي ومن أن بعض أجزائه هي عبارة عن «مكتبات» أرشيفية كاملة، هي أكبر بكثير من أي رقم افترض لعُمر الكرة الأرضية بل الكون نفسه، لنتذكر هنا قصة الخلية التي تتضاعف صدفة وتتكون صدفة، لنرى كم عدد الأصفار التي يمكن وضعها على صفحة تتجاوز المسافة بين الأرض والشمس تسع مرات، لتكوين ثلاثة رفوف في كائن واحد، بما لا يمكن تمثيله بفوز رهان كرة قدم لثلاث مرات متتالية في مدة زمنية مقدارها مليون مليون مليون سنة! بعدها ليضع القراء[1]، أي معنى لقول المؤلف بأن هذا الحمض النووي يجري بدون أية هندسة حيث إرشادات الحمض النووي تجمعت جراء انتقائيات صدفوية. علماً أن كل معلوماتنا عن النوكليوتيد لا تحصل عبر حقيقة مختبرية مباشرة، فهي لا يمكن الوصول إليها أبداً مهما كانت دقة الجهاز، وإنما عبر «فرضية لنماذج مُصنعة»[2]، وأننا في سن الرُشد، يكون جسدنا مكوناً من مليون مليون خلية، كل خلية هي أعقد من مئة مصنع، وكل قسم منه يحوي مكتبات كل مكتبة فيها آلاف المجلدات،وهي مع ذلك تقوم بعمل ذكي من أرشفة وتسجيل، وهذه تتم عبر «لاشيء» كل ذلك وعلينا أن نصدِّق، لا لشيء إلا لأن من يقول ذلك لديه شهادة أكاديمية ويقوم بتأليف الكتب، إن هذا كله له تفسير واحد إنه «الانتقاء الطبيعي» الذي يستحق العبادة فعلاً!.

لكن ما يحزننا فعلاً أنه في ص٤٠ يحاول دوكنز تسطيح المتلازمة التي ثبت شموليتها في النبات والعضويات والجسيمات متناهيات الصغر،

(١) الجينة الأنانية، ص٤٠.

(٢) كما يقول كتاب «الجينة الأنانية» ص٣٨.

حيث يوجد لدينا نسق رياضي ثابت لاوجود لأي خلية بدونه، وهذه الهيكلية الرياضية حكمة الضرورة التي لامعنى للحديث عن أي صدفة فيها:

«فالنمو الجنيني لأي جزء من جسد الحيوان أو النبتة يتطلب عمليات حسابية معقدة بغية توصيفه توصيفاً كاملاً. لكن هذا لا يعني ضرورة أن يكون الحيوان أو النبتة عالم رياضيات خارق الذكاء. ففي العادة تمتلك الأشجار الباسقة دعائم ضخمة تمتد كأنها أجنحة من قاعدة جذوعها. وفي أي فصيلة من الفصائل، كلما كانت الشجرة أطول امتلكت دعائم أضخم نسبياً. ومن المتعارف عليه على نطاق واسع أن شكل هذه الدعائم وحجمها ليسا بعيدين عن الحد الاقتصادي الأمثل المطلوب لبقاء الشجرة منتصبة، علماً بأن أي مهندس يحتاج إلى حسابات رياضية معقدة لإثبات ذلك»[1].

وهذا ببساطة هو معنى الاحتياج الذاتي والإمكان الذاتي الذي يحتاج إلى هيمنة العلة الخارجية التي يجب أن تكون من جنس وجود مختلف ومغاير وإلا لكان ينطبق عليه الحكم نفسه بالفقر والاحتياج فيتسلسل الأمر أو يدور. حيث لا يمكن الاكتفاء بتفسير استعراض طيور الزرازير لمجموعاتها كنوع من إحصاء سكاني لتحديد مسارات التكاثر وعدد الصغار والإناث، بكونه مجرد تلقائية عصبية أو هرمونية، لابد من تفسير أعلى هو الذي يجعل هذه الظواهر معقولة الاستمرار وبها يقوم الوجود والحياة، لكون هذه الهرمونات والأعصاب نفسها لها أنظمتها الدقيقة وهي غير مُدركة لعملها واشتغالها

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص١٧٢.

كبقية اشتغال الكائنات الحية وأعضائها، وكبقية دوران الأجرام المنتهية الكبر والمتناهية الصغر في حقول وجداول رياضية صارمة[١]:

«فالبروتينات لا تشكّل فقط القسم الأكبر من نسيج الجسد، بل هي تتحكم أيضاً على نحو دقيق بمختلف العمليات الكيميائية داخل الخلية،فتختار تنشيطها أو تعطيلها في أوقات وأماكن محددة. أما معرفة كيف يؤدي هذا الأمر في النهاية إلى نشوء الطفل، فقصة أخرى قد يحتاج علماء الأجنة إلى عقود وربما قرون لاكتشافها»[٢].

إن تحويل العلم إلى «هيصة» لا يليق بألقاب أكاديمية رصينة، وإلا فالاختصاص الذي يقف عليه خطاب الإلحاد، لا يسند دعوى كهذه هي أوسع من اختبار أي معمل عينات حيّة فضلاً عن غير الحيّة، ذلك:

«أن الميزات المُكتسبة ليست متوارثة. فمهما بلغتَ من المعرفة والحكمة خلال حياتك، فلن تستطيع تمرير نتفة واحدة إلى أولادك عن طريق الجينات.فكل جيل جديد يبدأ من مسوّدة، والجسم هو أسلوب تعتمده الجينات لتبقى على حالها»[٣].

في التطور لا توجد خطة مُسبقة نفهمها (نحن) بل ما نفهمه أنها تتشكل بعد ذلك،عبر لوحة العلاقات المنسجمة، حيث:

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص١٨٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٠.

(٣) المرجع نفسه، ص٤٠.

«لا يمكن لأحدٍ أن يزعم بأن البكتيريا المفردة كانت واضعة استراتيجية واعية»[١].

لكن حتى الخفافيش يُطعم بعضها بعضاً وفق «قانون عقلاني» يحفظ النوع اقتصادياً، هذا القانون هو من جهة يُفسر سلوك الخفافيش وكل الكائنات الحية[٢]، ومن جهة هو ليس فعلاً لها وليس جزءاً من تركيبتها المادية المحضة ومستحيل لبنيتها الدماغية وقدراتها العقلية الوصول إليه، لكننا لن نحيل إلى فاعل أعلى ولا إلى ترابط سببي معقول، هو فعل عقلاني يشرح لنا حياة الكائن وبدونه ينتفي، لكنه ليس عقلياً ولا خالياً من العلية!!:

«الجدير ذكره أن انتقائية داروين لا تعمل، من أي منظور واعٍ للمسألة، مباشرة على الجينات. فالحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين يتقوقع داخل البروتين متقمطاً بالأغشية، مختبئاً عن العالم وعن أنظار الانتقائية الطبيعية. ولو أن الانتقائية حاولت اختبار جزيئات الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين مباشرة، لما وجدتْ أي معيار ترتكز عليه لفعل ذلك»[٣].

في النهاية يتم استخدام العلم ليس لمناقشة موضوع فلسفي فحسب بل لهدم الفلسفة برمتها، لكن في الوقت نفسه مع إعلان أن صاحبنا لا يفهم بشكل دقيق مرادات الفلسفة!:

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٣٧٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٧٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٨٠.

«فعندما نراقب حيواناً «يفتش» عن الطعام، أو عن شريك أو عن صغير ضائع، بالكاد يمكننا أن نعزو إليه بعض المشاعر «التوق»إلى غرض ما، أو «صورة عقلية» عن الغرض المرغوب فيه، أو «غاية» أو «نهاية متصورة». وكل منا يعلم، من خلال مؤشرات تأملاتنا الباطنية، أن السعي إلى الهدف، أقلّه في آلة البقاء الحديثة، قد طوّر الميزة التي نسميها «الوعي». وأنا لا أفهم في الفلسفة كفاية لأناقش ما يعنيه ذلك»[١].

الظريف أن دوكنز وهو يحاول نفي الغائية في حركة الموجدات لكونها أحد أدلة المؤمنين، لا يضرب مثالاً إلا وفيه تصميم وغاية مُسبقة، حيث نجد صاروخاً ذكياً مبرمجاً، أو برمجات كمبيوترية مُصممة!.

علماً أنه في مثال تصميم لعبة الشطرنج كمبيوترياً حيث عدد التحركات المُمكنة لقطع الشطرنج، تفوق عدد الذرّات في المجرة، ومع ذلك فإن «أفضل البرامج لمّا يحقق بعد مستوى كبار اللاعبين»[٢]. وأن بمقدور «جينات الدب القطبي أن تتنبأ آمنة بأن مستقبل آلة البقاء الخاصة بها التي لم تولد بعد سيكون بارداً»[٣].

والواقع أن دوكنز الذي نفى الغائية هنا، هو نفسه الذي يقول إن السلوك الذي يرتبط بالغايات هو سلوك محسوب بدقة كعنصر ضروري لبقاء الكائن؛ «الواقع أن إحدى الخصائص الأشد إثارة للذهول في سلوك آلة البقاء تتمثّل بغاياتها الظاهرة. وأنا لا أقصد بذلك فقط أن هذا السلوك يبدو محتسباً بدقة

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٨٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٨٢.

(٣) المرجع نفسه، ص٨٦ .

لمساعدة جينات الحيوان على البقاء، علماً أن هذا الأمر صحيح. أنا هنا أتحدّث عن الشبه الوثيق بالسلوك البشري الهادف»[1].

هي دقة محسوبة لبقاء الكائن لكنها ليست من الكائن، لكن علينا أيضاً أن لا نؤمن بوجود أية قوة علية وسببية خارجية في ظهورها وإدامتها كي يبقى الكائن موجوداً، من أين تأتي وكيف نُفسِّرها؟ غير مهم الجواب وهنا فقط على العقل أن يكف عن أن يكون ممدوحاً!!:

«لقد ركّزت عبر صفحات هذا الكتاب على ضرورة ألا نفكر في الجينات باعتبارها عوامل واعية ذات أهداف محددة. لكن بما أن الانتقائية الطبيعية العمياء تجعل الجينات تتصرف وكأنها تسعى إلى أهداف محددة، بدا من الملائم على سبيل الاختزال أن نتحدث عن الجينات بلغة الأهداف»[2].

بحسب المنطق الداروينى لا بد أن تتطور الثقافة على غرار التطور الجيني،حيث الانتقال من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً. والإلحاد التطوري يستبعد فكرة الله لكونها فكرة معقدة قياساً على الأطروحات الأخرى، وهذا تناقض لأن فكرة الله سحيقة القدم في تاريخ الإنسانية:

«فكرة الله، نحن لا نعرف كيف نشأت هذه الفكرة في الجمعية الميمية. لكنها نشأت على الأرجح عن «تحولات» مستقلة متعددة إلا أنها في مختلف الأحوال تبقى فكرة قديمة»[3].

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٨٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٣١٨.

(٣) المرجع نفسه، ص٣١٣

ميم الولع بنرجسة الأخطاء

لقد قرأنا كيف أنه لا الجسم ولا الجين ولا أي عنصر آخر يمثل جواباً تاماً، بل هناك مساحة واسعة من الغموض، وبالتالي فحتى المعرفة العلمية التجريبية هي ذات إغراء وقوتها من العائد المادي الملموس في أغراض الاستخدام التي هي أقل بكثير من مساحة الجزء الفارغ من عدم الإجابة، لكن بالرغم من هذا حتى من مساحة الجواب المُعطاة من قبل البحث الطبيعي، لا تتدخل في شأن قضية خارجة عنها هي الإله، فإن دوكنز يتناسى ذلك كله ويجعل ضفة واحدة هي عبارة عن إغراء نفسي، ذلك أن مساحة استخدام علم النفس أو الفيزياء أو حتى الأدب، يستعيرها دوكنز فيما إذا كانت هناك ثمة مقولة تفيد انحيازه إلى نقض الدين أو فكرة الإله:

«ما المميز في فكرة الله الذي يعطي هذه الفكرة الثبات والمقدرة على اختراق البيئة الثقافية؟. الواقع أن قيمة البقاء بالنسبة إلى ميم الله في الجمعية الميمية تنشأ عن الإغراء النفسي المهم الذي تنطوي عليه. فهذا الميم يقترح جواباً مقبولاً ظاهرياً للأسئلة العميقة والمقلقة بشأن الوجود. وهو يقترح أيضاً أن الظلم في هذا العالم قد يصوّب في الحياة الثانية.«فاليد الخالدة» تؤمّن وسادة لمظاهر قصورنا وتبقى فعالة لأنها خيالية كما الدواء الغفل الذي يصفه الطبيب. وهذه بعض الأسباب التي تجعل الأجيال المتعاقبة تنسخ فكرة الله

من الأدمغة الفردية. فالله موجود سواء أكان ميماً يتميز بقيمة مهمة للبقاء، أو قوة يسهل نشرها في البيئة التي تؤمنّها الثقافة البشرية.

الواقع أن بعض زملائي أشار عليّ بأن هذا التفسير لقيمة البقاء المميزة لميم الله يشكل التفافاً على الموضوع. وهم كانوا خلال التحليل الأخير يرغبون دوماً في العودة إلى «المنفعة البيولوجية». فهم لا يستحسنون الاكتفاء بالقول إن فكرة الله تنطوي على «إغراء نفسي مهم». هم يريدون أن يعرفوا سبب اشتمالها على هذا الإغراء النفسي تحديداً. ولابد من الإشارة إلى أن الإغراء النفسي يعني الإغراء للأدمغة، والأدمغة تتشكل بفعل الانتقائية الطبيعية للجينات في الجمعيات الجينية. وهم من ثم يريدون العثور على طريقة تجعل امتلاك دماغ كهذا يحسّن من بقاء الجينة.

الجدير ذكره أنني أتعاطف كثيراً مع هذا الموقف. ولا أشك في وجود منافع جينية لامتلاكنا الأدمغة التي نمتلكها»[1].

يجعل دوكنز نفسه ممثلاً عن الآخرين، ينطق عنهم ويصوّر اقتناعهم، ويستخدم لغة التعميم الخطابي، ويقفز أنى شاء من علم الأحياء والجينات إلى علم النفس، وبدل أن يكون الدليل هو من دائرة اختصاصه يتحول الموقف إلى تحليل في عيادة نفسية، من السهل قلب وصفها اللغوي هذا وتمديد دوكنز ودعواه على السرير المَرضي نفسه. وفي المحصِّلة ليس لدينا من شاهد عياني أو تجريبي سوى دعوى تتقوى بالبيان فقط:

«هل أصبح ميم الله على سبيل المثال مرتبطاً بميمات أخرى، وهل يدعم

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٣١٤.

هـذا الارتبـاط بقـاء كل مـن الميمـات المشـاركة؟ ربمـا يمكننـا النظـر إلـى الكنيسـة ببنائهـا المعمـاري وطقوسـها وقوانينهـا وتراتيلهـا وفنونهـا وتقاليدهـا المكتوبـة باعتبارهـا مجموعـة ثابتـة مـن الميمـات المتعاونـة المتكيفـة معـاً.

وأذكر كمثال خاص على ذلك جانباً في العقيدة أثبت فاعليته في تطبيق القوانين الدينية، وأقصد تحديداً التهديد بنار جهنم. فالعديد من الأطفال وحتى بعض الراشدين، يعتقدون أنهم سيلاقون ألواناً من العذاب بعد الموت إن هم لم يخضعوا للأوامر الكهنوتية. ولا شك في أن هذه تقنية مقيتة للإقناع سبّبت الكثير من الكرب النفسي خلال العصور الوسطى وحتى في أيامنا هذه. لكنها في الواقع تقنية شديدة الفعالية. وربما خطط لها متعمداً رجل دين مكيافيلي متمرّس في تقنيات التلقين النفسي العميق. لكنني أشك في أن يكون رجال الدين على هذا القدر من الذكاء. والأرجح أن تكون الميمات غير الواعية قد ضمنت بقاءها بفضل تلك المزايا نفسها للقسوة الزائفة التي تحسن الجينات استعراضها. ففكرة نار جهنم هي بكل بساطة فكرة أبدية تتكرر ذاتياً بسبب تأثيرها النفسي العميق. وقد ارتبط هذا الميم بميم الله لأن أحدهما يعزز الآخر ويساعد على بقائه في الجمعية الميمية.

وأذكر عضواً آخر في مركب الميمات الدينية هو الإيمان. والمقصود بالإيمان الثقة العمياء بصعوبة الإثبات حتى في ظل غياب أي إثبات. والواقع أن قصة توما المشكك لا تُسرد من أجل حملنا على الإعجاب بتوما، وإنما بغية تمكيننا من الإعجاب بالتلامذة الآخرين مقارنة بتوما. فتوما كان يطالب بالإثبات، ولا شيء أشد فتكاً ببعض أنواع الميمات من البحث عن الإثبات. أما التلامذة الآخرون الذين تمتعوا بإيمان قوي بحيث لم يحتاجوا إلى أي

إثبات، فيتم تصويرهم لنا كقدوة يُحتذى بها. والواقع أن ميمة الإيمان تضمن خلودها الذاتي الذريعة اللاوعية لإحباط الاستفسار العقلاني.

ولا بد من الإشارة إلى أن الإيمان الأعمى يبرر أي فعل. فإن كان أحد الرجال يؤمن بإله مختلف، أو حتى إن كان يعتمد طقوساً مختلفة في عبادة الإله نفسه، فقد ينص الإيمان الأعمى على ضرورة موته، يموت على الصليب أو على عمود الإعدام حرقاً، أو ينغرز في صدره سيف أحد الصليبيين، أو تُطلق عليه النار في بيروت، أو يُغتال في انفجار في أحد ملاهي بلفاست. فلميمات الإيمان الأعمى طرائقها القاسية الخاصة للانتشار. وهذا الواقع ينطبق على الإيمان الوطني والسياسي كما ينطبق على الإيمان الأعمى»[1].

إن التعصب لدين ما، أو مذهب ما، لا يختلف عن التعصّب لأي فكرة ما، فحتى في مجال الشِّعر والفن هناك تعصبات وانغلاقات، وهذا لا يبرر نفي الشعر أو الفن، مثلاً. فالتعصّب للفكرة هو حالة نفسانية ليس من الضروري ارتباطه بالفكرة نفسها. وقد رأينا كيف حتى نظرية التطور والانتخاب الطبيعي تقع فريسة للتعصّب والانغلاق كحال جملة من طلبة السنوات الأولى في بعض كليات الطب أو بعض هواة قراءة الكتب العلمية. أو الذين يجدون في مثل هذه الكتب مادة مناسبة كي تتحول إلى خطاب تجريحي ضد مآزقه الشخصية مع الدين وأصوله العائلية والجماعية التي فشل في الانسجام الاجتماعي معها.

كما أن الإيمان أوسع من فكرة الإله والدين، حيث يُمكن أن تتحول أية نظرية علمية أو فنية إلى إيمان مطلق وأيديولوجيا شمولية، ومسألة الإيمان

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٣١٩.

بـلا دليـل أمـر يخـص الاتجـاه العـام فـي المسـيحية وبعـض الأديـان القديمـة، ولا يمكـن تعميمـه علـى كل صياغـات فكـرة الإلـه والديـن، إلا مـن بـاب إهمـال التتبـع التاريخـي والخلـط بيـن أقـوام وأديـان وأفـكار، بحسـب مرجعيـة التقاطيـة شـمولية، تكـون هـي نفسـها عبـارة عـن إيمـان بـلا دليـل ولا يهمهـا الدليـل، وهـذه هـي حالـة ريتشـارد دوكنـز نفسـه وآخريـن، حيـث يبقـى موقفهـم مـن الإلـه والديـن ثابتـاً سـواء صحـت أمثلتهـم واسـتدلالاتهم أو لا.

ويبقى حق تساؤل آخر هنا: هل نحن أمام محاجات على أساس واقع تجريبي مادي حقاً أم على أساس تفلسف يستعين بالفلسفة وهو يقول بعدم جدوى الفلسفة وموتها؟!.

الرجل نفسه لا ينكر أن محاجته «فلسفية» وليست أدلة ضرورية لعلم الأحياء والطبيعة[1]، إذن، كيف تصح دعواه بأنه أطاح الدين «علمياً» وأن «العلم» وحده وبذاته يهدم الدين، وأن الفلسفة قد آن للعلم أن يحمل نعشها إلى مثواها الأخير؟!.

أم أن الفلسفة تخرج من تابوت رفضها كمشجب احتياطي في مصارعة الدين فقط؟!.

*

هنـاك مشـكلة أخـرى فـي عمـوم الإلحـاد علـى أسـاس التطـور، إذ توجـد قـراءة انتقائيـة تكيـل الأمـور بانحيـاز نفسـاني: فهـم حينمـا لا يعرفـون وظيفـة عنصـر مـا، يسـارعون إلـى القـول بـأن هـذا دليـل علـى العبثيـة وبالتالـي نفـي الصانـع الذكـي.

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٣٢٤.

لكنهـم حينمـا يحـارون فـي ظاهـرة أو فـي عنصـر مـا يقـع ضـد فكـرة التطـور يقولـون إنـه لا بـد مـن وجـود تفسـير مـا وإن لـم نعرفـه الآن، كمـا هـي حالـة الكـم الفائـض مـن الحمـض النـووي الريبـي، وبالتالـي مهمـا كان حجـم المجهـولات التـي لا يفسـرها التطـور ولا يـدري الانتخـاب الطبيعـي عنهـا شـيئاً لا تقـدح بالتطـور، لكـن حينمـا لا تُفسّـر مقولـة التصميـم الذكـي قضيـة مـا، تكـون دليـلاً علـى خطإهـا بـل علـى حماقتهـا بالضـرورة!!

«فإذا كانت «الغاية» من الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين مراقبة عملية بناء الأجساد، فمن المستغرب اكتشاف أن كمّاً كبيراً من الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين لا يسعى إلى تحقيق هذه الغاية. الواقع أن علماء الأحياء يجهدون لاكتشاف الوظيفة المفيدة التي يضطلع بها هذا الفائض الظاهري في الحمض النووي المنقوص الأكسجين»[1].

لماذا إذن، لا يتم التعامل مع الأعضاء التي نخالها «ظاهرياً» فائضة بلا منفعة بالمقياس نفسه الذي يستخدمه العلماء في اجتهادهم لكشف حقيقة منافعها الخفية حتى الآن، فيكون عدم النفع هو قضية مرتبطة بكون وضعنا الراهن لا يسعفنا على المعرفة، خصوصاً وأنه تم تكرار خطأ هذا الحُكم في أعضاء أخرى مراتٍ عديدة؟!

ثـم إن اكتشـاف أن عضـواً مـا صـار أثريـاً بعـد أن تطـور هيكلـه العـام بمـا لا يحتـاج إليـه، هـو نفسـه سـيرة عقليـة تخفـف اقتصـاد التغذيـة والعنايـة، وبهـذه الحالـة حتـى لـو ثبتـت قصـة الأعضـاء الأثريـة[2]، فهـي جـزء مـن صـور العقـل العـام الـذي

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٦٦.

(٢) ونحن دائماً لا نضع أنفسنا طرفاً في المسألة بل نحيلها على اختلاف طويل وعميق بين أهل الاختصاص أنفسهم.

نجـده فـي كل عناصـر الوجـود، وليـس هـو دليـل نفـي، إلا عبـر تأويليـة ذهنيـة هـي نفسـها قصديـة وغائيـة وتعليليـة، تحـاول رفـض كل ذلـك و تسـتثني نفسـهادائماً!.

إن التعميم يلغي جذرية المناقشة، إذ إن الإنسان وإن استفاد من العلم في الابتعاد إلى حدٍ ما عن أساطير مُعينة، لكنه لم يمنع الإنسان أن يبني أساطير وخرافات جديدة. ولو صح أن للعلم دوراً في نفي صورة مُعينة عن الإله فإن ذلك لا يخولنا تعميم النتيجة على كل صياغات فكرة الإله وكل أنواع الدين، ذلك أن فكرة الإله بين الإلهيين أنفسهم يبلغ فيها الاختلاف حجماً يصل إلى أن مفهوم الله هو اختلاف «لفظي» بينهم، فضلاً عن الاختلافات المعنوية[1]. وكل تفسير كمعنى فكرة وجود الله وعلة العلل لا يعني تفسيراً خوارقياً كاريكاتورياً، ففكرة الإله تنطلق من فكرة التعليل، والقوم يفتشون عن الله فلا يجدونه لأنهم أساساً يقولون بأن الكون صدفوي وفي الوقت نفسه يستغربون وجود علة كبرى له!

وفي الدراما التي تصورها الداروينية، فإن هيولى الأشياء، خلية بسيطة ذاتية الانقسام. فمن أين لها هذه القوة ولماذا؟!

فهذا ما لا يتحدث به الداروينيون لكونه ببساطة خارج العلم التجريبي[2] عموماً وخارج اختصاصهم، خصوصاً، فهناك دائماً تعليلات الطبيعيات التي تنتهي إلى جدار لا يستطيع العلم إلا أن يقول إن هذا هو بهذه التركيبة والخصائص لأنه هكذا، ويسكت.

---

(١) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٨.منشورات مؤسسة الأعلمي_ بيروت ١٩٩٧.

(٢) بل حتى لو أجرينا تجربة مادية محسوبة بدقة وكانت لمصلحة الدين فيجب أن لا نأخذ بها، كما يعرض دوكنز نفسه لتجربة اختبار الدعاء، التي كانت نتيجتها إيجابية،ولما تم تطبيقها على الطب البديل كانت سلبية (العلم والحقيقة، ص٣١٧). علماً أن دوكنز يراجع بعض الأحيان أطباء دجالين (العلم والحقيقة، ص٣٢٠).

لكن يبدو أن الدوافع النفسية وعللها، أو ضعف الثقافة المنهجية للتفكير العام الحيادي، وجعل العلم خصماً لاهوتياً أو لاهوتاً بديلاً ،هي التي تجعل من الهالات اللغوية اللفظية الركن الركين لاعتماد عُقد عَقدية، فحينما يتحدث علماء الأحياء عن عنصر الكربون ويقولون إنه يُنظّم النسخ من ذاته، أو أن البلورات تتجمع «ذاتياً»، أو أحد نصفي اللولب المزدوج لجزئي الوراثي، يتجمع «ذاتياً»، والفيروسات تتجمع «ذاتياً»، وذاتياً هنا تعني اكتفاء تركيب الخلية لحدوث فاعلية ما بدون دخول عامل أو عنصر خارجي، ولا علاقة له ببحث الذاتي بمعناه الفلسفي الذي هو المؤثر في بحوث العلة والمعلول وبالتالي سؤال حقانية فكرة وجود الإله أو بطلانها. فهنا مغالطة سببها الاشتراك اللفظي وعدم الدقة الاستعمالية للمصطلحات، وأحد أسباب ذلك أن دوكنز وأشباهه من الملاحدة، كما سوف نقرأ، يرفضون الالتزام بحدود الاختصاصات بين العلوم. فكأن كلمة «ذاته» توحي وكأن الكربون موجود غير إمكاني، وأنه لايحتاج إلى قوة خارج نفسه، فهو وحده بدون الحاجة إلى أي شيء ليكون بهذا التركيب وبهذه الخصائص. وهذا الإيحاء اللغوي على بساطته هو بنية العصب في أطروحات كل المُلحدين على أساس من البحث[1].

بما أن ميكانيكا الكم مبنية على مبدأ اللادقة وفتح الاحتمالات ،لا وقفها، وبالتالي تتم قراءة تحديد الجسم وحركته، قياساً على مسألة الرصد وليس الجسم المرصود. ومن هنا توجد في عملية الرصد حالات متناقضة لقطة شرودنغر وفي الألكترونات وجسيمات ما تحت الذرية، أما المرصود كما هو فهو ليس له سوى حالات مُعينة هي التي تجعلها موجودة فعلاً في

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص ٨٦.

عالم الخارج. وفي النهاية فإن قوانين ميكانيكا الكم والأوتار أو غيرها، إما هي موجودة وإما معدومة، وبغير ذلك يتم نفي هذه الفيزياء الحديثة قبل غيرها.

هنا يرمي دوكنز بواحدة من «فتاويه» العلموية بضرورة القفز على فلسفة العلوم، وجعل ما يقتنع به هو، مقياساً لاقتناع الآخرين. ومن هذا المنطلق يرفض تقسيم السؤال العلمي إلى السؤال بـ«كيف» والسؤال بـ«لماذا»، وذلك هرباً من الفلسفة، لكن على أي أساس يتم ذلك؟!

خصوصاً وأن أسئلة العلة هي أساس البحث العلمي وبدونها لايمكننا تكوين شرائط الاستدلال الممُنهج في أي نوع استدلالي؟!.

ولا معنى للانتقائية بقبول بحوث العلية فيما يخص علاقة الانتقال من جمع الأحافير وتشريح الهياكل والقول بالتطورية مثلاً، أو علية الصحة وتناول نوع من الأغذية أو الأدوية، في علوم البيولوجيا، ونكران هذه البحوث فيما يخص مسائل وعلوماً أخرى؟!.

لا جواب سوى أن النكران يجري هنا على أساس الادعاء فقط، ادعاء يعترف بأن هناك أسئلة عميقة في الكون تبقى تتجاوز العلم، لكنها لا تستحق الإجابة!.

بل إن دوكنز في مرات عديدة، كما سيطلع القارئ بنفسه، لا يسير إلا على مبدأ سؤال العلة وسؤال الـ «لماذا» الذي يتحول إلى سؤال ممقوت فقط حينما نتحدث عن الإيمان، وإلا فسؤال الـ«لماذا» هو أرقى ما يمكن للكائن أن يصل إليه وهو ذروة هرم التطور«تبلغ الكائنات العاقلة في أي كوكب، سن

الرشـد عندمـا تنجـح فـي اكتشـاف علـة وجودهـا»[1]. لكـن فـي حوارنـا مـع المؤمنيـن فقـط يغـدو كأنـه أسـخف الأسـئلة وأكثرهـا مدعـاة للاسـتهجان.

يؤسفنا أنه في الأسئلة الصعبة يتم اعتماد المزاجية البحتة، من قبيل الرد على مشكلة أن الداروينية تقتضي وجود ملايين الأحفورات لملايين الأنواع التوسطية، لكون كل مخلوق حي صار على ما هو عليه عبر تغيرات طفيفة جداً حدثت خلال مدة زمنية هائلة، وجميع الشواهد تواجه جدلاً كبيراً ويتم تلقيها بقراءات متباينة بشدة؟!

فإذا بالرد يكون من قبيل:

«أننا لا نحتاج المُتحجرات لكي نُبرهن أن التطور حقيقة. فحتى في حالة كتلك لكانت الأدلة على التطور آمنة تماماً حتى لو لم تكن جثة واحدة قد تحجّرت قط. إنها علاوة كوننا لدينا حقاً طبقات غنية بالمتحجرات لتُستخرج، والكثير يُكتشف كل يوم..رغم ذلك فهناك بالتأكيد، ثغرات، والخلقيون يحبونها بهوس»[2].

---

(١) الجينة الأنانية ، مرجع سابق، ص٩.

(٢) أعظم عرض على الأرض، مرجع سابق، مطلع الفصل السادس. يحتج التطوريون عادة أنه لماذا إذن نجد المُتحجرات في الطبقة الجينولوجية المحسوبة بمنطق التطور، ويتم العثور عليها في أغلب الأحيان في المناطق المُحددة؟!..وهذه ليست حجة تُثبت نظرية داروين لأن نوعاً خرج من نوع ولا علاقة لها بها، لأن الساعات الإشعاعية وغيرها، قسم منفصل بنفسه قبل وبعد داروين. فضلاً عن أنها تثير مشكلة كون كل المخلوقات زمنية ولها بدايات فهي مُحدثة محتاجة لا تملك وجودها وبالتالي يكون ذلك دليلاً على المعلولية الفلسفية ودليلاً علمياً على صحة قضية اللاهوت وليس نفيها.

وبالطبـع هنـاك مشـكلة لغيـر المتخصصيـن حيـث هنـاك بحـوث تقـول بوجـود متحجـرات إنسـانية وغيـر إنسـانية خـارج التحقيـب التطـوري لكـن يجـري إهمالهـا، مثـل تبـادل التكذيـب والسـخرية حـول الهيـكل العظمـي البشـري الياثيوبـي المسـمى «أردي» وهـي

بمعنى أن نبقى نؤمن بالداروينية من خلال المتحجرات التي لم تُستخرج ولم نعرفها بعد!. وأننا مازلنا ننتظر ذلك الضوء الذي وعدنا به داروين، وأن واحداً من أدلة التطور هو هذا الضوء الموعود الذي هدم لنا عقيدة المُخلِّص الموعود![1].

وكل الحفاوة بالعلم التجريبي، هي حفاوة مُثقلة بالأدب، الأدب الذي يجعله دوكنز توأم العلم في كونهما «من أهم منجزات الإنسان العاقل، وهما يُبرران اكتسابه لذلك الاسم»[2]، في حين أنه وفقاً لبيانات الداروينية المتشددة لا يبقى للأدب قيمة واقعية، مع ذلك يتم تصوير العلم وكأنه حراجة دينية فقط.

= أحفورة قيل إنها أقدم من أحفورة «لوسي» بمليون سنة بل هؤلاء كما يقولون إن «أردي» أقدم حتى من الشمبانزي نفسه، ومن المضحك الرد بأن جمجمة أردي تشبه جمجمة القرد، فلدينا قوميات إلى اليوم جمجمتها تحمل هذا الشبه الخارجي، وهم لا يختلفون عن أي إنسان آخر، لكن التطوريين يعتبرون هذا تزويراً فـ«أردي» مرتبط بسلفنا المشترك بيننا وبين الشمبانزي وليس بعده وأطرافه العلوية أطول من السفلية. لكن الخصام ولغة التشهير في مستحاثة «تيكتايك روزيا» هما نفسهما والنقاش نفسه حول الانفجار الكامبري الذي خصص دوكنز له بحثاً مطولاً في كتابه «تفكيك قوس قزح». الأمر الذي يعود بمسألة الداروينية كإيمان إلى مشكلة المعرفة التاريخية التي بدونها لا يمكن لغير المختص الإنصات إليها، وإن تم استخدام المعرفة التاريخية وآلية اعتماد الثقة فهذا يعني فتح باب الأديان. وليس علماء وطلاب علوم الطبيعة بذات النزاهة المُفترضة وجميعنا يعلم حجم الشهادات المزورة وسرقة البحوث ونرجسية الشهرة بادعاء قضايا لا أصل لها، حتى أن أنصار دوكنز يقرون بمعاناتهم جراء سرقة طلابهم لبحوث دوكنز وطرحها في تقريراتهم (دوكنز، عالم غيّر أفكارنا، ص٦٤) هذا كله يُربك نقد الدين بالقفز على إشكالية المعرفة التاريخية..

(١) أعظم عرض على الأرض، مرجع سابق، مطلع الفصل السابع، وفي «العلم والحقيقة» و«سحر الواقع»، قد كرر دوكنز الحديث عن نبوءة داروين هذه، حيث لم تكن لديه أدلة كافية تدعم نظريته، لكنه اتكل على ما يأتي به المستقبل.

(٢) فصول من الكتابة العلمية الحديثة، مرجع سابق، ص١٤.

الأكثر هُزلاً هو الخلط بين المختصين بالمعارف الدينية، وبين رجالات الدين:

«طلبتُ ذات مرةٍ من فلكي مرموق، هو أحد «الزملاء» في كليتي، أن يشرح لي «الانفجار الكبير». وفعل ذلك بأفضل قدرته (وقدرتي)، وسألته بعدها عما يكون الأمر فيما يتعلق بقوانين الفيزياء الأساسية التي جعلت في الإمكان وجود بدائية تلقائية للمكان والزمان.، فقال مبتسماً «آه، سوف ننتقل الآن إلى ما يتجاوز مجال العلم. هذا شأن حديث يتعين عليَّ فيه أن أترك الأمر لصديقنا القس الطيب». ولكن لماذا يتركه للقس؟ لماذا لا يتركه للبستاني أو الطاهي؟»[1].

إذن، دوكنز نفسه لم يستطع سوى اللجوء إلى «أسئلة لماذا»؟!. وميادين العلوم التجريبية لاعلاقة لها بهذه الأسئلة فكيف يتم طرحها كأجوبة؟!.

أما اللجوء إلى شخص مهتم بشؤون الدين وليس إلى بستاني أو طاهٍ، فيمكن حله بواسطة الأكثر احتمالية، مقابل الصفر. فالتراث الديني في النهاية فيه تأملات ذهنية تُفيد رافعة للوعي البشري، بغض النظر عن الإيمان بها من عدمه، وهي حاوية لأفكار مختلفة بعضها شبيه بالأفكار العصرية لكن كان ينقصه الاستدلال والمنهجية القابلة للتنبؤ والتعميم، بينما ماذا يعطينا البستاني الطيب والطاهي المسكين؟!.

إن التشديد على المادية الحسية، لا يلغي الدين أو فكرة الإله فقط، بل يلغي قضايا عديدة لا غنى عنها مثل الفلسفة والفن والأدب[2]. ما الفرق في تلقي لوحة فنية بين طاهٍ أو بستاني بسيط وأستاذ بيولوجيا منغلق على المعطى الحسي، وبين متمرس فني؟

---

(١) \العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٥٩.

(٢) وإن كانت القضية تُصور كأنها تخص الدين فقط، فلو تم لكان يجب إلغاء كراسي قسم الفلسفة والفن وليس طرد قسم اللاهوت فقط.

الشخص الأخير فقط هو الذي يدرك روعة فن اللوحة ويُبحر في دلالاتها، ولا يقبل البتة أن تعطي أي صدفة تراكمية مهما بلغ حجمها لوحة كالتي أمامه. بينما الآخرون لا يرون سوى لطخة الألوان والقماش، فهذا هو ما يمكن اختباره في النهاية. وإن كانت كتب ومقابلات دوكنز الصحفية متناقضة بين القول الصريح بالحتمية الجينية حد إمكانية تصنيع بشر موسيقيين وبشر شعراء وبشر مقاتلين وبشر..الخ[1]، وبين محاولة دوكنز التملص من هذه الحتمية التي هي في النهاية تُلغي فكرته لأن من يقبل الداروينية سيكون

(١) أعظم عرض على الأرض، مرجع سابق، الفصل الثاني.لكن سواء قمنا بتحسين الأبقار كي تنتج حليباً أكثر أو تحسين الإنسان كي يكون أذكى، في النهاية نحن لا نفعل سوى «استعمال» قانون موجود ليس إلا، قانون عقلي كشف لنا مجريات الكائن، لنتبع هذه المجريات في الكائن ونستفيد أو نتضرر منها وهذا لا يعني أننا صرنا آلهة، تماماً حينما نستعمل قدراتنا الجسدية والذهنية التي نحن نتاج لها وليست نتاجاً لنا، ونقوم بتحويل الحديد إلى سكين قاطع أو لا مع أو غير ذلك، أو نستغل قوانين الضغط الجوي للطيران أو ضغط الماء لصنع السفن، أو هي مازلنا نسير داخل العالَم في نهاية متطورة وذكية لكنها من ناحية الكيف تشبه تحويل خشبة إلى حطب بالنسبة إلى أسلافنا القدماء، فاتباع تكوينات الخلية كي يكون الذئب كلباً «لو افترضنا أن ما نشره البعض من أن الذئاب فصيلة مستقلة، ليس بصحيح» وتحويل الملفوف البري إلى قنبيط، يشبه تحويل الماء إلى بخار حينما نعرض جزئياته إلى الحرارة أو تحويل الهواء الحار إلى ماء بتعريضه للبرودة، إن هذا لا يعني أنهم صيروا الخشب قابلاً للاحتراق أو أن يطفو في الماء، ولا خلقوا قوانين الشعاع والاحتراق في النار ولا نحن من أوجدنا خاصية جزيئات الماء والهواء وأوجدنا هذه العلاقات، نحن نستعمل ما في الوجود ولا فرق في هذا الاستعمال بين حجر في حديقة أو قوانين استقرار الحجر أو اتخاذ مواد بنائية منه، وكما أن سيطرتنا على منافع الحجر ومضاره وخواصه لايعني قطع حصة من الإله بمقدار حجر، كذلك معرفتنا لخواص الحيوانات أو النجوم أو المجرات، لا يعني قطع حصة من الإله الذي هو نقطة توازن وارتكاز وبدء وانتهاء هذه القوانين ومواضيعها ومكتشفها والمُستفيد منها معاً.

مجبراً على قبولها ومجبراً على إنكار الألوهية، ومن يقل بالخلقوية والتصميم الذكي مُجبر أن لا يؤمن بالداروينية، وبالتالي عبثية أن يكتب أحد لُيقنع الناس بالداروينية أو بالإلحاد، ومن التناقض لوم المتطرفين على شيء ولا معنى للسخرية بمن يتشدد في الأساطير والمعتقدات، فهؤلاء «علمياً» صنعهم الانتخاب الطبيعي هكذا جينياً. الخلاصة أن الجين الأناني لم ينقض نفسه فقط بل هدم كامل الداروينية والانتخاب الطبيعي جزئياً وكلياً!!.

إن موضوع الدلالة وحده هو اللوحة، لكن الدلالة والمدلول، مختلفان كلياً. هذا واحد من أوجه الفرق بين قراءة الكون بمعرفة إيمانية وبين مطالعته بكونه مجرد أكوام من الحجارة الصغيرة، حيث الذرات والخلايا، والحجارة الكبيرة، حيث الكواكب. وهذا شبيه بمن ينصت لصوت لغة لم يسمعها ذات يوم، فهو لن يجد فيها سوى أصوات مُزعجة، أو خربشات لا معنى لها، لكن تعلّم اللغة ومعرفة قصديتها هما اللذان يفتحان لك داخل الموجود المادي، بل قوامه هو أمر آخر غير مادي لولاه لما كان موجوداً أساساً وبدونه لا يبقى مُستمراً في الوجود.

ويتبقى علينا أن نسأل هنا: إذا كان هناك أسئلة «تتجاوز» العلم، فكيف ببعض العلم نحكم على الكون كله ونلغي ما يتجاوز الكون، الذي لم يبلغه العلم كله، لنقول إنه بـ«العلم» حكمنا على الكون وما هو أكبر منه بأنه وهم؟! خصوصاً التطور الذي بعض سلاسل توثيقه يستحيل توثيق أية متحجرات عنها؟![1].

(١) لماذا التطور حقيقة، مرجع سابق، ص٢١، الأمر الذي يعني أن مواضيع عديدة من نظرية التطور تعتمد الاستنتاج العقلي والدلالات الالتزامية، وليست هي نظرية حسية كاملة، مع ذلك أتباع هذه النظرية هم الأشد قدحاً بالفلسفة والنظرة العقلية! وهو تعامل براغماتي منحاز إلى المناهج.

هنا أيضاً لا يوجد لدينا سوى الادعاء فقط!. وبالتالي هو يستبعد علمية أية محاولة في التقاء العلم والدين، حتى لو كان من قبل مختصين في مجالاتهم الفيزيائية أو غيرها، ويعتبر ذلك مجرد استرضاء ثقافي ساذج، أما لماذا وهي بحوث من قبل اختصاصيين أكاديميين؟!.

فهذا ما يجب قبوله كفتوى من قبل كاهن الإلحاد وقسيس اللادينية الصلب:

«تؤدي هذه السياسة من الاسترضاء الثقافي في أكثر صورها سذاجة إلى تقسيم المجال الثقافي إلى منطقة «لأسئلة بكيف» (العلم) ومنطقة «لأسئلة بلماذا» (التراث العقائدي). ما الذي تكونه تلك «الأسئلة بلماذا»، وما هو السبب في أننا ينبغي أن نشعر بأنها تستحق إجابة عنها؟. قد تكون هناك بعض أسئلة عميقة عن الكون ستظل أبداً مما يتجاوز العلم. أما ما هو خطأ فهو أن نعتقد أنها بالتالي لا تتجاوز التراث العقائدي أيضاً»[1].

أما ما يخص تجاوز البحوث العقائدية، فمن المكابرة رفض مقدار كبير من مقولة دوكنز. لكن هذا ليس نقضاً. فالبحوث المتعلقة بالفهم ليس لها نهاية ولا قول كامل صلب، ومثل هذا الأمر لا يدعيه سوى الحرفيين والسلفية النصوصية الجامدة، بل نحن لا نعتقد بقيمة البحوث الدينية حينما نقطعها عن العلم والحياة[2]، والعلم واحد من العناصر التي تغني المفاهيم الدينية. فحتى مفهوم «الله» مثلًا لا يمكن مقارنته بين مؤمن له اطلاع واسع

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٥٩.

(٢) جدل التشكّل والاستلاب، مرجع سابق، ص٧٥، ١٢٢، ١٥٤.وانظر كذلك: البناء والانتماء، ج٢، دار الفارابي، ٢٠١٤، ص٥١٨.

على علوم الحياة، وبين مؤمن لا يعلم سوى كتب الفلاسفة القدامى والفقهاء والمتكلمين الموتى، وبين مؤمن شعبي من عامة الناس يتلقى هذه المفاهيم بما لديه من خيالات شبه كاريكاتورية. إن التعمّق العلمي هو الذي يجعل المؤمن يستشعر ويتأمل بمعنى أعمق بكثير من مؤمنين يحملون مفاهيم مُحنطة كإيقونات حجرية. وواحد من أغلاط دوكنز وأشباهه، هو حصرهم المفاهيم الإيمانية بالقسم الأخير فقط، فهم لا يحاسبون سوى الإيمانوية المتخشبة، حيث المفاهيم الدينية منحوتات جامدة وليست مفاهيم وجودية حية مروية بمعلومات الكشوفات الجديدة للتنقيب البحثي المعاصر.

هل يتريث دوكنز في لغة التجريح؟ وهو الذي يقول بصراحة: «إن العلم ليس محايداً سياسياً»[1]، وبالتالي فنحن وجهاً لوجه مع تحيزات القوة واستعمالات العلوم والآداب من أجل تقويض خصوم السلطة العلموية الصاعدة ضد سلطة الأديان التي باتت شبه مُندثرة أو هكذا يتم تصويره لنا.

كلا، فالرجل لا يفوت فرصة في الإمعان في تهوين الخصم والسخرية به، وعدم التوقف عند حدود محاولة التفهيم، التي وحدها من مقتضيات المحاجّة العلمية:

«ينبغي على اللاهوتيين إن كانوا يريدون أن يظلوا شرفاء، أن يحددوا خيارهم. في وسعهم أن يزعموا لأنفسهم سلطة معرفية تخصّهم، منفصلة عن السلطة المعرفية للعلم، ولكنها ما زالت تستحق الاحترام. إلا أنهم سيكون عليهم في هذه الحالة أن ينكروا المعجزات. أو أنهم في وسعهم أن يحتفظوا بما لديهم من قديسات لوردز وما لديهم من معجزات، وأن يستمتعوا بما

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٣٥.

لديهم من إمكانات هائلة لتجنيد حشود من غير المتعلمين. ولكنهم في هذه الحالة يجب أن يرموا قُبلة وداعهم للسلطات المعرفية المفصلة وطموحهم الذهني الراقي للالتقاء بالعلم»[1].

وفي الختام يدعو دوكنز ليس إلى إنكار الدين فقط، بل الاعتراض على وجوب احترام الأديان أيضاً، وذلك لسببين: الأول أن رجال الدين يطرحون قناعات خالية من الدليل، وثانياً لكون الأديان مختلفة فيما بينها وبالتالي فلا نعلم أيهم حق وأيهم هو الباطل؟!:

«لماذا يذعن مجتمعنا في خنوع لتلك الفكرة الخيالية المريحة من أن آراء رجال الدين لها الحق بطريقة ما في أنها يجب أن تُحترم تلقائياً وبدون أي تساؤل؟ لو أني أردتك أن تحترم آرائي في السياسة أو العلم أو الفن، سيكون عليَّ أن أكتسب هذا الاحترام بقوة الحجة، أو المنطق، أو الفصاحة أو الدراية بما يتعلق بالأمر. وسيكون عليَّ أن أصمد لما يوجد من حجج مضادة. أما عندما يكون لدى رجل الدين رأي يعده جزءاً من دينه، فسيكون على النقاد أن يبتعدوا باحترام وهم يسيرون على أطراف الأصابع، أو أن يتحملوا بشجاعة نقمة المجتمع عموماً. لماذا تكون وجهة نظر رجل الدين خارج حدود التناول هكذا؟ لماذا يجب علينا احترامها لمجرد أنها آراء رجل دين؟

وبالإضافة إلى هذا فإنه كثيراً ما يكون هناك تناقض متبادل بين رجال الأديان المختلفة، كيف سنقرر أيهم الذي ينبغي أن نقرر منحه هذا الاحترام دون أي تساؤل؟»[2].

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٦٢.

(٢) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٦٨.

لقد تناسى دوكنز كلامه عن كمية الغموض الواسعة التي لم يستطع العلم تجاوزها، كما تناسى أن هناك أموراً عديدة هي بلا حجة ولا دليل، بل مجرد لزوم فرض بداية أو صياغة ما، كي يتمكن العلماء من ولوج البحث والمتابعة.

ومع ذلك هل جميع الأديان تطرح عقائدها بلا دليل؟ وهل رجال الدين كافة مهذارون بلا مستندات حِجاجية؟! وهل مجرد الاختلاف يعني البطلان؟.

هناك اختلاف عميق وكبير بين مدارس الداروينية فهل يعني ذلك بطلانها، لكون غير المتخصصين سيقرأون مئات الكتب المتناقضة فيما بينها فضلاً عما بينها وبين خصومها، تماماً كما يقرأ عالم بيولوجيا معتقدات الأديان وفلسفتها ويتيه فيها، كأنه ريتشارد دوكنز؟!.

بالنسبة إلى الشرف والقيم الأخلاقية الأخرى التي ينادي بها دوكنز، فسأترك للقارئ أن يحدد موقفه مما سيقوله دوكنز نفسه عن الأخلاق من وجهة نظر إلحادية داروينية.

أما «السلطة المعرفية للعلم» فهي مبنية على تحديد العلم نفسه المتعلق بأسئلة العليّة. فالعلم واللاهوت هنا فرع لحوض واحد.

في حين أن مسألة المعجزات، ففضلاً عن كونها ليست قضية مركزية في عموم الدين كدين، وأن هناك تفاسير لاتجعلها ضد الطبيعة تتطابق من ناحية المبدأ مع شروحات مقبولية المعجزة في كتاب «سحر الواقع». فإن دوكنز نفسه سوف يطرح لنا أن المعجزات مقبولة كلياً من وجهة نظر علمية خالصة،حتى لو كانت بمستوى مشاهدة إلقاء التحية علينا من قبل تمثال مصبوب من المرمر.

دوكنز يطرح الداروينية كنظرية للحقيقة باعتبار أن النظرية «مخطط أو منظومة من الأفكار أو الجمل تُعتبر تفسيراً أو سبباً لمجموعة من الحقائق أو الظواهر، فرضية قد أكدت أو أثبتت بالملاحظة أو الخبرة..أسباب لشيء معروف أو مُلاحظ»[1]. وبالتالي فهي ليست مجرد فرض أو تخمين،كما يغالط المؤمنين.

لكن هذا فضلاً عن كونه اختلافاً مبدئياً لا تحله سوى فلسفة العلوم وحدها وإلا لوقعنا بالدور أو التسلسل، هو منقوض من قبل دوكنز نفسه لأنه يعترف بقلة عدد الأحفورات نوعياً، ولأن عملنا على الجينات لا ينبني على الخبرة أو الملاحظة بل عبر نموذج مُصطنع ليس إلا. بل إن دوكنز في مفتتح الفصل الأول من «الأدلة على صحة التطور» يناقض نفسه في الصفحة الواحدة بين كون الداروينية حقيقة تجريبية قاطعة، وبين بقائها حتى بحلول الألفية الثالثة تعاني ثغرات عميقة الأمر الذي تطلب تأليفه للكتاب!.

وهو في كتاب «الجين الأناني» وكتاب «المظهر المتمدد»، يطرح الانتخاب الطبيعي عبر مبدأ الذاتية، فكل كائن هو نظام مُعين من الخلية الجينية التي لها قوانين ثابتة لا تتغير، تتوافق مع الظرف الذي توضع فيه، فهي قاعدة تُفسّر نفسها بكونها حقيقة ذاتية فبالضرورة، مثلاً، ينمو النبات في نوع تُربة مُحدد كي يصل إلى طول مُعين ويورق في وقت محدد، وهذا يتناقص بحسب نوع التربة الصالحة وبالعكس. وكهذا تحدث الجينات مفعولها وبهذا الثبات نحن نتنبأ بنموها وطرائق تكاثرها وموتها[2].

بل بقي التطوريون منذ داروين وحتى منتصف القرن العشرين، يؤمنون بيقين صلب بالداروينية، باعتراف متسلسل من داروين نفسه، بضعف النظرية

(١) أعظم عرض على الأرض، مرجع سابق، الفصل الأول.

(٢) عالم غيّر أفكارنا، مرجع سابق، ص٦٦.

وقلة الشواهد عليها، أو بقاء اللغة المترددة نفسها مثل مجيء النمور من الأرانب، لكن «نحن بالتأكيد لا نقول إن النمر جاء من الأرنب تطورياً على نحو مشدد بالتأكيد»[1]. فالأمر ليس فيه اعتماد على الأدلة الأمبريقية نفسها. ورغم كل هذا يختم دوكنز النقاش في مفتتح الفصل الأول نفسه من عرضه بأن الداروينية باتت حقيقة علمية ثابتة «لكن ما زال من الممكن فقط الجدل فيما إذا كان الانتخاب الطبيعي هو قوتها المحركة الرئيسية».

وهنا لا ينبغي أن يغيب عنا أن الانتخاب الطبيعي هو محور تفرعات الاستدلال لنفي الإله وتصوير الحياة ثم الوجود من غير الحاجة إلى قوى خارجة ومهيمنة عليها.

«كانت أفريقيا مهدي أنا شخصياً. ولكني غادرتها وأنا في السابعة، فكان سني أصغر من أن أدرك أن أفريقيا هي أيضاً مهد البشرية، والحق أن هذه الحقيقة لم تكن وقتها قد عُرفت. حفريات السنين التكوينية لأنواعنا البشرية كلها من أفريقيا، وتطرح الأدلة الجزيئية أن أسلاف كل البشر الحاليين قد ظلوا باقين في أفريقيا حتى زمن قريب يرجع لآخر مئة ألف سنة أو ما يقرب، فنحن لدينا أفريقيا في دمائنا وأفريقيا لديها عظامنا، إننا كلنا أفريقيون»[2].

هل يمكن إلغاء العلم حينما نجد فيه نقصاً أو جهلاً؟!

بالطبع كلا. فلا يتحتم في أي حقل معرفي أن يقول كل الحقيقة، وهو أمر غير متصور فعلياً، لأن الكائن البشري يبقى كائناً تدريجي التلقي.

---

(١) أعظم عرض على الارض، مرجع سابق، الفصل الثاني. الملاحظ أن دوكنز في هذا الكتاب وفي مثل هذه المواضع يعود إلى تحديدات جورج مندل، بينما في صانع الساعات الأعمى والعلم والحقيقة، يتحدث وفق مدارس مختلفة عنها.

(٢) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٩١.

ما هي أسرع الانتقادات للدين؟!

إنه يلغي الفضول لكونه يُقدّم إجابات، والعلماء يُحرّكهم المجهول والفضول.

لكن هذا يعني أننا وجدنا قضايا عديدة لم يتحدث عنها الدين، فهذا سوف يُحسب إيجابية من إيجابياته لكونه ترك للإنسان مساحة للمعرفة الذاتية، في حين أن الدين الذي تم انتقاده لكونه يطرح معارف، يتم نقده بالتحديد لكونه لم يطرح بعض المعارف، فهو مرفوض لكونه لم يتحدث عن الذرات والبيكتيريا[١]. إن كل شيء «منتظم بدقة كبيرة»[٢]، وواضح التناغم ولو خُلي ما بين الإنسان ونفسه وما يشاهده لما شك لحظة في وجود العلة المهيمنة، فالقول بالإله أكثر تبسيطاً من القول بالإلحاد على أساس الداروينية، لكن مع ذلك يُقال إن الحقيقة مجرد صُدف ليس إلا، وإن القول بالإله شيء مُعقد!.

إننا كتطوريين نُفسر ظهور العالم من اللاشيء[٣] وتكوّن موجداته بدقة

(١) سحر الواقع، كيف نعرف حقيقة الواقع؟، دار التنوير- لبنان، ٢٠١٣. ص١٠٠. بالطبع هناك اتجاه يقول إن كثيراً من قضايا الطبيعة مذكور في الكتب المقدسة ويوجد علماء طبيعة في مجالات متعددة دخلوا في الدين حينما فوجئوا بأن النص الديني العتيق سبق جملة من الكشوفات المختبرية والنظريات الفضائية والأنثربولوجية، ومشكلة الملاحدة أنهم يقرأون ذلك بتلق سلبي مُسبق، وعندها سيكون ذكر ذلك مدعاة للسخرية منها، وإن لم تكن مذكورة سيتم هجاؤها لأنها تسد الطريق على الفضول البشري، فهي منقودة مرفوضة بأي صورة طُرحت، هي مرفوضة نفسياً لذاتها بغض النظر عن الدليل الإلحادي المطروح ضدها.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٦.

(٣) وهذا يعني الوحدة التعاونية لخطاب الإلحاد في العالم، ففي الفيزياء وفي كتب هوكينغ ورفاقه نجد الفكرة نفسها: كان هناك لا شيء ثم انفجر وصار نظاماً!، وفي علم الأحياء في البدء كان لا شيء ثم صارت خلية بسيطة وتطورت. علينا أن لا نذهب بالتحليل بعيداً ونصمت ونفترض أن ذلك محض صدفة عفوية، وإلا سنكون من أصحاب نظرية المؤامرة!.

رياضية عالية من تراكم صدف محضة، لكننا في الوقت نفسه نرفض اعتباطية التفسير فهذا لا ينسجم إلا مع الأساطير التي تتحدث بجهل تام عن الشمس والليل والنهار والنجوم والأمراض وما سوى ذلك، لكننا في الوقت نفسه نرفض التفكير بدون السببية «فكل ما يحدث له سبب معين، أي إن الأحداث لها أسباب، والسبب يأتي دائماً قبل الحدث».

لكن مع سؤال الإله فقط، نرفض سؤال الـ (لماذا) وسؤال السبب، ونرفض تفسير أن سبب العالم يجب أن يكون قبل العالم وبما أنه قبل العالم فهو خارج عنه ومختلف عنه، حاله حال فكرة السببية في كل شيء، فهذا الأساس العلمي هو نفسه الأساس الذي يوصلنا إلى فكرة وجود الإله[1]. إن فكرة الإله قائمة على رفض فكرة الحظ والصدفة، وهي نفسها الأمور التي يحارب ضدها العلم وتناقضه[2]. ومن هنا قال قدماء المؤمنين بأن الطبيعة هي كتاب آفاقي يماثل النص الديني الذي هو طبيعة تدوينية، كلاهما عبارة عن آيات ودلالات حيث لا فصل بينهما، فضلاً عن تصوير القطيعة والتناقض[3].

هل علينا هنا ونحن نطالع انتقادات مسألة حسن الظن وحسن الطالع، أن نتغافل عن قيام الانتخاب الطبيعي على حسن حظ مستمر على شكل طفرات تقع في خط السعادة؟!.

فعملة الداروينية المتقلبة في دوران الصدفة قائمة على وقوع القطعة المعدنية على الجهة نفسها التي في الصورة، بل هي ليست قطعة عملة واحدة

---

(١) سحر الواقع، مرجع سابق، ص٢٣٦.

(٢) سحر الواقع، مرجع سابق، ص٢٣٧.

(٣) وإن كنا نرفض أطروحة أن تكون علوم الطبيعيات جزءاً من العلوم الدينية، فهذا تدمير لها، وادعاء اختزالية النص الديني لكل العلوم وما على الإنسان سوى متابعة حروفيتها تفسيراً وتأويلاً. فهذا توسعة لسلطة رجال الدين تماماً كما أن منطق دوكنز وأشباهه يوسع سلطة رجال العلوم الطبيعية على الفلاسفة واللاهوتيين.

بـل بلايـين القطـع التـي تُرمـى عشـوائياً وكلهـا تقـع علـى جهـة الصـورة نفسـها، ليـس مـرة واحـدة بـل بلايـين بلايـين المـرات أيضـاً، نتـرك للقـارئ أن يجلـب لوحـاً أكبـر مـن ناطحـة سـحاب بمليـون مـرة ليكتـب فيـه مختصـراً لقيمـة رقـم هـذا الاحتمـال المتناسـب لحسـن حـظ تلاحـم خلايـا مخلـوق واحـد فقـط، فضـلاً عـن بقيـة الكائنـات والوجـود كلـه!.

لو تجردنا من ضغط الإعلام وقعقعة المصطلحات والأسماء الأكاديمية والأفلام الملونة، التي جعلت من الانتخاب الطبيعي أمراً مألوفاً، فإنا لا نستطيع تصوّر الداروينية بكل هذا الكم من الطفرات والصُدف المتزاحمة إلا أنها عبارة عن «تعويذة» توضع برقبة العلِم![1]. وبالتالي لايكون قبولها السهل من قبل قطيع الخضوع للتعليم المؤسساتي سوى عبارة عن مرض التفاؤل المفرط والبارانويا التي يفترض أن العلم يحررنا منها ومن نقائضها.

(١) سحر الواقع، مرجع سابق، ص٢٣٩.

الحتمية الجينية ومعضلة الرؤية الكلية

تتخذ الداروينية مشكلة معقدة لمتلقيها العامي غير المتخصص، لكون مناصريها هم وحدهم مصدر الاستدلال عليها، حيث هناك قضية تفسير أخرى من قبل خصومها، بالإضافة إلى كونها النظرية العلمية الوحيدة التي صحبها كم من تزوير الأدلة والشواهد، من قبل المتعصبين لها، بشكل غير مسبوق ولا مثيل له في المجال العلمي. وحتى الآن يتم سحب بعض العينات والجماجم والأحفورات ونتائج تحليلات متعلقة بالحمض النووي أو غيره، كأدلة غير صحيحة ولا تدل على شيء. وقد صاحب نظرية التطور أيضاً، إلى وقتٍ قريب، تعصب للتطورية مع اعتراف من قبل المتعصبين لها بوجود ثغرات واسعة فيها، وأن هناك فجوات تُعيق التفسير الأساسي لها، مع ذلك بقي التمسك بالداروينية من قبل هؤلاء يُمثل تعصباً إيمانياً علموياً لا يقبل التغيّر ولا المراجعة مهما كان حجم نقص الأدلة فيه[١]، ولو كانت بمستوى قول علماء كبار لايبخس دوكنز حقهم يقولون بوضوح: «أنه لا يوجد برهان عام على أن هناك أغلبية إحصائية من خطوط السلالة التطورية تظهر نزعات ذات دافع في اتجاه تزايد التركيب»[٢]،فحتى بعض الأحفورات والحيوانات

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، ص٣٢١.

(٢) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٦٧.

التي قيل إنها كائنات تطورية، يوجد حولها سجال واختلاف وعدم تسليم، ولا أقول نقاشاً، يجعل أشد المتعصبين للتطور يعترفون به[١].

فجملة من الأساتذة يقولون إن الأحفورات التي تم تصويرها كحلقات وسطى، لا يوجد بينها وبين أحفادها الأحياء أي تغيّر واختلاف، وهذه الحلقات المتوسطة هي أقل بكثير من العمر المفترض بين البدايات والنهايات، وبالتالي من الطبيعي أن يجد المشككون أن هناك بُنية نفسية منغلقة على عقيدتها من الطبيعي أن تقوم بقولبة كل المعلومات لوضعها في خريطة صمّمت من قبل، وهي لا تتورع عن استخدام ذهنية «استصحابية» فقهية تنقل الداروينية من نظرية قرأناها كقانون في الكائنات الحيّة لكوكب الأرض، إلى كونها منطق الكون نفسه وأنه حتى الكائنات الفضائية التي لانعرف عنها أي شيء، هي حتماً ظهرت وعاشت وتعيش بفضل الداروينية ذاتها![٢].لذا قال بعض علماء الاختصاص المعاصرين بصراحة صادمة حول التنظيرات الجديدة للانتخاب الطبيعي، ومنها تنظير دوكنز، إنها بلغت مستوى من الضعف بحيث «إن التركيب الداروينى الجديد قد أصبح ميتاً في الواقع»[٣].

---

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٣٤٨. يستشكل الخلقويون بشأن عدد الجماجم المزورة أو الخاطئة التحقيب، كدليل على عدم نزاهة التطوريين، لكن المشكلة هنا أن من أثبت زور هذه الجماجم هم غير الخلقويين!. لكن بغض النظر عن التفسيرات الجديدة لما ذكره دوكنز حول التوازنات المتقاطعة بأنها اعتراف بأن سجل الحفريات لا يحتوي أشكالاً انتقالية، فإن دوكنز يقول: إن المجموعات الانتقالية «منقوصة عموماً على المستوى النوعي» ولكنها وافرة بين المجموعات الأكبر(العلم والحقيقة، مرجع سابق،ص٣٤٦). لكن هذا غير دقيق بالنسبة إلينا حيث يجب ان تكون هناك ملايين الأنواع التوسطية لكل صنف، وكل المجموعات الكبرى، قليلة جداً قياساً بهذه الكمية.

(٢) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٣٨٢.

(٣) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٥٦. وإذا كان دوكنز حاول هنا انتقاد رفاقه، فانه في مقابلة مع قناة بي بي سي، سوف يتبناها،كما سوف نرى.

قد يُسارع البعض هنا للاعتراض بأن أي تشكيك ومحاجة مع الداروينية يعني موقفاً سلبياً من علم البيولوجيا؟.

وهذا غير صحيح . فالتطورية ليست هي علم الأحياء أو البيولوجيا ولا حتى هي علم الباليونتولوجيا، ومتعلقات دراسة أشكال الحياة وتنوعها في الحقب الجيولوجية وفترات ما قبل التاريخ، ولا التطورية هي أي علم تجريبي آخر بالمرة[1]. التطورية مجرد انطلاق لتحديد بداية افتراضية كي ينفتح البحث العلمي ويتسلسل(تماماً كما هي مسائل الفيزياء المعاصرة)، كما هو شأن أقسام مختلفة من العلوم الطبيعية. وهذه البداية الافتراضية لا هي حقيقة مختبرية ولا هي ركن أساسي في فهم ذلك الفرع العلمي. ومن هنا نجد حتى دوكنز نفسه يطرح صوراً مختلفة في كتبه المُتعددة ولا يلتزم بتصوير مُعين، وذلك لأنه لا قيمة حقيقية لأي صورة من هذه الصور في قراءة ومعرفة ذلك التخصص العلمي:

«كثيرة هي النظريات في شأن منشأة الحياة. وعوضاً عن الغوص في هذه النظريات، اخترت واحدة فقط في «الجينة الأنانية» لتجسيد الفكرة الرئيسية. لكنني لم أكن أرغب في أن أترك انطباعاً بأن النظرية التي اخترتها هي النظرية الجدية الوحيدة أو حتى المُثلى. والواقع أنني تعمّدت في «الساعاتي الأعمى» أن أختار نظرية أخرى للغاية نفسها..لكنني في كلا الكتابين لم ألتزم الفرضية المختارة»[2].

(١) وكذلك الأمر في علم الفيزياء أو أي علم تجريبي آخر، فهي تقول نحن فسرنا الجاذبية بكذا، فهمنا تمدد الكون بكذا، إن الأوتار والجسيمات النوترونية قوانينها كذا، بلا أي علاقة هل هذا يعني نفي الإله أم لا؟! هل كوننا فسرنا القوانين الفيزيائية بدون فكرة الإله يعني عدم وجوده أم لا؟.

(٢) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٣٥.

لابد من تحديد بداية ما، كي يتم الدخول في الفرع العلمي، لكن دوكنز هو من يغالط بقراءة تعسفية لا علاقة لها بالعلم الطبيعي، ليجعل من عملية الانتقاء هذه كأنها هي الحقيقة العلمية الكُلية وأنها إجماع علمائي تام. وكل الحجج التي سيوردها ضد فكرة وجود الله، مبنية على هذا الإهمال لنظريات نشأة الحياة، وهي نظريات كثيرة جداً ومتنوعة كماً وكيفاً بين مشارب فروع التخصصات العلمية للطبيعيات،وهي حجج مبنية على تجاهل أهمية سؤال الماذا والبدايات، في حين أنه لا دوكنز ولا أي داروينى آخر، استطاع (أو سيستطيع) أن يتجاوز هذه المسألة، لكونه هو نفسه سيطرح بداية ما.

التطورية هي «رؤية» كُلية مُستنبطة يُراد منها وضع حقائق البيولوجيا في إطار كُلي ينظم معطيات العلم التجريبي وتتم قراءة كل الأجزاء على أساس أنها هيكل واحد. والبعض يبالغ بها، بأن يسلك طريقة ذهنية الفقهاء القدامى في قياس الغائب على الشاهد، واستصحاب كليات عامة على جزئيات محصورة، لتكون النتيجة هي «الداروينية الكونية الشاملة»[1]، ومن المغالطات الكبيرة هنا مطابقة التطورية مع معطيات حقائق العلم التجريبي في الطب أو في عالم الحيوان أو غير ذلك، حتى لكأن من ينكر التطور والداروينية هو ناكر لكشوفات العلوم الجديدة، ومتخلف يُعطي ظهره لتقدّم العلوم، إن طرحاً كهذا لا يعدو أن يكون تغليطاً إعلامياً لا غير. والأمر المُعتّم عليه: أنه يمكننا قراءة كل المعلومات الطبيعية الحديثة، حتى التخصص والإبداع فيها، من دون لزوم أن نكون تطوريين، ولا أن نكون تطوريين يعني بالضرورة أننا مستوعبون لكل المعلومات الجديدة أو كوننا شخصيات مُنفتحة على أي جديد فيها. فالتطورية هي نظرية نسقية للمعلومات في مجال الطبيعة وليست المعلومات

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١١٥.

نفسها. كي يقوم جملة من الملاحدة بمحاولة إغراقنا بترجمة أعمال ومقالات وكتب طبيعانية في هذا التخصص أو ذاك. خصوصاً وأن متخصصين كباراً يقر دوكنز بفضلهم ينكرون تنظيره ويعتبرون حديثه عن الجينات وتطوير الداروينية عبر ذلك، ويصفون أطروحته بأنها (المذهب الذري المُتطرّف) الذي ينفر منه العلماء[١].

وعليه فكل اكتشاف بدون هذه الرؤية النسقية، يمكن تقبّله بلا أي ملازمة ضرورية لأن نكون تطوريين. ونحن نشدد على هذه النقطة لأن جملة من الحملات الإعلامية، وبعض الحركات الدينية الاصولية (في المجال العربي خصوصاً) تصوّر القضية على أن الموقف السلبي من الداروينية يعني الموقف السلبي من الكشوفات الجديدة للعلوم التجريبية:

«البيولوجيا من غير التطور لا تعدو أن تكون مجموعة من حقائق شتى متنوعة. وبغير أن يتعلّم الأطفال أن يفكروا بطريقة تطورية، ستظل الحقائق التي يتعلمونها مجرد حقائق دون خيط ربط يضمها معاً»[٢].

وبعض الأحيان يشعر المُتلقي بالحرج الشديد من تصويرات بدائية، لا يمكن تقبلها إلا لكونها مجرد أمثلة توضيحية خاطئة. من قبيل إنكار العلية وظهور الوحدات بلا تعيين سببي وبين كون التطور عبارة عن «انتخاب تراكمي، فهناك زيادة تدريجية، تجري بطريقة تُدّخر بها المكاسب الصغيرة»[٣]،

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٣٤.

(٢) المرجع نفسه، ص١١١.

(٣) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٦٩. أما كيف يتم حفظ هذه المكاسب والحفظ لم يتم تصويره إلا بكونه طفرة صدفية؟ فهذه محنة أخرى. وعموماً نجد أنفسنا دائماً

فـي حيـن أن التراكـم المسـتمر فـي اتجـاه واحـد يعنـي عـدم الصدفـة بـل وجـود نسـق سـببي وإلا لـم يكـن تراكمـاً. ومـن قبيـل الـدوران بيـن تحليـل مسـألة اختلافـات اللغـة علـى أسـاس اختلافـات القوميـات، وبيـن اختـلاف سـلالات الأقـوام علـى أسـاس اختـلاف اللغـات[1]. بـل إن تصويـرات الانتخـاب بتعديـل يتبنـى الانتخـاب الجنسـي، لـم يسـتطع إلا أن يعتمـد صيغـة لوجـود ذكاء نسـقي بـه يتـم حفـظ الجينـات الجذابـة[2]، بـل إن فكـرة «الانتخـاب» بذاتهـا لا معنـى لهـا، لهـذا أخـذ جمـع مـن الكـوادر باسـتبدالها بالتطـور فقـط.

المُتلقي يتعب من كثرة الأمثلة التي يُراد لها أن تكون موضحة وداعمة لكنها لا تزيد المسألة إلا ضبابية ومفارقة من قبيل جعل إدخال شفرة تعديل وراثي على البكتيريا أو جعل الاتحادات الجديدة للانقسام الكيميائي عبارة عن «خلق خلية حية»، مع أنها ليست بداية من صفر بل خضوع لقوانين لم نخلقها باستخدام مواد لم نخلقها ،واكتشاف قوانين هيكلها وبُنيتها لا يلغي كونها غير ضرورية الوجود وبحاجة إلى علة ليس من جنسهاوإلا لكان محتاجاً هو الآخر إلى مثلها. ومن قبيل أن الوجودات المختلفة هي أشبه بما يخرج من ثقوب غربال، حيث ستتم عملية عزل مُنظمة لعملية هز عشوائي، وهكذا علينا أن

= أمـام صياغـة تفلسـفية فـي أدلـة التطـور وليـس فقـط شـاهد فيزيقـي، فسـمكة الكهـف عميـاء عيناهـا ضامرتـان لكونهـا لا تحتـاج إليهمـا ووجـود عيـن كاملـة فيهـا فيـه تكلفـة اقتصاديـة (العلـم والحقيقـة، ص٣٧٣)، لكـن لمـاذا توجـد لهـا عيـن أصـلاً، لمـاذا جملـة مـن الكائنـات الزاحفـة والطائـرة التـي لا تحتـاج إلـى العيـون تمتلـك تركيبـة عيـن؟ لمـاذا لـم يسـتغن عنهـا التطـور؟! هنـا بالطبـع لاتوجـد محاجـة علـى أسـاس تجريبـي بـل سـيتعمق البعـد النظـري البحـت.

(١) سحر الواقع، مرجع سابق، ص٦٢-٦٦.

(٢) أعظم عرض على الأرض، الفصل الثالث، الانتخاب الجنسي.

نتصور وجود مخلوقات مُصممة بدون فاعل ذكي، مع أنه بدون تصور تنظيم دقيق لثقوب الغربال الثابتة (التي هي لا أقول ثبات الانتخاب الطبيعي الذي لا يعرف الاستثناء) لا يمكن تصور أي عملية عزل.

أو تفسير الحياة من تطور المادة على أساس الجينات، بينما «الجينات لا توجد إلا في خلايا الأجسام الحية»[1]، والأجسام هي بالطبع عبارة عن كمية هائلة من الجينات!. أو من قبيل تطور الدب البني إلى الدُّب الأبيض، على اعتبار أن الألوان الأخرى تفضحها الثلوج بينما اللون الأبيض يجعل الدب مختفياً فيسهل عليه الصيد ويسهل عليه الهرب. هكذا يقل عدد الدببة البُنية ويبقى الأبيض يتكاثر حتى لا يتبقى سواه. وهذا يفترض أن ثمة مخلوقاً قديماً كان يُهدد الدببة في المناطق الثلجية، وأن طرائده الأكثر هي برية، وكلا الأمرين غير ثابت. وفي النهاية هذا ليس تطوراً لا للنوع ولا للفرد، بل هو انقراض فصيلة مُعينة وبقاء أخرى كما هي تتكاثر.

ومن هنا تنفتح التفسيرات المُرتبكة العديدة للداروينية في تفسير كيفية انتقال الصفات المُكتسبة للأجيال اللاحقة «بغض النظر عن الحديث عن قانون مندل في الوراثيات واعتماد مبدأ الطفرات في «الجيمت»، وخريطة التعديل الجيني الاصطناعية اليوم». فإذا لم تنتقل الصفات المُكتسبة التي بها حافظ الكائن على وجوده في متغيرات المُحيط «جزء من نصف عين يبقى ليلحقه تطور للنصف المتبقي، أو تطور زعنفة إلى جزء من ساق لتكون في التتابع إلى ساق، وهكذا» فلن يتحقق أي تطور، خصوصاً في خريطة وصول السمكة أو الزواحف أو بعض الشمبانزي إلى الإنسان الذي يقول الداروينيون إن مخه اليوم يختلف عن مخ أسلافه من البشر فضلاً عن أسلافه من الأنواع

(١) سحر الواقع، مرجع سابق، ص٧٤.

الأخرى[1]. ومن هنا يعود الارتباك الذي كان يُجتهد للتخلص منه عبر فكرة الانتخاب التراكمي، إلى الوقوع بالانتخاب بضربة واحدة، حيث الاضطراب وزيادة ظهور ترقيعات جديدة تحاول معالجة مشكلة تطور صفات بعينها للكائن الحي[2]. وإذا تذكرنا حملات دوكنز في نقد مدرسة الطفرات، التي تعد واحدة من الترقيعات اللاحقة للداروينية الجديدة، سنجد أننا أمام صورة عائمة حقاً: من جهة لدينا تطور ثابت بين الأجيال، وقانون لا يتغيّر بحفظ الكائن لنفسه عبر سلسلة من التحولات التي تجعل كل مجموعة من الأجيال مغايرة لما قبلها، مع ذلك فهناك ضبابية قاتمة عن كيفية انسجام ذلك مع التطورية التي عليها تفسير كيفية حفظ هذه التحسينات والتجارب ونقلها إلى الأجيال اللاحقة؟!. فحينما نراجع الكتب والبحوث الداروينية الشارحة لكيفية انتقال الصفات المُكتسبة سنجد أن ثمة طريقين فقط لذلك التوريث الجيني عن طريق التكاثر، والطفرات. بينما التوريث الجيني هو موضع السؤال وليس هو الجواب لأننا بحسب الفرض رافضون لنظرية لامارك، أفضل الأجوبة هنا هو

(١) هناك جدل معروف حول مشكلة كون الجماجم التي عُثر عليها هي لأنواع مختلفة من الإنسان أم هي مجرد أحجام لنوع واحد، حيث مازلنا نرى اختلافاً كبيراً في جمجمة الإنسان بين إثنية وأخرى كما لو قارنا جمجمة ياباني مع أفريقي، وهناك مشكلة أخرى حول فكرة أن الخلية تطورت في ظروف معينة إلى إنسان يعني أننا في الحقيقة أنواع مختلفة وليس سلالة واحدة «وإلا لصحت مقولة تسلسلنا من زوجين فقط كما تقول الكتب الدينية» فكيف يصح تزاوج كل زوجين من البشر من أي إثنية كانت بلا أي مشكلة جينية؟!. هنا نجد حلولاً من قبل التطوريين الملاحدة، أقرب إلى الحيل اللفظية، وهذا ما فعله حتى دوكنز في كتابيه «العلم والحقيقة» و«صانع الساعات الأعمى».

(٢) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٣٥٥

اعتماد فكرة حدوث طفرة جينية في الـ (دي أن أي)[١]. وهذه الطفرة بالصدفة، لا تظهر إلا عند ظرف حرج يتطلب حدوث تغيّر في الكائن الحيّ، وهي صدفة متكررة ومستمرة حفظت جميع الأنواع بل أنتجتها! مع أن دوكنز نفسه يقر بأن الطفرات سلبية التأثير[٢]، كل ذلك عبر أطروحة لنكران المعلولية والانتظام، وهي نفسها التي تقر بكون كل شيء عبارة عن حقيقة رقمية دقيقة:

«فالشفرة الوراثية هي حقيقةً شفرة رقمية بالمعنى نفسه، بالضبط كما في شفرة الكمبيوتر. ليس هذا بعض تمثيل غامض وإنما هو الحقيقة حرفياً»[٣].

إذا كانت شفرة كمبيوترية فنحن أمام حتمية جينية، ودوكنز بذل الكثير من الجهد كي يدفع عن قراءته للجينات، مشكلة الجبرية والحتمية وأن الالتزام بها يعني إلغاء أية دعوة أخلاقية ومدنية وتنويرية، مرة نلجأ إلى استعانة لغوية لدفع الرقمية التامة ولكونه زعيم الحتمية الوراثية المنقود من قبل رفاق العِلم[٤]،

---

(١) مرة يُقال هي إصابات، ومرة يُقال إنها تحسينات، وبعض الأحيان يوجد ذكاء لقوى مجهولة «للوجود الأعمى!» تُميّز بدقة بين الإصابات والتحسينات!

(٢) أعظم عرض على الأرض، مرجع سابق، المقدمة .

(٣) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٥٤. دوكنز يعتمد وراثيات واطسون–كريك، في مقابل وراثيات مندل. حيث «الوراثيات الآن هي تكنولوجيا معلوماتية خالصة» بحسب التعبير الذي يؤكده دوكنز «العلم والحقيقة، ص١٩٢» وهذه الرقمية الصُلبة معضلة حقيقية حينما تكون مبنية على الطفرات فحسب.

ومسألة التشبيه بالكمبيوتر مسألة كررها ستيفن هوكينغ حينما شبّه الوجود البشري بالأجهزة الكمبيوترية وبالتالي فإن ذكاءنا لا يدل على وجود خالق، مع العلم أن الأجهزة الكمبيوترية لاقيمة لها بدون برامجها التي هي من خارجها!!

(٤) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٤٣.

ومـرة نتملـص منهـا، بمـا يتناسـب ونوعيـة الإشـكال علينـا، وكأننـا فـي مـداورة بحـث للتأويـل اللاهوتـي[1].

وهذا أمر تتفرع منه مشكلة تلقي كتاب دوكنز والاختلاف في مراميه حتى داخل مدار الاختصاصيين في حقل العلوم الطبيعية[2]، والسؤال هنا:إذا لم نستطع طرد التأويلية وعدم الاكتفاء بالقراءة الحروفية حتى في العلوم الطبيعية البحتة، فكيف تتم قراءة النصوص الدينية ومعارفها عبر قراءة تسقط عنها الجانب التأويلي وتتشدد باستخدام قراءة حروفية؟!. وكيف يُجيز هؤلاء النخبة لأنفسهم ما عابوه على خصومهم؟!

خصوصاً وأنه في جهة المؤمنين هناك النصوص الدينية التي تعتبر تركيبتها اللغوية العالية، ركناً في استدلالاتهم، وبالتالي لايمكن استبعاد اللغة، وهذا ما يفعله التطوريون. أما الملاحدة الداروينيون فيقرون بأهمية اللغة كشاهد من شواهد نظريتهم الدقيقة التي يجب أن تُقرأ بدقة وحذر كي لا نقع في الخطأ حيث «إن اللغة ليست خادمنا فحسب عندما نريد التعبير عن

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٣٥، ويمكن مقارنته بما قاله عن إمكانية تصنيع بشر موسيقيين وفنانين وغير ذلك في كتابه «أعظم عرض على الأرض».

(٢) ريتشارد دوكنز، عالِم غيرّ أفكارنا، مرجع سابق، ص٦٧. ومحاولة دفع كون دوكنز يقول بالحتمية دفع فاشل هنا، ليس لأن كتباً أخرى ،ناقشت ذلك بوضوح، وكلمات دوكنز في كتب متعددة، بل لأن هذا الكتاب نفسه ص٧٤، لا يقول إلا بالحتمية حيث كل سلوك مقرر في جينات ثابتة قبلية بها ظهر الفرد والجماعات إلى الوجود. فتخيل أن الذين يطرحون الإلحاد على أساس التطور، هم واهمون بوجود منطق علمي هو نقيض منطق غير علمي، حسناً لكنهم هنا يناقضون علم النفس التطوري، بمعنى أن مدار النظرية نفسه يؤدي إلى تناقضات مع أقسامها وفروعها، ومع ذلك لايُعد هذا دليلاً ناقضاً لها، فلماذا إذا ناقضت نظرية أخرى، يكون هذا نفسه دليلاً على سحب الثقة من تلك النظرية المخالفة؟!.

أفكارنا أو حتى إخفاءها، بل قد تكون أيضاً سيدنا الذي يغلبنا بوسيلة المفاهيم المصاحبة للكلمات الحالية»[١].

في مقام رفض دوكنز وأشباهه بشأن السخرية من الدين والإيمان حيث طرحه قضايا فيها الكثير من اللادقة وصعوبة حسم المفاهيم من خلال معركة التعريفات والشروحات، يجب أن لا يغيب عنا أن هذه المشكلة حاضرة في مجالات علمية متعددة ومنها اختصاص دوكنز نفسه، حيث يوجد اختلاف كبير حول جين مرده إلى اختلاف تعريفاته وقراءته عبر نموذج صناعي ومتابعته عبر أثره في التأثيرات النمطية الظاهرية[٢]،إننا لم نتخلص من المشكلة في مسائل لاعلاقة لها بالبيان اللغوي، فكيف نقوم بتجريدها في مسائل تعتبر اللغة ركناً فيها!. فبكل بساطة يقول دوكنز في أشهر كتبه عن الجين الأناني إنه «لا يوجد تعريف متفق عليه عموماً للجين وحتى إذا وُجِد، فالتعريفات ليست نصوصاً مقدسة. فبوسعنا أن نعرِّف أي مصطلح كما نحب ليتفق مع أغراضنا»[٣].

إذن، حتى في العلم هناك منطلقات براغماتية نفعية يتم وضعها كنقطة بداية لتحديد مسار البحث، فالعلم ليس كما توقعنا، وكما يُدّعى له، قاعدة مادية صلبة وحقيقة موضوعية مُستقلة. وإذا كان دوكنز يفعل ذلك ويقرّ به في

(١) دوكنز، عالم غيرّ أفكارنا، مرجع سابق، ص٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٣.

(٣) المصدر نفسه، مرجع سابق، ص٧٤. وفي الكتاب نفسه وفي كتب أخرى كثيرة نجد أن العلماء من رفاق دوكنز وسواهم، رفضوا تعريفات دوكنز، ولنا أن ندرك مقدار الأحكام التصديقية الخاطئة منذ البداية باعتبارها قامت على تصورات ورصد من زاوية مُحددة سلفاً لتصورات ليست سليمة. وإذا كان من باب مجال اختصاصي بحت لايستطيع دوكنز إلزام غيره بوجهة نظره فكيف يصح تعميم أفكاره وطرحها كأنها خطاب الحقيقة الوحيد؟! .

مـدار علـم الطبيعيـة، فعلينـا أن نتخيـل حجـم الانحيـاز الـذي يطرحـه فـي تعريـف الإلـه والإيمـان والديـن وكل القضايـا التـي لا تتفـق مـع أغراضـه.

لكن حتى القول بالطفرة بغض النظر عن كل شيء[1] نجد فيه السؤال نفسه، ففي النهاية حصلت الشفرة الوراثية على أمور لم تكن موجودة في الأصل وهذه الأمور الجديدة نالها الكائن عن طريق الاكتساب، فهو لا يظهر ككائن إلا بحصوله على نصف الحقيبة الوراثية لكلا الزوجين، وكلاهما خالٍ بحسب الفرض من نقل ما تعلمه إلى جيناته؟!.

إن دوكنز يعلم بمشقة السؤال، لذا حاول تقديم أكثر من جواب في كتبه المُتعددة، مستعيناً بالبيانات الأدبية والمجازات اللغوية والتصويرات البلاغية، كتعويض عن الدقة التجريبية للمسألة، ولا معين للقضية سوى مبدأ الطفرة، والطفرة فقط في مسألة، لا معنى لها بدون التراكم النوعي والتسجيل المنضبط:

(١) بما في ذلك مسألة الطفرات المحايدة التي تبقى، بحسب قول دوكنز: إلى الأبد شيئاً مخبوءاً بالنسبة إلى الانتخاب الطبيعي(\العلم والحقيقة، ص٣٣٣) وهو هنا يقول: إن القضية لا تحسم تجريبياً وكميائياً، فهو يقول في هذه الصفحة نفسها: «فإن مسألة ما إذا كان هذا التغاير يمكن أن يكون محايداً انتخابياً، لهي مسألة لا يمكن حسمها في معمل البيوكيمياء»، مع ذلك يُكرر دوكنز طرحها في كتاباته بتصوير يحسبه القارئ غير المُختص وكأنه معلومات نهائية مسلّم بها لكل من درس شؤون الخلية، وأن القضية فيزيقية حسية خالصة، وليست هي مجموع أفكار مُستنتجة فيها خلاف كبير بين المتخصصين. الأمر الذي يسحب المشكلة نفسها على المعلومات الطبيعية كافة في كتبه، وبالتالي تظهر مشكلة اعتماد آلية الأخبار والتوثيق الكتابي، وليس العياني، لكون المتلقي غير مُختص ولا يدري هل هذه المعلومات في الطبيعيات صحيحة أم لا، لكن المعرفة بالأخبار والتوثيق الكتابي والأخذ من الثقات، كلها آليات المعرفة الدينية نفسها، التي على أساسها أخرجناها أن تكون علمية!.عند اعتماد المعرفة التجريبية فقط علينا أن لا ننسى أن القول بكروية الأرض ونظرية آينشتاين وغيرهما، كان يعتمد على الحسابات العقلية فقط.

«عندما نُفكِّر في أمر الانتخاب الطبيعي نفسه، سنجد أنه عملية تضييق تجري نزولاً من المجال الابتدائي الواسع للبدائل الممكنة للوصول إلى مجال أضيق من البدائل التي يتم تخيرها بالفعل. وسنجد أن الأخطاء الوراثية العشوائية (الطفر)، هي وإعادة التوليف جنسياً والمزج بالتزواج، كلها توفّر مجالاً واسعاً للتباين الوراثي: أي للبدائل المتاحة. والطفر ليس فيه زيادة في المحتوى المعلوماتي الحقيقي، بل الأحرى إنه عكس ذلك، لأن الطفر حسب القياس بالتمثيل عند شانون، يسهم في زيادة اللايقين المسبق. ولكننا نصل الآن إلى الانتخاب الطبيعي الذي يقلل من «اللايقين المسبق»، وبالتالي فإنه بالمعنى الذي يقصده شانون، يسهم بمعلومات في المستودع الجيني. ويحدث في كل جيل، أن يزيل الانتخاب الطبيعي من المستودع الجيني الجينات الأقل نجاحاً، بحيث يصبح مستودع الجينات المتبقي مجموعة فرعية أضيق مما سبق. وهذا التضييق لا عشوائي، وفي اتجاه التقدم، حيث يُعرّف التحسّن، بالمعنى الدارويني، بأنه تحسّن في الصلاحية للبقاء والتكاثر. ويحدث بالطبع أن المدى الكلي للتباين في كل جيل سوف تعلوه مرة أخرى طفرات جديدة وأنواع من التباين.إلا أنه سيبقى حقيقياً أن الانتخاب الطبيعي عملية تضييق تجري نزولاً من المجال الابتدائي الواسع للإمكانات، بما في ذلك الإمكانات التي تكون غالباً غير ناجحة، للوصول إلى مجال أضيق من الإمكانات الناجحة. وهذا يماثل تعريف المعلومات الذي بدأنا به، فالمعلومات هي ما يمكننا من التضييق نزولاً من اللايقين المسبق (المدى الابتدائي من الإمكانات) للوصول لاحقاً إلى اليقين (الاختيار «الناجح» من بين الاحتمالات الابتدائية). والانتخاب الطبيعي حسب هذا القياس بالتمثيل

يكون «حسب التعريف» عملية تجري لتغذية المستودع الجيني للجيل المقبل بمعلومات تدخل إليه. إذا كان الانتخاب الطبيعي يغذي المستودعات الجينية بمعلومات يدخلها فيها، فما الذي يدور حول طريق البقاء والتكاثر، في الظروف التي كانت سائدة عندما كانت الأجيال السابقة على قيد الحياة. وسنجد أنه بمدى ما تكون ظروف وقتنا الحالي مختلفة عن ظروف السلف، فإن المشورة الوراثية للسلف ستكون خطأ. وحينئذ فإن النوع ربما يصل إلى الانقراض في الظروف المتطرفة. وسنجد أنه بمدى ما تكون ظروف الأجيال الحالية غير مختلفة كثيراً عن الأجيال الماضية، فإن المعلومات التي تُغذى بها الجينومات الحالية من الجينومات السابقة ستكون معلومات «مفيدة». نستطيع أن نفهم المعلومات الآتية من الماضي السلفي على أنها كتيب إرشادات للبقاء في الحاضر: كتاب مقدس عائلي من «مشورة» السلف عن طريقة البقاء حالياً. ولن نحتاج إلا إلى القليل من الابتكار الشاعري لنقول إن المعلومات التي يغذي بها الانتخاب الطبيعي الجينومات الحديثة هي في الواقع معلومات حول البيئات القديمة التي عاش الأسلاف فيها.. إن المستودع الجيني ككل، وليس جينوم أي فرد بعينه، هو أفضل ما يمكن أن يُعتبر أنه المتلقي للمعلومات السلفية عن طريق البقاء. أما الجينومات الموجودة لدى أفراد معينين، فهي عينات عشوائية من المستودع الجيني الحالي،جُعلت عشوائية بواسطة إعادة التوليف جنسياً.

وثانياً: فإننا نتمتع بتميزنا بأننا نستطيع اعتراض طريق المعلومات إن شئنا، وأن «نقرأ» جسد الحيوان، أو حتى نقرأ جيناته على أنها وصف مشفّر لعوالم الأسلاف.. نحن أرشيفات رقمية لعصر البليوسين الأفريقي، أو حتى لبحار

العصـر الديفوني.نحـن مسـتودعات تسـير علـى قدميـن مُحمَّلـة بحكمـة أتـت مـن الأزمنـة القديمـة. نسـتطيع أن نقضـي كل زمـن حياتنـا ونحـن نقـرأ فـي هـذه المكتبـة القديمـة ثـم نمـوت دون شـبع مـن روعتهـا»[1].

صار لدينا الآن انضباط موجّه، وتحسين مستمر، ونحن الذين كنا نقرأ المبدأ المتابع بلا توجيه، وتصادف غير ذكي!. ورغم أن المسألة هي مسألة أمشاج جينية فقد تم التفريق بين النوع وبين أفراده ،ثم ما هو الدليل الأمبيريقي على هذه اللوحة المرسومة بتصميم ذكي، ومقصدي مُسبق؟!.

والأمـر الغائـب فـي كل تطويـلات دوكنـز ولـم يعالجـه مطلقـاً هـو «متتاليـة فيبوناتشـي» التـي نجدهـا فـي كل جوانـب الوجـود مـن الجماليـات وحتـى تكوينـات النبـات والحيـوان والمجـرات، وإلـى أصغـر تعرجـات الدمـاغ وفاعليـة الـ (دي أن

(١) \العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١٨٠. وهذه في الواقع خلاصة أطروحة دوكنز في كتابه (تفكيك قوس قزح)، ولن يجد القارئ هناك أي إضافة نوعية لهذه الخلاصة، سوى قدرة دوكنز على إطالة الكلام عن كلام سابق. بل هناك تكرار يقع في الكتاب الواحد، كتمثيل المعلومة الجينية بورقة وصفات الطهو، التي يعيد دوكنز تكرارها في «\العلم والحقيقة».
وعلى الرغم من أن الإلحاد على أساس الداروينية أساسه الأهم هو نقض السببية، فإنهم لايدفعون عن الحتمية العلية إلا بما يتعلق بالشذوذ الجنسي (\العلم والحقيقة، ص١٨٦)، مرة يتم تصوير القضية لمصلحة النوع (\العلم والحقيقة، ص١٨٢)، للتخلص من إشكالات الذكاء الدقي في الجينات، ومرة يتم تصوير القضية على أنها حتمية في الأفراد لمصلحة دعم الشذوذ الجنسي(\العلم والحقيقة، ص١٨٧).ونحن كلما حاولنا الابتعاد عما يقوله الدينيون من صفات قدحية بالملاحدة، فإنا نصدم بحماسة بالغة الشدة في الدفاع عن مثل هذه الأمور وكأنها هي القضية الأهم أو هي القضية الغاية!. ويستطيع القارئ أن يلاحظ حجم تكرار دوكنز عن المثلية الجنسية وكأنها قضية كبرى. ونحن لا نعلم هل لمن يدعمه ويشاركه في تكتله الجماعي والمؤسساتي دور في ذلك، وكم عدد انصار المثلية الجنسية وما مدى مساهمته المالية والإعلامية لطروحات دوكنز؟!. إن هذه قضية تستحق المراجعة الصحفية.

أي) فـي الحمـض النـووي، وصـولاً إلـى أصغـر عوالـم الجسـيمات الكوميـة، كل هـذا يحمـل الرقـم الذهبـي نفسـه لمتتاليـة فيبوناتشـي، تأمـل بسـيط فـي ذلـك يجعـل مجـرد تصـور الاحتماليـة الصدفويـة غيـر ممكنـة الافتـراض.

ثم أليس كل نتائج البحوث هي ما أحاطت به التجربة وما تمت قراءته في الجانب الظاهر من الواقع المفتوح الإضمار، وبالتالي كيف يمكن إصدار حكم تام أكبر من معطيات حدود البحث والتجربة والقراءة؟!.

بالطبع هذا السؤال لا يزلزل البحث في الجينوم بل الأطروحة العامة للإلحاد على أساس الداروينية.

هل فعلاً يمكن الالتزام بتحليل الأمور بعيداً عن فكرة الأسباب؟!

إن دوكنز نفسه يقول: «كل شيء ينتج عن سبب»[1].

إن أي مُتأمل في هذه المسألة، أعني مسألة نقل المعلومات الاكتسابية، سيجد نفسه يدور في حلقة مُفرغة ليس فيها سوى الاستعانة البلاغية اللفظية فقط:

«إن مشكلة الخصائص المُكتسبة هي أساساً كالتالي: قد يكون كل شيء صالحاً لوراثة الخصائص المكتسبة، ولكن الخصائص المكتسبة ليست كلها من التحسينات. والحقيقة فإن الأغلبية العظمى منها هي إصابات. ومن الواضح أن التطور لن يمضي في الاتجاه العام للتحسين التكيفي لو أن الخصائص المكتسبة كان يتم توارثها بلا تمييز: فتمرير السيقان المكسورة، وندوب الجدري، خلال الأجيال بالقدرنفسه الذي تمرر به الأرجل المخشنة والجلد المصبوغ. ومعظم الخصائص التي تكتسبها أي ماكينة بتزايد عمرها تنزع لأن تكون تراكمات لما أفسده الزمان. فهي تبلى. ولو أن هذه التراكمات

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١٨٨.

جُمعت معاً بطريقة ما من عملية مسح وغذيت في طبعة المخطط الزرقاء للجيل التالي، لأصبحت الأجيال المتتالية أكثر عجزاً. وبدلاً من أن يبدأ كل جيل جديد بداية جديدة بطبعة مخطط زرقاء جديدة، فإنه سيبدأ الحياة مثقلاً ومليئاً بالندوب مما تراكم من عطب الأجيال السابقة وجروحها.

وليست هذه المشكلة مما لا يُذلل بالضرورة. فمما لا يُنكر أن بعض الخصائص المُكتسبة هي تحسينات، ومما يمكن تصوره نظرياً أن ميكانيزم التوارث قد يميز على نحو ما، التحسينات من الإصابات. ولكننا عندما نتساءل عن الكيفية التي قد يعمل بها هذا التمييز، فإننا عندئذ نكون مدفوعين إلى السؤال عن السبب في أن بعض الخصائص المُكتسبة «تكون» أحياناً تحسينات. لماذا مثلاً، تصبح فعلاً مناطق الجلد المُستخدمة، مثل باطن قدم عدّاء حافي القدمين، أسمك وأخشن؟ وفيما يظهر فإن الأمر الذي يبدو أنه أكثر احتمالاً هو أن يصبح الجلد أقل سماكة: ففي معظم الماكينات تقل سماكة الأجزاء المُعرضة لأن تُبلى مع الاستخدام، وذلك لسبب واضح هو أن إبلاءها يزيل الجسيمات بدل أن يضيف إليها.

والدارويني عنده بالطبع إجابة جاهزة عن ذلك. فالجلد الذي يتعرض لأن يبلى بالاستعمال يُصبح أسمك، لأن الانتخاب الطبيعي في ماضي الأسلاف قد حدد أولئك الأفراد الذين اتفق أن جلدهم يستجيب لبلى الاستخدام بهذه الطريقة المفيدة. وبالمثل، فإن الانتخاب الطبيعي يحبذ أولئك الأفراد من الأجيال السالفة الذين اتفق أنهم يستجيبون لضوء الشمس بأن يصبحوا سُمراً. والدارويني ينادي بأن السبب الوحيد، لأن الأقلية من الخصائص المكتسبة هي التي تكون من التحسينات، هو أن ثمة أساساً لذلك من سابق

الانتخاب الداروينى. وبكلمة أخرى فإن النظرية اللامركية لا تستطيع تفسير التحسين التكيفي في التطور إلا لو كان الأمر وكأنها تمتطي صهوة النظرية الداروينية. وبافتراض أن الانتخاب الداروينى موجود هنا في الخليفة ليؤكد أن بعض الخصائص المكتسبة هي ذات فائدة، وليزود بميكانزم لتمييز ما هو مفيد مما هو ضار من المكتسبات، فإن توارث الخصائص المكتسبة قد يؤدي، فيما يمكن تصوره، إلى بعض تحسين تطوري. ولكن «التحسين» بما هو عليه هكذا، يرجع كله إلى الأساس الداروينى. فنحن مجبرون على الرجوع إلى الداروينية حتى تُفسِّر الوجه التكيفي من التطور.

ويصدق الشيء نفسه على نوع من التحسينات المُكتسبة يكاد يكون أهم مما سبق، وهو تلك التحسينات التي نجمعها معاً تحت عنوان التعلّم. فالحيوان أثناء حياته يصبح أكثر مهارة في العمل على كسب عيشه. فيتعلم ما الذي يكون صالحاً له وما الذي لا يكون. ويختزن مخه مكتبة كبيرة من المعلومات عن عالمه، وعن أي الأفعال تتجه إلى أن تؤدي إلى النتائج المطلوبة وأيها يؤدي إلى النتائج غير المطلوبة. وبالتالي فإن الكثير من سلوك الحيوان يندرج تحت عنوان الخصائص المكتسبة، والكثير من هذا النوع من الاكتساب ـ التعلّم ـ يستحق حقاً بالفعل لقب التحسين...ولكن هذا كله يفترض مُسبقاً أن تغيّرات السلوك التي نسميها التعلّم هي حقاً تحسينات. فلماذا «ينبغي» لها بالضرورة أن تكون تحسينات؟ إن الحيوانات بالفعل، وكأمر واقع تتعلم أن تفعل ما هو صالح لها بدلاً من أن تفعل ما هو ضار بها، ولكن لماذا؟ إن الحيوانات تنزع إلى تجنب الأفعال التي أدت إلى الألم فيما مضى...هيا الآن نلتفت إلى مبدأ الاستخدام وعدم الاستخدام. بيدو فعلاً أن هذا المبدأ يكاد يكون صالحاً للعمل بالنسبة إلى بعض أوجه التحسينات المكتسبة. وهذا كقاعدة عامة لا تعتمد على تفاصيل خاصة. وتقول هذه القاعدة ببساطة: إن «أي

جزء من الجسم يُستخدم كثيراً ينبغي أن ينمو إلى حجم أكبر، وأي جزء لا يستخدم ينبغي أن يصبح أصغر أو حتى أن يذوي تماماً». وحيث إنه يمكننا أن نتوقع أن الأجزاء المفيدة من الجسم (التي يفترض أنها أجزاء مستخدمة) هي بعامة ستستفيد من زيادة حجمها، بينما الأجزاء غير المفيدة من الجسم (التي يفترض عدم استخدامها) يمكن أيضاً ألا يكون لها وجود على الإطلاق، فإنه يبدو فعلاً أن هذه قاعدة لها شيء من الجدارة بعامة. ومع كل فإن هناك مشكلة كبيرة بشأن مبدأ الاستخدام وعدم الاستخدام. وهي أنه حتى لو لم يكن ثمة اعتراض آخر عليها، فإنها أداة أخشن كثيراً من أن تكون هي التي تشكل تلك التكيفات الرهيفة التي نراها بالفعل في الحيوانات والنباتات»[1].

و ليس هذا سليماً تماماً، على خلاف ما يحسبه بعض هواة المطالعة والقراءة ممن لديهم موقف سابق من فكرة الإله والأديان، فدوكنز نفسه لا يجهل بحوث عالم الوراثة الياباني «موتو كيمورا»، الذي برهن على استحالة اعتماد الطفرة المحايدة، «الطفرة المحايدة هي تلك التي لا توجد فارقاً بالنسبة إلى وظيفة البروتين المُنتج. فنسخته بعد الطفرة ليست أفضل ولا أسوأ من نسخته قبل الطفرة، في حين أن كلاً منهما قد تكون لها أهمية حيوية لحياة الكائن الحيّ»[2]، هذا بالإضافة إلى البحوث الجديدة التي تُبرهن على المُعدل

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٣٩٦. ولايغب عن بالنا هنا عبارة «الضرورة» والقاعدة الثابتة، وإلى النسق التام،وكلها أمور لاتقع في مصلحة اللاربوبية.ودوكنز نفسه في بعض مقابلاته الصحفية عجز عن إعطاء مثال واحد عن طفرة جينية تزيد المعلومات الجينية في الجينوم!.

(٢) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١٣٣. وفي ص١٦٣، يلجأ دوكنز إلى التزوير حول مقابلته الصحفية المشهورة التي عجز فيها عن إعطاء أمثلة علمية لمدعياته في مسألة الوراثة. وراح يصور القضية كأنها أمر لاقيمة له مع مجموعة من الهواة، ولو علم أنهم مؤمنون لطردهم لأنه يرفض الحوار مع غير الملاحدة، وأن تلك المقابلة التي

الذكـي والثابـت فـي تفاعـلات الجينـوم، وأنـه ليـس فقـط شـفرة حيّـة بـل هـو يقـرأ ويكتـب ويختـار اتجاهاتـه بدقـة. فـلا يتبقـى سـوى اللجـوء إلـى الحيلـة اللفظيـة باقتصـار مصطلـح الطفـرات علـى الطفـرات غيـر الحياديـة فقـط، أمـا الطفـرات

= تـم الإعـداد لهـا مُسـبقاً عبـارة عـن «خدعـة»!!. رغـم أنـه لمـا عجـز عـن أسـئلتهم انفجـر بهـم غاضبـاً وقلـل احترامـه معهـم، رغـم أنهـم فريـق كابـد مشـقة السـفر مـن اسـتراليا إلـى بريطانيـا لملاقاتـه وكانـوا محاوريـن بمنتهـى الهـدوء. وإن سـكوته أمـام السـائل وهـو يُقلّـب بوجهـه بحثـاً عـن الجـواب (يمكـن للقـارئ التدقيـق بوجـه دوكنـز علـى شـبكة النـت، للتأكـد) بأنـه كان مجـرد تفكيـر بـأن يطـرد هـذا الفريـق!. لكـن دوكنـز هـو مـن يُكـذّب نفسـه ففـي مطلـع كتابـه «أعظـم عـرض علـى الأرض» قـال صراحـة بـأن الطفـرات الوراثيـة سـلبية، ولـو كان لـدى دوكنـز إجابـة فعـلاً فـي تلـك المقابلـة بـأن الطفـرات إيجابيـة، فإمـا أنـه يغلّـط نفسـه ويقـدّم معلومـة مرفوضـة ومـزوّرة، وإمـا أنـه قـام بالكـذب علـى هـذا الفريـق الاسـترالي وتحامـل عليـه وأنـه بالفعـل لـم تكـن لديـه أيـة إجابـة!.. دوكنـز مضطـرب مـره يقـول إن القضيـة ليسـت خداعـاً بالكامـل، ومـرة يصـرّ علـى أن الفيلـم تعـرض للتزويـر، رغـم أنـه لـم يكـن سـوى سـؤال عجـز عنـه دوكنـز وبقـي صامتـاً متلعثمـاً. وبقـي فتـرة طويلـة بعـده لـم يكـذب الخبـر رغـم مـا لـه مـن صداقـات إعلامية!..فـي النهايـة يعقـد دوكنـز هنـا مقـالاً طويـلاً لإيهامنـا بالإجابـة: لكننـا نجـد أنفسـنا أمـام أمثلـة توضيحيـة واسـترجاع معلومـات عامـة حـول كـون أشـباه الجينـوم لا ينتـج البروتيـن، لكـن دوكنـز طبعـاً لا يقـول إن ثمـة فائـدة هنـا ترتبـط بالمـخ، وإن تكوينهـا هـذا مرتبـط بهـذه المسـألة التـي يتـم وصفهـا لغويـاً بأنهـا «فيهـا خطـأ فـي تتابعاتهـا يجعلهـا عاجـزة عـن العمـل ولا تُتَرجـم إلـى بروتينـات» وهـذا تلاعـب لفظـي ليـس لكونهـا لهـا فائـدة أخـرى، بـل أيضـاً لكوننـا لانسـتطيع داروينيـاً الإجابـة لمـاذا نحتفـظ بهـا إذن والانتخـاب الطبيعـي يعمـل كمتقشـف اقتصـادي، خصوصـاً وأن السـلف الـذي حصـل بـه هـذا التغيّـر فـي الجينـوم ،كان قبـل نصـف بليـون سـنة؟!.لكن فـي النهايـة: أيـن هـو الجـواب؟!!. فدوكنـز يتنقـل مـن السـخرية مـن التكوينيـة إلـى تسـفيهه للغـة الرياضيـة (العلـم والحقيقـة، ص١٨٠) إلـى نقـل السـؤال حـول التعقيـد مـن البسـائط، وغيـر ذلـك ممـا لا علاقـة لـه بالجـواب عـن الطفـرة المفيـدة!.. إن دوكنـز (العلـم والحقيقـة، ص١٧٤) لا يعتمـد علـى تجربـة مختبريـة ومعلومـة عيانيـة، بـل علـى تحليـل ذهنـي، لـذا هـو مـازال يأمـل أن يتـم العثـور علـى حيـوان فقـري ترتبـط بـه حلـول مثـل هـذه المسـائل!..

الحيادية فلا نُسميها طفرات، مع الإقرار أنها مفيدة، والانتخاب الطبيعي مداره حفظ ما ينفع!. وهذا يشبه شروحات التطوريين عن الجينات مجهولة الفائدة حيث يتم تفسيرها بأنها جينات مُعطلة، مع أن الجين لامعنى له أن يكون معطلاً، فهو إن تعطل ولم يكن حافظ شفرات وليس له فاعلية الوحدة الوظيفية، فهو حينئذ ليس بجين أصلاً!. وكونه مجهول المنفعة لا يعني أنه جين مُعطّل، بل غير مُكتشف أمره بعد. وحتى لو تم إثبات عدم نفعيته على مستوى حتمية رياضية، فإن هذا لايلغي فكرة الإله، حيث لا ملازمة بين وجود عيب ما ونفي العلة الأولى. فإثبات وجود العلة الأولى مسألة، وكون كل معلول هو في غاية الكمال وخالياً من أي مرض أو عطل أو تشوه خَلقي، مسألة ثانية مختلفة.

ومن هنا نجد حتى أكثر التطوريين إلحاداً يقرّون بأن بياناتهم تبعث على الحيرة والتشويش حقاً، الأمر الذي يتطلب عملية الخروج عن «الظواهر» والاستعانة بالتأويلات، فعلى الرغم أنه لابد أن نعثر على مليارات الكائنات المشتركة لكل نوع، فإن شيئاً من هذا غير موجود وببساطة «لاتوجد حفريات تصل حيوانات الشمبانزي الحديثة بذلك السلف المشترك»[1].

---

(١) \العلم والحقيقة، ص١٣٤. وحتى نماذج «الهومو اروكتوس، الهومو هابليس، الأسترالوبيثيكوس أنامنسيس، الأرورين، التي تم تصويرها على أنها بقايا الإنسان البدائي «هومينيد»، لاتعد نماذج مُسلمة القراءة. بل هناك نقاش طويل حول كل واحد منها، هل هو فعلاً نوع مشترك أم أنه صنف داخل النوع، وبعضها لايزال مشكوكاً فيه أصلاً، وقد سبق للتطوريين أن سحبوا نماذج متعددة وأقرت المتاحف أنها ليست علمية. ودوكنز نفسه يقول في (\العلم والحقيقة، ص١٣٥): إن الأحافير «لا يمكن أن تخبرنا بأي شيء مباشرة عنها»، فبدون عدسات مُسبقة لتنظير تحليلي، لا يمكن لهذه الجزئيات الطبيعية أن تكون فاصلة في رؤية أيديولوجية. ويقول دوكنز في هذه الصفحة: إن الأحفورات المُستدل بها هي أولاً سلسلة «موقتة» وثانياً يمكن قراءتها على أنها بالنسبة إلينا أبناء عمومة متحدون معنا في الصِّنف ،و ليسوا أجداداً منفصلين، لكننا (هكذا ببساطة!) نقوم بـ«التخمين» أن معلومات ما سنعثر عليها ذات

وهذه التأويلية هي نفسها الممارسة التي يقرف منها الملاحدة فيما لو استخدمها المؤمنون للدفاع عن الكتب المُقدسة!، وفي النهاية نجد استبعاد المبدأ العشوائي الذي هو وحده الذي فيه مناقضة لفكرة الإله، في حين أن بقية عناصر الانتخاب الطبيعي والتطورية لا علاقة لها بنفي هذه الفكرة:

«و لعل القارئ عند هذه النقطة قد أُصيب بالحيرة، بما يوجد من عدم الاتساق ظاهرياً، فهذا الكتاب كله يُشدِّد على الأهمية الطاغية للانتخاب الطبيعي. كيف يسعنا الآن أن نُشدِّد على عشوائية التغيّر التطوري على مستوى الجزيء؟..وحتى أشد المحايدين حماساً لن يعتقد أن الأعضاء العامة المُركّبة مثل الأعين والأيدي قد تطورت باندفاع عشوائي»[1].

ومن هنا يطرح السؤال فيما لو كانت فكرة الجين الأناني على ذلك المستوى الذي يزيل كل عوائق مشكلة التغيّر المحايد الذي نتيجته دوماً غير مُحايدة في تحديد وظائف الأعضاء وفي تصنيف الكائن داخل النوع نفسه؟! هذا فضلاً عن مشكلة التضاد بين الطرح الأخلاقي الرحماني المُدعى لهذا الصنف من الملاحدة وبين متبنياتهم في الجين الأناني في علم الطبيعة، كما سوف نرى.

يوم ستجعل من أبناء العمومة يخبروننا بالقصة الحقيقية عن الأسلاف، فنحن ليس لدينا شيء حقيقي نقوله بشأن قضية مهمة مثل: ما هي الضغوطات الانتخابية التي جعلت المخ ينمو لجمجمة لم تتطور وتماثل حجم سلف مشترك؟! وكيف يكون الفارق الجيني بيننا وبين الشمبانزي ضيئلاً جداً مع أن حجم الفرق بيننا هائل؟!. فإذا كان حتى التماثل الجيني لا يجعلنا ندرك الفرق بين الأصناف، فأي شيء يتبقى للداروينيين في عملية التصنيف والتاكسونوميا والمقايسة!.

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٣٦١.

حينما نصل إلى حلقة الانتقال من مدار علم الأحياء، مثلاً، إلى مدار الاستنباط في الكونيات، فإنا نُصدم بمدى من الغرور المتناقض مع نفسه الذي يعترف: «نحن حتى وقتنا هذا لا نفهم كل شيء، أو حتى معظم الأشياء، عن طريقة نمو الحيوانات من البيضة»[١].

وكل نظرية تفسيرية عامة من قبل العلم تبقى مُهددة بالاستبدال، فلا معنى لأن تكون التطورية أو غيرها عبارة عن «الحقيقة» فمن يقل عنها إنها كذلك يقرّ بأنه «كانت هناك أوقات في تاريخ العلم حيث أُطيح بحق بكل العلم التقليدي، بسبب من حقيقة واحدة مُربكة. وسنكون من المتعجرفين لو أننا قررنا أن إطاحات كهذه لن تحدث قط ثانية»[٢].

إنها مفارقة شديدة بين كون الأصل المتزلزل في تقديم صورة دقيقة للداروينية المتعددة المدارس، حيث كل مدرسة تحاول سد ثغرة ما في النظرية، وكون هذه الداروينية خطاباً صلباً ينفي الإله وفكرة التفكير في العلية، وحتى دوكنز نفسه لا يستطيع إنكار مشكلة الداروينية بما فيها الداروينية الحديثة، فالحلول التي تم تقديمها هي نفسها تضيف مشكلات بلا حل:

«يقر الجميع بأن أكبر فجوة في النظرية التي خلّفها داروين قد سدها بالفعل «ر.فيشر» وغيره من أساتذة الداروينية الجديدة.. على أن «تركيبهم الحديث» قد خلّف عدداً من المشكلات المهمة بلا حل»[٣].

---

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٣٩٢، ودوكنز يقول صراحة في حقيقة أحيائية بسيطية مثل نمو الجنين إنه «سياق، إنه تتال مرتب من الأحداث»، الأمر الذي يناقض مسألة اللاعلية وهتك نظام السببية.

(٢) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٣٨٩.

(٣) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٩٩.

ودوكنز لا يخفي أن لديه صدامات مع أساتذة مرموقين لا يسعه سوى الإقرار بمنزلتهم العلمية، وهم قد كتبوا بحوثاً انتقادية تخص فهمه للانتخاب الطبيعي، وبعضهم بلغت به السخرية بدوكنز أن كتب كتاباً كاملاً بعنوان ذي رنين صارخ (حروب داروين، كيف أصبحت الجينات الغبية آلهة أنانية)[1] وهو بالفعل سؤال مُحرج، من الناحيتين البيولوجية والتنظيرية. إذن، حتى على مستوى دراسة الجينات وتشريح النباتات، فضلاً عن الحيوانات الحيّة والأحفورات، فضلاً عن البعد النظري والتفسيري العام لهيكل الكائن الحيّ، فإن أقوال دوكنز لاتعدو سوى مجرد وجهة نظر لأكاديمي تطوري له نقاد أشداء في علم الأحياء وهم تطوريون مثله (مثل ستيفن جولد)، فكيف ببقية المسائل العامة وصولاً إلى مسألة الاستنتاج العقائدي من الانتخاب الطبيعي؟!.

والمفارقة الأشد حينما يتم نقل نظرية التطور من ميدان علم الأحياء إلى ميدان الاستنتاج الفلسفي اللاهوتي، هنا سوف ينبني الاستدلال بالاصطفاف صوب الاحتمالات الضعيفة، بالإضافة إلى التفتيش عن أصغر العيوب وترك الحشد الهائل من الكمالات، كترك الهيكل الكلي للإنسان والتركيز على العصب الحنجري، أو على بعض أجزاء العين مثلاً، جزئيات صغيرة يتم تقديمها على أنها هدم «لأحسن تقويم» مع تغييب للصورة الكُلية للحياة والوجود، والخلط بين ضرورة الانتهاء إلى الوجوب، وإلى كون كل ممكن يحمل نقصاً وعيباً، فالمخلوق الحي بأي صورة ركبناه سيكون به عيب ونقص، وهذا العيب والنقص لا قيمة لهما حتى بحسب المنطق الداروينـي

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٢٥.

الـذي يسـتدل أن جـزءاً مـن عيـن أفضـل مـن اللاعيـن[1]، وعيـن بصرهـا ضعيـف جـداً أفضـل مـن لا شـيء، وغيـر ذلـك مـن مفارقـات اسـتنتاجية كثيـرة بسـبب أن التطوريـين هـم وفـي الأسـاس أن مجـال خبرتهـم لا علاقـة لـه بنظريـة المعرفـة ولا بطرائـق التفكيـر العامـة. لـذا ينقلـب العلـم التجريبـي فجـأة إلـى اسـتنباط أحـكام نافيـة ودائمـة للماهيـة وليـس للوقائـع، فحينمـا لا نعـرف فائـدة تكويـن عضـوي مـا، لا نقـول إننـا «الآن» فـي هـذه المرحلـة لا نعـرف أي فائـدة لهـذا التكويـن العضـوي، بـل يُقـال إنـه: لافائـدة منـه مطلقـاً، وإن هـذا النفـي نفـي فـي الحاضـر والمسـتقبل، وإن هـذا الجهـل يتـم تأويلـه علـى أنـه عيـب خُلقـي، وهـذا العيـب الخلقـي يكـون دليـلاً علـى نفـي المطلـق الـذي هـو الإلـه، مـع أن العلـم التجريبـي لاعلاقـة لـه بمـدار المطلـق مـن أي نـوع. بـل كثيـراً مـا يلجـأ التطوريـون إلـى حجـج عقليـة بحتـة لتفسـير الحيـاة العضويـة، بمـا لا علاقـة لـه بالتشـريح المُقـارن ولا التاريـخ الإشـعاعي للمتحجـرات والصخـور، وهـذا لا ينسـجم قطعـاً مـع رفضهـم المُتشـدد للمعرفـة العقليـة غيـر التجريبيـة ولـو مـن ناحيـة المبـدأ[2].

ليسـت المشـكلة فعـلاً بالانتخـاب الطبيعـي[3]، فقـد يُمكـن قبولـه باعتبـاره

---

(١) العجيب أن علماء الأحياء الذين هم أدرى بأن تكوين الكائن العضوي ليس هو تصويراً لرسومات مُتحركة، يطرح ملحدونهم تصوراً أن فرضية الإله تعني أن تقوم القدرة الإلهية بتكوين الكائن بطريقة اعتباطية تجعله بلا عيوب، هكذا يظهر قلب لاعلاقة له بتكويناته الداخلية ولا الخارجية، وكأنهم يفترضون أن عملية الخلق خالية من جدلية العلل والقابلية، فأي تغيير في شكل عضو ما يعني تغير بنية كيميائية وفيزيولوجية لكامل بنية الكائن الحي وبالتالي يبطل أن يبقى هو نفسه، وبالتالي اعتراضات كوميدية كهذه تهدم أي تفكير علمي يمكن فرضه!.

(٢) \العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١٢٨.

(٣) ومـع دوكنـز يتغيـر الأمـر فـي كل مـرة، فمـع مشـكلات معينـة نجـد الحلـول مصوغـة بفكـرة

طريقة الله في الخلق، بحسب قول البعض، حيث الانتخاب الطبيعي في النهاية مجرد قانون داخلي في توجيه الكائن صوب هدف معين تحت ظرف وشروط مُحددة، فهو فكرة محمول مُستنبَط من موضوع ،ولاتوجد علاقة ضرورة بينهما، وهو لا يعني أن موضوع القانون هو فاعله الذي أوجده في نفسه. إنما المشكلة في أن تكون آلية الانتخاب الطبيعي عملاً عشوائياً أعمى لا يحتاج إلى بداية ولا ينتهي إلى غاية وليس له فاعل، وأن بدايته لم تأت من قوة خارجة عنه، وأنه رغم تأكيده لمبدأ أن كل شيء هو واحد فإنه لا يدل على الواحد سبحانه حيث:

«إن الشفرة الوراثية .. هي لغة «متطابقة» في كل كائن حيّ فوق كوكبنا هذا، ابتداءً من البكتريا الكبريتية حتى أشجار الصنوبريات الحمراء العملاقة، ومن طحالب عش الغراب حتى الإنسان. فالكائنات الحيّة كلها، أقله فوق هذا الكوكب، لديها «البناء» الواحد نفسه»[1].

الجين الأناني، مرة عبر الرياضيات البحتة، ومرة عبر الانتخاب الجنسي وليس الطبيعي، وهذا لا يفاجئنا فالإنسان كائن تأويلي(والتأويلية لايمكن للانتخاب أن ينجبها،لأنها رمزية بحتة قد تكون ضد المنفعة تماماً) هو الذي يجعل من حجر بائس قلادة يتعامل معها بحميمية ودفء مشاعر ويرى في الحجر أيقونة مُقدسة يفتديها بنفسه، وهو يعلم أنها في النهاية ليست سوى حجر بدون تأويلاته وميزته الخاصة بصوغ رؤية كونية شاملة، وهو الذي لا يتعدى وجوده الفيزيقي أصغر من ذرة غبار في هذا الكون الهائل.ثم أليس المنطق الداروينى يفترض أن الوعي السابق كان أبسط، فكيف مازلنا بكل إمكاناتنا المعاصرة نفكك بجهد بضع أساطير عالية الدقة الدِلالية؟!.

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٥٥. ولايمكن لأي أحد أن يتخيل مقدار الرقم الخرافي لمجموعة الصُدف التي تخص جميع المخلوقات الكثيرة (المتنوعة بترجيح غير مرجح لشفرة واحدة حيادية) مضروبة في مقدار اختلافاتها، مضروبة في عدد الصُدف المطلوبة أمام كل جزئية اختلافية في كل كائن، ثم هذا كله مضروب

وهذا ما يُفترض بأن التطوريين يدركونه، لكن للأسف لايكف هؤلاء عن تناسي هذه المسألة في أغلب مواقف المحاجات ضد فكرة الإله:

«عندما ظهر كتاب أصل الأنواع لداروين في منتصف القرن التاسع عشر، وفيه نظريته عن التطور والانتخاب الطبيعي، ثارت ضجة كبرى بين العلماء وغير العلماء، ما بين مؤيد ومعارض ومتحفظ. والآن بعد مرور ما يقرب من القرن ونصف القرن، أصبحت نظرية التطور أكثر رسوخاً بما جعلها جزءاً أساسياً في المقررات الدراسية لطلبة البيولوجيا في العالم كله. بل وظهر بين رجال الدين في العالم الغربي مؤيدون كثيرون للنظرية لهم وزنهم، يبدون إيمانهم بها، ولم يعد الجدل يدور حول التطور ذاته وإنما هو حول الميكانزمات أو الآليات المحرِّكة للتطور ونشأة الحياة»[1].

وقد تأخذ الحماسة ببعض الشباب أن يعتقد بما أن كتابات دوكنز «علمية»

في أن يكون الاختلاف المتعدد متوافقاً دائماً مع الخلية الواحدة المثلية البناء. إن هذا يتجاوز وضع كيس فيه أكثر من ترليون غيغا لعدد المجرات مُرقمة بالتتابع تخرج الصدفة نجمة خارج الكيس بتتابع مُنظّم!. إن هذا بأقل تقدير إهانة للعلم نفسه. ومن باب التأكيد يستطيع القارئ أن يقرن كيفية قناعة دوكنز بعملية احتمالية بسيطة لا تتجاوز اختبار اثني عشر طيراً (العلم والحقيقة، ص٧٦) حتى ننتهي إلى يقين تعميمي، بينما خارج إطار الطبيعيات حيث إرادة نكران الإله، لا تكفي ملايين الاحتمالات، وإذا ما ضقنا ذرعاً بالإلهيين سوف نفترض أحقاباً إضافية بل وحتى عوالم كاملة، كي يكون حجم الاحتمالات المتجاوزة حدود الخبل، معقولاً!. في حين أننا لو استخدمنا طريقة حساب الاحتمالات نفسها التي يعتمدها دوكنز (ككل الطبيعيين) فإنه لن يمكننا ولو على سبيل المزاح الفجّ، طرح مجرد فرضية مناقضة لنكران العلة الأولى.

(١) ريتشارد دوكنز، مرجع سابق، «صانع الساعات الأعمى، الجديد في الانتخاب الطبيعي» ص٩. الهيئة المصرية العامة للكتاب. =

ويستند في أغلب الأحيان إلى شهادات أكاديمية (وهذا مجرد ادعاء) فإن ما يقوله بالضرورة هو الحق المُبين، وبالتالي فما يتفرع من الحق، حقٌ مثله؟!.

إن مجرد التذرع بالعلموية، قضية باتت غير مأمونة اليوم، بما يكتنف الوسائل والتقنية الجديدة من صنع حقائق وبراهين زائفة طاولت حتى علوم النفس ومعامل الأدوية وإرشادات الصحة العامة:

«لا يوجد أي حد واضح لقدرة البشر على الخداع.فنحن كالأبقار الطيعة سريعة التصديق، ونتلهف لأن نكون ضحايا للدجالين والمشعوذين الذين يستحلبوننا ليزدادوا سمنة.هناك مجال للإثراء في الحياة لأي فرد لديه استعداد لأن يستخدم في عصر لغة العلِم وعجائبه»[1].

ولا يغب عن بالنا التحول الجوهري في المعلومات الطبيعية حتى في أشد العلوم تماسكاً كالفيزياء، فمثلاً:

«جوزيف تومسون» حصل على جائزة نوبل عام ١٩٠٦، بإثباته ان الإلكترون في الذرة عبارة عن جسيم، وبعد ٢٩ عاماً حصل ابنه على الجائزة نفسها بإثباته أن الإلكترون موجة وليس جسيماً.

وعليه فأي يقينيات عمومية كُلية تشمل الماضي السحيق والحاضر الكثيف والمستقبل الواسع، تنفي مسائل أوسع من دائرة العناصر المادية المدروسة، ويتم نشرها على أنها «حقائق علمية» لا تمتلك الميتافيزيقا والدين، أمامها سوى رعب الانهيار؟!

لكن هذه الحماسة التي قد تصل لدى البعض إلى عاطفة جياشة تُصيب صاحبها بتعصب مقلوب، يحتاج إلى تريث كبير. والأكاديمي يعني عدم

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٨٢.

الحيلة والتزوير، فدوكنز نفسه يُصدم بما تمرنه الجامعة على الكذب[١]، وكون جملة من النوادي العلمية قائمة لأغراض أخرى . بل قد يتحالف ذوو الخبرات الأكاديمية من أجل دعم الجريمة والبشاعة والتضليل، وقد كتب دوكنز نفسه مناهضاً وناقداً له[٢]. والذي يصل في بعض الأحيان إلى تغليف التزوير بثياب ولافتات جذابة ذات موضة رنانة ومنها بحسب دوكنز أكذوبة ما بعد الحداثة[٣].

للأسف الشديد إننا لانستطيع أن نتمدح العلم، هكذا بشكل مطلق ولمجرد العنوان، فبدون الوازع الأخلاقي والإنساني سيكون حتى العلم جزءاً من أصول الشر، وهذا غير ممكن داروينياً إذا جعلناه منطقاً شمولياً تنتهي به الأخلاق وقيمة الحقيقة بلا منفعة. ونحن نجد أن دوكنز لا يتورع أبداً عن أن يحوّل، في بعض الأحيان، كتابته إلى تسويق إعلامي، كأي مسوّق ومروّج إعلانات آخر، ويمتدح فجاجة مسوقي كتبه والمتربحين بها[٤].

ثم لم يتقدم الجنس البشري من خلال جديد الفكر التجريبي وحده، [٥]بل

---

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص١٤.

(٢) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٧٧.

(٣) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٩١. والطريف والمعقد مع دوكنز، أن دوكنز الناقد للإسهاب التنظيري السائب لتيار ما بعد الحداثة، هو نفسه مشارك في صك أمور مشابهة، مثل «الميمات» التي تناظر «الجينات» بالنسبة إلى الأفراد (العلم والحقيقة، ص١٢٤) والتي تخيل دوكنز أنها ماكينزم ووسيلة لنقل الخصائص الجماعية بين المجتمعات.

(٤) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١١٦.

(٥) والذي هو الآخر غير منفك عن استخدام التعميمات ومفاهيم الكليانية كقولنا (يُعتبر الكائن الحي متكيفاً لموقف معين أو لحصيلة المواقف التي تشكل بيئته) فهذه قاعدة كلية وقاعدة ثابتة في الماضي والحاضر والمستقبل، وحينما لا نقول إنها قاعدة ثابتة كأي قاعدة ثابتة أخرى، سيكون كل حديث عن الداروينية مجرد عبث(العلم والحقيقة، ص١٤٨).

من خلال تطور متعاضد في الفكر الفلسفي والأدبي والأخلاقي، وعلماء التجربة، ودوكنز منهم، يعتمدون كثيراً على ما تم إنجازه من تقدّم لغوي ومِران اصطلاحي، لذا نجد الجميع يستعين بالمجازيات اللفظية، وإذا كنا إلى اليوم بحاجة إلى كل هذا الكم من المجازيات اللغوية لتقريب الفكرة لإنسان اليوم، فكيف تتم محاسبة النصوص الدينية ومفاهيمها بطريقة حرفية، وهي التي خطابها موجه إلى قرون بعيدة سالفة؟!.

هذا فضلاً عن أن مسائل عديدة في الطبيعيات اعتمدتها الداروينية، هي منجزات لأشخاص مؤمنين بعضهم تم حتى رسمه قديساً، فسجل الطبقات الصخرية عبارة عن منجز لدنماركي كان مطراناً ثم صار رئيس أساقفة ثم قديساً، ومثل هذا ليس قليلاً ولا شاذاً حينما نعود ونتصفح دراسات حبة البازلاء وما شابه[1].

ولا يفوتنا أن نُسجّل ضمن اعتراضات نقاد التطور قولهم: إنه فقط بعد عام ١٩٤٥ صار بإمكاننا قراءة المتحجرات والطبقات الرسوبية، فعلى أي شيء كان يعتمد داروين وأتباعه كل تلكم المدة في التمسك بإيمانهم بالانتخاب الطبيعي؟!!.

ومن اللطيف بمكان أن الإلحاد بواسطة الداروينية، الذي ينفي فكرة إرجاع الوجود إلى علة واحدة هو الإله، هو نفسه يُرجع الوجود إلى علة واحدة هي الانتخاب الطبيعي!. مثل الإلحاد على أساس الفيزياء النظرية التي تجعل من الانفجار الكبير، علة تشمل تفسير كل شيء وتوجده. وهو دليل على أن لا أحد يستطيع التحرر من أغلال الأيديولوجيا. ودليل على وجود عنصر إضافي

(١) لماذا التطور حقيقة، مرجع سابق، ص٣٨.

في الإنسان يضغط عليه بشكل مستمر أن لا يكتفي بالمادة والماديات فقط، وإلا فالواقع الأمبيريقي الحسي لا يمنحنا سوى حقائق الجزئيات فقط، أما الفكرة الناظمة والمُحيطة (أسطورة، الإله، الداروينية، نظرية كل شيء..الخ) فأمرها يقع خارج هذه الوقائع.

ولا تفريع مسألة في عِلم آخر (اللاهوت ،أو الأخلاق) عن حقائق في علم مختلف (علوم الأحياء أو الطبيعيات)، باستنتاج لا هوعلمي ولا هو بديهي. ولا حتى التطوريون أنفسهم بقادرين، خارج الصخب الإعلامي المُتحمس للنظرية، بإنكار أن باحثين كباراً يعتبرون الداروينية «نظرية ميتة»[1].

فضلاً عن موقف سلبي من قبل بعض العلوم التي يعانيها التطوريون بشدة، مثل التاكسونوميا وعلم التنصيف التي يُعاني أتباع الداروينية محاولة التملص منها بطرائق تأويلية مُختلفة[2]، بسبب موقفها بالغ السلبية من التطور. فضلًا عن أنه لا وضوح في مدعى علمية هذه النظرية يجعل التسليم بها منهجياً حتى بين القائلين بها أنفسهم (فضلاً عن الرافضين والناقدين لها) وبالتالي لا شيء يتبقى يسمح بأخذ مثل هذه الاستنتاجات بتلك الحماسة:

«هناك الآن مدارس مختلفة بين التطوريين أنفسهم، سواء منهم المثاليون أو الماديون. فيوجد على سبيل المثال لا الحصر، مدرسة الطفريين في أحد أقصى الأطراف، ممن يؤمنون بأن التطور يخطو في كل مرة بطفرة هائلة،

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٣٣٦.

(٢) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٣٣٩، وهنا دعونا نسأل دوكنز: إذا كانت طرائق التفكير ليست حقيقية ولا تمنحنا الحقيقة وهي جزء من لعبة التطور للخلايا المادية، وأن التطور لايمكن طرحه إلا عبر منظومة قواعد من ضمنها علم التصنيف الذي هو بدوره وعي للمخ البشري، كيف يمكننا القول إن التطورية أطروحة علمية أو نظرية فضلاً عن أن تكون: «حقيقة التطور أو التطور الحقيقي»؟!.

ويقابل ذلك في أقصى الطرف الآخر التدريجيون الذين يؤمنون بأن التغيّرات في التطور هي في أغلبها بطيئة تدريجية بما لا يكاد يُلحظ. وبين هذين الطرفين مدارس أخرى مثل الترقيمية والداروينية الجديدة والمحايدة، وجلُّ هذه المدارس قد خرج من عباءة الداروينية وإن كانت ربما تعارضها تماماً في بعض النواحي. ودوكنز مؤلف هذا الكتاب ينتمي إلى ما يُعرف بالداروينية الجديدة الأرثوذوكسية»[1].

إن لغة دوكنز الحتمية والجزمية، وجملة من المعلومات والتصويرات التي ينقلها، منقودة حتى من قبل التطوريين أنفسهم (فضلاً عن علماء الأحياء)، الذين هم بدورهم بينهم اختلافات يصل بعضها إلى حد التناقض التام[2]. وذلك لكون بعض المواضع، حساسة وهامة، من نظريتهم غير تجريبية ولا علمية بالمفهوم الأكاديمي بل هي خليط من حدوس وخيالات وسرديات

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٩.

(٢) فالداروينية الكارهة للفلسفة حال بعض الفيزيائيين المعاصرين، إلى درجة القول بموت الفلسفة، هي نفسها تحمل إشكالية كانت ومازالت تعاني منها الفلسفة، حيث كان يُقال: إن الفلسفة باطلة لأنه لايوجد أي اتفاق بين فيلسوفين، فهناك كثرة دائمة في الأقوال فلكل فيلسوف فلسفته الخاصة به، وهذا ما يمكن قوله في الداروينية تماماً حيث كل من كتب عنها بحماس دوغمائي بأنها تفسير لكل شيء وبلا حاجة إلى إله، في الحقيقة قام بطرح داروينيته الخاصة، فكل داروين يكتب تصوراً خاصاً به، فهناك داروينية بعدد الداروينيين، تماماً كما أن هناك فلسفة بعدد الفلاسفة، لكن العجيب أن هذه الكثرة والاختلاف تكون حُجة ودليلاً على بطلان وموت الفلسفة، لكن لا تكون دليل ضعف في الداروينية!، فكأن القضية باتت «موضة علمية» يجب أن نقبل أي شيء حولها وإلا سنورط أنفسنا بأن نكون في معرض المعابة بكوننا، ليس خارج المنهجية العليمة، بل خارج الموضة الأكاديمية!. بل أليس دوكنز من الناقدين للخداع العلموي والصرعات والموضات الأكاديمية؟ حيث ليس الأكاديمي هو بالضرورة نقيض الخرافة والتزوير(\العلم والحقيقة، ص١٨)، فهذا ما ليس عليه دليل بل بعض الأحيان هناك أدلة ملموسة على نقيضه.

أدبية[1] وفروضات ذهنية صرفة وتعميمات على شاهد وحيد بسيط غير قادر على نقلنا إلى تعميم كامل وصياغة قواعد، بدونها لن يكون هناك علم، في حين أن كتب هؤلاء تعجّ بكمية هائلة من القواعد!.

ورغم هذا الاختلاف فعلى مقلدي دوكنز أن يغمضوا أعينهم عن كل ذلك ويرددوا خلفه بأن «التطور لم يعد بعد نظرية عرضة للإثبات أو التفنيد، وإنما هو ظاهرة موجودة في الكون مثل ظواهره الأخرى كالبرق والرعد والزلازل. أما النظرية التي تُفسّرها ظاهرة التطور فهي نظرية الانتخاب الطبيعي التي بدأها داروين، ثم ما لبثت هذه النظرية أن تطورت هي نفسها بواسطة علماء الداروينية الجديدة بمختلف اتجاهاتهم التي قد تكون متوافقة أحياناً ومتعارضة أحياناً أخرى»[2]!.

وهناك معضلة تم الاختلاف في حجم أهمتيها طرحها بعض الأساتذة في الجامعة الأسترالية، تتعلق بالشاهد الأهم للداروينية الذي هو الحفريات ووجود اختلاف هيكلي بين الأجيال(طيور داروين كمثال شهير). فنحن لو تصورنا أن أصل الطيور زوجان فقط والكلاب زوجان فقط، وهكذا البقية، فإن كمية التغير الت ستجري في الزمن الطويل، وهو زمن يطرحه أنصار التطور أنفسهم، عندها سنجد الخريطة الجينية نفسها وهيكلية الأجسام المختلفة بين الأجيال، وبالتالي كل شاهد يتم وضعه كدليل للداروينية هو نفسه شاهد

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١٤١-١٤٣، يتخيل دوكنز مخلوقات فضائية حتمية الوجود تأتي إلى الأرض ومقابلتنا حيث ستكون كل الحضارات البشرية بلا قيمة ما عدا داروين. كما يختم دوكنز كتابه «صانع الساعات الأعمى» بطريقة حوار مسرحي.

(٢) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٨.

على الخلقوية، وهنا تم الاستناد إلى الدراسات التي طُرحت في عام ٢٠١٤ في جامعة كاليفورنيا، حول الأصل الواحد لكل أنواع الكلاب التي هي أصل منعزل النشأة عن الذئاب، والمُدهش أن المخطط الجيني لتعاقب الأنواع للكلاب للخلقويين هو نفسه المخطط الجيني للداروينيين، وحينما نقارن حجم الاختلافات في جماجم وأجساد الكلاب ،سنجدها تتجاوز بكثير حجم الاختلافات في طيور داروين التي يتكرر تعليمها للطلبة بكونها المثال النموذجي لفهم الداروينية التي يتم القفز منها إلى طرحها كدليل توظيفي ضد فكرة الإله بل الدين. في حين أن الخلقويين، بعكس ما يُشاع عنهم من قبل المتحمسين للداروينية، ليسوا ،أجمع، ضد مفهوم «التطور»،[1] بل كثير منهم

(١) بالنسبة إلى القرآن، يمكن أن يُقال مثلًا، إنه، أي القرآن، لادليل فيه على وجود طوفان عالمي باعتبار أن نوحاً أُرسل إلى «قومه»، وعلى ذلك يكون «أحمل كل زوجين اثنين» يعني مما كان في منطقته الجغرافية وليس في عموم الكرة الأرضية، ويكون معنى الجبل الذي لا يعصم من الماء هو مجرد تلال صغيرة، فالعرب تطلق اسم الجبل على التل، وبالتالي فلا دليل قرآنياً واضحاً على قول القرآن بوجود طوفان عرم أغرق الكوكب ككل، (بل حتى لوقلنا كل الأرض فإن السرد القرآني ليس فيه زمنية قصيرة تناقض التطور) وبالطبع لم يكن الطوفان «عقوبة» حتى يقال ما ذنب الأقوام الأخرى؟!، بل هو آية على صدق نوح بأنه يعلم بحدث لا ترصده الوسائل البدائية آنذاك. وهناك صور تفسيرية أخرى مختلفة أغلبها لايرد عليها إشكالات الداروينية، وبالتالي كل نقاشات الإلحاد الداروينى مع الخلقويين المسيحيين لا موضوع لها، إذ يمكن لأي أحد أن يجري استقراء لمسألة تأكيده بأن التطور المفيد هو الحقيقة الثابتة في الأرض مائدة الأحياء باعتبار: أن الزّبد يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. وتأمل في كلمة «زبد» حيث هو قرين الذهاب والاندثار، وتأمل «المكث» المقرون بمفردة الحصر «أما». لتجد أن فكرة كالتطور لايمكن عرضها كنظرية هادمة لفكرة الإله القرآني. إلا اللهم بعملية تعسف تحاول إسقاط فهم حرفي لبعض الآيات أو مذاهب إسلامية منغلقة على أدواتها الحديثية التي هي بالنسبة إليهم أهم من القرآن نفسه كما تفعل جملة من المذاهب السنية أو بعض الحركات

يقولون به، وهو مفهوم موجود حتى في شروحات الكتاب المُقدس وتفاسير القرآن الكريم. ومن هنا ندرك حجم الاضطراب في أطروحة الإلحاد على أساس الداروينية والانتخاب الطبيعي، فهؤلاء الذين ينكرون الملازمات العقلية المطلقة ومفهوم بديهية العلية، وكل بديهية، يجعلون هناك ملازمة وعلية ومعلولية بين القول بالتطور وبين الداروينية ثم بين التطور والداروينية ونفي الإله[1].

فليست القضية إذن، كما تبدو لنا أول وهلة، عبارة عن إنكار لشواهد تجريبية محسوسة، بل نحن أمام رؤية تُفلسف هذه العناصر والشواهد والصراع هو في طريقة القراءة لكل ذلك. ومن الواضح أن للقضية مدخلية في «الشعور» وكيف يُبنى منه الاستنتاج، بخلاف مدعيات دوكنز، كما سوف نرى، حيث قصر فيها الاستدلال منفصلاً عن الشعور.

المتطرفة الشيعية التي تولي مدونات الأخبار عن أئمتهم، مهما كان نوعها، قيمة قاعدة ثابتة فوق العلم وفوق القرآن والعقل.

(١) وقد أقام الأكاديمي الأسترالي الذي انتقل إلى العمل في الولايات المُتحدة الأميركية الأستاذ «كين هام» عدة برامج في مناظرات مفتوحة مع الداروينية وللأسف كان ريتشارد دوكنز يحاول منع مثل هذه اللقاءات والحوارات، وقد أتت تلك التدخلات من دوكنز كدليل عملي على صحة ما ذكره كين هام وفريقه من أن جملة الأساتذة في الجامعات لا يستطيعون التصريح بعدم اقتناعهم بالداروينية بسبب ما تتمتع به من ضغط إعلامي . ولولا مشكلة الدفاع عن المسيحية لكان لجماعة «متحف الخلق» في أميركا، دور كبير باعتبار أن أغلبهم متخصص أكاديمي في فرع علمي مهم (بخلاف ما يُشيعه خصومهم عنهم بأنهم مجرد علماء سونار سذج!). ولديهم حُجج في أغلبها مفيد لكنهم يعتمدون في إسقاط الداروينية على حجة تصلح لأن تكون ضدهم قبل غيرهم: فالقول إن الداروينية تعتمد على نظرة تاريخية بترحيل الحاضر إلى الماضي، تنطبق على الخلقويين المسيحيين حيث إنهم يعتمدون الكتاب المُقدس في تحديد عُمر الأرض والكون وغير ذلك، ويعتمدون وثيقة ماضوية تماماً!.

«هل يعني هذا أن الواقع يحتوي فقط على أشياء قابلة للاختبار، على نحو مباشر أو غير مباشر، بحواسنا أو من خلال طرائق العلم؟ وماذا عن أشياء أخرى من نوع الغيرة والبهجة، السعادة والحب؟ أليست كلها أيضاً من الواقع؟.

أجل إنها واقع. لكنها تعتمد في وجودها على العقول: العقول البشرية بالتأكيد، ومن المحتمل عقول الأنواع الأخرى من الحيوانات المتطورة مثل الشمبانزي، والكلاب والحيتان أيضاً. ولا تشعر الصخور بالبهجة أو الغيرة، والجبال لا تحب. فهذه المشاعر واقع مكثّف لهؤلاء الذين تتبدى لديهم، لكنها لا توجد قبل وجود العقول»[1].

أوليست العقول أموراً وجودية ضمن عناصر الواقع؟!

وماذا يعني أنها موجودة بوجود العقل؟! هل يعني أنها اعتبارية ولا واقع خارجياً لها سوى الإدراك العقلي؟ هل الإدراك العقلي متعلق باللاواقعيات؟ أم يعني أنها واقع خارجي لكن يتطلب الأمر ارتقاءً خاصاً كي يتم إدراكه تماماً كنوع من الأشعة فوق البنفسجية أو بعض درجات تردد الصوت، لا نراها ولا نسمعها لأنها تطلب مُدركات خاصة لا نملكها؟!.

الأمور كلها مُعلقة وفي اليد فقط «واقع مكثف» لو لم تكن واقعية لكان معنى ذلك وجود واقع هو لاواقعي، أو أن يكون اللاواقعي واقعاً!!.

فلكل طرف طرائقه في تحديد ألوان طيف الواقع أمامه، فالقضية ليست في التجربة وإنما في العقل، على الرغم من أن أصحابها من المعلنين رفضهم للمعرفة العقلية يطرحون قرب موت الفلسفة!، ومن هنا تبدأ عروضات الاقتناع بالداروينية ليس عبر مقدمة معلوماتية عن كائن عضوي ما، بل بمدخل

(١) سحر الواقع، مرجع سابق، ص١٥.

الكتب الفلسفية نفسها، فأنت حينما تقرأ كتب محمد حسين الطباطبائي عن الفلسفة (كتاب نهاية الحكمة وكتاب أصول الفلسفة) وما يعرضه دوكنز تجد أمامك المسألة الافتتاحية نفسها: مسألة الواقعية والواقع وإشكالية تحديده ومفارقات قراءته. وهذه المقدمة لا دليل على إثباتها بل لا يمكن ذلك إلا من خلال الشعور المنبوذ من دوكنز، ومن خلال الفلسفة التي يخرجها دوكنز حتى من قسم التحفيات المُحنّطة، بينما هو يسير على الطريق القديم نفسه:

«الواقع هو كل ما له وجود ويتحقق على الدوام، أليس كذلك؟. لكن الأمر ليس كذلك. هنالك مشكلات عديدة. ماذا عن الديناصورات التي كانت موجودة ذات يوم ولم يعد لها وجود الآن؟ ماذا عن النجوم سحيقة البعد والتي بمرور الوقت، يصل إلينا ضؤوها بينما لا نستطيع رؤيتها، وربما تكون قد تلاشت؟.

سوف نصل إلى الديناصورات والنجوم بعد فترة. لكن على أية حال كيف نعرف أن الأشياء موجودة، حتى في الوقت الراهن؟ حسنٌ، تلعب حواسنا الخمس: البصر والشم واللمس والسمع، والتذوق، وظيفة جيدة بارعة في إقناعنا بواقعية أشياء عديدة. الصخور والجِمال، حشائش العلف الجديدة، والبُن المحمَّص المطحون، ورق السنفرة والقماش الناعم، الشلالات وأجراس الأبواب، والسكّر والملح. لكن هل نحن فقط من يُطلق على شيء ما تعبير «واقع» طالما نستطيع اختباره بإحدى حواسّنا؟

ماذا عن مجرّة بعيدة بالغة البُعد إلى حد تتعذر معه رؤيتها بالعين المجردة؟ ماذا عن نوع من البكتيريا صغيرة الحجم إلى درجة لا يمكن رؤيتها بلاميكروسكوب قوي؟. هل يتعين أن نقول إن هذه أشياء لا وجود لها لأننا نعجز عن رؤيتها؟ كلا. من الواضح أننا نستطيع تدعيم حواسّنا من خلال استخدام أدوات معينة: التليسكوبات للمجرّة، أو الميكروسكوبات للبكتيريا. ولأننا نفهم التليسكوبات والميكروسكوبات وطريقة عملهما،

يمكننا استخدامهما لتوسيع مجال حواسّنا. في هذه الحالة، فإن حاسة النظر ـ وما تتيحه لنا من رؤية ـ تقنعنا بوجود المجرّات والبكتيريا.

ماذا عن موجات الراديو؟ هل هي موجودة؟ لا تستطيع عيوننا اكتشافها، ولا آذاننا، لكن مرة أخرى فإن أجهزة معينة كالتليفزيون ـ مثلاً ـ تحوّلها إلى إشارات نستطيع بها رؤيتها وسماعها. لذلك ،رغم أننا لا نستطيع مشاهدة أو سماع موجات الراديو، فإننا نعلم أنها جزء من الواقع...الواقع لا يشتمل فقط على الأشياء التي نعرفها عنه حالياً، فإنه يتكوّن أيضاً من أشياء لها وجود، لكننا لا نزال حتى الآن لا ندركها ولن نعرف شيئاً عنها حتى في زمنٍ مقبلٍ»[1].

إذن، دوكنز يعتمد مقداراً من المعرفة العقلية، وهو يقر بأنه ليس من الصحيح الحكم ببطلان قضية ما، لكونها خارج حواسّنا المباشرة. قضيتان تكفيان لبقاء الفلسفة حيّة، وتكفيان لبناء هيكل كامل لنظرية في اللاهوت، وبالتالي يسقط دليل صانع الساعات الأعمى ولا يبقى مجال لمصادفات تخالف دليل النظم. لكن مع ذلك علينا أن نتعود كثرة منسيات دوكنز التي هي واحدة من آليات تفخيم خطابه وتكراره أيضاً.

لكن لماذا لا نكون صبورين أكثر مع الرجل، فأطروحته الأساسية التي اشتهر بها هي عن الجينات، وقد استخدم هذه المعارف وغيرها كي يدلل ليس

(١) سحر الواقع، مرجع سابق، ص٩، وسواء في موجات الراديو أو فحص البكتيريا أو فحص المعادن التي ذابت في الماء وتبعثرت فيه جثث الديناصورات، وبالتالي نؤمن بوجودها ونتيقن من خصائصها رغم أننا لم نرها كلياً، كل ذلك عبارة عن اعتماد كلي على الانتقال من العلل إلى المعلولات واتباع الأثر لذي الأثر، وغير ذلك من قواعد عقلية صرفة، لا يعني سوى أن العلم التجريبي لايمكن فصله عن المعرفة العقلية التي لن نثق بها بدون الفلسفة، والتي هي مرتبطة بفكرة الإله، بل على أساس تنظير كانط البارع وآخرين، دلالة الفلسفة على الإله هي ضمان صحة مقررات العقل لنا، لذا تم تقديم العقل العملي على النظري ومخالفة ما هو شائع.

على عدم الحاجة إلى الله فقط، كما فعل ستيفن هوكينغ، بل أيضاً على نفيه وكونه مجرد وهم من الأوهام؟

ولِمَ لا، فقواعد المحاجة تفرض ذلك ونحن نقبله لكن ريتشارد دوكنز وليس سواه هو الذي يقول:

«إن الجينات ـ وحدات الوراثة، تُسمى الـ (دي إن أي). ونحن لدينا قدر هائل من المعرفة عن هذه الوحدات وطريقة عملها. لكنك لا تستطيع أن ترى تفاصيل مظاهرها، حتى من خلال ميكروسكوب قوي. فكل ما نعرفه تقريباً عنها يأتينا على نحو غير مباشر من نماذج مُخترعة نُخضِعها للاختبار.. فالأمر الأساسي أن «جينات» مندل كانت اختراعاً من خياله، لم يكن بمقدوره رؤيتها بعينه»[1].

القضية إذن، استنباط لاحق وغير معتمد على الفحص الأمبيريقي لعالم المادة، إذن، كيف سيحتج دوكنز، كما سنقرأ، بالجينات؟! وكيف هو الذي لم يعتمد المادة في هذه القضية الجزئية وما شابهها من المحدودات المحصورة العدد، ليجعل ذلك استقراءً له قوة أن يقول إن كل الموجودات ليس لها علة

(١) سحر الواقع، مرجع سابق، ص١٣ـص١٤. ولا يغب عنّا أن الفضل الكبير على علم الوراثيات كان يا للخيبة لرجل دين وهو الراهب النمساوي جريجور مندل. فلماذا أجهد دوكنز نفسه وأشباهه من الملاحدة في تصوير الأذكياء في العلم بأنهم ملاحدة، وأن المؤمنين لا يأتي منهم إلا الشر، ولماذا هذه الاكتشافات العلمية لقوانين الموجودات لا تجعل مكتشفها يرتد عن إيمانه مادام مجرد التعمق في معرفة قوانين الوجود يعني تقلص مساحة حضور الله في العالَم؟!. وبالطبع فإن علم الجينات تطور كثيراً خصوصاً بعد فرنسيس كريك وجيمس واطسون، اللذين هما أيضاً اعتمدا على الاستنباطات والتنظير التأملي، ولا يوجد أي شيء عياني وأمبيريقي مباشر. ولا ننس أيضاً علم فيزياء الكم حيث عوالم الجسيمات المتناهية الصغر الافتراضية، ومسائل الفيزياء النظرية التي لاعلاقة لها بدنيا الواقع والاختبارات التطبيقية، يبدو أن الدين وحده هو المشروط بهذا الشرط كي يكون علمياً!.

أولى مفارقة، وإن الدين ليس علمياً لكون العلم والعلمي هو حصراً ما يمكن مباشرة فحصه واختباره، لا أن نعتمد توسطات استنباطية وتأويلية وتنظيرية؟!

بل إن كل الأدلة التي سيسردها دوكنز مبنية على الاكتفاء بنظرية داروين، ودوكنز نفسه يقول بأن نظرية داروين لا تأتي في بداية حديثنا عن الكون والأشياء، بل هي تأتي بعد مرحلة سابقة من ظهور الوجود وتكوّن العناصر الأولية المختلفة للكائن الحيّ، ثم بعد ذلك تبدأ قصة التطور:

«والجدير ذكره أن نظرية داروين تبدأ حيث تتوقف قصة بناء الجزئيات»[1]، إذن، كيف يتم الحديث عن الصعود إلى جبل اللاإحتمال وجبل المستحيل وكون الداروينية نظرية كل شيء وتفسير كل شيء، بل وبها يتم تحديد نفي ما قبل الحديث عن الجزئيات وأصل الوجود؟!.

وبعض الأحيان يتخذ النقاش تسطيحاً دوغمائياً، وعسفاً لا يتورع عن التذرع بالبروباغندا يصعب التعاطف حتى بالاستماع إليه: فطرف يرفض الداروينية خوفاً من الفراغ الأخلاقي ونفي الإيمان. وآخر يتمسك بالداروينية حيث لا يعلم إذا سقطت بماذا يُفسّر الحياة، وكون الدين، كما يفهمه، يُقدِّم أجوبة تقتل روح الفضول والاكتشاف.

وكلاهما موقف يقع خارج التعامل مع الداروينية كما هي. بالرغم من أن للداروينية تفرعات اجتماعية ونفسية وسياسية، لم يكن يصح النقاش في نقضها لولا أن أصحابها هم من قاموا بطرحها، وريتشارد دوكنز واحد منهم، كما سنقرأ.

وهي مواقف من المحبط أنها صدرت عن علماء كبار يُفترض بهم أنهم أذكى بكثير من هذه الطريقة الساذجة في الاستدلال.

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٢٧

وبعكس النقاش الواضح بين الداروينيين أنفسهم حول علاقة الإنسان بالشمبانزي، وهل هذا التقارب بين النوعين يعني التطابق حد إمكانية التزاوج أم لا، «وأنا كنتُ أشك في ذلك، إلا أني أرى أنها فكرة ممتعة»[1]، فإن هناك نقطة الفراغ المُعتمة في استنتاج الإلحاد من الداروينية هي تعميتها على مسألة الوجود الأهم (الحرية) فعالم من الجينات المتشابهة التي تخرج منها أنواع كثيرة، يمكن صنع بداياتها مختبرياً، لا تفسير كيف ظهرت الحرية ولا معناها ولا حقيقتها، وليس لها أي طريق لذلك سوى إلغائها، أو التلاعب اللفظي في مديح العقلانية والمدنية والتحضّر ضد «أصل الشرور» الذي هو الإله والإيمان، حيث يُستخدم كل ذلك كتضليل إعلامي وخطابي، على ضياع المسألة الوجودية الأهم التي بها يكون الإنسان إنساناً.

وكذلك بضياع الأُس العقلي نفسه وبالتالي عدم قدرة طرح أي حقيقة، فمن جهة نحن نرفض الطرائق المعرفية غير العقلية، ومن جهة نقول: إن عقولنا لا تدرك الحقيقة، فعقولنا «مُصممة لتفهم فحسب التفاصيل الواقعية لطريقة بقائنا أحياء»[2]. فالإدراك البشري ليس إدراكاً للحقيقة نفسها، وإنما صورة مقولبة بقالب مصالحه ومنافعه فقط. وهكذا تنتهي الداروينية من حصر المعرفة بالحسية التجريبية، إلى البراغماتية السوفسطائية. وإذا بلغ الأمر هذا المنطعف فإنا لن نكون أمام (حب الحقيقة) وإنما أمام (إرادة السلطة)، وهذا ما يُفسّره تحول الطروحات العلمية إلى مؤسسات صِدامية، والآراء العلمية إلى قضايا احترابية. وهذا ما شاهدناه في تحول دوكنز إلى مؤسسة وجماعة، لها حراكها السياسي والإعلامي.

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٣١، أما لماذا لم يقطع دوكنز الشك باليقين ويجري هذه التجربة (الممتعة)؟ فهو سؤال خاص به بالطبع!.

(٢) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٨٨.

الجانب الشخصي لكاهن العلم

من المهم أن ندرك أن كتابات دوكنز نفسه غير حاوية لشروط الرزانة العلمية، وأنها لا تدور مدار الاستدلالات، بل هي لا تتورع عن استخدام الحيل، وهي مكتوبة بلغة حماسية، وتوتر عنيف ضد المخالفين، فدوكنز كاتب أيديولوجي يختلف عن بقية العلماء الذين يهمهم تقديم المعلومة، بينما هو يبتغي إقناع الآخرين بما يعتقد[١].

فدوكنز لا يُقدِّم بحوثاً في مدار التخصص بل على العكس هو يكتب في «الثقافة العلمية الموجّهة إلى غير المتخصصين»[٢]. وقد تم توظيفه ليشغل كرسياً تم استحداثه في السنوات الأخيرة في جامعة أوكسفورد في بريطانيا، يحمل تسمية غريبة ذات دلالة مُريبة: كرسي الفهم الجماهيري للعِلم!.

فدوكنز كاهن العلم يطرح نفسه كـ«مقاتل» ضد العقيدة القويمة نصرة للـ«علم الحق»[٣]. وبعكس كل الحماسة التي أخذتها كتاباته وبرامجه التي حصلت على دعم مؤسساتي كبير وواسع، فإن مقولاته فيها الكثير مما يعد غير مقبول ليس من عموم علماء الطبيعيات، بل حتى ضمن دائرة الداروينيين أنفسهم:

---

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص١٤.

(٢) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٧.

«آراء دوكنز في الداروينية الجديدة ليست كلها موضع اتفاق، وفيها أحياناً ما هو مثار خلاف بين العلماء. وعلى الرغم مما يبذله في البرهنة على آرائه بكل السبل العلمية، فإنها لا تُقبل كلها على علاتها. وثمة انتقادات عديدة توجه له من قبل المدارس الداروينية المختلفة ،مادية كانت أو مثالية، مثل خلافه المشهور مع الراحل ستيفن جولد عما إذا كان التطور فيه دائماً معنى التقدم. ومن أهم الانتقادات التي وجهت لآرائه أيضاً أنها لا تُفسّر كيف بدأ الانتخاب الطبيعي.. كذلك هناك من نقد آراءه في ثلاثيته المشهورة باعتبار أن فيها ما يطرح وجود حتمية وراثية رهيبة مبعثها نظرة أحادية لا تكاد ترى في الحياة إلا عوامل الوراثة والجينات»[1].

والسؤال الذي يهمنا كمتلقين عاديين من العامة: إذا كان هذا هو حال كلمات دوكنز فيما يخص مجال علم الأحياء وما يخص نظرية الانتخاب الطبيعي نفسه، فكيف هو الحال بتقييمات واستنتاجات دوكنز التي فرعها على التطورية والتي هي مجال علوم أخرى؟!.

أمام اعترافات نقص الأدلة والإفراط العاطفي الذي يشوش مسائل علمية اختصاصية، فما هو التكوين النفسي والاجتماعي لدوكنز الذي قولبه بهذه المعالم الشخصية، فجزء كبير من الآراء العلمية نشؤوه وظهوره مرتبطان بالأشخاص أنفسهم؟!

يمنحنا دوكنز صورة عن نفسه بأنه ترعرع في أُسرة غير دينية، وتربيته غير

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٨.

دينية، وتربيته غير دينية، لكن له قصة عن صوت غريب سمعه في الغابة في صباه، أخافه ثم تبيّن أنه لطائر، هكذا سيقولون له بعد زمن، وأ ن أحد القساوسة حكى له حكاية مروعة عن جنود ينفذون الأوامر حد الموت، ثم نُفاجأ بأن الطفل الذي نشأ بعيداً عن الدين كان يرفض نظرية داروين آنذاك[1]، ليس محاطاً برجال دين وأصدقاء متدينين، وله جنوحه نحو الدين في يوم من الأيام، كاد صوت طائر غريب يقلبه قسّاً، بل دوكنز الرجل الكبير مازالت لديه محفوظات وترنيمات دينية لشدة ما كررها وواظب عليها وعاش في مناخاتها الدينية، مازال يستذكرها بأكثر من لحن كنسي!![2]. ثمة ماضٍ بعيد لدوكنز ما كف الرجل عن محاولة بناء جدار عازل من الكتب والتصريحات كي يمنع وصول صوت ذلك العالم القديم إليه .

دوكنز المولود في أفريقيا وليس في لندن، وابن رجل عسكري منخرط في قوى الاستعمار، وفيّ لهذا الإرث حيث يتكلم بلغة استشراقية استعلائية، تضرب عرض الجدار بضرورة معرفة الآخر غير الغربي، عند الحديث عنه. هنا سيتغير تحديد معنى العلماء بأنهم «يصلون إلى تخمين «يسمى افتراضاً» حول ما يمكن أن يكون حقيقياً»[3]، بل العالم ينطق يقيناً والحقيقة مصنوعة

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٢٤.

(٢) وهم الإله، ص٢٤٦.

(٣) العلم والحقيقة، ص٤١٨، وبخلاف وصايا دوكنز بعدم تعليم الأطفال عقائد مُعينة، كلام دوكنز يأتي هنا ضمن خطاب موجه إلى ابنته البالغة عامها العاشر فقط! يعرض لها انتقاد العقائد كافة ويبين لها أنها مجرد هراء لا أساس له. ودوكنز في ص٤١٩، يقول إنه يذهب إلى مدارس الأطفال ويقوم بمناقشتهم بأن معتقداتهم الدينية بلا دليل، لا نعتقد طبعاً أنه ناقشهم بكروية الأرض ودوران الشمس وضرورة احترام قانون المدرسة، وغير ذلك التي هي بالنسبة إلى الأطفال بلا دليل ولا يمكنهم الدفاع عنها أيضاً!.

بين يديه، فمن سحر الشرق إلى سحر الواقع، ومنه إلى سحر العلم . فبما أنه غربي فهو علمي بالضرورة، وأي وصف يطرحه هو وصف حقيقي وواقعي بداهةً حتى لو كان وصفه لبلد إسلامي، «ثمة نساء في نقاب أسود كالغربان يمشين خانعات عبر رجال يجلسون على عتبات الأبواب، ويتحادثون وهم يدفعون الحرارة والذباب بعيداً، ويزعق المؤذنون كل أربع ساعات حسب النداء الشعائري، يُسجل ذلك الآن على أشرطة لأجهزة تسجيل مخبوءة في المنارات»[1].

وبالطبع لا أحد يمكنه مناقشة الرجل الأبيض. أيُّ مذهب إسلامي ياترى هذا الذي يتحدد فيه الأذان كل أربع ساعات في اليوم؟! فهذا الجهل الكبير لأبسط قضايا الدين، بله إنه في إحدى مقابلاته يختزل دوكنز الإسلام بحصان دمية يطير اسمه المعراج، هكذا ببساطة!.

إنه صوت الاستشراق القديم، ابن الرجل المُستعمر لا يستطيع أن يرى في الدين سوى هوية حافظة تخلق مسافة بين الشرق والغرب، والعلم غربي والدين شرقي، إنه خطاب القوة وليس الحقيقة.

هو يتخيل الآخر حسب مزاجه ولا حاجة طبعاً إلى مناقشة ما يقوله الآخر، ويحكم عليه بما يُريد. ودوكنز هنا بالفعل سليل الخطاب الاستشراقي للقرن التاسع عشر، الخطاب الأكثر تزمتاً واستعلاءً على الآخرين. وبما أن

(١) \العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٤٠٧. وفي هذا الكتاب تغنى بأفريقيا يوهمك في البدء أنه غناء سببه أنه مسقط رأس دوكنز، أو أنه البلد الأول في الأحفورات ونشأة الحياة بحسب النظرية الداروينية، لكن القارئ المتمعن يُصدم بكون الرجل يتغنى بأفريقيا وكأنها امتداد للرجل الأبيض وكنزه في الماس واستخراج الحفريات، وباعتباره سليل عائلة البيض القتلة في أفريقيا، لا يتحدث أبداً عن عذابات أفريقيا التي كان جانب كبير منها تحت شعار «العلم».

الشرق كبرى مميزاته أو «بطاقات تعريفه» بحسب لغة دوكنز، هو الدين، إذن من البداهة لرجل في قمة هرم الأكاديمية الغربية، أن يكون هو الأكثر عدوانية وخصومة للدين، وبالتالي تتحول الكتب العلمية وبرامجها إلى أداة مُثلى في الاختراق السياسي والهيمنة السياسية، ويأتي كل ذلك تحت اللافتة الاستشراقية القديمة: بأن الغربي العلمي يحاول تمريض وشفاء الشرق الذي أكبر أمراضه هو الدين. لذا لا يظهر الشرق في كتابات دوكنز إلا باعتباره «موضوعاً»، وهو موضوع صامت لا ينطق بنفسه، بل بواسطة الآخر الغربي الذي هو وحده المتكلم باعتبار أن اللغة الحقيقية هي بنت المتطورين وبنت إرادة الحقيقة العلمية للذين فازوا بالحقائق باعتبارهم الأصلح بحسب المنطق الداروينى، أما الفاشلون الذين ما زالوا يرزحون تحت خرافة الدين، فهم مجرد عشب تقضمه شياه الحقيقة العلمية، التي لها طبعاً، الحق بدوس ما تبقى من العشب، مُتنزهةً بضجر في مرابع التأمل الخصب، ولعل هذا واحد من الأسباب لحضور عنصر الرواية الأدبية والسرد في كتابات دوكنز[1]، فهو حفيد أصيل لسلالة المُستعمرين.

وقد يحسب البعض أن هذا تضخيم لقضية جزئية فرعية، وهذا غير صحيح فدوكنز الذي يطرح بصدامية تجريحية بالغة، ويدعو أن تتجرد دعوة الخلاص من الأديان من أية لباقة أو حسّ احترام، هو يعلم بأن الشرق هويته الأساسية هوية تراثية، وهو كعالم بيولوجيا يدرك جيداً أهمية التراث بالنسبة إلى الإنسان، فالدين الذي يقول عنه دوكنز شر مطلق هو من الناحية البيولوجية البحتة له منزلة الضرورة!!.

وبالتالي فإن تقويض تراث الإنسان هو تقويض لشروط وجوده التي كونته والتي حفظته أيضاً:

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٣٩٤-ص٤١٤.

«أود أن أحاول تفسير السبب في أن التراث جد مهم لنا. كل الحيوانات قد خلقت (بعلمية تسمى التطور) حتى تبقى حية في المكان الطبيعي الذي يعيش فيه نوعها. الأسود قد خلقت لتصلح للبقاء حية في سهول أفريقيا. سمك الربيان قد خلق ليكون صالحاً للبقاء حياً في الماء العذب، بينما سرطان البحر قد خلق ليكون صالحاً للبقاء حياً في البحر المالح. والبشر حيوانات أيضاً، وقد خلقنا لنكون صالحين للبقاء في عالم حافل بأفراد آخرين من البشر. ونحن في معظمنا لا نذهب لصيد طعامنا مثل الأسود أو سرطانات البحر، وإنما نشتريه من أفراد بشر آخرين قد اشتروه بدورهم من أفراد بشر آخرين. إننا «نسبح» خلال «بحر من البشر». وكما أن السمكة تحتاج إلى خياشيم لتبقى حية في الماء، فبمثل ذلك تماماً يحتاج البشر إلى الأمخاخ التي تجعلهم قادرين على التعامل مع غيرهم من البشر... والأطفال حتى يصلحوا «للسباحة من حولهم في بحر ناسهم» عليهم أن يتعلموا لغة بلادهم، وأن يتعلموا أشياء كثيرة أخرى عن ناسهم هم أنفسهم، وهذا يعني أن عليهم أن يتشربوا مثل ورقة النشاف قدراً هائلاً من معلومات التراث..ولابد من أن يكون مخ الطفل ماصاً لمعلومات التراث. ولا يمكن أن نتوقع من الطفل أن يفرز معلومات التراث الجيدة والمفيدة، مثل كلمات اللغة، ليفصلها عن المعلومات السيئة أو السخيفة .. إنها لحالة تثير الأسى ولكن لا يمكن تجنبها»[1].

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٤٢٤. من الأمور التي من الإنصاف القول إنها مُثيرة للإعجاب، أنه بالرغم من كثرة المؤلفات، فإننا دائماً نجد دوكنز يعتني بمفرداته بدقة كبيرة لافتة، فهنا مثلاً يحرص على استخدام مفردات الفاعل المجهول كي يتناسب الأمر مع نفي الفاعل أو تجاهله، لكنه مع كل هذه الدقة لم يستطع إلا أن يصور القضية بكونها مبنية على وجود الغاية وبدون ذلك لا يكون للتطور معنى. ووجود غاية واحدة من الأمور التي تنقض تنظيرات دوكنز عن الإلحاد. تماماً كنقضه لنفسه هنا حول مسألة تعليم الأطفال أموراً دينية معينة. ولعل دوكنز بسبب توتر مزاجيته المسبقة من نقد الدين إلى جانب كثرة كتاباته، تجعله في أحيان كثيرة كأنه يكتب ضد نفسه!.

ودوكنز قلما يدخل في مناقشة أدلة المؤمنين والأسس التي انبنى عليها إيمانهم، هو يلغيها من الأساس ولا يتعامل معها، وكأن الحجية المادية، يجب أن تؤخذ كبديهية لا نقاش فيها، وبما أنها بديهية (في منهج لا يقبل البديهيات من كل نوع) فطبيعي أنها إذا لم تتوافر في فكر ما، سيعد هذا الفكر كومة من الخرافات:

«تأتينا هنا الغطرسة الدينية حيث المُتدينون، وبدون أي دليل (يعرفون) بأن الإيمان الذي ولدوا عليه، هو الإيمان الوحيد الحق، وكل شيء آخر هو انحرافات أو بكل بساطة مزيف»[1].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٣١٨.

فيروسات العلمي والمعتقد الشعبي

هذا صحيح على المستوى الشعبي، لكن هنا إيمان يجد الحجة الأولى في العقل وعليه مدار الثواب والعقاب. وكل عمل صالح هو عمل خير ديني، فالقضية ليست أسماء وشعارات، بل مُسميات وتطبيقات.

الأديان والمعتقدات هي لدى دوكنز، وبكل اختصار، عبارة عن فيروسات للعقل:

«وصف التراث العقائدي بأنه فيروسات للعقل يُفسِّر أحياناً بأنه نوع من الاستهانة أو حتى من العداء. والحقيقة أنه يجمع بين الاثنين. وكثيراً ما سُئلت عن السبب في عدائي البالغ للتعصب «المُنظّم» للتراث العقائدي. وأول إجابة لي هي أني أيضاً، لا أُعد بالضبط محباً للتعصب غير المُنظّم لهذا التراث. وإنما أنا كمحب للحقيقة ينتابني الشك أمام التمسك بقوة بأفكار التراث العقائدي التي لا يدعمها أي برهان، كالغيلان وأحادي القرون ومسخ البشر إلى ذئاب»[1].

لكن المشكلة الحقيقية هي أن تتحول كتب دوكنز لدى معجبيه إلى كتاب مقدس بديل، ويكون الإلحاد تراثاً عقائدياً منغلقاً، غير محايد في «استقلالية

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٠٨.

الوسط الثقافي[١]، ويكون انتقالها ما يشبه انتقال الفيروسات حيث «العقل في أقل القليل يعد «مرشحاً» معقولاً للإصابة بالعدوى بشيء مثل فيروس الكمبيوتر»[٢]، وتتحول البحوث العلمية صرخات موضة وطرحاً كنسياً بديلاً[٣]، ودوكنز نفسه يعترف بأيديولوجية جعجعة العنف، وأنه ليس استثناء من حمية التعصب للفهم الشخصي[٤]. وهو مستعد لمتابعة الإسراف في التفكير النظري والبحث في قضايا هو نفسه لا يعرف ما تكونه فيزيقياً، بالرغم من أنه ناقد بل كاره للإله والأديان لكونها فاقدة لأسس الفحص الفيزيقي![٥].

دوكنز ليس متخصصاً في حقل من حقول علوم الطبيعة، بل هو نجم شهرة في وسائل الإعلام، وداعية صريح ومُتشدِّد للإلحاد، والتصادم في القضايا الاجتماعية والتربوية والسياسية العامة[٦].

ودوكنز يُعمم مشكلة الديانة المسيحية القائمة على الإيمان بلا دليل، كتقويم للحكم على الأديان كافة، وهو تعميم يبلغ من التعسف مستوى إهداره الفروقات الجوهرية بين المسيحية وغيرها، بل إزالة الفروق حتى بين المذاهب المسيحية نفسها، وإدماج الاعتقادات الشعبية في البحوث الدينية الاستدلالية المُتخصّصة. وبالتالي ستكون النتيجة قد حُسمت بكون الدين ضد العقل وضد العلم، وهو لا ينتشر ولا يستمر إلا باعتباره بنية فيروسية،

(١) الذي هو أحد شروط العلمية: العلم والحقيقة، ص٢٥٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٤٠.

(٣) المرجع نفسه، ص٢١٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٢١٠.

(٥) المرجع نفسه، ص٢٢٢.

(٦) ريتشارد دوكنز.. عالم غيّر أفكارنا، ص٧.

وخلاف إيمان يحتفي بالعلم ومعرفة الطبيعة كآيات حاضرة وملموسة[1]، بل ديانة كنسية أو إسلاموية وهندوسية، قوام إيمانها لافتة الإيمان وجعل ما عدا ذلك مجموعة أسرار لاحل لها، ولا يمكن حلها، حيث الجهل بها هو شريان تغذية الإيمان، إننا أمام ديانتين متناقضتين في أبعاد كثيرة، وطرائق إيمانية ليس على أفق واحد، مع ذلك يتم تعميم مشكلات إحداهما على الأخرى:

«و هذه الفكرة المُفعمة بالمفارقة من أن انعدام البرهان هو فضيلة إيجابية فيما يختص بالتراث العقائدي، لهي فكرة فيها شيء من خاصية البرنامج الذي تكون له استدامة ذاتية، لأنه ذاتي المرجعية. وما إن يُعتقد بهذا الافتراض حتى نجد أنه يخرب أوتوماتيكياً أي معارضة لذاته. وفكرة أن «انعدام البرهان فضيلة» ستكون هكذا كالصديق الحميم الرائع الذي يشكل مجموعة مع التراث العقائدي نفسه داخل زمرة من برامج فيروسية تتبادل الدعم فيما بينها.

أحد الأعراض المتعلقة بالأمر والتي تظهر أيضاً على من يعاني من تراث عقائدي، هو الاقتناع بأن وجود «أسرار» هو في حدّ ذاته أمر طيب. وليس من الفضائل أن نحل الأسرار. والأحرى أننا ينبغي أن نستمتع بها، بل وأن ننتشي بعدم قابليتها للحل.

أي دافع لحل الأسرار قد يكون فيه إضرار خطير بانتشار فيروس العقل. وبالتالي لن يدهشنا أن تكون فكرة أنه «يحسن بنا ألا نحل الأسرار» عضواً أثيراً في زمرة من الفيروسات التي يدعم أحدها الآخر تبادلياً. ولنأخذ «سر التحويل» كمثل. من السهل ومن غير الملغز أن نصدق بأنه ببعض من المعنى الرمزي

(١) البناء والانتماء، التوحيد تجديدات نظرية ومواجيد ذوقية، ج١، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٣، ص٣٧٧. وكذلك جدل التشكّل والاستلاب، ص٣٥٧، ص٣٤٥، ص٥١٩، دارالفارابي، بيروت ٢٠١٤. و«تكوين النسق الفلسفي»، ص١٧٥. مؤسسة الانتشار العربي ـ لبنان ٢٠١٤.

أو الاستعارة المجازية، يتحول نبيذ القربان المقدس إلى دم المسيح.إلا أن مبدأ التحول عند الكاثوليك الرومان يزعم ما هو أكثر من ذلك إلى حد بعيد. «فمادة النبيذ بأسرها» تتحول إلى دم المسيح، أما ما يتخلف من مظهر للنبيذ فهو «مجرد أمر عارض» ليس متضمناً في صلب أي مادة. ويدرَّس التحول باللغة العامية على أنه يعني «حرفياً» أن النبيذ يتحول إلى دم المسيح»[١].

بتصميم لا يقبل الهوادة، لا يرفض دوكنز الدين فقط، بل جعل العلاقة مستحيلة بين الدين والعلم، لذا يرفض كل الكتب والبحوث التي تربط التصوف أو الطاوية بالفيزياء، أو اللامحدودية الإلهية والفلك، أو ربط الروحية بالكمومية، أو شيء آخر، ويعتبر كل ذلك تزويراً وتحايلاً علمياً، فلا أهمية لشهادات الآخرين العلمية، علميته هو وحده ومن يتوافق مع مزاجه جدير بالاحترام، أما الآخرون فتتم تصفيتهم فكرياً، هكذا بكل بساطة[٢].

كما يجهد دوكنز في دفع الدين إلى هاوية الأوهام واللاواقعية، وذلك بطرائق شتى:

«مرة عبر محاسبة النصوص الدينية من خلال سلوكيات المجتمعات في الزمن الراهن، ومرة برفض أي منهج في قراءة النصوص الدينية، فهو يكتفي بقراءتها بطريقة التلقي السطحي غير العالم بأبسط مصطلحاتها ومفاهيمها، ويرفض أي قراءة غير حرفية[٣]، غير مبالٍ بوجود شرائح واسعة من المؤمنين

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٥٨.

(٣) يغالط دوكنز نفسه بالقول (ص٢٤٨): إن الكتب الدينية لا تُقدم أي عزاء خُلقي للمؤمنين، لكون هذه الكتب، كالتوراة تحمل بعض القصص البشعة، في حين أن هذا ليس فقط مخالفاً للواقع الملموس، بل هو تغليط صبياني كان حرياً به أن يتأمل لماذا يوجد حرص من قبل المؤمنين على تأويل هذه القصص بعيداً عن معانيها

مبنـي إيمانهـم علـى هـذه القـراءة الرمزيـة للنصـوص، وبالتالـي فدوكنـز سـيكون محاسـباً إياهـم علـى أمـور لا يؤمنـون بهـا مـن الأصـل[1].

ومرة عبر التدقيق بالتاريخ الطبيعي للمخلوقات الحية، ومرة بمحاولة نقض الأدلة الفلسفية، ومرة بالاستعانة ببعض علماء النفس التطوريين،أو حتى ليسوا بتطوريين لكنهم ملحدون، مرة بالاعتماد الكلي على المصادفة في الفاعلية حيث كل شيء ليس خلفه ذكاء مُتعيّن. ومرة بنكران الغاية من المخلوقات، ففكرة الغاية مثل فكرة التصميم لا حقيقة لها سوى أنها فكرة أنتجتها ضرورة الحياة؛ فنحن حينما نهرب من وحش مفترس لن ندقق في تفاصيله (فكما يصلح المبدأ التصميم لأشياء ليست مُصمّمة وأشياء مصممة، فإن المبدأ الغائي يصلح للأشياء التي ليس لها غاية واعية كما يصلح في حالة الأشياء الواعية. ويبدو منطقياً بشكل تام بالنسبة إليَّ بأن المبدأ الغائي له قيمة للمساعدة على البقاء مما يجعل العقل يأخذ قرارات هامة وسريعة في الظروف الخطرة»[2].

الحرفية وجعلها أقنومات لفضائل ووصايا كبرى يجب أن تحتذى في إشاعة السلام والمحبة؟! واحتفاء المؤمنين منسجم مع إيمانهم بقدسية هذه الكتب بخلاف الملاحدة، وبالتالي فمن الطبيعي أن يقرأها الأول بنية البحث عن العزاء النفسي، بينما الثاني يقرأها بشغف السخرية وبالبحث عن التناقضات. لذا كي يقول دوكنز إن أخلاقية الكتاب المقدس هي دعوة الناس إلى الزنى مع الأب (ص٢٤٩)، كان عليه أن يمنع القراءة الرمزية للنص أو منهجاً آخر غير حرفي مباشراً، فدوكنز، كملحدين كُثر، يطرح قراءة ما ثم يحاسب خصومه على هذه القراءة!.. ويبقى هنا، للإنصاف والأمانة، الإعجاب بشجاعته بكونه من القلة في الغرب من المشاهير الذين انتقدوا النظام السعودي والعقيدة الوهابية في كتابه: وهم الإله، ص٢٥٠، ص٣٠٦، سواء بما سلكته من بربرية في بلدان آسيا والعرب، أو بما سلكته من وحشية في شبه الجزيرة العربية المُغتصبة، أو بتغلغل الوهابية الخطير في البلاد الغربية.

(١) ريتشارد دوكنز، وهم الإله، ص٢٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ص١٨٥.

لكن هذا لو صح: لا يلغي فطرية الغاية، لذا فبدون أي تعليم يتم الهرب في هذا المثال. وثانية لو صح هذا الفرض لكان ينبغي ترك طلب الغاية في حالة عدم وجود الخطر، كما هو حال موضوعنا حيث الدين، فلماذا نجده في الطبقات الفقيرة كما الطبقات الغنية، في الطبقات المُتعلِّمة كما في الطبقات الجاهلة؟!. وكيف سيبقى هذا التفسير قائماً وهناك حالات كثيرة انتقل فيها أغنياء مترفون من بلدان مُتقدمة، إلى معيشة ضنك وقاسية، والانتقال من الأمان إلى ساحات الخطر، كل ذلك بعد مناقشات مفتوحة عبر شبكات التواصل وقنواته المُتعددة، ليس هناك استعجال ولا هناك خطر قائم يشوش الذهن، بل رحلة بطيئة انتهت بعكس هذا التفسير: التضحية بمبدأ الحياة وهجران الأقارب، والإقبال على الخطر والفناء لأجل الدين فقط؟!

حينما لا يستطيع الجواب تقديم أي إجابة لا يتورع عن الاعتراف بترك المبدأ التطوري والاستعانة بالتصميم الذكي في مُقترحات وفرضيات يتصور أنه بالإمكان أن تدعمه للإبقاء على الإلحاد الذي يتحول إلى ما يشبه الهاجس العصابي، لكون الدين ارتبط لدى دوكنز منذ كان طفلاً بأصوات مخيفة في الغابة أو بأمثلة قاسية عن موت الجنود عبر حكايات قسّ[1].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٩٢، هنا يلجأ دوكنز بشكل صادم إلى ذهنية التصميم الذكي صراحة، حتى في تفسير اللغة لا يطرح سوى تفسير قائم على العلية وليس المصادفة فهو يرى (ص٢٠١) بأن الذين في الجبال احتاجوا إلى رفع الصوت أكثر فظهرت لديهم أحرف ونبرة عالية والذين في الغابات احتاجوا إلى الهمس فظهرت لديهم أحرف خفيفة، أو القول في ص٢٠٠ باليد الخفية للجينات حيث الحيرة لماذا يتم تفعيل بعضها وإهمال الآخر، ولماذا بعضها يتم تفعيله في مجال خاص دون غيره رغم الإمكانيات المحدودة؟!، وفي ص٩٣، وص ١٧٥، نجد بعض اعترافات دوكنز عن عقدته من الدين في بواكير حياته الأولى، ولا نريد الدخول هنا في تحليلات نفسية عن حقيقة هذه الأصوات الخفية ورمزية الغابة وارتباطها

«هناك القليل من الأدلة بأن الإيمان الديني يؤمّن بعض الحماية من الضغط النفسي والأمراض الناتجة منه.الأدلة ليست قوية وصدقها ليس مفاجأة لي. وذلك للسبب نفسه الذي يؤدي إلى فعالية التداوي من خلال التبرك في الحالات. أتمنى أنه ليس من الضروري إضافة أن حدوث فوائد كهذه لا يعني بأن هناك قيمة حقيقية وراء الزعم الديني. وبكلمات برناردشو «الواقع بأن المُتدين هو أسعد من المتشكك لا يتعدى كونه أكثر نسبية من أن السكران أسعد من الصاحي»[1].

من أين تظهر هذه المطلقات والإجماعات العلمية وهناك من يطرح أن الإنسان كما هو حيوان ناطق هو حيوان مُتدين؟! وبالتالي فالدين جزء ذاتي من الإنسان وليس ناتجاً عرضياً. ودوكنز نفسه يطرح بعض أقوال الاختصاصيين القائلين إن الإنسان منذ طفولته يحمل غريزة مثنوية في استيعاب قضايا العقل والمادة وقراءتها على أنها لا فيزيائية وغير جسدية مادية، أي إن هناك غريزة «ذاتية» وليست عرضية تجنح بنا صوب المطلق وصوب اللامرئي واللامادي، وهي نزعة لاتقع بحسب التتابعات المادية ضمن المسلك التطوري للخلايا، خصوصاً أن فطرة الإنسان الأولى وهو طفل أرض خصبة للدين وإننا من

بالأب (حيث رجل الدين المسيحي هو أب لديهم) وبالتالي إمكانية طرح تفسير حول عقدة تعرض دوكنز للاغتصاب الجنسي وتعرضه لجرح جسدي ونفسي، وجد في نيل الشهادة الأكاديمية والامتياز فيها نوعاً من التعويض النرجسي ثم استخدام العمل كسلاح لعملية ثأر شخصية، فهذه التحليلات ومدى صدقها وإمكانية نفيها أو دعمها لها أوراق أخرى، لكن المهم أن دوكنز يطرح قضايا العلم الطبيعي طرحاً غائياً ولمقاصد خارجية، وذلك من خلال أطروحة تقول بالصدَفية واللاغائية!.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٦٧.

دون أي تدخل قسري أو توجيه تعليمي خارجي، خلقويون في تلقي المعرفة وقراءتها[1].

بل دوكنز يستعين باختصاصيين آخرين ليقول إن الدين (الذي هو دائماً عبارة عن «لاعقلانية» رغم أنه جزء من تاريخ العقل وتطور الفلسفات) هو جزء من آلية دماغية مقرونة في رغبتنا المفيدة جينياً بالوقوع في الحب، وهذا يعني أن الدين مرتبط بقضية واقعية وليس مجرد سكران مترنّح[2]. أما كيف لا يتحوّل الواقع إلى جحيم حينما نطرح وهمية الحب وخرافته، الذي هو أمر لو تم سيكون أعظم تهديد لبقاء الإنسان وحياته وبالتالي فما تثبته التطورية يعود لينتفي كلياً بحسب مقاييسه القائمة على الإبقاء على الحياة واستمرارها؟!. فهذا ما لن تجد له جواباً بتاتاً.

---

(١) المرجع نفسه، ص١٨١.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٨٦ . وبغض النظر عن التناقض بين كون الدين أصل الشرور وبين كونه جزءاً من اللاعقلانية المفيدة، وأن الدين شر بذاته لكنه مستمر وكل مستمر مستحيل بقاؤه لو لم يكن مفيداً (ص١٩٣)!، وأن الدين لا أصل واقعياً له لكننا منذ الصغر مهيأون لتقبله والالتصاق به وهو جزء أساسي من ميلنا وفطرتنا لتصديق أحلامنا وآمالنا التي لايمكن لنا الاستمرار في الحياة دونها (وهم الإله، ص١٩٢) فإنه في ص١٨٧، يقول دوكنز إن أعراض الحب الحقيقي والتدين الصادق واحدة، وهذا يُذكّرنا بمقولة التراث حيث قال الإمام الصادق: وما الدين إلا الحب. ومن الواضح أن العزاء الوحيد للمدنية المعاصرة هو الحبّ، فلو كان الدين والحب يرتضعان من ثدي واحد فإن قتل أحدهما يعني قتل الآخر وبالتالي يجب التوقف عن إشاعة أعياد الحب والأفلام والروايات عنه لكونه لايعدو سوى دعم للاعقلانية أو «مخدرات طبيعية» بحسب قول دوكنز، وهذا لو حصل لا يبقى أمام البشرية المعاصرة سوى الانتحار، والسلوك الطوعي الواعي نحو نقض الحياة لايعني سوى فشل التطورية أن تكون خطاباً شمولياً كالذي يتم طرحه بكل هذه الحماسة من قبل الملاحدة الجُدد. وبالتالي تتحول التطورية إلى خطاب إرهاب وموت حالها كحال الأصوليات الدينية القاتلة.

وعلى أية حال ففي الاستخدام الأخير لدوكنز لعلم النفس يخل بالعلمية هنا مرات عديدة: فلا الأدلة على أهمية الدين بقليلة، بدليل حضور الدين الواسع في ميادين علوم النفس كافة، النظرية والتطبيقية. يستطيع جملة من الاختصاصيين الرد على دوكنز من ناحية مادية صرفة، بكون «السيروتونين» الذي هو واحد من أهم الهرمونات الدماغية وتواصل العصبونات المخيّة، وأقدمها عمراً في تكوين الثدييات، له أهمية كبرى في إحساس انتشاء السعادة، وهو الذي يجعلنا نتجاوز شعور الإرهاق، حيث أن الدماغ يفرزه كمخدِّر يجعلنا نتخطى الجهد الفيزيائي. والسيروتونين نحصل عليه بعد الأعمال الرياضية التي منها الطقوس العبادية، حيث يوجد في أغلب الأديان حرص على الحركات الجسدية وليس الاعتقاد الفكري المُجرد، ومن هنا قيل إن الصلاة هي نظافة وعبادة ورياضة. ليس هذا فقط. بل الدين أدرك قيمة التكرار الذي يرتبط بهرمون المتعة، الذي هو الـ«دوبامين» والذي به يرتبط الإعجاب بتقبّل دماغي يجعلنا نحبذ إعادة تكرار الفعل، وهنا تلتقي الصلاة والفعل الجنسي. وعلى خلاف مركزية الرؤية الداروينية التي ترى أن تكرار شيء ما مرتبط بمنفعته المباشرة للكائن، فإن الدوبامين لا يرتبط بالمكافأة الآنية، فهو من الممكن أن يتم إفرازه من أجل جني نتائج مستقبلية.

وعند مقارنة الصلاة والأعمال العبادية، والنشاطات الرياضية، نجد إفراز هرمون مشترك هو المورفين أو الأندورفين، المسؤول عن تخفيف الإحساس بالألم ويؤخر الشعور بالإعياء أثناء النشاط الفيزيائي.

الطقوس الدينية والأمر الديني لا يرتبطان بالسيروتونين والدوبامين فقط، بل هناك الأدرنالين (أو إپينيفرين)، وهو من أكثر الهرمونات شهرة، حيث ارتباطه بتسريع نبضات القلب عند لحظات الخطر أو الفرحة الغامرة، فهو مرتبط بنقل مادة السُّكر إلى جميع الخلايا.

كذلك هرمون «أوكسيتوسين» المرتبط بالقضايا الاجتماعية، حيث مشاعر التعاطف والثقة والحبّ، فنجد هذا الهرمون حاضراً عند إرضاع الأم لطفلها، وعند تلقي المسائل الدينية ،التي يقول الدين إنها لفائدة العباد، أما الله فهو غنيٌّ عن العالمين. فالدين حرص على كون الفائدة للناس، أما الإله فهوملغى لكون موضوعه أكبر من الإنسان وليس جزءاً من مهامه كي يطرح نفسه حارساً للإله القوي قاتل أو مُنتهِك الإنسان الضعيف. وبما أن عامة الناس ليسوا فلاسفة ولا مفكرين والقضية غير موجهة إلى جيل مُحدد، كان من التصميم البالغ الذكاء أن نجد خلطة كيميائية من هرمونات محسوبة بدقة لصنع آلية خطابية بسيطة الفهم للجميع، تذكرهم بالحب والثقة والتعاون. وبالطبع فإن مشاعر الأنانية وغلواء الجشع والخطأ في تصريف طاقات الغضب، أمكنها دائماً استخدام الدين وطقوسه ومفاهيمه ضد الثقة والحب والخير. لكن هذا العيب بسبب الخروج من الدين وليس بسبب التمسك به. لذا فكل ما فيه دناءة وقذارة وضرر، وبلاهة وجهل، هو تنطعات صناعة تقديسات تنتهك الدين مهما كانت شعاراتها دينية وتطرح نفسها كشعيرة ثوابية مُقدسة[1]. وعليه فإن مبدأ المنفعة النوعية هو مبدأ للدين والأسبقية له قبل الداروينية بقرون سحيقة، وهذا القدم للفكرة يجعلنا نسأل كيف للإنسان البدائي أن أدركه وقام باستخدامه تنظيمياً، ومرحلته الثقافية لا تسمح بذلك؟!

إذن، حينما نرصد هرمون أوكسيتوسين عند إرضاع أم لصغيرها، وعند لحظة خشوع ديني، نجد أن هذا الهرمون يحدث في دائرة تعاطف ومران

(١) نهج تطوير الذات، عبداللطيف الحرز، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٣، ص٥٣، ٧٧، ٢٠٠، ٢١١. وكذلك: الحسين قراءة زرادشتية، معرفة الهوية بالأديان ومعرفة الأديان بالإنسان، دار بساتين المعرفة - بغداد.

لصناعة الثقة. وعليه فمن الناحية المادية البحتة لا يمكن القول إن الدين شر مطلق وإنه شرٌ محض. فحتى لو فرضنا أن للأديان مردودات اجتماعية وسياسية سيئة، فإن ذلك يقع خارج عالم الأحياء، ومن الناحية التشريحية ودراسة مكونات الأعضاء، يكون اختصاص مثل اختصاص دوكنز، أقرب لأن يقول العكس تماماً. فمثل هذه الإفرازات في أوهام الحب والثقة والتضامن، هي التي كانت ومازالت تلعب دوراً كبيراً في حفظ حياة الكائن البشري، أقله من الناحية البيولوجية البحتة، باعتباره مجرد حيوان في قفص كوني كبير. وليس سوى الإسقاطات الأيديولوجية الإشهارية هي التي تجعل لكلام دوكنز بعض التماسك. وفي النهاية نحن لدينا استعمالات للعِلم، في مقابل استعمالات للدين، إلحادية للمجتمعات والمعرفة، في مقابل تديين وأسلمة المعرفة والمجتمعات. هو تصادم أيديولوجيات وليس مسألة أدلة وبراهين خالصة.

كما لا يمكن قبول إن الحالة الإيجابية التي يمنحها الدين للإنسان هي بشكل مطلق من قبيل سعادة السكران، مقارنة بتعاسة الصاحي، وإلا كيف سنقيس ساعتئذ مؤمنين تعساء (كغالبية الموجودين اليوم) مع ملاحدة سعداء؟!

ولو كانت القضية سكرة وليست صحوة، لتشتت تأثيرها متى تم الالتفات إليها، في حين أننا نجد أن جملة من المنخرطين في الإلحاد، يستمرون بالكثير من ممارساتهم السابقة المتوافقة مع الإيمان!.

إن دوكنز هنا يعتدي بشكل حقيقي على مجال تخصصي هو علم النفس وشؤونه، وهو مضطر لذلك إلى التمسك بقاعدة مُطلقة بالنسبة إليه هو الذي يحارب فكرة المُطلقات!، فهو يبتغي القول إن الدين هو أصل الشرور، فكيف

ظهرت له فوائد وخيرات كما يزعم علماء النفس، بل والبحوث البيولوجية نفسها بما يتعلق بمشاعر السعادة المرتبطة بإفرازات الأندورفين وعموم الأوبيويدات؟!.

إن دوكنز يقرّ هنا بأن البحوث «تهمل وجهة النظر الداروينية بشكل كامل»[1]، لكن بما أن لديها دعائم للإلحاد فإنها مقبولة!، لم تعد مخالفة التطورية مشكلة مادامت متوافقة مع الإلحاد، هذه واحدة من الخلاصات الدوغمائية البائسة، والتحيزات المؤسفة.

وإلا فمقولة «الوهم» وسعادة السكران المُفترضة هذه، لا معنى لها بحسب سياق نظرية التطور، فالذي يتم الاحتفاظ به ليس سوى النافع ،هذا شرط دائم ومطلق في آلية الانتخاب الطبيعي، ووفق هذا المنطق لا معنى لكل هذا التوارث والتمسك بالدين لو لم يكن يحمل منفعة حقيقية ملموسة، إن القول بسعادة السكران هو قول، بكل بساطة، ليس تطورياً!.

ولن يفاجئنا دوكنز ،كبقية الملاحدة المتعزين بالتطورية، بإهماله الحضور القديم للدين في تاريخ الإنسان، ذلك الحضور الذي لا يناسب تحقيبات الوعي للانتخاب الطبيعي، ما الذي جعل الإنسان يهمل صيد الثور ويقوم بدل ذلك برسمه على جدران الكهوف وفي داخل صخور يحتاج للدخول إليها إلى جُهد شاق ومُكلّف؟!.

في موضع آخر سيحاول دوكنز طرح وهمية الدين عبر مسلك آخر لاعلاقة له بما ذكره هنا، حيث يوجد «اقتراح» من قبل بعض التطوريين النفسانيين مفاده أن الدماغ البشري عضو متطور كبقية الأعضاء الأخرى، والدماغ مجموعة وحدات كل وحدة تختص بعناية موضوع ما مثل حفظ

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٦٨.

المعلومات والتعاطف مع الأقارب وما شابه ذلك، والدين نتاج عرضي لواحدة من هذه الوحدات، أما ما الدليل على ذلك؟ وأي وحدة في الدماغ مسؤولة عن ذلك؟! فهذا ما يتم إهماله كالعادة![1].

إن دوكنز يقر بأن التفسير الداروينى للدين، بكل ذلك الجهد المؤسساتي والفردي الحديث لم يُقدّم شيئاً مُقنعاً ولا أساسياً ولم يخط خطوة عميقة علمية ذات فرق حقيقي[2].

إذن، نحن أمام اعتراف جديد من دوكنز بأن كتابه الذي عجز عن نقد إله التوازن الذكي الآينشتايني، وعن نقد دليل توما الأكويني، وعن دليل الحد الأعلى للخيال، وعجز عن نقد دليل التجربة الوجودية، ويجهل تماماً مسألة كيفية التعامل مع دليل تعقيد الكتب الدينية وامتيازها النادر، هذا الكتاب نفسه حائر في تفسير الوازع الديني ويصمت تماماً عن مشكلة وجود الدين في حقب سحيقة من تاريخ الإنسان. «وهم الإله» لا يصلح بالتالي إلا لنقد الفكرة المسيحية القائمة على الشخصنة وعقدة الذنب، وللسخرية من الأفكار الشعبية للدين.

بحسب المنطق الداروينى لا شيء يضاهي «الحياة»، لذا لايمكن لأي فرض أن يكون فاعلاً حينما يتناقض معها، وبالتالي فليس من السهل قبول أن فكرة انتشار الدين عائدة بكل بساطة إلى كون قبيلة ما وضعت دُمية أسمتها إله الحرب فانتصرت، فوزعت الجواري والغنائم[3]، هذه الفكرة تعليل لما بعد الوقوع وهي لا تشرح البداية بل بعض متعلقات الاستخدام، وهي لا تُفسر

(١) المرجع نفسه، ص١٨٠.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص١٧٠

كيف يُضحي الإنسان بنفسه وبعائلته من أجل ما لا يُرى أصلاً؟!، وفي النهاية نجد في هذا التفسير استمراراً لمشكلة الابتعاد عن الإله المُبرهن والتمسك بالعقائد الشعبية التي يُفترض بأن أطروحة «وهم الإله» تتعالى على سذاجتها، فإذا بها هي أساس ومدار كل قراءتها وفهمها!. لذا لم يملك دوكنز إزاء عرضه فرضية الانتخاب الجماعي هذه سوى أنه أحد الذين لا يؤمنون بها. لكن القضية الأساسية هنا: إن هذا التحليل وغيره الذي انشغل به دوكنز لادخل له بموضوع الكتاب الأساسي، فهو حديث عن «الدين» وليس عن الإله، فقد يكون من الواقعي أن أحد الأمور التي رسخت الدين هو الفوائد العملية التي تترتب على التعاون الجماعي وروح الجماعة، لكن هذا إن ثبت فلا يعني أن ثبوت فكرة الإله ونفيها رهن بهذا التحليل وأمثاله. فروح الجماعة وفق رؤية دينية ليس الإله شرطاً لها بدليل البوذية والكنفوشيوسية. بل يمكن قلب الدعوة بوجه دوكنز: أليس الإلحاد الذي يتحول إلى مؤسسات وأندية وأحزاب وتنظيمات جماعية، يمثل فكرة جماعية، مقدار قوتها رهين بما تُحاول تقديمه حماسيات وانفعاليات جماعية، تُحاكي في تطوير وإشاعة فكرتها وشعاراتها فكرة التطوريين عن الدين التي ينتقدونها؟!

الإله الاستدلالي وإخبارية العلوم

كيف يؤمن الإنسان العادي بالدين؟!

عبر ثقته وإيمانه برجال الدين. فهو كإنسان عادي لديه تخصص وانشغالات بأمور أخرى، لم يتصفح كل كتب الدين والتراث ومقارنة الأدلة والحجج بين الأديان والطوائف المختلفة.

لكن كيف يؤمن الإنسان العادي وطلبة الكليات والجامعات بالعلماء؟!

على خلاف كل منشورات مناصري الإلحاد الذين صدمت المعلومات الطبيعية ثقافتهم الدينية الهشة، وقاموا بطرح استفزازات للمؤمنين بأن اللجوء إلى الأخبار والأحاديث هو عبارة عن مهزلة للعقل البشري، فإن طلبة وأساتذة العلوم الطبيعية وفي مساحة كبرى، لا يملكون سوى طريقة الأخبار والأحاديث، فنحن في مساحة ليست بسيطة من علوم الطبيعيات نعتمد على الآلية نفسها، أي من خلال الثقة والإيمان بالأساتذة، فهم لم يختبروا بأنفسهم كل ما قالوه. يظهر هنا عنصر الإيمان والتقليد، سيرة عقلانية بدونها يستحيل على أغلب الناس الاقتناع بأي معلومة مهما كانت بسيطة. فأي عرض لفيلم وثائقي عن حفريات ودراسات عن تطور الأنواع، يبقى مشكوكاً فيه، كل كتاب سيبقى لا ندري حجم صدقيته في الصور والمعلومات التي يوردها عن الأحياء:

«يحدث بالطبع أننا حتى في العِلم قد لا نرى الأدلة بأنفسنا، ويكون علينا أن نثق بما يقوله لنا شخص آخر. وأنا لم أرَ بعيني نفسيهما الأدلة على أن

الضوء ينتقل بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في كل ثانية. وبدلاً من ذلك، فأنا أصدق الكتب التي تخبرني بسرعة الضوء. وهذا يبدو وكأنه نوع من «السلطة». ولكن هذا في الواقع أفضل بكثير من السلطة لأن الأفراد الذين ألّفوا هذه الكتب قد رأوا الأدلة ولكل فرد الحرية في أن يدقق النظر في هذه الأدلة كلما أراد»[١].

وكلام دوكنز يحمل استخفافاً غير لائق بمتلقيه، فكم عدد الذين بإمكانهم استخدام المعامل الكيميائية والنووية وتلسكوبات الفضاء، وصعود المركبات الفضائية والتدقيق بالسجلات، وغير ذلك كثير؟!.

ولو صح كلامه لما وقع تزوير في كتاب أو بحث متعلق بالطبيعيات، ولو تنازلنا كم يستغرق الأمر في تدقيق كل معلومة وترك الناس لضروريات حياتهم؟ بدون التمسك بطرائق التقليد والوثوقية والتاريخية نفسها، التي هي وسائل قراءة المعلومات الدينية، يمتنع الحديث بأي علمٍ كان.

بدون آلية الثقة بالأقوال لما أمكن لطبيب أن يثق بفيزيائي، أو فيزيائي بأي مختص آخر. لكون كل صاحب اختصاص لا يملك سوى أخبار وأحاديث عن مصطلحات ونظريات وأخبار عن اكتشافات في حقل اختصاصي آخر.

نحن إذن، كطلبة لايمكن لنا الإيمان بنظرية الانتخاب الطبيعي ولا بأي معلومة طبيعية أو اجتماعية أو غير ذلك، ما لم نتعامل معها كمادة تاريخية صادرة من جهة موثوق بها. وعليه فحتى العلوم الطبيعية هي للناس عبارة عن علوم تاريخية، وبالتالي لو قام عالم الطبيعيات بنفي أي جدارة للمعرفة التاريخية التي منها وجود بعض الأنبياء والأولياء (أقله بخصوص القضية الجزئية) فإنه سوف ينفي علم الطبيعة أيضاً، ولما كان بالإمكان الإنصات

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ٤٢٢.

إليه حول نظرية تقول بتغيّر الكائنات عبر مسيرة آلاف وملايين السنوات، التي لا يمكن لأحد مشاهدتها ولا الاكتفاء ببضع عينات حفرية أو تجارب على بعض الخلايا المجهرية[1]، لا تعبّر عن استقراء تام ولا تمنع إمكانية وجود

(١) يقول المنكرون إن كل هذه في النهاية جزئيات وفي الأغلب هي تغيرات في النوع نفسه، فالأسماك التي قيل إنها تطورت بقيت أسماكاً والبكتريا التي اختبرت ٢٠ عاماً بقيت بكتيريا، والطيور التي تم رصدها في استراليا بقيت طيوراً، وهكذا لم نر حتى الآن تغيراً لنوع ليدخل في نوع آخر، خصوصاً بشكل تصاعدي كما يفترض ما جرى للإنسان، هذا بالإضافة إلى الكمية الهائلة من الافتراضات والمصادرات الأخرى فيما يخص البدايات الأولى للأنواع . وحتى لو صدقنا العينات الحفرية حول الحلقات الوسطى للسلالات، فإن الأمر يستحق احتمال النظر إليها كأنواع منفصلة، فوجود المشابهة العضوية بين كائنين لا يجعل أحدهما أصلاً للآخر، وإلا لصح أن يكون أصل الإنسان فأراً لوجود ٦٠ خصلة مشتركة، أو أصله كوالا لأن كليهما له خمس أصابع، أو تطابق العين البشرية مع الأخطبوط، وتطابق كروموزمات بعض البطاطا مع كروموزمات الإنسان، أوليست فصوص المخ في النهاية مجرد عضو من الناحية الفيزيولوجية؟! إذن، فليس لدينا سوى آلية المشابهة والمماثلة بين جينات أو أعضاء أو سلوكيات لجعل الإنسان نوعاً من القردة، نوع من أسلاف القرد الذي تم تقريره كحقيقة لموضوع مادي وهو لم يُرَ قط!. إن جملة التطوريين لا يختلفون عن الدينيين بحيث أن معتمدهم الأكبر هو: الإيمان. هنا سيقول دوكنز بوضوح إنه لا يعتبر الانتخاب الطبيعي «نظرية» بل «حقيقة». لذا لا يدخل دوكنز وأشباهه بمشكلة أن أقدم ظهور للقردة متأخر عن أقدم ظهور للإنسان، وبحسب طريقة تفكيرهم يجب أن يكون أصل القرد إنساناً وليس العكس!!. فضلاً عن مشكلة مازالت الحلول متعددة حول عُمر الكرة الأرضية هل هو أقصر من هذا العُمر الطويل المفترض لخروج كل هذه الأنواع وخصوصاً المخلوق الأشد تعقيداً الذي هو الإنسان. بالاضافة إلى مشكلة حقيقية في فكرة التطور الوظائفي نفسه: فالعين لا قيمة لها إلا وهي كاملة ،أما وهي قبل ذلك فلا قيمة لها وبالتالي لايمكن بقاؤها بحسب قانون البقاء للأصلح، ولنتصور خرطوم الفيل فهو لا نفع فيه مالم يكن بهذا الطول أما قبل ذلك ،فوجوده كعدمه، وهكذا بقية تطور الأعضاء في بقية الحيوانات.

علل وأسباب لم نعرفها بعد تكون نظرية التطور جزءاً منها فقط. وإذا كان عدد المخالفين للنظرية اليوم هم قلة، فهذا ليس بمعيار صدق قطعي، فقبل ذلك كان القائلون بنظرية التطور هم القلة. وقد تفضي بنا الأيام إلى تخطئة كل المواقف وظهور تفسير آخر سيجعل من نظرية الانتخاب الطبيعي جزءاً من لوحة أكبر وأعمق، خصوصاً وأن التطوريين أنفسهم بينهم تناقضات كبيرة. وهذه اللاأدرية هنا بمستقبل الأبحاث ينطبق عليها تعريف اللاأدرية الموقتة التي يقر بها دوكنز، والتي بدونها تتوقف البحوث العلمية كافة.

ومن هنا ينبغي للمثقفين المغالين بكتب علوم الأحياء والطبيعيات المعاصرة، التخفيف من نبرة تهكمهم على مخالفيهم، لكونهم لا يختلفون عنهم في الاعتماد على عنصر الإيمان، بل والمعرفة التاريخية. وإن كنا نقر بأن أغلب رجال الدين وكبارهم، نادراً ما فهموا نظرية التطور، وأن حديث أغلبهم لا يصلح سوى للتفكّه. لكن هذا التفكه جدير برجال الدين ومؤسساتهم، ولا علاقة له بالدين كدين، وإلا لتمت محاسبة نظرية التطور مثلاً عبر عرض السيرة الشخصية لمن كتبوا عنها، وهذا غير منطقي بالطبع، لكن رغم ذلك فنحن نستغربه في مجال العلوم الطبيعية ونمارسه مع العلوم الدينية!.

لذا يتم إهمال أسئلة من قبيل: لماذا الإنسان بدل أن يصيد الحيوان ويأكله كي يستمر في تطوره، يحوله إلى رموز دينية ويدخل في رقصات وطقوس، فكل ذلك لا علاقة له بكل عالم التطور والاستمرار في نسق الحياة المادية؟!.

تزخر كتابات ومحاضرات وبرامج ريتشارد دوكنز بالكثير من المصادرات من قبيل أنه:

«من المسلمات التي يقبلها الجميع تقريباً في مجتمعنا الإنساني، حتى غير المتدينين، أن الإيمان الديني هو فكرة هشة وضعيفة أمام النقد ويجب إحاطتها بجدار سميك من الاحترام»[1].

في حين أن هذا التقويم مأخوذ من مركزية الديانة المسيحية التي يتقدم فيها الإيمان على المعرفة[2]، ويمكن أن يصح على جملة الديانات الهندية وعلى العقيدة الوهابية ومثيلاتها السلفية في المعتقدات الإسلامية، المعتمدة على التمسك بتوريث الإيمان من نصوص موروثة. أما أن يكون الإيمان الديني بذاته فكرة هشة، وأن هذا هو حال الأديان جميعاً، فهو تعميم لا دليل عليه، بل الدليل قائم على ضده. فهناك إيمان قائم على التفكّر، بل إيمان مرتبط بعلوم الطبيعة والاحتفاء بها، حيث السير في النظر إلى حقائق الأشياء، بما يتجاوز ظواهرها البسيطة، وتأمل مخلوقات السماء والأرض. فنظرية التطور في النهاية تقول: إن الكون مُنظم وإن ما ينخرم هو دليل النّظم كبُنية إي إنه تغيّر كشكل فقط.

ومن هنا نجد أن دوكنز يتوق فعلاً إلى ديانة العمل الصالح المبنية على كون الخير أمراً إلهياً بذاته، وهو ما ينسجم مع أطروحة الفقه الأخلاقي. وبالتالي فإن هجائيات ريتشارد دوكنز لاتصب على الإله مطلق الإله، ولا الدين، عموم الديانات، بل هي صور مُحددة من الإله والديانات، قد نكون أشد منه في نكرانها والسخرية منها:

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٢.

(٢) وكذلك جملة من التيارات السلفية الإسلامية وبعض معتقدات الهند والصين.

«بحسب عالم الرياضيات الفرنسي الكبير «بليز باسكال» فإنه مهما قلّتْ الدلائل على وجود الله، فإن العقوبة التي تنتظر الاختبار الخاطئ هي أكبر[1]. أحكم الطرق هي الإيمان بالله، لأنك لو كنتَ مُصيباً ستربح النعمة الكبرى، ولو كنتَ مخطئاً فلن يكون هناك فرق. بينما إن لم تؤمن بالله وكنت مخطئاً فأنت محكوم للعنة أبدية، ولو كنت مصيباً فلن يكون هناك أي فرق، وعلى ذلك فالقرار لا يحتاج إلى ذكاء، عليك الإيمان بالله.

هناك شيء ما مُحير بشكل خاص في هذه الحجة: الإيمان ليس شيئاً تقرره كالسياسة، وأقله فأنا لا أستطيع فعله بإرادتي. أستطيع أن أقرر الذهاب إلى الكنيسة وأستطيع أن أرتل الشهادة، وأستطيع أن أقسم على حفنة الأناجيل بأني أصدق كل كلمة فيها. ولكن لا شيء من ذلك يجعلني مؤمناً إن لم أكن كذلك. ورهان باسكال ليس أكثر من حجة للتظاهر بالإيمان بالله. والأفضل للإله المزعوم أن لا يكون عالماً بما في الصدر وإلا لاستطاع كشف هذا التحايل.. لماذا هذه الخصوصية للإيمان؟ ألا يجب أن يكافئ الله الطيبة أو الكرم أو التواضع أو الصدق؟ ماذا لو كان الله عالماً يعتبر الصدق في التحري عن الحقيقة حسنة عليا؟»[2].

البعض، ودوكنز يذكر ذلك، حاول السخرية من هذا الاستدلال بقلبه بأن

(١) وهو قول المعري الشهير:

«قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت: إليكما
إن صحّ قولكما فلستُ بخاسرٍ أو صحّ قولي فالخسار عليكما».

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٠٦.

من المحتمل أن تجد الإله يوم القيامة هو أخناتون أو بوذا أو المسيح أو البقرة، إذن، يجب أن تؤمن بهم وبما أنه من المتسحيل الإيمان بهم جميعاً فبعضهم سوف يُسقط الآخر، والنتيجة هي عدم الايمان بكل الأديان[١].

وهذا باطل لكون الاحتمال لا يأتي مع القطع واليقين، المسلم مثلاً في علم الكلام يُبطل الوثنيات كافة[٢] فيبقى التوحيد وحده إما ثابتاً وإما منفياً فتظهر معادلة الاحتمال والمُحتمل.

والخلاصة أن هناك ديناً بالفعل يقول: إن العمل الصالح هو جوهرة الإيمان وبه تتم معيارية التوحيد كأمر حقيقي عيني وليس لوك ألفاظ شيوخ وترانيم قساوسة وأبخرة للكهنة[٣]. والإله الاستدلالي أعقد بكثير من انتقاد فكرته عبر إحصاء مشكلات المتعبدين وطقوسهم، والشرائح الشعبية وخيالاتها.

---

(١) وهي المغالطة التي يطرحها أساتذة الفلسفة لتدريب صغار الطلبة المبتدئين، ودوكنز يتغنّى بها: وهم الإله، مرجع سابق، ص١٠٧. وهذا يشبه القول المنسوب إلى مارك توين «لقد كنتُ ميتاً قبل أن أولد لآلاف السنين، ولم يسبب لي ذلك أي إشكال، ولذلك لا أخاف الموت»، وهي مغالطة طفولية بحق، فالموت صفة للشخص الذي وِلد وعرف الحياة، أما قبل ذلك فهو ليس بإنسان وله حياة وذاكرة وأعمال ورغبات كي نقيسه بما تكون من تراب وثمار وخلايا أولية، فالذي لديه مشكلات هو مخلوق واعٍ وأنت قبل ذلك لم تكن شيئاً مذكوراً، إن مثل هذه الأقوال التي تصل بعض الأحيان إلى حد التبجح واصطناع الصفاقة الشبيهة بمراهقة لفظية، لاتليق بهبوطها إلى مستويات بدائية من المغالطة، لطلبة مبتدئين لكننا نجدها تصدر بكثرة عن أصحاب شهادات كبيرة!.

(٢) البناء والانتماء، تجديدات نظرية ومواجيد ذوقية، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٥.

(٣) محمد الصدر، كفاح الجماهير، عبداللطيف الحرز، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٩، ص١٤٨، ١٥١، ١٥٣، ١٧٢وكذلك: الفقه الأخلاقي، نقد ثقافة الحشد والفضيلة الناقدة، ص٩٨، ص٣٢٢.

إن روح استدلال باسكال الذي لم يفهمه دوكنز هي أن النتيجة لا تتبع حجم الاحتمالات فقط، بل قد يكون للمُحتمل قيمة بنفسه خطيرة مهما كان ضعيفاً، فنوعية المحتمل تجعله أثقل فأثقل كلما كانت نوعيته أخطر.

فحتى لو ثبتت دعوى دوكنز بأن نظرية التطور يمكنها أن تنفي وجود الإله، فهي لا تثبت أن الدين، كدين، هو أصل الشر وضرر مطلق يجب التخلص منه بشكل نهائي وتصفيته بصورة مطلقة[١]، وهذا لا يمكن تصور تعالق طرفي القضية فيه إلا من قبل ذهنية مُلحدة مُسبقاً تلك النزعة التي نجدها لدى المُتدين الساذج والمتدين عبر الجهالات والتقليد، فدوكنز ينطبق عليه الحكم نفسه الذي أطلقه على مثل هؤلاء «عدم تمييز مُزمن بين الحقيقة وما يرغبون أن يكون الحقيقة»[٢]. وإلا فهو نفسه يقول: «وجود أي شيء مُنتشر بكثرة لدى جنس ما، مثل الدين، يجب أن يكون له فائدة وإلا لن يُكتب له البقاء، لأن الانتخاب الطبيعي الداروييني يكره التبذير»[٣]، وعليه فمقولة أن

(١) ودوكنز نفسه، كما سنرى سينقض هذا القول مرات عديدة في كتاب وهم الإله، ودوكنز لا يطرح دعوة جديدة، فإنكار وجود الإله، بسبب عدم القدرة على حل مشكلة الشرور ووجود العيوب في الموجودات دعوة قديمة، تجدها في أغلب كتب علماء الكلام والفلاسفة.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص١١١، وإذا كانت القضية مزاجية سهل التلاعب بكل قائمة لجدول مُعين لطرح احتمال وجود الله من عدمه، حيث يوجد لدى كل طرف نوازع قبلية تجعله لا يتأثر بكل ما يعرضه الطرف الآخر من تراكمات الاحتمال الداعمة لرأيه، وهذا ما جرى لدوكنز حينما عرض في ص١٠٨ من وهمه حول الإله، حجاجية «ستيفان أونوين» التي استخدم فيها مبرهنة بايز في علم الاحتمال. فقد اعتبرها دوكنز «فكاهية» وعرضاً خاصاً بالأغبياء فقط. في حين أن الموضوعية تقتضي عدم الانشغال بالأمثلة بل بالمنهج والفكرة نفسها، وهذا كان ممتنعاً بالنسبة إلى دوكنز الذي يريد تسخيف كل ما لا يتماشى مع غضبياته المستمرة.

(٣) المرجع نفسه، ص١٩٣.

الدين أصل الشرور مقولة غير داروينية، فدوكنز مرة يبدو متزمتاً حيال التطورية ومرة يفرط فيها، فالميزان لديه معاداة الدين. وخلط نفي الإله عبر حمل نظرية التطور كأيديولوجيا معادية للدين معرفياً واجتماعياً، ليس بالأمر الجديد، فقد سبق للشيوعية أن حملت هذه الدعوة ، بل طبقتها بأعلى مستويات التطبيق. وإن كان التطوريون اليوم يجدون هذا ثقيلاً على سمعهم لما يجهدون به أنفسهم هذه الأيام من طرائق التأويل المتعددة، التي يرونها تسمح لهم بالدفاع عن نظريتهم بغسلها من التطبيقات الشائنة، لكن هذه التطبيقات تكون هي ميزان الانتقاد فيما لو تعلق الأمر بالإسلام مثلاً، حينئذ لن يجدي الحديث عن النظريات بشيء، فالمهم هو التطبيقات المُسلحة فقط!.

كما لا يستطيع صاحب «وهم الإله» إفهامنا كيف تقتضي نظرية التطور التي هي كشف للواقع الطبيعي، أن تكون راية دعوية تبشيرية؟!.

فأنت حينما تكتشف الماء أنه ماء، لا يعني ذلك أنه عليك دعوة الآخرين للاعتقاد بأنه كذلك. هذا التحرّك التبشيري لا علاقة له بكشف الطبيعي، بل هو مناقض له كما سنعرف. بينما دوكنز متخصص الطبيعيات العضوية يطرح تخصصه كقواعد نقدية في مجالات المجتمع والدين والسياسة والأخلاق وحتى انتقاد تيار مابعد الحداثة:

«لا يستطيع العِلم أن يخبرنا إن كان الإجهاض خطأ، ولكنه يستطيع أن يوضح أن المتصل «الجنيني» الذي يصل بلا انقطاع بين الجنين غير الواعي والبالغ الواعي هو مما يناظر المتصل «التطوري» الذي يصل البشر بالأنواع الأخرى. وإذا كان المتصل الجنيني يظهر على أنه غير منقطع بدرجة أكبر، فالسبب الوحيد لذلك هو أن المتصل التطوري ينقطع بحوادث الانقراض.

والمبادئ الأساسية للأخلاقيات ينبغي ألا تعتمد على حوادث الانقراض العارضة. وأنا أكرر أن العلم لا يستطيع أن يخبرنا إن كان الإجهاض مما يعد جريمة.. ولا يستطيع العِلم أن يخبرنا إن كان استنساخ إنسان كامل أمراً خطأ.. والعلم لا يستطيع أن يخبرنا إن كان أي شخص لديه روح.. ولا يستطيع العلم أن يخبرنا إن كان من الصواب أن نقتل «ماري» لننقذ توأمها «جودي»»[1].

إذن، العلم التجريبي لا يمكنه التدخل في البحث الأخلاقي القائم على تحديد السلوك أمام الصح والخطأ، وليس لمجاله مؤهلات للحديث عن مسألة الروح وأشباهها، فكيف يُسطّر دوكنز المطولات في هجاء هذه المسائل، ومن منطلق اختصاصه في الطبيعيات؟!. لكن ريتشارد دوكنز وفي أكثر من كتاب (وهم الإله، صانع الساعات الأعمى، العلم والحقيقة، النهر خارج عدن، وغيرها) يتدخل بلغة حادة جداً لتحديد مواقف أخلاقية مبنية على العلم التجربي في قسم الأحياء. دوكنز عالم الطبيعيات الذي ينكر المطلقات والكليات، يطرح نفسه كناهض (للدفاع عن الحقيقة نفسها) هل

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٦٦ـص٦٧. وتحديد دوكنز الصريح والواضح والمنسجم تماماً مع فلسفة العلوم، يلغي كل صخبه المتوتر لنقاشات دوكنز في مسألة الإجهاض وغيرها من القضايا المرتبطة بالأخلاق والسياسة العامة، والتي أطنب فيها في «وهم الإله» و«صانع الساعات الأعمى». وهناك (وفي «وهم الإله» خصوصاً) حاول أن يطرح الأخلاق على أساس العلم التجريبي ونظرية التطور!..وبخصوص مسائل الميتافيزيقا والغيب، مثل قضية الروح هنا، فإن دوكنز في ص٧٠ من «العلم والحقيقة» يعترف بأنه لا يمكنه نفي مسائل الطب البديل، ولا يمكنه الحكم عليها بأنها غير مفيدة بالمطلق ومخادعة. ومعلوم أن مسائل الطب البديل، تقع بمنزلة أدنى بكثير من مسائل الدين والإله والروح، فكيف يستخدم دوكنز لغة مُتريثة في المسائل البسيطة ويستخدم أحكاماً مطلقة نافية في القضايا الكبيرة والمعقدة؟!.

العلم يستطيع الحديث عن «الحقيقة» كحقيقة، الحقيقة بنفسها؟! ما الذي يجعل دوكنز لا يستطيع أن يُفكر بدون استخدام مثل هذه المفاهيم المُطلقة؟! سلوكه التطوري لمصلحة نفسه حيث لا حقيقة بنفسها وإنما ما ينفع حياة دوكنز، وعندها سيكون كل حديث من هذا الأستاذ بلا قيمة. أم ثمة أمر آخر يتجاوز دوكنز ويتجاوزنا نحن أيضاً كقراء في الراهن؟.

وهذا يعني وجود ما هو أوسع من كل عالم الجزئيات البالغة في الصغر (الكموميات) أو المتناهية في الكبر (الفلكيات)، وبالتالي نتجاوز كون المعرفة محصورة بالعلم التجربي وحده، والتي هي أطروحة الإلحاد المركزية على أساس الداروينية أو على أساس عدم الحاجة لوجود الإله في تفسير الكون فيزيائياً.

في الواقع ليس لنا سوى الابتسام لعبارات دوكنز غير التطورية:

«وأنا في العالم الأرحب، لو طُلب مني عبارة واحدة لتميز دوري كأستاذ للفهم الجماهيري للعِلم، أعتقد أني سأختار عبارة: نصير للحقيقة النزيهة»[1].

باختصار إن التطورية تعني: لانزاهة لأي حقيقة، وذلك لعدم وجودها مطلقاً بالنسبة إلى الإنسان الذي هو مجرد خلية مادية خلقت ذاتها لا تدرك من الواقع سوى ما فيه منفعتها ليس إلا.

إن جعل الداروينية خطاباً شمولياً، وقاعدة ميزان عامة لكل حقيقة، يُفقدنا معنى الحرية ومعنى الحقيقة، فمع الأولى لا شيء سوى حتمية الجينوم وتصفيات غربال العشوائية، حيث لا اختيار خارج المادية إلا أن يكون غير مادي، ولا معنى للاختيار ونحن قيد قضبان المادة وحدها.

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٧١.

ومع الثانية لايوجد سوى خدعة إبقاء الخلية لنفسها، فهي لا تهمها الحقيقة وإنما ما يُمكن الانتفاع به فقط.

فدوكنز يقرّ بأن النظرية الداروينية تفسير احتمالي في المخلوقات الحية على كوكب الأرض وهي لاعلاقة لها بالاشياء الجامدة فضلاً عن قضايا أخرى، لكنه يقوم بتوسعتها لتشمل تفسير الكون كله:

«إن إجابة داروين عن هذا اللغز هي إجابة شاملة كونياً.. إن الصيغة العامة لإجابة داروين ليست مجرد إجابة تصح عرضاً بالنسبة إلى نوع الحياة كما يوجد عندنا، وإنما هي صحيحة ولا ريب بالنسبة إلى كل الحياة تقريباً، أينما توجد في هذا الكون[1]، بالإضافة إلى استخدامها كقاعدة «فكرية» منهاجية في مسائل الوعي والنقد[2]. بمعنى أنها انخلعت من جذورها في تراب الطبيعيات، لتكون نظرية فلسفية!.

---

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١٤٣. أي تحذلق يحاول جعل المصطلحات والمعلومات الطبيعية ستارة لتحايل استدلالي يصل إلى كل هذا الابتذال؟.هو علم تجريبي يفترض أكواناً غير متناهية ويقر بمجرات لا تُحصى،ونحن في كوكب صغير لا قيمة له عديداً، عثرنا فيه على نماذج معدودة، صغيرة هي الأخرى كثيرة بالنسبة إلى مخلوقات الكوكب، هذه النماذج يتم وضعها كأدلة نستنبط منها تعميماً لكل الأكوان!. لايمكن هنا حتى مجرد تخيّل الحجم المتناهي الصغر لهذه الاحتمالية التي تُعمم عليها الداروينية على كوكب الأرض نفسه فكيف بأكثر من مجرة، فكيف بأكثر من عالَم، فكيف بالكون نفسه؟!..وفي (العلم والحقيقة، ص١٤٦) يقر دوكنز أنه لا يمكن مطابقة النظرية الداروينية لأن الأرض كروية تدور حول الشمس، مع ذلك فهو يجهد لجعل الداروينية «حقيقة» من القبيل نفسه!. إن إقراره بهذا الفرق يهدم أهم مرتكزات دوكنز الإلحادية المبنية على أسس التذرع بالدراوينية، ويجعلها بلا قيمة حِجاجية.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص١١٥، ص١١٧.

كما أن دوكنز على مدى مطولات مرافعاته يغفل مشكلة الذاتية، وأن العلم الطبيعي إنما يكشف الواقع كما هو لكنه أبداً لا يُفسّر لماذا هو كذلك، لذا من المنطقي أن يكتفي بتفسير الظاهرة على أنها هكذا في واقعها وذاتها. وهذه الفكرة يأخذها دوكنز لينقلها كقاعدة من قواعد تسهيل البحث العلمي، لأنه بدونها ستنهدم كل الأبحاث وتعود إلى الصفر، لكونها قاعدة لنفي العلة الأولى.

فمثلاً حينما نكتشف أن الماء مُركبّ من عنصرين، لا يعلل لنا الكشف الطبيعي (ولماذا هو مركب من عنصرين فقط، ولماذا هذان العنصران بالذات؟!). إن سؤال (لماذا؟!) لا ينقطع مهما أضفنا كشفاً جديداً، ومن هنا يُعبّر عنه بأنه السد، والجدار الذي لا يمكن عبوره. وهو البحث الذي تحدث عنه الأشاعرة في علم الكلام القديم للمسلمين.

لكن دوكنز يعتبر أن هذا العجز يجب أن نتناساه ونكتفي بالقول إن الظواهر الوجودية تسير هكذا لأنها هكذا، ونُريح أدمغتنا!. وبالتالي ينتهي الطرح الإلحادي من مقولة حرية الأسئلة وحيويتها إلى ضرورة إيقافها والهرب منها. وهي نتيجة لا تتوافق إلا مع الذهنية المسيحية التقليدية التي تعتمد في النهاية على عقلية دينية تقول: إن الأمور تقع هكذا لكون المشيئة الإلهية جعلتها كذلك ويجب أن نستريح من حمل أثقال الاستفهامات. لكننا بدل أن نضع كلمة (الله) أو المشيئة الإلهية، نضع كلمة الذاتية وأن الأمور تقع هكذا وفق انسجام نظرية التطور ،التي كشفت لنا أن أصل الإنسان قرد، أما لماذا تطور من القرد فقط بل من فصيلة معينة من القرود، ولماذا صنف القرود أنها وحدها تطورت إلى مستوى مختلف عن بقية الكائنات وخوّلها أن تكون الجّد الأعلى للانسان، فهذه القضية الأولى مفقودة في كتاب دوكنز الضخم

«حكاية الجد الأعلى» وهي تشمل الجد الأعلى في الأصناف الحية التي كتب عنها دوكنز في «أعظم عرض على الأرض»؟!.

ولماذا سار الكون بحسب نظرية التطور وليس غيرها، ولماذا كان الحديد يفترق في عناصره عن الخشب والخشب عن الهواء ..الخ، فهذا ما لايمكن للعلوم الطبيعية الدخول فيه، لأن كل عدتها هي سبر جزئيات جديدة هي جزء من عالم الواقع المُحدد، وبالتالي سينطبق عليها السؤال\الجدار نفسه[1]. إن القضية بالتالي لا يمكن مقاربتها بغرور علمي وعنجهية أكاديمية، بكون كل أولئك الملايين من البشر، مجرد مجاميع «بلهاء» ليس إلا. إن خلف قضية الإيمان بالإله عشرات القضايا البالغة الصعوبة، تتجاوز كل علوم الطبيعيات، إلى مشكلة الإدراك نفسه، لكون الذي أدرك أن العواطف والتفكير مرتبطان بخريطة من الخلايا الدماغية، هو أيضاً إدراك ذهني لا يختلف في واقعه عن أي إدراك آخر، يتساوى فيه الفكر الخرافي والفكر العلمي، حيث كلاهما مرتبط بخلايا الدماغ، فكيف تسنّى لنا اتباع هذه دون تلك؟!. فإذا لم تكن هناك فاصلة بين المُدرِك والمُدرَك، كان معنى ذلك أنه يمكن أن تكون نتيجة الإدراك غير حقيقي، فنحن نصل إلى هذه النتائج وفقاً لمصالحنا البيولوجية أو غير البيولوجية، وبالتالي فلا إدراك حقيقياً أبداً، وهكذا تنتهي الدائرة المُغلقة للمادية والمعرفة باعتبارها جزءاً كمونياً من العالَم إلى نفي المعرفة بالكامل وتقضي على صدقيتها، منذ السطر الأول في الصفحة الأولى لكتاب نظريتها.

في النهاية إذا لم توجد هناك سوى الماديات، فما الذي يحوّل عالم الطبيعيات إلى داعية؟!.

---

(١) هل لهذا ظهرت فكرة الملائكة هنا كتعليل يخرج الظواهر الطبيعية لأسباب متعالية عنها، وبالتالي تكون فكرة الملائكة مجرد قناع ميثي لمسألة معرفية أعمق؟!. لن نستطيع معرفة الجواب إذاما اكتفينا بالقراءة التقليدية للمؤمنين، أو القراءة الساخرة للملاحدة كما يفعل دوكنز بشكل أقل ما يمكن وصفه بأنه مُقزِّز.

إن دوكنز، كما سوف نرى، لم يكتفِ بخلط المسببات مع المتلازمات، بل بذل جهداً كبيراً في اعتماد الاستدلال بإسهاب، إذ يطيل الحديث ويشعبه ويبتعد عن المحور الأساسي في تحديد الموضوع المُدعى وأدلة النفي والإثبات، وخلط حقول التعريفات والتصديقات بما يتعلق بأفكار المختلفين عنه. في حين أن من معالم التفكير غير النقدي هو اعتماد الاستدلال المطول.فالمتلقي العادي يجد نفسه أمام عاصفة من المعلومات المتتابعة وفي مواضيع متغيرة، يتم الانتقال فيها من العلوم الطبيعية إلى الأخلاقية إلى السياسة المعاصرة إلى تاريخ الأديان، إلى علم النفس، ليضع تحديداً كيف تم الرد على الإشكال الأساسي، كما فعل دوكنز مثلاً في حلقة خاصة عن مشكلة معنى الحياة وأنه بدون الدين يمكن تكرار ما حدث في لندن عام ٢٠١١ من حرائق للممتلكات العامة والخاصة، تنتهي الحلقة بلا أي إجابة حقيقية تخص الموضوع[١]. في حين أن كثرة المعلومات وإن أعطت انطباعاً عن عملية المتحدث لكنها لا تعني أبداً أنها حجة علمية، خصوصاً وأن كثرة المعلومات تنتمي إلى مدار معرفي لا علاقة له بالمدار المعرفي الذي يدور حوله النقاش. ففي حالة دوكنز يمكنه الإسهاب والإطناب عن علوم الأحياء، لكن هذا لا علاقة حقيقية له بنفي أو إثبات القضايا الكلية العامة في الفلسفة واللاهوت والأخلاق. ودوكنز هو من أولئك الذين يعتمدون على تشتيت الانتباه عن أصل الموضوع وتحديد الحُجج، لذا فهو يعمد إلى هذه الطريقة في إرباك وتسخيف محاوريه وناقديه، عبر الانتقال بهم إلى أسئلة حول الطبيعيات، وبالطبع فهم ليسوا أهل اختصاص في هذا المجال مثله، عندها تظهر علامة

(١) وهذا أمر كان يعتمده كثيرون وأشهرهم محمد أركون، ومن جملة الذين حازوا شهادات الدكتوراه عبر التراكم الكمي للمعلومات وحفظ الشائع من القناعات الثابتة في محيط أساتذتهم.

الابتسام الساخرة على وجهه كي تنتقل إلى المشاهدين، الذين نسوا أن موضوع السخرية والجهل في خصم دوكنز لم يكن في موضوع الإله بل في قضايا أخرى.

لكن دوكنز وهو يسرد لنا المطولات ضد الدين وليس حول نفي الإله، ويسخر من صورة الإله التوراتي والإنجيلي ومعبودات آسيا، يقرّ بأن هذه ليست سوى أهداف سهلة لا ينبغي بعالم متخصص معاصر الانشغال بها، فالذي يستحق الوقوف عنده هو أن (يوجد هناك قدرة متوحّدة خارقة للقدرات، تعمدتْ خلق الكون وكل شيء فيه، بمن فيه نحن) . وهنا تنحصر مهمة وهم الإله بنفي هذه الفكرة بكون «أي قدرات على الخلق بتعقيد كاف لتصميم أي شيء لا تأتي إلا نتيجة تراكم تدريجي طويل الأمد لعملية تطورية»[1] .

لكن هل التراكم المُعقد يمكن أن يكون بديلاً عن مفهوم العلية؟!.

ثم أليست هذه النتيجة عن الكون هي بذاتها مدينة لنظرية العلية التي بها توصلنا إلى معرفة النتائج ومواصلة الاختبارات، فإذا ما نفينا العلية كنتيجة علينا أن ننكرها كمقدمات، وهذا يعني انهداماً كاملاً للعلم؟!.

بل المعرفة أيضاً، التي منها كل اكتشافات وتحليلات دعاة الإلحاد أنفسهم لأنه سيكون هناك عدم علاقة بين تنظيراتهم ودعوتهم، ولا علاقة بين استدلالاتهم وبين أي نتيجة يطالبون بها.

---

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٣٣. وسيلاحظ القارئ أننا نقوم بتصحيح بعض العبارات لكثرة الأخطاء اللغوية في تعريب الكتاب، نحن نبقيها كما هي لكن بعضها غير ممكن لأن الإبقاء على النص كما هو سيكون بلا معنى أو كأنه مكتوب بلهجة عامية أو مُترجم بطريقة الكترونية، بحيث نضطر إلى بعض التدخل لتعديلها.

هنا في هذه النقطة يُكرر الإلهيون انتقاد الداروينية لكونها نظرية تعترف بأنها لم تفحص السلف الأول المنقرض الذي هو الجد الأعلى للإنسان وفصيلة من الشمبانزي، ولا هي فحصت ورأت ولمست تحوّل الأنواع عبر ملايين السنين، بل هي انبثقت من قوة الخيال والحدس ثم فحص الفرضيات، مع القول بنشوء عصور «لاحقة» للحلقات المتوسطة. لذا يتم الانزلاق إلى تعميمات لو صدرت عن غير الوسط الأكاديمي لتحولت إلى أشهر طرفة ساخرة، حيث «أن المذهب الداروينى صحيح ليس على هذا الكوكب فحسب، بل فيما يشمل الكون كله، حيثما يمكن أن توجد حياة»[1].

للأسف مثل هذه الأسئلة لا يجيد دوكنز سوى القفز فوقها والالتفاف عليها. خصوصاً وأنه يكرر هجاءه للخيال وقيمته[2]، وكأنه ليس للميثولوجيات الدينية رافد أساسي من الإبداع الأدبي الذي هو بدروه ينشط خلايا استعادة الجهد في كشف المجهولات الجديدة في الكون، فبدون طاقة الخيال وفضوله لم تتطور العلوم الطبيعية قط، وإلا فهناك آلاف من قضايا العلوم الطبيعية ليس لها أي مردود عملي، سوى تدوينها في أرشيف المعلومات كالتي سبقها. فعلماء الطبيعة يصلون إلى شغف مرضي في أحيان كثيرة لبذل المال والجهد من أجل العلم لذاته، وليس لشيء آخر خارج ضغط اللذة

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص١٤، ص٣٥٥ .

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص٣٧. ولا نريد الوقوف كثيراً على السخرية المتعجرفة لدوكنز ضد الأساطير التي يصورها وكأنها قصص أطفال، يكفي التنويه بدراسات فرويد وغيره التي بينت أهمية الميثولوجيا بتعريفنا بأمور كثيرة حول الإنسان لغوياً ونفسياً.

العقلية، بل في كثيرٍ من الأحيان هم يعلمون جيداً أن مكتشفاتهم غير العملية هذه تستنزف مقداراً هائلاً من الأموال والجهود التي لو صُرِف عُشرها على مسائل المجاعة والأيتام والتعليم في الشعوب الفقيرة، لكان أثرها مُذهلاً، مع ذلك هم سادرون كغيرهم من «أبناء الخيال» بغواية الفضول ليس إلا.

مطران الإلحاد ولاهوت البداية

رغم إكثار الأمثلة ووعرة الحدة غير المُبرّرة في الكتابة، لم يكن بمقدور دوكنز الهروب من مشكلة البداية. والبداية ليست بسيطة فهي مُركّبة، ومهما سخرنا من وعينا أنها حدثت في طفرة، فهذه الطفرة ليست في اللاشيء بل هي في شيء، وهذا الشيء يحمل خصائص ما، خولته أن يكون كائناً. هكذا ندرك أن البداية لم تكن بداية:

«إن نقطة البداية لأي قفزة طفرية يجب أن تكون كائناً قابلاً للحياة، واحدة من تلك الإبر النفيسة النادرة في كومة القش»[1].

وحتى في الفيزياء حينما يتحدث لورانس كراوس في كتابه الشهير «كون من لا شيء» لا يستطيع سوى إرجاع التوسع الكوني الذي بلغ (بحسب ما

(١) \العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١٥٣. هناك عشرات الثغرات في تفسير الطفرات النوعية، وأوضحها مشكلة لزوم عثورنا على مليارات الحلقات التوسطية المشوهة التي واحدة منها فقط هي التي يظهر به كل نوع (\العلم والحقيقة، ص١٥٥). وهذا التحسين الذي هو قانون ثابت، لا يحدث بعشوائية بل بتراكم مُهندَس (\العلم والحقيقة، ص١٥٦). فالانتخاب التدريجي التراكمي هو الذي يُهندِّس التعافي خطوة فخطوة.هذه النقطة ستزداد تعقيداً في تفسير الجمال، فمن جهة، المخلوقات تنتهي بموقف جمالي، ومن جهة يرفض دوكنز (\العلم والحقيقة، ص١٦٠) أن تكون معظم الخواص المكتسبة تحسينات، بل هي إصابات. فلو كان الجمال مرتبطاً بتطور ما ننتفع به فقط، لكان وهم الجمال والحُسن يخص نوعنا فقط، في حين أننا نجد قيمته الثابتة نفسها في قراءة بقية الموجودات!.

علمنا) ٤٠٠ بليون مجرة، إلى نقطة ظهور للانفجار الكبير (وهي فرضية علمية لها خصومها!) كانت قبل ١٣,٧٢ بليون سنة، لعنصر مادي غامض، قد يُسمى بالطاقة السلبية أو طاقة مُظلمة[١] أو شيء آخر نسجل فيه بداية «مُحتملة» لمسيرة كونية هي الأخرى مُحتملة، لكن كراوس مثل دوكنز يختم القول بأن هذا دليل حتمي على أن العلم ينفي الله!.

في حين أنه سواء عبر النظرية النسبية أو فيزياء الكم، أو أي نظرية أخرى في الأحياء أو الجسيمات، لايمكن لأي عالِم، في أي اختصاص، أن يقول عن هذا التحول إنه تحول إلى اللاشيء في اللاشيء بواسطة لاشيء. لابد هناك من عناصر ولهذه العناصر قوانين تحكمها كي يتحقق التفاعل والتركيب والتحوّل، لماذا كانت هذه العناصر دون غيرها؟ ولماذا خصائص العناصر الأولية هي هذه دون غيرها؟! . هنا هي مسألة البداية ومشكلتها وإشكاليتها.

خصوصاً وأن ما يهمنا فعلاً هو تلك التبدلات الكيفية والتغيّرات النوعية

(١) نستنبطها (عقلياً!) بواسطة فهمنا لكثافة وجود المادة الباريونية في الكون. وأصلًا فكرة أن للعدم طاقة تعاكس طريقة عمل الهليوم المحبوس، هي مجرد تأمل منطقي ولا علاقة لها بأي تجربة، لذا تمت إحاطتها بمجموعة من التخمينات المحضة مثل كونها نويترينوهات غير مرئية، أو أنها جسيمات غريبة ذات كتل كبيرة أو نجوم مُجهضة، أو أنها ثقوب سوداء تشكلت في بداية الكون. الخ، وثمة خلط بين القضية المتخيلة الذهنية وحقيقة الواقع الخارجي، وهو ما يشبه تقهقراً صوب مشكلات التفكير الأرسطي القديمة واعتراضات ابن تيمية الشهيرة عليه. الأظرف المقايسات الخطابية التي يقيمها كراوس بين سياسيين وزعماء يغفلون أو ينشغلون أو يتعبون، وحينها يمكن حدوث شيء غير مُتيقن منه، وبين عناصر الكون الطبيعية!. بمعنى أننا مع الملاحدة مرة نحاسب الإنسان وقناعاته وفق مكتشفات الكون ومرة الكون نفسه بأوسع وأدق ما فيه تتم محاسبته على حركات الإنسان الاجتماعية!.

التي لايمكن لأحد الغلواء في الالتزام بصيرورتها من عشوائيات مُستمرة، وهذا ما يقوله حتى أكثر الداروينيين تطرفاً:

«تجبرنا حقائق التكّيف على أن نستنتج أن المسارات التطورية ليست كلها عشوائية. ولابد من أن يكون هناك بعض توجيه لا عشوائي تجاه حلول تكيفية لأن اللاعشوائية هي بالضبط ما تكوّنه الحلول التكيفية، ولا يمكن للسير العشوائي ولا للوثوب العشوائي أن يؤدي بأي منهما بذاته إلى إنجاز المهمة»[1].

وبالطبع فإن معضلة البداية، سواء مع دوكنز أو مع لورانس كراوس، هي ليست في مسألة ذلك العنصر البعيد عنا بملايين السنين وتم تصويره كأنه البداية الفعلية للحياة أو الكون، وأنه عدم ولا شيء، بل لأن هذه النتيجة هي في النهاية فكرة إنسانية وهي الأشد معضلة ولا قيمة لها بدون الرياضيات، ولقد استثنى دوكنز صراحة الرياضيات من كل تحليلاته لعجزه عن تأويلها وإلغاء حتميتها وتعاليها. فإذا كانت الحقيقة هي حصراً ما نكتشفه من مجهول التجربة والتجربة فقط هي التي تُقدم لنا علماً، في حين أن هذه التجربة هي نفسها منتوج رياضي، فالرياضيات هي مجرد تفاعل خلايا الإنسان المادية التي عرفناها من خلال التجربة!

إن طابقنا حقيقة الرياضيات مع مكتشفات التجربة، لم يعد هناك رياضيات. وإن فصلناها عن التجربة لم تعد التجربة سيدة صاحبة الوصايا على

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١٥٧. ودوكنز في مرات نادرة يلتفت إلى مسألة الصدفة والعشوائية، وهي لاتعني عدم السببية ،كي يمكن استنتاج عدم الإله، وإنما العشوائية تعني حصول معلول عن علة أو عِلل، تلتقي بأمر خارج عن نسقها (العلم والحقيقة، ص١٥٨).

الحقيقة، وفي كلا الحالين صار من الحتمي وجود «بداية» ننطلق منها ونعود إليها في أبسط قضية فأي طريق غير الخيال نصل به إلى ذلك اللاشيء؟!

ولو وافقنا على كل هذه المُدعيات، فكيف يُمكن تفسير أقسام المعرفة من قبيل الحدس والظن واليقين؟!

وكيف سيتم الإبقاء على العلوم الإنسانية، فالمشكلة ليست مع الدين فقط ، إذ إن هذا التحيز يكشف مضمرات تحويل العلم إلى ميديا خصومية.

المفارقة أن مقولات الـ (لاشيء)، هي تصوير حتمي عِلّي لبداية الكون وحتى «الانفصام العظيم» والعتمة الشاملة، كل ذلك وفق بحوث طويلة ومعادلات وتحليلات دقيقة وفاحصة، فمن جهة، هناك نفي للسببية ومن جهة، ثمة تمسك بها لايزال يدفع العلوم إلى المزيد من التقدّم، وهي مفارقة انفصال المحمول عن موضوعه والمعلوم عن العالِم به، حيث تتطور العلوم والآلات ويتقهقر الإنسان إلى المزيد من الأنانية والتدمير والتوحّش. فكل تناقص في معنوية الإنسان يهدد بشكلٍ أشد الكوكب برمته، حيث يقترن موت الإله بموت الإنسان لنصل إلى قتل الحياة نفسها.

الفصل الثاني

وهميات استدلالات وهم

طفولية المصادرة

يفتتح ريتشارد دوكنز كتابه الذائع الصيت «وهم الإله» بمقدمة مكتوبة بقلم صحفي مُتمرن وليس عالم علوم تطبيقية ناشفة، ومن الواضح أن نصوص الكتاب مكتوبة بأكثر من قلمٍ واحد، فلدوكنز ثقافة أدبية واسعة وليس هو باحثاً منغلقاً على تخصصه فقط:

(عندما كانتْ زوجتي طفلة صغيرة كرهت المدرسة وتمنت لو تركتها. بعدها بأعوام كثيرة وعندما كانت في العشرينيات صارحت أمها بتلك الحقيقة المرّة، وبدهشة حزينة قالت الأم: «يا ابنتي العزيزة، لماذا لم تقولي لنا وقتئذ؟».

جواب ليلى يومذاك هو عبارتي لهذا اليوم: «ما عرفتُ أني كنتُ أستطيع فعل ذلك».

«ما عرفتُ أني كنتُ أستطيع فعل ذلك.

أعتقد، لا بل أعرف، أن هناك العديدين من الذين تربّوا على دين ما وليسوا سعداء معه، أو قلقين جراء ما يُرتكب باسمه من شرور، أناس يشعرون بحنين ضعيف لترك دين آبائهم ويتمنّون لو استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لكنهم لا يدركون أن ذلك هو أحد الخيارات الممكنة بالفعل. لو كنتَ واحِداً منهم فهذا الكتاب من أجلك. كتاب المراد به لفت الانتباه إلى حقيقة أن الإلحاد هو تطلع واقعي وشجاع ورائع»[1].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، الطبعة العربية الثانية، ص٤.

هذه المعلومة عن الزوجة ليست «علمية» بحسب التوصيف للعلم في ذهنية دوكنز. فهي مجرد خبر: عن مُترجم الكتاب، عن دوكنز، عن زوجته، إنها قالت..الخ. يا للسخرية، كتاب نقد الدين يُفتتح بطريقة العنعنة لعلوم الحديث والنقل!.

في هذه المقدِّمة ثمة مصادرة وتوهيم. أما المصادرة فهي: أن الدين مجرد مرحلة طفولية في حياة الإنسان. وهذه قاعدة مرتبطة بفلسفة التاريخ وعلم الحضارة.وهي قضية اشتهرت على يد «أوغست كونت». حيث سيتم تبني تقسيم الوعي البشري إلى مرحلة أسطورية ثم دينية، ثم علمية.

أما التوهيم: فالمثال يدخلنا في صورة خيالية بأن المؤمن بالدين يعيش فترة طفولة ذهنية، وهو سجين لحظته تلك. وهذا التوهيم متناقض مع المصادرة، ففي حين أن المصادرة تعطينا صورة للدين بأنه ينتمي إلى شيخوخة التفكير القديم والأسلاف المتقدّمين في العُمر، يعطينا المثال أن المؤمن بالدين مجرد طفل صغير لم يبلغ الحلم بعد. هذه الصورة المتناقضة ستخترق كل الهيكل الطويل العريض لمنجز ريتشارد دوكنز، الذي يريد تحقيق الحصول على تمرد مراهقة متأخر، لعله لم يحصل عليه في مسيرة حياته العادية.

إن دوكنز في هذه الافتتاحية، يُعطي ثلاثة قيم للإلحاد:

١ ـ إن الإلحاد «تطلع واقعي»، لكن ما معنى الواقعية هنا؟!. هي تعني المادية أو المُعطى الحسي للأشياء؟! لكن هذا ليس صحيحاً، فنحن نلمس ونسمع ونشاهد المؤمن والملحد على المستوى نفسه. أم أن المقصود من الواقعية هنا أمر يقع وراء المادية والمُعطى الحسي؟! هذا يعني أننا خرجنا من الميتافيزيقا من الباب لندخلها من النافذة!.

٢ ـ إن الإلحاد «تطلع شجاع». الشجاعة في مـاذا؟![١] في الخروج عن القيم الجماعية؟!. لكن الإلحاد سيعتبر حينذاك تخاذلاً وجبناً، فيما لو كنا في بعض الولايات الأميركية أو في الدنيمارك والنرويج والسويد، مثلاً. فالمحيط المجتمعي عند هؤلاء هو التشدد في الإلحاد، وسيكون من الشجاعة للفتيات والصبيان التمرّد على ذويهم وإعلان إيمانهم بالدين، وقمة الشجاعة الباهرة حينذاك حينما سترتدي صبية شقراء الحجاب كاسرة النسق الطويل من سلالة الآباء والملحدين. الإلحاد لا يمكن وصفه لذاته هكذا بأنه شجاعة. اللهم إلا في حالة واحدة أن تكون كل نقديات ريتشارد دوكنز موجهة إلى تراث ديني مُعين وإلى شعوب مُحددة، وهذا هو المناسب فعلاً من كل الأمثلة والحِجاجيات التي يسهب دوكنز في عرضها، حيث لا علاقة لها بالتراث الإسلامي مثلاً، الذي يقوم الدين[٢] فيه على مقدمة مجموعة من الاستدلالات المأخوذة من عالم الشهادة بلا أي مدخلية للغيبيات والسحرية المُتخيلة المُعتمدة في بعض الديانات الأخرى، والتي بسببها افتتح دوكنز كتابه «وهم الإله» بعبارة: «ألا يكفي النظر إلى روعة الحديقة وجمالها، لماذا يجب علينا الاعتقاد بأن هُناك جنيات خلفها أيضاً؟». فدليل النّظم ودليل الإمكان ودليل الحدوث ودليل الفطرة، كلها لا تقوم على استبعاد الحقيقة وظاهرها بل يتم اعتماد هذا الظاهر نفسه للقول بأنه ما كان له أن يقوم لولا حقيقة أروع، وتلك مناقشة طويلة

---

(١) وهذا غير صحيح طبعاً لأن هذه الشجاعة لا تعدو مجال الكلام والألفاظ فقط، ما عدا ذلك، كما سوف نرى، أن الملحد يعيش كما يعيش بقية المؤمنين ويحاول تسلية نفسه بالقيم التي صنعها الإيمان عبر تراكم الخبرات وفضاءات التراحم التي صنعها الدين عبر العصور، خارج ذلك سيهرب الملحد «الشجاع» من أسئلة العدمية ورعبها إلى الالتهاء بأي شيء ليكون بديل الإجابة هو إلهاء الذات حتى بوجبة طعام!

(٢) ما عدا بعض الحنابلة الذين يدفنون المعنى الديني في نصوص بعض الأسلاف وأئمة العقيدة ومشايخها المرتبطين بالسلطة الغالبة آنذاك.

جعلتنا نختتم بعض بحوثنا السابقة بمناقشة إجمالية لإلحادية ريتشارد دوكنز، بعد أن عرضنا الحديث عن الأدلة التقليدية في علم الكلام لدى المسلمين[١]. حيث ينتهي الموقف ليس إلى مطابقة الدين مع اللاعلمية، كما هي المصادرة التصورية عن الدين في قراءة دوكنز، بل إلى نقضية الدين لهذه التصورية بالذات كي لا يكون هذاءً ميتافيزقياً، كالذي يطرحه جملة من المستأكلين بمسارح السخرية في أميركا، من الدين والقيم كافة. ولو أننا دققنا بهذه القضية ستجد أن كل نقديات دوكنز لاعلاقة لها بهذا الجوهر الديني وسيغدو تعميم كلامه عبارة عن نوع من المغالطات القديمة التي توحّد المعنى الانتقادي لكثرة لفظية لا يجمع بينها سوى التسميات الخارجية فقط، حيث مفردة الدين في كثير من الأحيان تقع في مجالات متناقضة وأفكار متصادمة[٢]. وعليه فإن أطروحة أن الألوهية مجرد ذهنية طفولية لجنيات الحديقة الكونية، لا تعدو أن تكون مصادرة أخرى ضمن طابور طويل جداً من المصادرات التي يرزح تحتها نص دوكنز ومحاضراته العديدة. وإلا فهناك دين، كالإسلام، لا يحرص على الدهشة إزاء عظمة الكون والتأمل بكل شيء فيه من النملة والجمل وحتى النجوم، ويعتبر هذا التفكّر في المخلوقات أسمى أنواع العبادات وأفضلها، بما يتجاوز تمنيات كارل ساغان، الذي يستحضر دوكنز أمنيته وتحسره لكونه لا يعرف سوى اليهودية والمسيحية في مجتمعه، حيث الإيمان يناقض الاهتمام بالطبيعة وكشوفات العلِم، وبالتالي فكل هذه المدحيات للإلحاد لا تطاول الدين بذاته، بل لدين خاص وفي مجتمعات مُحدَّدة[٣].

(١) البناء والانتماء، تجديدات نظرية ومواجيد ذوقية، مرجع سابق، ج١، ص٢٤٠، ٣٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٢.

(٣) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٤.

لكن يجب أن لا تفوتنا هنا العودة إلى هذا التقويم الثاني للإلحاد بكونه واقعياً شجاعاً يتجاوز فيه فكرة الظاهر. أليس غريباً من عالم خبير بالأحياء ولديه معرفة بالفيزياء، أن يدعونا إلى التمسك بدعوة تطرح نفسها «علمية» جداً، لا لشيء إلا لكون «الظاهر» يقول ذلك؟!.

أليست علوم الأحياء والفيزياء اليوم، هي أكثر من أي وقتٍ مضى[1]، مَن دلّل لنا بأن ليس هناك من كذبة أكبر للحديقة الكونية من صورتها الظاهرية هذه؟!، وأن جوهر حديقة الواقع هو أبعد بكثير من كل يقينيات المُعطى الحسي المباشر للأشياء، حتى أن مكتشفات الأحياء والفيزياء التي تمت الاستفادة منها في صنع الجديد من تكنولوجيا الطب والمعالجة والاتصالات قد أوصلتنا إلى مُنجزات تفوق بغرابتها كل سحر، فكيف تسنّى لعالم أكاديمي خبير أن يطرح فكرة ترك الجوهر والأخذ بالظاهر؟! . الخلاصة: نحن هنا أمام علمية تلغي علميتها.

٣ ـ التقويم الثالث الذي يمنحه دوكنز، بل يُعمّده باعتباره بابا الإلحاد ومطرانه الأكبر، هو أن الإلحاد «رائع». وفي الحقيقة إنه إذا كان بالإمكان، ليس لدوكنز وحده، بل لكل الملاحدة، أن يتحدثوا بيسر عن نقض الأدلة الفلسفية والعلمية والتاريخية للإله ثم الدين، والخلط بين مبحث نفي الإله ومبحث نفي الدين[2]، لكن كل مراكب غزواتهم ومغامراتهم تتحطم في مشكلة الخُلقيات ومشكلة الجماليات، التي كلما حاولوا اختزالها بتفسير مادي ازداد أساس اعتقادهم الإلحادي عواصاً واضطراباً.

(١) سواء عبر ثوابت الكون وثوابت الحياة أم بغير ذلك.

(٢) من الأمور التي يعمّد به دوكنز حاله حال جملة من الملاحدة، دون أي اهتمام بفوضوية الاسترسال في تنقلات سجالية ليست مواضيعها متقاطعة بالضرورة.

«والعالَم الحقيقي عندما يُفهم فهماً صحيحاً بالطريقة العلمية، عالم له جماله العميق ويظل دائماً يُثير الاهتمام»[1].لماذا يتحول الفضول العلمي المجرد إلى قمة السعادة وهرم المعنى، لدى دوكنز، في حين أن الداروينية لا تعطينا سوى ما يرتبط بالمصالح فقط؟!

ماذا يعني هنا أن يكون الإلحاد «رائعاً»؟!. هذا شبه افتتاحية ستيفن هوكنغ لبرنامج «قصة كل شيء» التي قال فيها بأنه «معوّق لا يتحرك فيه شيء سوى عقله ومع ذلك فهو رجل حُرّ، وحالِم»، هذه المجازية التي لا تريد سوى التعالي على الحقيقة الأمبريقية المباشرة[2] . وهو تعالٍ لا علاقة له بالمادة، لأنه لو كان جزءاً منها، فإنه لابد أن نستخدم أخشن الكلمات لوصف الوضع الجسدي البائس المسكين لستيفن هوكنغ، وهو أمر نترفع عنه بالتأكيد، خصوصاً وأن الإنسان لا يملك سوى الإعجاب والاحترام الكبير لشخصية عبقرية مكافحة كستيفن هوكنغ.

هو رائع بالنسبة إلى الذين يعيشون في مجتمعات دينية فيخرجون عليها بلذة الإلحاد الذي يوفر لهم تنفسّاً تمردياً ضد القيم المألوفة، كما هي أحاسيس المراهقين الذين يجدون حماسة الاندفاع في مخالفة ذويهم، كطريقة تمردية لقتل الأب الأوديبي؟!.

وكيف نقول كلمة «رائع» ومفردة التطور في نظرية الانتخاب الطبيعي لا تعني بقاء الأروع ولا تعني بالضرورة التقدّم نحو الأفضل؟!

أم أن الإلحاد «رائع» لكونه مفيداً؟! لكن حينما تتم مطابقة الجميل بالمفيد

---

(١) \العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٨٣.

(٢) بل إن دوكنز لا ينتهي في الأمور الأخلاقية والذوقية إلا إلى المسائل المعروفة التي أفضت بالإنسان إلى الدين، والتي منها مسألة الخلود، التي لا يملك دوكنز إلا أن يكتب عنها برومنسية وعزاء، كأي فرد عادي(\العلم والحقيقة، ص١١٤).

سينتهي الإلحاد إلى أكثر الأفكار الدينية تطرفاً، تلك التي تجد في الفن وثناً أو مرضاً يجب تهديمه إذا لم يمنحنا بعض الفوائد والمصالح. ثم مَن ذلك الذي يُحدد الفوائد والروعة؟! الفرد الملحد والمتفقون معه ضد الجماعة؟!؟. هذه ستكون تنمية لغلواء تحطيم الأمن الاجتماعي والاعتداء على الكثرة. أم الذي يُحدد الرائع والمفيد هم الكثرة، وهذا يعني عدم مشروعية طرح الإلحاد في المجتمعات الدينية، وبالتالي سيكون الإلحاد بلا معنى: فهو في المجتمعات غير الدينية، تحصيل حاصل، بل باطل لكونه لا يحقق لنا أي تمرد.

وفي المجتمعات الدينية الروعة والمصلحة مرتبطتان بالكثرة، فلا يكون من الرائع ولا المفيد تسويق الإلحاد فيها.

ثم بأي ضابط يتم تحديد الإلحاد بأنه «رائع» في سياق دوكنز؟!

أليس هو من رفض الانصياع لمشاعر تخيل الجنيات في الحديقة كي نقول إنها جميلة، لماذا نتخيل الروعة هنا في حديقة الإلحاد الاصطناعية، لماذا لا ننظر إليه بنفسه ألا يكفي حينذاك أن نقول: إنه ليس بشيء خارج جمل تعبيراتنا؟!.

وكيف يُمكن الحديث عن مشاعر الجمال والروعة لفكر يتزمت في الظواهر وعدم إيمانه بكل ما هو غير مادي؟!

شيطنة الدين خطاب علمي أم إعلامي

يحسب دوكنز نفسه ككثيرين من الأكاديميين المعاصرين، أنه لا يتكلم إلا بشروط «علمية» مُتشددة، ويتفاخر بلباقة النخبة التي تتلوث بالسذاجة الشعبية الموروثة من القرون الوسطى، حيث كان ينبني البحث العلمي على مُسبقات فلسفية. لكن دوكنز كأشباهه، لا ينطلق إلا من مصادرة «فلسفية» تجعل استنتاجاته المبنية على مبادئ مختبرية، ضرباً من الخليط المُتعسِّف. فمثلاً هو ينكر أن يكون في أي شيء، أن يكون ثمة أصل يعود إليه. وهذا يعني بالطبع عدم الإيمان بأي بديهية عقلية يتم الارتكان إليها في نمو المعرفة واختبارها. وهذا يعني أن كل استنتاجات العلوم الحديثة، إنسانية وتطبيقية طبيعية، عبارة عن فرضيات فقط، لكن هؤلاء الأكاديميين المتأنقين ببدلاتهم وربطات أعناقهم، ينسون أنها كذلك، فإذا بهم ينتهون إلى يقينيات متخشبة، إن لم تكن تتجاوز اليقينيات الكهنوتية فهي تساويها. يقول دوكنز:

«فالدين ليس أصل كل الشرور وليس هناك من شيء معين بذاته والذي هو أصل لكل شيء آخر»[1].

لكن إذا كان المنفي هو بصيغة القضية الكُلية (عدم وجود أي أصل لكل شيء)، فهذا يعني بالإضافة إلى تناقضية صياغة قضية كلية لا وجود لها في الخارج ولا تقع مادة موضوعية للفحص المختبري الـ«علمي»، أن الإلحاد

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٤.

ليس أصلاً للخير، كي يتم الاحتفاء به كتأسيس فكري واجتماعي جديد، نخرج به عباءة البنية الاجتماعية الموروثة، وإذا لم يرتبط الإلحاد بأصل لا في الجمال ولا في المصلحة، فكيف سيكون «رائعاً» ومهماً وضرورياً؟!.

في الحقيقة إن كتاب «وهم الإله» كبقية كتب دوكنز، موجّه، إلى متلقٍ غير مُحايد، بل متلقٍ مُتحيز. فالكتاب مجرد صياغة تبرير لمُلحد لديه خصومة نفسية أو نفعية أو مزاجية ضد الإيمان منذ البداية[1]، ولا يبتغي سوى إيجاد إطار نظري، لقناعته النفسية هذه. ونقول قناعة «نفسية» وليست نظرية، لكونه بحسب الفرض بحاجة إلى كتابة تدعم ميله النفسي هذا، من قبيل كتاب دوكنز الذي هو كتاب في توهيم فكرة الإله، مكتوب لشخص يعاني البحث عن صيغة كلامية لضغوطات وهمه. وبالتالي يشبه هذا الطرح، حديث بعض مثقفينا في السخرية من الدين في بعض صالونات العاصمة، في حضور لديه اقتناع مسبق ضد الدين، لكونهم شيوعيين قدماء أو متحولين إلى ليبراليين بحسب الموضة. أو حديث بعضهم عن وهمية النبوة على غرار تعريف عبارة عن «وهم» فهو يستدل على وهمية مفهوم ما، كحكم تصديقي وتقويمي، لقضية قام بتعريفها وتصويرها بشكل مسبق باعتبارها وهماً من الأوهام. فهذه الأطروحات التي تقلّد الأطروحات الغربية ككتاب دوكنز هذا، تبالغ في التقليد حتى من ناحية

(١) والسبب أن دوكنز (وهم الإله، ص٨٩) في صغره تأثر بمشاعر دينية لزميل له ذهب للانتجاع في جزيرة مُهملة، وظهر له صوت يشبه الشيطان وتحول زميله إلى قسّ، ثم اكتشف دوكنز أن هناك نوعاً من الطيور له صوت مُثير. إذن، فكرة إله الثغرات هي التي يُبنى عليها كل فكر دوكنز، والتي تتمثل بأن مقدار معرفتنا يقلص مساحة الإله، في حين أن دليل النظم مثلاً قائم على اتساع رقعة الإله بحسب اتساع المعلومات. لكن دوكنز(وهم الإله، ص٩٣) يعاني تذكر ذكرى طفولية اقترن فيها الغامض الديني بأوهام أصوات مخيفة،وبالتالي فالدين لديه منذ البداية عبارة عن وهم وعدو.

الشـكل، فضـلاً عـن المضمـون[١]، فدوكنـز يُقـدِّم كتابـه هـذا لمتلـقٍ هـو فـي الأصـل لديـه موقـف سـلبي مـن قضيـة الإيمـان بالإلـه. «فلـو كنـتَ ممـن لديهـم اقتنـاع نفسـي بنفـي الإلـه ونكـران الديـن فهـذا الكتـاب مـن أجلـك»[٢].

إنه كتاب تحصيل حاصل، كتاب يجب أن يكون مُتلقيه يُحسن التبرير لاقتناعاته المُسبقة في الحديث مع نفسه، أو في الحديث مع أصدقاء يشبهونه يتواطأون فيما بينهم على قناعة مسبقة يتم اعتبارها علمية ورائعة. إن كتاب «وهم الإله» ككل كتابات ريتشارد دوكنز عبارة عن: كتاب في النرجسية. لكونه كتاباً يمثل مرآة ينظر فيها الإنسان إلى قناعته النفسية ولا يشيح عنها، هو يريد مشاهدة صورة مُعينة داخل هذه المرآة وليس غيرها.

إن اليقين لا يدفعه إلا اليقين، فهل كتاب «وهم الإله» يُقدّم لنا نتائج يقينية، هل هو يعرض لنا حقائق؟!.

إن دوكنز يدخل إلى بحثه عبر مُصادرة جديدة بكون الإيمان بالإله هو مجرد فرضية، تقابلها فرضية أخرى هي الإلحاد[٣]. وإن فكرة الإله ليست وهماً على الإطلاق، بل هي على أقل تقدير أحد المبادئ الاحتمالية، وهذا ما ينساه دوكنز نفسه «لأنني كما نوهتُ في الفصل الثاني أؤمن بالإله كفرضية علمية أو على أقل تقدير كمبدأ، يمكن التحري عنه»[٤].

---

(١) وقد عرضنا نماذج مختلفة من المثقفين العرب والفرس والغربيين، في كتاب «الكلمة في زمن الفتنة، فقهاء بلا عمامة، إسلام بدون الله» . مؤسسة الانتشار العربي_بيروت.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٥. وسنرى بعد ذلك ما هي القيمة الحقيقية لسخرية المؤلف من كون أدلة المؤمنين عبارة عن: ضعف مُدهش.

(٤) المرجع نفسه، ص١٠٨

حسناً، صاحب الدعوة هو من يُقوّم دعوته بكونها لا تتعدى فرضية من الفرضيات. لكنه يصادر دعوة خصومه بكونها مجرد فرضيات مماثلة، وينسى أنه من قال: إنها مبدأ مماثل في الاحتمال، وهذا يعني: أن الذات لا تحكّم على نفسها فقط، بل تجعل نفسها معياراً لتقويم الآخرين، وهو سلوك نرجسي لا نحسد المؤلف عليه، لكثرة ما يكرره في كتاباته ومحاضراته، وقد طالبه كثيرون بضرورة التخلي عن أسلوب الغطرسة والتعالي على الآخرين أثناء الحوار المباشر أو أثناء نقله لأفكار المختلفين عنه، لكن لم يكن لذلك أي تأثير فيه.

*

فلنترك ذلك كله ونحاول بذل وسعنا في الاختصار، لنسأل: لكن ما هي البشارة التي تقدمها لنا فرضية الإلحاد؟!:

«في كانون الثاني ٢٠٠٦ قدمت برنامجاً وثائقياً من خلال التلفزيون البريطاني (القناة الرابعة) عنوانه جذوة الشر.. لكنني سررت بالإعلان الذي نشرته القناة الرابعة في الجريدة الوطنية. وهي عبارة عن صورة لأفق مدينة مانهاتن تحت عنوان «تخيّل عالماً بدون دين». فما هي علاقة الوصل هنا، البرجان كانا في الصورة؟.

تخيّل مع جون لينون عالماً بدون دين، عالماً بدون انتحاريين أوتفجيرات ١١ أيلول لندن أو حملات صليبية، بدون تقسيم للهند أو حرب فلسطينية إسرائيلية، بدون مذابح الصرب والكروات للمسلمين وبدون اضطهاد لليهود لكونهم «قتلة المسيح» أو مشكلات في إيرلندا الشمالية. بدون «جرائم الشرف» أو مبشرين إنجيليين بهندام لامع عبر التلفزيون الأميركي يأخذون

آمال السذج «الرب يريدك أن تعطي حتى الألم». تخيّل أنه لا وجود لطالبان ليفجّروا تماثيل بوذا الأثرية»[1].

إن الخطاب العلموي يخرج بشكل صريح كجزء من أزمة السياسة. إنها أسئلة الاستعمالات ومشكلات الإنسان العادي، ففي النهاية حينما نرصد التكاليف الضخمة على ورقة نبات أو حصاة تتابعها «ناسا»، فعلينا أن نركع للعلم وفضوله ونقنع الناس أن تسكت عن سد حاجاتها الضرورية، مفتخرة بالعلم حتى الألم!.

ودوكنز يحاول أن يوزع انتقاداً بإنصاف واضح:

«عندما نلقي اللوم على الإسلام لما حدث في نيويورك فإن هذا يماثل أن نلقي اللوم على المسيحية للقلاقل التي أحدثتها في إيرلندا الشمالية، نعم إن هذا هو الأمر بالضبط، لقد حان الوقت لأن نتوقف عن التحفظ عن التعبير عن الرأي. حان الوقت لأن نصبح غاضبين، وألا يكون غضبنا من الإسلام فحسب»[2].

فدوكنز لا ينقد فكرة دينية ما، ولا عقيدة ما، بل هو يرفض الدين بذاته، أي دين كان، وهو نقد ورفض مرتبط بتكوين شخصي لدوكنز كما سبق أن عرفنا.

نحن بالطبع نوافق على خطورة الدين، وأن سهولة استخدامه تؤدي إلى نتائج وخيمة على جميع الصعد السياسية منها أو التربوية والاقتصادية

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٤.

(٢) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٧١.

والمعرفية. لكن كل الأمثلة التي يضربها دوكنز في برامجه ومحاضراته وكتبه، كفتوى البابا بتحريم استخدام الواقي الذكري في أفريقيا الموبوءة بالإيدز أو الاستشفاء بمياه ملوثة اعتماداً على أحلام وتوهمات بعض المتدينين الذين يدعون رؤية العذراء في كهف أو قرب بحيرة، أو ما شابه من هذه الأمور التي تعج بها الأوساط الشعبية في المجتمعات الدينية كافة، بلا استثناء لدين من الأديان، مرتبط بالجانب الفقهي للدين. وليس الدين كدين. إن فتاوى الجهاد والقتل وتنجيس الكافر، وحرمة التزويج بين المختلفين دينياً أو بين المؤمنة وغير المؤمن أو بالعكس، كل ذلك أحكام فقهية تمثل تقنينات تاريخية لضرورات تأطير الحياة بين الهويات المتنافسة في العصور السالفة، وهي أحكام تبقى معقولة الصحة في حالة استمرار شروطها، وينبغي فضح خرافة بقائها عند فقدان تلكم الشروط، فلا يوجد في قسم المعاملات حكم أبدي يتم عرضه كأنه مقولة فلسفية مُجردة[1].

لكن لماذا نتخيل؟! لقد جرى هذا فعلاً في مذابح فرنسا باسم التنوير، لقد جرى أكثر منه خلال عقود ثقيلة من الحكم السوفياتي الذي أقفل جميع الكنائس

(١) منذ القديم اختلف المفسرون في الآيات التي تقول: إن المشركة لا يتزوجها إلا مُشرك أو كافر، هل يوجد هنا نهي أو نفي. مع ملاحظة أن الآيات تقول إنه قد حُرم ذلك على المؤمنين وليس على المسلمين. والمؤمن مفهوم عميق له شروط كثيرة من النادر أن تنطبق على أحد، فالقضية تتجاوز الاقتران النكاحي بين طرفين. وعلى أية حال يبقى هذا رأياً من الآراء وجزءاً من التراث الذي يدلل على رمزية النص الديني، وكون النص الديني نصاً ترميزياً هو ما يتناساه دوكنز ويعتمد منهج السلفيين في القراءة الحرفية للنصوص الدينية، في حين أن كل قراءة حرفية للنص الديني تبطله أن يكون نصاً دينياً من الأساس. وهذا ما يجعل دوكنز يقف مع الأصولية السلفية الدينية على ضفة واحدة في كثير من الأحيان.

وحطّم إيقونات المسيح والعذراء والقديسين، ليضع بدلهما منحوتات ستالين ولينين أساتذة التقدّم والتطوير، لقد حدث ذلك في موجة التحلل الأخلاقي في الستينيات التي عاصرها وشارك دوكنز في بعض تظاهراتها، حيث كانت بريطانيا والولايات المتحدة، تدكان ثوار أميركا الجنوبية.ولقد رأينا نحن العرب والعراقيين ذلك واضحاً مع نظام البعثيين وماذا فعل جمال عبدالناصر الذي قسّم بلده إلى مصر والسودان وأخرجه بلداً يحبو من ثقل الديون وتقديم أكبر مذلة للعرب، وماذا فعلت جداريات صدام حسين التي كانت التعويض النفسي لمحاربة المساجد والحسينيات، لدينا الصواريخ الأميركية التي كان الجنود يكتبون عليها عبارة السُباب ضد الله قبل أن يلقوها على المدن العراقية في الجنوب وفي بغداد، ولقد رأينا كيف انتهى التشدد العلماني الإلحادي في مناهج التدريس التونسي والجزائري لتتحول إلى نقيضها الأصولي المتشدد في صنع منظمة الذبح.. الخ، لقد جرى كل ذلك قبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر واستمر بعده، لدينا الواقع أيها العالِم الواقعي، فلماذا تحرص على التخيّل؟!.

لماذا إذا قلنا إن الإسلام مثلاً لاعلاقة له بتطبيقات مفتعلة لنصوصه من قبل الإرهابيين، يتم الرد بالسخرية، لكن حينما يتم الحديث عن الشيوعية والنازية والليبرالية الأميركية، سيقال إن هذه تطبيقات خاطئة لم تفهم نظرية التطور وهي بريئة منها؟!.

ثم أليس لدينا إنجيليون جدد يعتاشون من حضورهم التلفزيوني وبيع كتبهم، وبدلاتهم تلمع أكثر من هندام القساوسة، كل فخرهم هو أنهم يقدمون وصفة وهم الإله، كي يتم الانتعاش بها حدّ الألم؟!.

فكتاب «وهم الإله» في نهاية المطاف جزء من خطاب إعلامي وليس علمياً محضاً، جزء من صناعة قناعة تصنعها صُحف وكتب وأقلام وظائفية

لصنع الحركات الغريبة وتشجيعها داخل المجتمع، ودوكنز صريح بذلك، لا من خلال قرنه بين الإلحاديين والمثليين الجنسيين وتمنيه توسعة الظاهرتين والابتعاد عن عقدة «الخجل»، بل بتقرير واضح بكون «وهم الإله» جزءاً من برنامج تلفزيوني[١].

بل إن دوكنز يقرّ بأسف شديد أن الندوات «العلمية» والمحاضرات الأكاديمية معروضة للبيع والشراء وأنه نفسه جزء من مشروع مدفوع الثمن[٢].

وعلى خلاف جموح الخيال لجملة المثقفين العرب، الذين يحاولون تهوين الدين في مجتمعاتنا التي يُقال عادة إن الدين يمثل لها هوية ومصيراً، يقول لنا دوكنز إن الإلحاد فكرة غير مرغوب فيها في عموم المجتمع الأميركي:

«إن ظاهرة الدين في أميركا ظاهرة تستحق الاهتمام فعلاً. ليس من المبالغة ما قالته المحامية ويندي كاميني عن أن السخرية من الدين في أميركا لهي كإحراق علم أميركي في معسكر يعج بالجنود الأميركان»[٣].

وبالإضافة إلى ما قلناه في ردّ هذه المحاجة في نقض الدين يمكن لنا طرح أربع نقاط اعتراضية أخرى:

أولاً: لايوجد أي دليل على مطابقة الدين مع العنف، لتصاغ قضية كلية أنه كلما كان هناك دين فهناك عُنف. كثير من العلمانيين يجلّون المتصوفة مثلاً،

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٠.

(٢) المرجع نفسه، ص١٥٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٧. وهو في ص١٠٣، يقول إن الايمان في الولايات المتحدة الأميركية يبلغ تسعين بالمئة من المجتمع!

لكونهـــم يؤمنـــون بالإلـــه باعتبـــاره أســـمى مراتـــب الحـــبّ والاعتـــراف بالآخريـــن وخدمتهـــم.

ثانياً: عكس القضية صحيح: فهناك كثير من العنف موجود حيث ينعدم الدين.هل يمكن إدانة التطور العلمي والعلمانية على إنجاز أبشع جريمة وأكثرها هولاً مثل القنابل النووية والحروب العالمية، والأسلحة الجرثومية؟!

وماذا نسمي عمليات الجيش الأحمر الإيرلندي وما جرى في البوسنة والهرسك، وما يجري من جرائم يومية في شرائح اجتماعية مُلحدة تماماً؟! . ويغالط المؤلف قارئه بوصفه الصراع الاسرائيلي والإيرلندي صراعاً دينياً، في حين أنه سياسي محض. وكلاهما منتج علماني بامتياز، لا علاقة له لا بالتوراة ولا بالتلمود ولا بالقرآن.

وأين نضع تجارة الأعضاء البشرية وتجارة الأسلحة وبيع النساء، والأدوية الفاسدة، وتحويل البشرية إلى مختبر يُغذي فضول نخبة من الأطباء والكيميائيين، لا من أجل شيء سوى اكتشاف ما تنتج منه بعض تجاربهم، وجل هؤلاء بلا إيمان ولا عقيدة لاهوتية؟ ولا نريد الدخول في مئات الجرائم الفردية ضد المسلمين أو غيرهم في الولايات المتحدة الأميركية أو ألمانيا، مثلاً، وكلها وقعت على يد عنصريين مغالين في إلحادهم؟!

ثالثاً: بغض النظر عن كل ذلك، يبقى هذا احتجاجاً غير لائق من «عالِم» لكون العالِم يبحث عن حقائق الأشياء وواقعيتها كما هي أولاً. وليس ميزانه في الواقعية هو المنفعة والمضرة، وإلا لعدنا إلى استدلالات المؤمنين بأن الدين والإله يوفران حصانة نفسية واجتماعية بالغة الفائدة.

بـــل هنـــاك بحـــوث عديـــدة يمكـــن طرحهـــا لشـــطب كل التكنولوجيـــا والعلـــوم الحديثـــة، لكونهـــا ســـببت مـــن الدمـــار مـــا لـــم تشـــهد البشـــرية مثلـــه، ويكفـــي مـــا يجـــري

مـن خـراب تجـاوز العنصـر البشـري إلـى تدميـر كوكـب الأرض نفسـه، فهـل نكتـب (تخيّـل عالمـاً بـدون تكنولوجيـا وعلـوم)؟!.

رابعاً: إن هذا الطرح غير علمي، فالشطب يقوم على تعميم حالات جزئية من حروب وعصابات إرهاب، على الدين كله. في حين أن للدين فضائله أيضاً في حفظ كل هذا التاريخ الطويل من المجتمعات، وهو عنصر مهم في تطوير الفكر القانوني والعلمي. وكل هذه عبارة عن قضايا يمكن لعلوم الإحصاء والاستقراء التثبّت منها وإقرارها بطريقة ملموسة، في حين أن هذا الشطب قائم على حالة تشبه قياس التمثيل الفقهي، بل أسوأ.

علينا أن نغوص في تفريعات تجعلنا نذهل عن كون نفي الإله حتى لو ثبت عبر أدلة مستندة إلى العلوم التجريبية، فهي لا تنفي الإله كلياً. هي فقط تنفي وجود أدلة علمية على الإله، وهذا أعم من نفي الإله. فقد ننفي أن يكون للحب أو روعة فن لوحة ما، أي حقيقة وأن الأمر برمته مجرد وهم من ناحية التشريح العضوي للإنسان وخريطة خلاياه الدماغية، لكن هذا لا يعني أنهما مجرد وهم في واقع الحال، فقد يثبت ذلك عبر أدلة أخرى. إلا أن نقول إن حقيقة الأشياء مرهونة بأن يتم إثباتها بطريقة مادية فقط، وهذه مصادرة لا يمكن حلها إلا عبر المنظومة الفلسفية للاستدلالات، التي ليس بمقدور العلوم التطبيقية للطبيعيات أن تجازف في نفيها بشكل مطلق.

هـذا بالطبـع إذا أمكـن القـول بـأن العلـوم الطبيعيـة مـن شـأنها أن تعطينـا أحكامـاً، أو يقينـاً عموميـاً، أو أنهـا حينمـا لا تجـد دلائـل إثبـات فهـذا يعنـي أنهـا قـد منحتنـا أدلـة نفـي. وكل هـذه مصـادرات عجـزت نصـوص دوكنـز عـن إثباتهـا

وتحديدها بشكل منهجي. وتم اعتبارها «أصلاً» مرجعياً، في حين أنهم هم الذين قالوا إنهم لا يؤمنون بفكرة وجود أصلٍ لكل شيء!!.

القضية الأظرف أن المؤلف وهو يُقدّم (الاحتمال الأكبر وهو عدم وجود الله)، إنما يعتمد نظرية الانتخاب الطبيعي للداروينية الحديثة. في حين أنه لا علاقة بين نظرية داروين ونفي الإله. فنظرية داروين، الذي لم يكن ملحداً بشكل قطعي[١]، تنقض بعض النصوص الدينية في سفر التكوين، ونظرية داروين لا تقول بعدم وجود إله يعود إليه أول ظهور للمادة الحية الأولى التي يُقال إن لها قدرة الانشطار الذاتي، فهي تتحدث عن المخلوق وليس الخالق، لذا كان بعض القدماء كالجاحظ وإخوان الصفا ومسكويه وابن خلدون وغيرهم، يقولون بما يشبه هذه الفكرة، مع أنهم من المؤمنين[٢].

---

(١) بل هو في طبعات كتابه أصل الأنواع الخمس الأخرى التي صدرت بعد الطبعة الأولى، قرر أن الخالق خلق الكون بواسطة نظام الانتخاب الطبيعي، لكن المهووسين بالنظرية كحامل إلحادي، يحاولون تأويل نص داروين على أنه مجرد رشوة للمؤسسة الدينية أو للضغط على المجتمع، وهذا تأويل في مقابل نص، وتحريف مقابل وثيقة، حيث لم يكن داروين مضطراً لمثل هذا لمن قرأ حياته وسيرة عصره. بل كان داروين يتنازل عن نظريته باستمرار. ولم تصبح نظرية الانتخاب نظرية علمية مُحترمة إلا في سنوات متأخرة، ولا شيء من هذه الاسعافات لها يحتوي على دلالات نقضية لفكرة الإله.

(٢) نحن في الحقيقة نميل إلى استخدام مفردة «مؤمنين» أكثر من متدينين أو إسلاميين، مثلًا، فهذه مصطلحات نحتها خصوم التيارات الدينية، وهي كلها إيحاءات إسقاطية، في حين أن مفردة «مؤمنين» موجودة في نصوص المتدينين نفسها فهي مفردة زرادشتية توراتية إنجيلية، قرآنية. لكننا نضطر إلى استخدام مفردات أخرى لكون القوة الإعلامية التي تقف خلفها طباعة الكتب ونشر البرامج، هي التي سوقت إطاراً ذهنياً للمتلقين بات من الصعب مخاطبتهم بمفردات عارية من ملابس الموضة العالمية.

وبالطبع فقد كان للمؤمنين طرائق تأويلاتهم للنصوص الدينية[1] كي يخرجوها من تناقضات الكشوفات العلمية أو الفلسفية الجديدة، ولم يكن كثيرون منهم يجدون في نظرية داروين حرجاً حقيقياً[2]، ودوكنز لم يفعل هنا سوى أن سار في طريقهم نفسه وإن كان لغاية معكوسة. هم لديهم اقتناع قبلي راسخ بوجود الإله وحقيقته، فوسعوا من مستوى الوعي التأويلي كي تنحدر النتائج لمصلحة هذا الاقتناع، ودوكنز يعترف بأن نظرية الانتخاب الطبيعي لا علاقة لها بتوهيم فكرة الإله وتفريعات جعل كل قضايا الدين مجموعة من الحماقات المُبتذلة، لذا كان على دوكنز رفد نظرية الانتخاب الطبيعي بمجموعة من التأويلات الاستنتاجية، وجعلها محمولة على هذه النظرية لتصبح ذريعة لتوليد مفاهيم منفصلة عنها. علماً أن نظرية التطور هي بنفسها لها قـراءات مختلفة والقراءات الموجودة لم تبق من نظرية داروين سوى فكرتها

(١) عادة ما يذكر جملة من الإسلاميين بأن ما تم ذكره لديهم هو ظهور آدم وحواء بشكل كامل، لكن لا نعرف كيف ظهرا، وهنا توجد مشكلة أن الانتخاب الطبيعي يتحدث عن النوع وليس عن الأفراد. وإن كانت مدونات التفسير قد ذكرت أن اعتراض الملائكة بكون آدم سوف يسفك الدماء دليل على وجود مخلوق سابق له يشبهه لكنه أقل عقلاً منه لذا انقرض بسبب وحشيته التي عُبر عنها بسفك الدماء حيث كان عنصر البربرية والدمار أكبر من مستوى الإعمار والتمدن، وهذا ما يمكن تأييده اليوم بوجود حفريات لكائن سابق كان يعرف بعض الأمور كالخياطة وغيرها لكنه كان أضخم من الإنسان الحالي من ناحية الهيكل والقوة البدنية. ولدينا في مدونات أخبار الاسلاميين عشرات النصوص التي تتحدث عن وجود مخلوق عاقل قبل آدمنا، بل هي تتحدث سابقة كل نتائج العلم إلى اليوم عن مخلوقات عاقلة تشبهنا في مجرات أخرى، هذا قبل ظهور نظرية العوالم الممكنة وتنظيرات ستيفن هوكنغ، التي يتم طرحها هي الأخرى كدليل لتعزيز الإلحاد!.

(٢) ماعدا بعض المجاميع الكنسية وأقلية إسلامية، كالوهابية حيث وصل الأمر بابن باز إلى تكفير من يقول بأن الأرض كروية تدور.

العامة فقط، بمعنى أن نظرية الانتخاب الطبيعي هي بذاتها نظرية تطوّرت مرات عديدة. وبالتالي فهي أبعد من أن تكون تابوت موسى الجديد الذي يُحدِّد الحقيقة الثابتة بنفسها فضلاً عن أن تكون ثابتة في نفي كل ما سواها، كما يصوّر دوكنز ومناصروه أو المفتونون به، لأسباب موضوعية أو لعلل نفسية.

«على الرغم من أن نظرية الانتخاب الطبيعي محصورة بتفسير العالم الحي، فإن باستطاعتها أن ترفع مستوى الوعي للإدراك والقابلية للمقارنة عندنا مما يساعد على فهم الكون نفسه. إن قوة نظرية كالانتخاب الطبيعي قادرة على رفع مستوى الوعي»[1].

إن هنا استغفالاً يقترب أن يكون سخرية حقيقية بالقارئ، فنظرية الانتخاب تقول بترقي المخلوقات عبر مسيرة غير اختيارية وخارجة عن إرادتها، في حين أن عملية التأويل التي ينهض بها دوكنز قوامها الإرادة والاختيار، وإلا لو كان الأمر ينتهي باعتماد نظرية الانتخاب الطبيعي، فليتم ترك نظرية الإيمان وعدم التدخل بها حيث إن بقاءها كل هذا الوقت الطويل هو دليل على أحقيتها بحسب منطق الانتخاب الطبيعي، فالإلحاد كان موجوداً دائماً في المجتمعات، كقول هامشي أو شاذ، ولم يتحوّل قط إلى متبنى اجتماعي له سعة جغرافية في صنع الهويات والأمم، فلماذا يتم طرحه عبر تدخل خارجي لكسر الانتخاب الطبيعي، ومحاولة تقويضه باسم الانتخاب الطبيعي؟!. لماذا لا يدع عالم الطبيعيات الطبيعة أن تعمل عملها، ولماذا كل هذه الجعجعة مادامت الأمور تسير وفق قانونها الداخلي كحقيقة عينية لابد أن تتحقق بلا أي عناية من أوهامنا وأساطيرنا وتحليلاتنا؟!

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٥.

إن الانتخاب الطبيعي، ليس نظرية في القراءة، بل توصيف لواقع عيني، والواقع العيني لا يقبل الرفع والتوسعة، فهذا من شأن النظريات والمفاهيم. ولو قلنا إن نظرية التطور تفيدنا في رفع مستوى الوعي، فهذه ليست خصوصية لها، فكل شيء ومن ضمنه الدين، يمكن له أن يرفع مستوى الوعي البشري الذي يستفيد حتى من إدماج ألفاظ بسيطة كي يتطور[1].

إن دوكنز الخبير والمتخصص، إما أنه لم يفهم نظرية الانتخاب الطبيعي، وإما أنه يقوم بتزويرها وإخراجها عن نسقها كحقيقة خارجية إلى مدماك مفهومي يقولب إسقاطات من حيزات مختلفة ووضعها في ميادين خارجة عنها. ومن هذه الخلطة سيقدّم لنا دوكنز محاجات في إبطال فكرة الإله، لا لكونها قضية مثالية لا يمكن للعلوم التجريبية التثبّت منها، بل أيضاً لكونها وهماً تاريخياً ولا ضرورة أخلاقية لينتهي الفصل الثامن من الكتاب إلى القول بأن الدين مضر بذاته للإنسان، على الرغم من أن دوكنز ينفي وجود مفاهيم ذاتية ويرفض أن يكون هناك أصل لأي شيء!!.

ها هو الدين شر لذاته، وها هو الإلحاد خير لذاته:

«إن الإلحاد ليس بالشيء الذي يدعو للخجل. على العكس، إنه شيء يدعو للفخر بشموخ للمواجهة مع الأفق البعيد، لطالما كان الإلحاد مصحوباً باستقلالية صحية للعقل وإبداع عليه تفكير بناء»[2].

يالهذه العبارة العلمية «للمواجهة مع الأفق البعيد»!!. أليست هذه شاعرية تترفع على المادة وهي التي تشدد على وهمية ما سواها؟! أليست هذه

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٧.

غبطة شعورية خالصة لشخص يقول بعدم قيمة الشعور؟!، أليست هذه نشوة دينية في نهاية المآل؟!

حقاً لماذا نجد في كتابات جميع الملاحدة تلكم «المجازات» البلاغية المُتكررة؟! أليس هم دعاة الواقعية المادية والابتعاد عن «وهميات» ما عداها، لماذا لا يجدون أنفسهم إلا عبر هذه المجازات بالذات، كما سوف نذكر كمثال عالم الفيزياء التطبيقية ستيفن هوكنغ؟!

لكن كيف انقدحت فكرة توسعة نظرية الانتخاب الطبيعي من المجال البايولوجي إلى المجال الأبستمولوجي ونظرية المعرفة؟!

ريتشارد دوكنز نفسه يقول إنه بحث في القاموس عن كلمة «وهم» فوجد بالإضافة إلى تعريفها كإيمان خاطئ أو مُزيّف، مقولة فيليب جونسون الذي قاد حملة لمقاضاة الداروينية والتشديد على الإيمان لكونها سخّفت الكتاب المقدس لليهود والمسيحيين، والذي عرّف الداروينية بأنها «هي قصة تحرير الإنسان من الوهم القائل بأن مصيره مرتبط بقوة أعلى منه». وهو تعريف للداروينية متفرّع كاستنتاج منها عند مقايستها بنصوص الكتاب المُقدس، أما هي بذاتها فلا يوجد فيها أي إشارة نقضية إلى الإله أو إلى الدين، سواء في كتاب أصل الأنواع أو كتاب داروين عن الانفعالات أو كتابه عن الإنسان. نعم لأن للفكر الغربي المعاصر مركزيته وهي عبارة عن محورية الفكر الماركسي، الذي غاب كسياسة لكنه حاضر كثقافة وإطار ذهني مرجعي للعقل الغربي[1].

وبالتالي فهذه التوسعة لنظرية الانتخاب الطبيعي، ليست من إبداعات

(١) جدل التشكّل والاستلاب، بين التخطيط الإلهي العام والعالمية الإسلامية الثانية، ص١٩٢. دار الفارابي– لبنان، ٢٠١٤.

دوكنز ولم تكن جديدة، بل هي في الأصل قراءة لرجال الدين والموالين لها، فهم أول من تلقى نظرية داروين كقاعدة معرفية وليست اكتشافاً في الطبيعيات. وبالطبع فإن أعمق من قام بهذه التوسعة هي المدرسة الماركسية التي جعلت من الداروينية جزءاً لا يتجزأ من الهيكل الفلسفي للشيوعية. ولعل هذا الالتقاء بين دوكنز والماركسية هو أحد مظاهر التشدد واللغة الصلبة في كتابات دوكنز ومحاضراته. إلى حدّ استخدام عبارة تجريح مبتذلة مع الآخرين، مثل: جبن فكري، جبن أخلاقي، تقطر خباثة، الضوضاء المسعورة ..الخ[1]. ولعل واحداً من المظاهر المأسوف عليها لدى قطاع كبير من الملاحدة ونقاد الدين، هو ظاهرة العنف اللغوي من هتك وفضح، ومفردات أقرب إلى التخوين والحياكة العمدية للأوهام والمتاجرة بالناس وغير ذلك من سيل محموم من عبارات القذف والهجاء والسخرية. خصوصاً حينما يصل الأمر إلى الإسلام، الذي يعتبره دوكنز في جملة من المقابلات الصحفية المنقولة في موقع يوتيوب، بأنه «أكبر الشرور في العالم»، فالإسلام هو شرّ بذاته بالنسبة إلى الدكتور الذي لا يؤمن بوجود أصل لشيء ولا أمر ذاتي لشيء، وأن الغربيين (طيبون أكثر من اللازم) حيث يعود خطاب الاستشراق القديم مرة أخرى لننقسم إلى جواهر متقاطعة بين الطيبين بالفطرة والأشرار بالفطرة. هذا بالإضافة إلى تقويل نصوص الإسلام ما لم تقله وعدم قدرته على الإنصات إلى ما يقوله الآخر، فهو يزوّر بكل صفاقة كلمة (البحرين) اللذين يقول عنهما القرآن بأن بينهما برزخاً يحجب الماء العذب عن الماء المالح، بما يُعرف اليوم بـ«الهالوكلاين»، إلى كلمة كأسين من الماء مصوّراً القضية وكأنها بلاهة صبيانية حيث أن الطبيبة المسلمة التي تحدثت معه في الموضوع رفضت كأسين من الماء المالح والماء العذب!.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٩.

الإله الكمومي والدين مُرتدّاً

هناك كتابات كثيرة تناولت قراءة الإلحاد والملحدين من الناحية النفسية وإظهار الإلحاد على أنه مشكلة نفسية والملحدين على أنهم مجموعة مرضى عِصابيين، فدوكنز يحاول قلب الطاولة بطرح الإيمان مشكلة نفسية والدين عبارة عن جنون. إن المجني عليه هنا هو علم النفس. فعلم النفس مثله مثل بقية العلوم الإنسانية، لا يتحدث عن كليات مُجردة، بل عن حالات مُشخّصة، ولكل حالٍ سماتها وعلاجها. وقد تلتقي عوارض مرضية مشتركة بين مُلحدين ومؤمنين، فكل واحد يجد في الإلحاد أو الدين متنفسّاً نفسياً لتفخيم الذات بتجريح الجماعة عبر السخرية من معتقداتها المُشتركة، بينما الآخر لتفخيم الذات يلجأ إلى المبالغة في المعتقدات الدينية ليصبح بطلاً أو شهيداً انتحارياً، لكي تتم إذابة العيوب الحقيقية للذات في قضية أكبر منها.

كلا الطرفين يقوم بإلغاء الآخر وجعله مريضاً، هذا يجعل الدين علامة صحة وعافية والإلحاد علامة مرض وسقم، والثاني يقول العكس، وكل واحد منهما يتسلح بمصطلحات وتحليلات علم النفس واستحضار بعض أسماء من حقله. في حين أن ثبوت أمر واحد بين طرفين متناضدين معناه أنه ليس داخلاً في جوهرية أيٍّ منهما.فقد يكون الدين أو الإلحاد علامة مرض حينما يكون موضوعاً لحمل مثالب النفس المكبوتة أو الفاشلة، التي تجد في القناعة الموروثة من المحيط العائلي أو الوطني أو المذهبي، تبريراً للكسل، أو لذة النفس السادرة في الثقافة الشائعة في الجامعة أو المسجد، حيث لا تملك

الشخصية قوة تكوين قناعات ذاتية مُستقلة، أو غير ذلك من العلل والأسباب. وعليه، فليس من الضروري أن يكون المؤمن ضد النقاش العقلاني[١] كما يقول دوكنز، أو يكون الملحد مجرد غوغائي ومضطرب نفسياً. فقد تكون هناك أسباب موضوعية كقلة المصادر وعدم الاقتناع الحقيقي بالأدلة، أو شبهة يصعب حلّها، وما شابه. فقد يكون المؤمن صحيح النفسية سليم العقل وقد لا يكون كذلك، وقد يكون المُلحد صحيح النفسية سليم العقل وقد لا يكون كذلك، وصحة أو سقم أي واحد من الطرفين لا يعني لا صحة ولا خطأ معتقده، كما حاول أن يقول دوكنز[٢] حينما طرح أن وجود مبدعين ملاحدة يدل على صحة نظرية الإلحاد. فمثل هذا يمكن أن يطرحه المتدينون بعرض مئات من العباقرة الذين صنعوا الحضارة وأسسوا جميع العلوم وكلهم كانوا ذوي إيمان عميق. إن الدين والإلحاد كليهما بناء نظري له أدلته واحتجاجاته، وتقويمه لابد أن يكون من خلال تقويمه كفكرة وليس كأشخاص. وإن كانت ثمة مشكلة هنا نظراً إلى أن دوكنز يقرن باحتفاء، بين الملاحدة وبين المثليين الجنسيين![٣].

وقد جهدتُ أن أصرف النظر عن كل ما في كتابات الملاحدة ودوكنز بالخصوص، التي تؤيد نقديات الإسلاميين والدينيين، لكن من العبث المغالاة في نفيهم جميعاً فهم، كما سنطالع، لا يفتأون يؤكدون مثل هذه الأمور التي من المُفترض أنها في أفضل الأحوال مجرد مسائل فرعية ليس إلا، في حين أنها تمثل للقوم قضايا كبرى حتى لكأن مقولة الإلحاد صيغت بالخصوص كي تكون وسيلة لعرضها وجعل الجماهير يتقبلونها.

---

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٨ .

(٣) المرجع نفسه، ص٧.

إن أحد النقاد قوّم كتابات دوكنز تقويماً مثيراً أزعج دوكنز كثيراً:

«من المؤكد أن علمه لا يتطابق مع الدين. لكنه مشمع بنشوة عارمة عن الطبيعة والكون. وهذا تديّن بالنسبة إليّ»[1].

وفي الواقع، إن هذا القول هو الأكثر دقة والأشد اختصاراً لحقيقة كتابات دوكنز. وبدونه لا تتبقى أيّ قيمة لهذه المؤلفات والمحاضرات سوى ركام من جمع المعلومات عن الطبيعيات، ليس إلا.

ويوجد في النسخة العربية لكتاب وهم الإله تشويه في استخدام مفردة (مُتدين) و(مؤمن). فالأدق أنه ليس هناك «تشويش» في فكرة الله، بل تعدد وسعة في القراءة والفهم والاقتناع. فبما أن هذه القضية تخصّ وجدان وثقافة ويقين كل واحد منا كأفراد، من الطبيعي أن يتلون مفهوم الله أو الإله، بحسب مستوى ثقافة وذكاء كل واحد منا. وهذا التنوّع والتعددية هما في المُدرِك (بالكسر، أي فينا نحن) وليس في المُدرَك (بالفتح، أي في الموضوع الخارجي أو المفهوم بما هو). ومن هنا لا تصح سخرية دوكنز بناقده سالف الذِكر بالاستشهاد بمقولة «واينبرغ» بأن قول البعض: إن الله طاقة فمعنى ذلك أننا سنجده في قطعة الفحم. فكون الله «طاقة» وفي الفحم «طاقة» ليس سوى اشتراك لفظي، وهو من المغالطات البسيطة التي يتدرب عليها صغار التلامذة. إن الإله ليس قضية شخصنة على طريقة بعض القراءات اليهودية، لذا رفض آينشتاين الإغراق بإله شخصي مكتفياً بالنشوة التي تعترينا حين نتأمل دقائق الكون، فالمنفي في سخرية واينبرغ وآينشتاين هو التشخّص والجزئي، وآينشتاين ينتقد هنا إرثاً يهودياً جعل الله حالاً بالعالم، وهي الفكرة التي سوف

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٤.

تشتهر على يد سبينوزا. أما كون الإيمان هو الإحساس بالنشوة والخضوع لجمال وجلال المخلوقات ونظامها الدقيق والذي يتعالى على الظاهر المحسوس، فهو جزء أساسي من التديّن باعتباره معنوياً. فإذا ما كان طريق النشوة هو إجلال عناصر الطبيعة والانبهار بها، كما تفعل نصوص دوكنز، فهذا يعني في واقع الحال أننا لم نغادر دائرة الدين بعد.

يُشدد دوكنز على أن كل حالات الدهشة والقشعريرة والإعجاب التي تُصيبنا بالحيرة لدقة الكون وروعته، لا تشعره بأي شيء يجعله يؤمن بوجود شيء آخر وراء هذا الكون. فهو عالم طبيعيات، والأمر الطبيعي بالنسبة إليه مضاد لمارواء الطبيعة، وكل مشاعر الجمال تجاه الكون منبثقة منه وبالتالي يجب البقاء ضمن هذا الإطار[1].

لكن أليس هذا عبارة عن توقيف قسري يحجب الدلالة عن مدلولها، وبالتالي يلتقي خطاب الإلحاد التطوري والعلمي مع خطاب العدمية والتفكيك الفلسفي؟!

وإذا كانت كل دِلالة هي غير المدلول، فكيف يغدو المدلول هو الدلالة، وإلا فهو مجرد وهم باطل؟!

وفي النهاية هذه المشاعر والأحاسيس ليست هي الكون ولا الماديات ولا جزءاً منها، فعلى أي أساس تم تقليمها وجعلها كأمر عادي ضمن مجريات مشاهدة هذه العناصر والتعرّف إلى دقائقها؟!

لا يمكن هنا الاكتفاء بالانبهار الذي يجعله ملايين البشر دليلاً من أدلة وجود الخالق المفارق التي هي عبارة عن انعكاسات نفسية لشبكة الأعصاب والخلايا، حيث «إن عواطف وأفكار الإنسان تظهر من خلال عمليات متشابكة

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٦.

شديدة التعقيد في المخ. والمُلحِد في هذه الحالة بنظر الفليسوف الطبيعي هو شخص لا يؤمن بأن هناك شيئاً ما وراء العالم الطبيعي الفيزيائي، وليس هناك من خالق متفكر ماوراء الطبيعة، لكن هناك الآن بعض الظواهر الطبيعية التي لم نفهمها بعد. وسنتمكن في المستقبل من تقديم تفسيرات لهذه الظواهر غير المفهومة بشكل كامل باستخدام القوانين الطبيعية. إن معرفتنا لأسباب تكوّن قوس قزح لا تقلل من روعته وجماله، هذا هو العلم»[1].

ففضلاً عن أن هذا ليس بجواب بل هو سؤال آخر: ولماذا تنفعل خلايا المخ والأعصاب لهذه الأمور وتولّد خضوعاً عاطفياً هكذا؟!. ولو حصلنا على جواب فسوف يبقى السؤال نفسه.

المُخ البشري المختلف عن مخ القرد بشكل لايزال يمثل تحدياً لنظرية التطور، حيث يتميز المخ البشري بذكاء يتجاوز حاجة البقاء البشري، بملايين المرات[2]. وحتى لو عرفنا كامل سلسلة التطور فهذا لايعني نفي الإله، فجميع المؤمنين منذ أقدم العصور، يعرفون أنهم مجرد غذاء صار نطفة وهذه

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٦.

(٢) وإذا كان لدوكنز أن يقر بأن دليل التجربة الروحية الشخصية،لا يقنع الآخرين لكن لا يستطيع الآخرون في المقابل إثبات بطلانه لكونه تجربة حضورية شخصية، فإن الأمر سيكون أعقد بالنسبة إلى العرفان والتصوف الإسلاميين. فإذا كانت بغية القديسين والقساوسة المسيحيين الروحية هي في العاطفة الدينية بأن تكون لهم أحاسيس نحو الله، فإن المتصوف الإسلامي يتجاوز ذلك بمنازل ومسافات شاسعة لكونه يطرح التجربة الشخصية كدليل معرفي في قراءة الحقيقة، وإذا كانت آليات دوكنز عاجزة عن التجربة الروحية في المسيحية فهي مع التصوف والعرفان أعجز بما لا يُقاس.مرةً أخرى تظهر محلية حجاجيات دوكنز على أنها لايمكن أن تكون نافية لفكرة الإله بالمطلق، بل إنها تصور مُعين للإله خاص بمجتمعات ودين مُحدد ليس إلا.

النطفة تطورت وصارت جنيناً، وهكذا بقيت الحيوانات، ولم يجد أحد أي رابط دلالي بين هذه الحقيقة البدائية وكونها تدل على نفي الإله بالضرورة، ويخصص دوكنز فصلاً طويلا عن ذلك في كتابه «أدلة التطور» وكأنه كشف لقضية غامضة!.

وإذا كان الأمر مجرد انعكاس ميكانيكي هكذا، فهو ينسحب على الإلحاد نفسه، بكونه أمراً وهمياً لا حقيقة له سوى انفعال عمليات متشابكة معقدة في مخ مجموعة من الناس يعيشون في محيط اجتماعي وتربوي ووظيفي معين. وبالتالي تبدل كل فكرة وكل حقيقة، ولا يمكن الأخذ بأي محاجة ولا يمكننا في الوقت نفسه، إدانة أيّ جريمة أو فكرة عنصرية أو لا أخلاقية، وليس من الصحيح لدوكنز وأشباهه إدانة الرافضين للمثلية الجنسية أو تعددية الأديان أو الاعتداء على الأطفال والقاصرين أو أي شيء آخر، ففي النهاية هذه عواطف وقناعات تظهر خلال الشبكة الحسية لخلايا المخ الخاصة بهم!. لماذا إذن، قدّم دوكنز في مطلع كتابه شكراً لأصدقائه، هل هذا نفاق أم مجرد وفاق لمبدأ فصيلة القِردة «أحكّ ظهرك لأنك تحكّ ظهري»؟!.

إننا هنا أمام واحدة من قضايا كثيرة جداً تتحول إلى قضايا مسدودة لا حلّ لها بسبب شطبها لفكرة الإله، بحيث إن فكرة الإله هي البنية التحتية لعشرات القضايا المعرفية والقيمية، التي بدونها يتحول البحث إلى سخرية مريرة.

الأمر الأشد مفارقة أن دوكنز يقر في الحلقة الأولى من برنامج قدّمه بعنوان (الجنس والموت ومعنى الحياة)[1] بأن القيم الخُلقية والجمالية

(١) وهي حلقة تناقض كل التحليلات التي قدمها دوكنز لمسألة دينية آينشتاين وكون دوكنز متديناً بذلك المعنى من كلمة دين المبني على مشاعر الانبهار بجماليات الكون، انظر: وهم الإله، ص٢١.

تطورت بحسب حاجتنا الواقعية، وهذا بالطبع قاصر عن تفسير لماذا إذن، لدى الإنسان كل هذا العمق العقلي والعاطفي والجمالي الذي يتجاوز واقع حاجاته بملايين المرات، فضلاً عن كونه لا يفسر كيف استطاع الأسلاف صناعة أعمال أدبية وعمرانية الكثير منها يتجاوز ما لدى الأحفاد؟![1]. وبالتالي كان المجتمع البشري يتقبل ظاهرة العبودية مثلاً. في حين أننا نعلم أن الجماليات والخلقيات تتجاوز مسألة المنفعة والمصلحة، فأي مصلحة تطورت كي تنتج تعلّق بعضنا بلون مُعين دون آخر؟!، إن كل جواب هنا هو جواب تأويلي أكثر من كونه علمياً مختبرياً، هذا فضلاً عن كون الاهتمام بالجماليات كصنع القلائد والتزيين بالأصباغ لدى القبائل البدائية لا ينسجم مع التحقيب الزمني بحسب التوقيت الداروينى.

وإذا صحت هذه المقولة فيجب على دوكنز أن لا يستبشع الأحكام الفقهية للأديان في دساتير القصاص من المذنبين. فمثل هذه القسوة متناسبة

(١) بالطبع فضلًا عن أن نظرية التطور قامت بملء الحلقات المتطورة بين الأجيال عبر فرضيات ذهنية وليس عبر عينات حقيقية، فهي مازالت إلى اليوم تبحث عن عينات لتضعها في حقول تم الاقتناع بها بشكل مُسبق، تماماً كما فعل الفلاسفة أو الدينيون حينما آمنوا بهيكل نظري كُلي ثم يحاولون البحث عن مصاديق خارجية تُبرهن مُدعاهم المُسبق. لذا مازالت هناك حقول فارغة عما يُسمى بالحلقات المفقودة، كان قد تركها داروين برسم تخيلي فقط، وهي بالطبع كثيرة لو حسبنا كمية الأنواع الحية التي نعرفها، فضلاً عن مشكلة الأنواع المنقرضة التي لا نملك عنها أي مادة تصلح أن تجعلنا نملك عينات ملموسة للاختبار والمقابلة (وإن كانت النظرية أثبتت فعلاً في حلقات كثيرة حدسيات وتخيلات داروين) وبالتالي فهناك مساحة كبيرة للاستبطان والاستنباط وتحفيز الحدسيات. بخلاف ما نخاله من الزعم من إنكار الكليات والإيمان بما هو واقع مختبري ملموس وما هو محصور في مواد إحصائية استقرائية تجريبية فقط.

ومنطقية مع المرحلة التاريخية للنوع البشري، وكل استهجان لها والسخرية منها بأنها دليل على لا منطقية الدين، عبارة عن خروج على نظرية التطور التي يعتبرها دوكنز «حقيقة» التطور وليست نظرية من النظريات فقط. وبالتالي سنحصل على دعم كبير من نظرية التطور لمصلحة أغلب الأحكام الفقهية للأديان باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من التطور النوعي لحياة الكائن الآدمي، ومن غير العلمي وصف دوكنز عندئذ لنصوص الكتب الدينية بشكل مطلق بأنها: همجية. إن دوكنز لا يفشل فقط في منح صورة أمل للاربوبية والإلحاد حيث الوصول الحتمي إلى موقف عدمي وشهواني نرجسي من حقه الإشباع بأكبر قدر ممكن مهما كانت نتائجه وخيمة على الآخرين،بل إن دوكنز يصل هنا إلى طريق مسدود: فهو إن بقي ملتزماً بنظرية التطور واستخدامها كأداة سجالية في العقليات، فإن عليه أن يبرّر أكثر الأحكام وحشية في فقه الأديان، وإن لم يلتزم بها لم تعد لديه أية حجة فنظرية التطور بالنسبة إلى دوكنز هي كل شيء.

*

ودوكنز لجهله بأبحاث اللاهوت والدين، لا يصب نقدياته إلا على فكرة إله سد الفراغات، حيث يلجأ الإنسان إلى تفسير أي حدث أو ظاهرة لا يفهمها بأنها معلولة لقوى خارجية، فهو حينما لا يعرف قوس قزح، مثلاً، يقوم بتخيّل الملائكة أو الإله. أو مخلوقات غير مرئية للأمطار والزلازل والخصب، ثم تتضخم عنده لتتحول إلى آلهة. وهذا صحيح جزئياً في تكوين المدونات الحديثية في جملة من الأديان. لكن هذا ليس بصحيح كلياً، ففكرة الإله أوسع من ذلك بكثير ويكفي هنا إله الفلاسفة وإله المتصوفة[1]، الذي

(١) والذي يتمعن في خطاب دوكنز سيجده مجرد تطوير للنفس الاستشراقي القديم نفسه القائم على التعميم وجوهرة الآخرين باختلاف أبدي، لذا يعرّف دوكنز الإسلام بخفة صحفية بأنه ذلك الدين الذي يعتمد في نشر دعوته على القوة

لا علاقة له بمسألة بناء فكرة الإله على وفق كمية المجهولات العلمية التي لا نعرفها. بل إن علم الكلام الإسلامي وجملة من علم الكلام المسيحي، استخدم المعلوم من الطبيعيات كأدلة لإثبات الإله وأسمائه بأدلة النظم وأدلة الحدوث، أو الآيات الآفاقية. لكن صاحب وهم الإله يجهد في إيهام قرائه في أن تكون للإيمان صورة واحدة هي صورة إله سد الفراغات والاتكاء على الجهل، بدون التوقف كيف يدعو كتاب ديني إلى النظر في الأرض والتفكّر في كيفية بدء الخلق؟ وكيف تطورت أمم كاملة وصارت لديها ريادة في الفلك والبصريات والطب تفاعلاً مع وصايا لاهوت ميتافيزيقي غيبي؟!.

دوكنز وبقية الملاحدة التطورين يصوّرون الإيمان كأنه محض إيمان العجائز والخيالات الشعبية، مع أنهم يقولون إن أطروحة وهم الإله، أطروحة أكاديمية تتعالى على سفاسف الشعبيات، ومن هنا يتم التكرار المُتعب بكون الإيمان يوقف البحث العلمي بينما ترك الإيمان والتمسك بالتطور هو الذي يجعل البحوث تستمر، ولا ندري كيف استمر البحث العلمي قبل ظهور نظرية التطور، وكيف بقي البحث العلمي متصاعداً قبل شيوع الإلحاد وتقارنه مرات عديدة مع الإيمان؟!:

«عمل كهذا [البحث العلمي] لن يتم لو كان العلماء مُكتفين وسعداء بالتبرير الذي تدعمه نظرية «التصميم الذكي» وتلك عبارة أتخيلها مُرسلة من

العسكرية (وهم الإله، ص٣٩). وبالطبع سنتورط في سجالات مملة فيما لو طرحنا كيف أن العلمانية والعلمية لم تنتشرا وتنشرا إلا عبر القنابل والطائرات والبوارج المُدمّرة. لا نريد الدخول في كل ذلك لكون منطق دوكنز هو عبارة عن منطق أصولي مقلوب، حيث عرض أسوأ ما في الدين في مقابل أفضل ما لدى العلم، تماماً كما يفعل الكهنة من عرض أسوأ ما في العلم وتقديم أفضل ما في الدين، كلاهما دائرة انغلاق متماثلة.

شخصية خيالية إلى «منظر في التصميم الذكي»: في حالة عدم فهمك لكيفية عمل شيء ما، لا تهتم، استسلم وقل بأن الله فعلها. لا تعرف ماهية عمل النبضات العصبية؟ حسناً! لا تفهم كيفية عمل الذاكرة في المخ؟ ممتاز! هل التمثيل الضوئي عملية مثيرة للحيرة بتعقيدها؟ رائع! أرجوك لا تتعب نفسك بالعمل على أي من هذه الأسئلة، بل تقبّل الأمر الواقع فقط، وناد الله. عزيزي العالم لا تعمل على كشف أي من هذه الأسرار، بل هاتها لنا لنستخدمها. لا تُبذر الجهل الثمين بالبحث العلمي بهذه الطريقة. نحن بحاجة إلى تلك الفراغات كملجأ أخير لله.. وكما قال عالم الجينات الأميركي جيري كوين في مراجعته لكتاب بيهي: لو أراد تاريخ العِلم أن يقول لنا شيئاً واحداً، فسيقول بأننا لم نكن لنكتشف أي شيء لو وضعنا لافتة «الله» على المواضيع التي نجهلها. أو كما كتب أحدهم..: لماذا يعتبر الله تفسيراً لشيء ما؟ هو ليس تفسيراً، بل الأحرى هو عجزٌ في التفسير ولامبالاة. هو عبارة عن «لا أعرف» متنكرة بالروحانيات والطقوس»[1].

ولا ندري، لو كان ثمة تضاد بين المؤمنين والعلم، كيف يوجد ملايين من المؤمنين أطباء وفيزيائيين وكيميائيين وصيدلانيين وغيرهم؟!، ألسنا نحن هنا أمام دعاية رخيصة، وممارسة إسقاطية؟!.

لكن هذه السهولة في التشويه الإعلامي، لا تنتهي إلا بحرج حقيقي للُملحدين:

لماذا تستمر نخبة من الناس في تحمل أعباء البحث العلمي وتحمّل مشاقه التي هي في أغلب الأحيان لا يمكن مقارنتها بالمردود المادي، بل

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٣٤.

بعضها يفوق حتى الجنون بما يطلبه من مخاطر وعزلة وتحمّل مناخ بمنتهى القسوة وفي مدة زمنية مفتوحة، هذا الإنسان الذي هو بحسب الفرض مجرد كائن مادي ولا شيء آخر؟! أليس البحث العلمي الدؤوب هو نفسه علامة فارقة في الإنسان ودلالة على خاصية تقع خارج الطبيعة ومحتوياتها؟!

في هذه النقطة يقدّم دوكنز تنازلاً: الإله الذي يصفه بأنه وهم، هو الإله الغيبي، الإله المناقض للعلم، الإله الذي يتناقص احترامه كلما تقدمنا أكثر في اكتشاف الموجودات.

أما الإله الآينشتايني، فهو إله حقيقي ولا يكون وهماً (لأنه نظام الوجود). لتصح كلمة آينشتاين بأن علماً بدون دين هو علم أعرج، ودين بدون علم هو دين أعمى[1].

على الرغم من أن دوكنز نفسه هو الذي يُصرّح:

«أنا لا أُهاجم نوعاً معيناً من الآلهة، أنا أهاجم الله، كل الآلهة. أي نوع من الآلهة، كل ما هو خارق وماورائي، أينما وحيثما وجد أو سيوجد»[2].

إن دوكنز هنا مضطرب في تعلقه بإرث يهودي حول الإله الكموني، إله وحدة الوجود والموجود، حيث يعترف آينشتاين بمرجعية سبينوزا له واعتماده عليه، وهو للمناسبة ليس إلهاً بعيداً عن تراث الفلسفة الغربية الكنَسية، حيث الإله يحلّ بمخلوقه ويسري دمه المقدس في الكون الذي يشربه ليغدو العالَم عبارة عن يسوع المسيح الكبير.لقد كنا نحسب أننا بعيدون جداً عن تنميقات الرهبان والقساوسة، وإذا بنا فجأة نجد أنفسنا جلوساً في كنيسة وتطوف فوق رؤوسنا المباخر والصلبان!.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٨.

وعلينا ألا ننسى أن المبدأ الذي يهجوه دوكنز «اختلاف الاختصاصات في العلوم» هو جزء من مركزية العقل الغربي المادي، فالانسان لايفترق عن بقية الأشياء، وكل معرفة لا تختلف عن غيرها، وبما أن بعض هذا الغير هو مادي، إذن، ستتم مطابقة كل شيء مع المادية ويتم طرد كل ما ليس بمادي أو عائد إلى المادة لأنه «وهم» وليس بحقيقة ولا بعلمي.

أوَليس دوكنز يعرض نفسه كمصلوب معاصر، ويدعو في مفتتح كتابه وهم الإله أن يتحول الملاحدة إلى تجمع يعلن نفسه كتلة عقيدية واحدة، تتحمل ما يمكن أن تتعرض له من صلب ومقاومة الخجل والشعور بالعار؟!

لكن أليس كل ما قاله دوكنز عن آينشتاين ونفي أي إيمان حقيقي عن جملة من المشاهير المعروفين بتدينهم وذهابهم إلى الكنيسة بالتزام، ثم يدعي أنه دخل إلى صدورهم وعرف أنهم رغم ذلك ليسوا بمتدينين، ماداموا نخبة علمية مرموقة، أليس كل ذلك عبارة عن «تأويل»، والممارسة التأويلية لا علاقة لعالم الطبيعيات بها، فهي من فنون علوم ماوراء الطبيعة، وما يتعلق بها من فنون ونقد أدبي؟!

هل سنُتهم بالأصولية أو بالتشدد الديني، لو أننا أعدنا هنا مقولة ذلك القس الذي قال مستهجناً فقط: «البعض يعتقدون بأنهم يحق لهم إبداء الرأي في كل شيء، لأنهم فقط قد وصلوا إلى درجة عليا في أحد الفروع العلمية»[1].

إن هذا يشبه ما يفعله بعض أصحاب الأقلام العربية الذين يقضون كل حياتهم في مطالعة الشِّعر مثلاً، ثم يتنطعون في تقديم سخريات غريبة حول زوجات النبي، لا لشيء إلا لأنهم قرأوها في موقع الكتروني!.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٨.

مـرة أخـرى نقـول: إنـه لـو كانـت فكـرة الإلـه قائمـة علـى نـوع واحـد مـن الأدلـة المعتمـدة علـى الطبيعيـات، لصـح نفيهـا بواسـطة عالـم طبيعـي يُقـدم يقينيـات لا فرضيـات[1]، ويطـرح نظريـة منهجيـة بإمكانيـة متابعـة الجزئيـات أن تنفـي الفكـرة

(١) من يتابع كتب دوكنز وبرامجه، سيجد أن هناك عدة معلومات عن الطبيعة ذكرها دوكنز مختلفة في كل مرة، من قبيل تحديد عُمر كوكب الأرض، بالإضافة إلى استخدامه تعبير التردد (قد) مثل «قد» يكون الأصل الأخلاقي مرده إلى ما نشاهده لدى قرد الشمبانزي من حكّ بعضه لبعض، وعنايته بالأطفال والبحث عن الطعام على شكل مجاميع، فولّد هذا بمرور الزمن والتكرار ضميراً جمعياً وذاكرة جماعية لحب الإيثار، ذلك باعتبار أن القرد هو جدّنا الأول. ولا نعلم لماذا لم تظهر بقية الفضائل الأخلاقية لدى القرود، ولماذا بقي القرد قرداً إلى يومنا هذا؟! وهو السؤال الذي داخ به أنصار الداروينية ولا يملكون إلى اليوم سوى تأويلات شخصية فقط (ومن أخطاء اللاهوتيين المتكررة قولهم إن داروين قال إن الإنسان قرد في حين أنه قال إن أصل تكوينه من قرد فهو بهذا ليس حيواناً إلا حينما ستظهر تيارات الداروينية الحديثة) في حين أن وجود صفة خُلقية لدى الحيوان لا يعني أنها خرافة أو مجرد تكرار لسلالة بايولوجية، ففي النهاية للحيوانات نصيبها من الذاكرة والعاطفة والتفكير والحيلة، وهذا معروف من تجارب الفئران وأنواع أخرى، فلماذا لا يكون لها نصيب من الفضائل بمقدار يناسب قدراتها الذهنية؟! خصوصاً وأن من المؤمنين من يقول بأن كل الموجودات هي موجودات حيّة عاقلة بدرجات متفاوتة، هذا قبل وصول البشرية إلى المناهج العلمية الحديثة، والذي أعانهم على هذه الأفكار هو النصوص الدينية وليس غيرها!!. وفي النهاية توجد مغالطة هنا: فبحسب الالتزام بأن العلمية هي فقط ما تنتجه التجربة على الموضوعات، فإن النتيجة هنا مرتبطة بالقرود فقط، كما التمس دوكنز في نهاية الجزء الثاني من برنامج أصول الشر، شهادة بعض المختصين المعتنين بالقِردة، ولا توجد هنا أية تجربة استقرائية تابعت أجدادنا وأسلافنا الذين ماتوا منذ قرون، وبنت على وفق ذلك مثل هذه النتيجة، فالنتيجة هنا نتيجة قياسية تمثيلية مبنية على مصادرة فطن لها دوكنز لذا استخدم في الجزء الثاني من برنامج أصل الشر مفردة: «قد». وفي كتابه «سحر الواقع: ص٤٧» استخدم مفردة «ربما».

المطلقة، وأن الطبيعيات تستخرج لنا أحكاماً قيمية وأن عدم العثور عليها يساوي الدليل على النفي.

وفي نهاية الجزء الأول من برنامج البحث عن أصل الشرور[1]، يقرّ دوكنز بأن العلوم الطبيعية لا تستطيع الوصول إلى نتيجة إنكار الله ونفيه، لكن عدم قدرتها على النفي لا يعني إثباته. مُستعيناً بالمثال الذي ضربه بيرتراند راسل حول تخيّل إبريق شاي يتم قذفه داخل المجرة، فلصغره لا يمكن لأي تلسكوب رصده ورؤيته، حيث أن أدوات البحث التجريبي غير قادرة على إثباته ولا نفيه، لكن هذا لا يعني أنه موجود فعلاً. وبالتالي ففكرة الله كفكرة الإيمان بالغيلان أو بابا نوويل، والأحصنة ذات القرون والأجنحة، أو أساطير الشعوب حول عبادة آمون وأبوللو و«رع» و«أودن» والعجل الذهبي، وعندها لا يكون الله سوى إضافة إله آخر إلى مجموعة التحف هذه!.

إن دوكنز هنا ينسى، أو يخادعنا، لكونه سبق أن قال لنا إن فكرة «وهم الإله» أرفع من أن تكون محاجة ضد التراث الشعبي للمُعتقدات، وإنه بالتالي نقد لفكرة الإله كفكرة عقلية استدلالية وعلمية، وليست تلك الفكرة البسيطة المعتمدة على المعجزات باعتبارها خرقاً للقانون العلمي، وبالتالي لو كان سبب إنكار وجود الإله هو أن إثباته قائم على المعجزة والمعجزة ضد العلم[2]، فإن إثبات أن المعجزة ليست خرقاً لقانون الطبيعة، أو أن إثبات

(١) يذكره دوكنز في «وهم الإله» ص٥٣، وما بعدها، ويعيد تكراره في كتاب (العلم والحقيقة)، علماً أن «إبريق الشاي» هذا ينطبق على فكرة الأكوان المتعددة نفسها التي احتفى بها ستيفن هوكنغ الذي يسلّم له دوكنز بألمعيته وصوابه!.

(٢) سحر الواقع، مرجع سابق،ص٢٦٠. ولنلاحظ أن دوكنز هنا يعتمد على ديفيد هيوم سارق كلمات الغزالي، وهذا يعني أن الفلسفة لم تمت وأن العلم وحده لايمكن له أن يتحول إلى خطاب بدون معونات فلسفية، في حين أن هؤلاء يغالون في تقديم أن العلم أيديولوجيا شاملة تقتضي هجر الفلسفة، لكن يبدو أن القوم يكررون إغفال

وجـوده غيـر متعلـق بالمعجـزات، فـإن النتيجـة يجـب أن تكـون بطـلان هـذا الإلحـاد أو أقلـه التراجـع عـن هـذه النقطـة فـي المحاجـة. فالموقـف العلمـي يتطلـب منـا أن لا نرفـض الغمـوض الـذي لـم نفهمـه مـن إشـارات الطبيعـة المُحيلـة علـى قوانينهـا ومصـدر ديناميتهـا، وليـس نفيـه بالقـول: «هـذا شـيء لـم نتوصـل إلـى فهمـه حتـى الآن، لكننـا نعمـل عليـه»[1]. أمـا النفـي فهـو موقـف غيـر علمـي. فـكل اسـتحالة هنـا ليسـت باسـتحالة منطقيـة ولا عقليـة ولا حتـى واقعيـة، بـل مجـرد اسـتحالة نسـبية نظـراً إلـى مقـدار معرفتنـا وتجربتنـا المحـدودة.

في حين أننا نجد أنفسنا نعود في كل مرة إلى الفكرة الشعبية نفسها حول الأساطير والمعجزة الخارقة لناموس الطبيعة، وعن الإله الشبيه ببابا نوويل قرين الساحرات الطيبات!. وإن كان هذا كله يتم تكراره عبر تقديم معتقدات شعبية بديلة بتخيل أن النظرية التطورية شاملة حتى للحضارات الفضائية، وتخيل أن بداية الحياة كانت مجلوبة من هناك!.

وفي واقع الحال، فضلاً عن كون هذه مصادرة تجعل الله قسماً من الخرافات المصنوعة ثم الاستدلال على كونه كذلك، فهذا قياس مع الفرق.

ففضـلاً عـن اعتـراف دوكنـز بعـدم جـدوى البحـوث الطبيعيـة كأدوات لنفـي الإلـه، فـإن فكـرة الإلـه ليسـت دائمـاً مبنيـة علـى يقيـن قلبـي مجانـب للمعرفـة كمـا تفعـل أغلـب التيـارات المسـيحية، أو مجـرد الإرث القومـي كمـا هـي حـال البوذيـة والكنفوشوسـية والهندوسـية، وبعـض التيـارات الإسـلامية السـلفية، التـي تـرى أن

الحجج التي تطاول مشتركات الفلسفة والأدب واللاهوت ليقصروها على الدين وحده بتحيز واضح، وهي مفارقة تكون مع دوكنز أشد لكونه يكثر من استعمال اللغة الأدبية واستحضار الشعر والروايات والأسلوب الحواري المسرحي والإكثار من المجازات اللغوية.

(١) سحر الواقع، مرجع سابق،ص٢٧٣.

السؤال ممنوع والإيمان واجب، لكن هناك فكرة عن الإله مبنية على أدلة عقلية وعلى مراجعة لنظريات المعرفة وتحديد القبليات التي لا يصح أي تفكير بدونها وعلى أساسها تم إثبات الله، هذا فضلاً عن أدلة أخرى تتعلق بالتواتر التاريخي لأشخاص ذوي تجربة غير عادية، وغير ذلك من الأدلة، وكلها مبنية على إثبات فكرة الإله من خلال المعلوم وليس سد فراغات المجهول، ولا على مجرد افتراض ذهني أو اصطناع صور مُتخيّلة. خصوصاً وأن الأديان لم تطرح نفسها بأنها تقدّم كتباً لمعرفة تفاصيل الكون، بل العودة إليه لإعمال طاقة الإنسان للتلذذ بالكشف والمعرفة والاستفادة. فلا يُستشكل هنا: أن إله الأديان هو إله صغير قياساً على ما تكتشفه العلوم.

بالطبع، نحن لا ننكر ما للدين من خطورة حينما يتم تركه كاعتقادات شعبية كما يفعل جملة مشايخ المنابر المسلمين، أو العدد الكبير من رجال الدعوة المسيحية الذين نصبوا ٥١٢ قدّيساً للشفاء من الأمراض، بما يشبه الأدعية والأحراز وضرائح الأولياء لدى المسلمين، أو كما جرى في أميركا كما يتحدث دوكنز عن قيام حراس اللاهوت الشعبي هؤلاء بتنظيم حملة تدعو مرضى السكري إلى ترك حقن الأنسولين، ومرضى السرطان إلى رفض الجرع الكيميائية والتفرغ للصلاة، فمثل هذا التهور في ترك الأسباب الطبيعية هو عبارة عن «إساءة أدب مع الله» كما نقل ملا صدرا كلمة ابن عربي وشغف بها، فهذه العلل وقانون الأسباب هما ما وضعهما الله واختار صنعهما، ومحاولة الاستغناء عنهما بطلب الشفاء عبر وسائل أخرى هي انتهاء للصنع الإلهي . وبالتالي يوجد لدينا طرح ديني يسخر بمثل هذه التصورات قبل سخرية دوكنز بها، بل بصورة أشد.

لكن بدل أن يقرأ دوكنز ويتأمل الموضوع الذي يسخر منه وينتقده بطريقة إسقاطية، يقوم بالخلط بين العلمانية السياسية التي من شأنها الحكم

والإدارة في الدولة، وبين العلمانية العلمية باعتبارها بحوثاً موضوعية لا علاقة لها بعلاقات الناس وطريقة تعامل بعضهم مع بعض، وإنما تقرير لما عليه الوجود. ويسحب دوكنز حكم إحدى العلمانيتين على الأخرى، خالطاً البحث العلمي بالسياسي، ليخرج بنتيجته المحبذة والمُكررة: جعل العلم حاملاً لخطاب أيديولوجي دعوي، لتنتهي المرافعات السياسية إلى نتيجة تخص القضايا المعرفية التي تقول: إن فكرة الله بأي صيغة من الصيغ هي فكرة غير ضرورية[1]. في حين أنها قد لا تكون ضرورية في إدارة الدولة فعلًا بل يمكن أن تكون مُضرِّة في بعض الصور والحالات، لكن هذا لا علاقة له بالضرورة المعرفية والبحثية.

إذن، إن كتاب «وهم الإله» ليس عبارة عن إلحادية مطلقة، أو نفياً لكل إله. بل هو نفي لتصوّر محدد للإيمان. ذلك التصور الذي يطرح أن الإله كيان منفصل عن العالم يتدخل في قوانينه بشكل مزاجي. إنه إله مخرّب للقوانين الطبيعية، وعليه فمن المنطقي جداً أن لا يفهمه عالم متخصص بالطبيعيات ويجد فيه تخريباً لحصيلة عمره من التعب والجهد، وسخرية بمصدر مكانته الاجتماعية والمالية. فإله مثل هذا تهديد شخصي لدوكنز وكل موظف أكاديمي مثله. فهؤلاء مثل الكهنة تماماً، كل طرف منزلته الاجتماعية وموارده المالية مرتبطة بتعزيز فكرة شمولية مطلقة ما. لكلا الطرفين مؤسسة تختلط فيها جباية المال بصناعة المفاهيم وبرامج الكلام. بدون أن يقرّ أي طرف منهما بفضل الآخر عليه، فلولا العلم لم يتطور الدين ولم يعثر وعاظه على أمثلة وشواهد ووسائل وأدوات جديدة يخترقون بها قلوب المنصتين إليهم.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ٤٧.

ولولا أن الدين هو الذي حفظ لنا الإنسان ككائن بالغ التوحش والقسوة[1]، وساذج التفكير، لما انبثقت جدليات التأمل والتشكيك ومن ثم انفتحت أبواب جديدة للإنسان، فلولا العلم لما بقي الدين، ولولا الدين لما بقي العلم معوّقاً ومحصوراً في كيميائيات السحرة وطلسميات تخيلات الكواكب كمخلوقات حيّة.إن هذه الجدلية هي التي أوصلت البشر إلى التفكير بطرائق مختلفة، وحتى يومنا هذا يخرج لنا التصادم مع الدين والسجال معه أعمالاً إبداعية جديدة ومنها هنا كتب دوكنز نفسها، التي لولا الدين لم تكن لتظهر البتة.

*

إن فكرة الإله كفكرة خارجة عن أي فرضية منطقية أو علمية، هي فكرة أقرب للسحرية والعجائبية، وهي لكونها هكذا، لا تستحق في الحقيقة كل هذا الجهد من قبل دوكنز، اللهم إلا من باب اتخاذ مثل هذه النقضيات وسيلة للارتزاق لا أكثر. وبذلك يتم تحديد الإيمان والإلحاد هنا كمقولات إضافية: فالمؤمن هنا ليس كل مؤمن، بل هو ذلك الفكر الساذج المشبع بالعجائبيات. والملحد ليس هو المُنكِر، بل هو ذلك الذي يقول بعدم معقولية هذا الإله المُشخّص الذي يتلاعب بقوانين الوجود بحسب تقلبات مزاجه.

مع ذلك سينسى دوكنز كل ذلك ويطرح تعميماً في نفي الإيمان وتقديم الإلحاد على أنه نفي لكل إله. وهذا يعني: أن الدعوة أوسع من الاستدلالات، والاستدلالات أخص من الدعوة التي أُفتتح بها كتاب وهم الإله، والتي كانت تقول لنا أن نتخيل كيف يكون العالم بدون دين، أي كل الأديان، هذا مع العلم

(١) وهو أمر يتنساهُ دوكنز وغالبية المثقفين لذا حينما ينتقدون الأحكام الفقهية للأديان ويقرأون قسوتها فأنهم يسلخونها عن إطارها التاريخي والاجتماعي الذي لو خاطبناه بلغة الرّقة والرومانسية لانقرضت البشرية منذ زمن سحيق.

أن نفي الدين لا يعني نفي الإله، ولا إثبات الإله معناه القول بثبوت الدين، ولا أن فكرة الإله مرتهنة بالأديان، فالإيمان بالإله سابق للأديان الثلاثة، وإن كان علم الكلام الإسلامي يُفرع النبوة على إثبات بعض الصفات للإله ومدى وجود وجوبات عقلية (وليست نصوصاً دينية) تعني ضرورة إرسال بعض الرسالة لهداية البشر في بداية مشوارهم الطويل في الحضارة. مع ذلك فقد كانت جملة من الفلاسفة يؤمنون بواجب الوجود بدون الاعتراف بأي نبي. فالإله أوسع من الدين، والدين لا يعني المطابقة مع القول بواجب الوجود، فهناك طقوس وتعبديات لأديان مُخترعة، أو لمحافل أفكار خاصة لبعض المجاميع:

«المؤمن هو الذي يُفكر بأن هُناك خالقاً ذكياً يشرف بالإضافة إلى خلقِه الكون وما فيه على كل ما يحدث ويتدخل في أحداث ما خلقه هو بالأساس. إن الإله في العديد من الأنظمة الألوهية، يتدخل بشكل حميم في أمور البشر. يستجيب للصلوات ويغفر ويعاقب الأخطاء. يتدخل في العالم بأعاجيب، يقضي بسوء الأفعال وحسنها ويعلم متى نفعلها ومتى نفكر في فعلها أيضاً. والربوبي يؤمن أيضاً بالخالق الذكي ولكن نشاطاته كانت محدودة بصناعة قوانين الكون وضبطها وصياغتها. إلههُ لا يتدخل بعد ذلك في شيء وبالتأكيد ليس لديه أي اهتمام بأمور الإنسان. الطبيعيون لا يؤمنون بالإله الغيبي بأي شكل ويستعملون كلمة الله للدلالة على الطبيعة أو الكون أو الأحكام والقوانين التي يعملان بها. الربوبيون يختلفون عن المؤمنين بأن إلههم لا يستجيب للصلوات وليس له أدنى اهتمام بذنوبهم أو اعترافاتهم، لا يقرأ الأفكار ولا يتدخل بمعجزاته النزوية. الربوبي يختلف عن الطبيعي حيث إلهه هو نوع من الوجود الكوني الذكي الذي فعله خلاف الطبيعي الذي يطلق

التسمية كبديل لقوانين الكون، الطبيعي من مشتقات المُلحدين والربوبي نوع مخفف من التدين»[1].

نحن أشبه ما نكون أمام فكر المعتزلة القديم. وبعض الفلسفات الإغريقية، وليس أمام فكرة حداثوية جديدة. وكأن كل الكشوفات العلمية الجديدة لم تسعف ريتشارد دوكنز على وضع أطروحة جديدة، فإذا به يكرر بعض مواقف التراث القديم لتاريخ بعض الأديان والفلسفات، التي كانت تقول إنه لو صح فرض انعدام واجب الوجود لما ضر العالم بشيء، لأن الكون محتاج إلى الخالق بدءاً فقط وليس دائماً. وهذا ما سيولد نظرية إشراقية تقول بالفقر الذاتي للأشياء وليس الفقر الماهوي والفقر الإمكاني فقط، على ما سوف تعرضه مدرسة الحكمة المتعالية لملّا صدرا الشيرازي، اتباعاً منه لمدرسة المتصوفة.

بعيداً عن أي تفصيلات، سنجد من الأمور الواضحة أن علوم الطبيعيات وحدها لا يمكن لها أن تطرح قناعات في القضايا الكلية، وهذا منسجم مع حقولها المعرفية الخاصة، وأن عالم الطبيعيات المُختص، حينما يتحدث لنا عن المعتقدات، فإنه في واقع الحال لا يتحدث بصفته عالم طبيعيات، كما يوهمنا أو يتوهّم هو، فهو قد بات يتفلسف ويطرح مسائل متعلقة بالمُطلقات التي تتجاوز الجزئيات التي فحصها واستقرأها، وإلا فعلوم الطبيعة هي التي تعلمنا منها أن الأرض وما فيها أصغر بكثير من حصاة صغيرة، هي أصغر بكثير من إبريق الشاي الصيني الذي ضربه «راسل» كمثال، وشغف به دوكنز واعتمد عليه، وبالتالي فكل الإحصائيات وكل المكتشفات التي تجري في حصة من

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٠

الكون هي من الضآلة التي لا يمكن مقايستها بما تكتشفه دودة صغيرة في سلسلة جبال الهملايا، التي تحسب أن مكتشفاتها وجهدها وأطنان البحوث التي توصلت إليها، يمنحها الحق أن تحكم على سلسلة جبال الهملايا بأنها ليست سلسلة من الصخور العملاقة كما يقول البشر، الذين لم يقطنوا فيها كما سكنت وتعذبتْ هي. إن العلوم الطبيعية هي التي أكدت لنا هذه الصورة بالأرقام الفلكية لمسافات الكواكب والمعادلات والتقارير الهائلة عن مدى هوان حجمنا في هذا الكون الشاسع، وبالتالي فكل عمليات الاستقراء والاختبار والتجربة، لا تجري إلا على مساحة من الوجود، لا يمكن تصوّر أن نتائجها تخولنا الحكم على الكون بمقولات شمولية قطعية كالتي يقولها دوكنز، إلا من باب العقل المغرور، أو اغترار الذات بنرجسيتها، تماماً كمثال الدودة البسيطة في سلسلة تلك الجبال الشاهقة التي هي أقل من حفنة تراب في الكف إذا ما قسناها بمجرة واحدة من مجرات الوجود.

وإذا كنا قد حصرنا كل الشرور التي خرجت باسم الأديان بالجانب الفقهي فقط، وأن نصوص الدين هي نصوص رمزية لا يمكن بطلان كل الدين كدين لمجرد السخرية من تصوير الكون على أنه قد خلقه الله في ستة أيام أو ما شابه، لكون هذه مجرد قراءة حرفية ممارستها تبطل النص الديني كنص ديني، وبالتالي يمكن للدين أن يتملص من كل حرج لكشوفات علمية جديدة عبر وسائل التأويل[1]، خصوصاً وأنه ليس كل علماء الطبيعيات يتفقون مع

(١) بالطبع هذا لا يعني وجود سخف كثير في بعض النصوص الدينية، الفرعية منها بالخصوص، والتي تسمى بالمدونات الحديثية وحياة القديسين وفتاوى البابوات وما شابه، فلدينا في الإسلام مثلاً: إذا تصادمت مقولة العلم مع مقولة حديث أو خبر من الأخبار يتم تقديم الخبر على المقولة العلمية، لذا قالوا بإمكانية اجتماع الحمل مع الحيض حتى لو رفض الطب ذلك، أما الأمثلة في المسيحية فحدث ولا حرج!. لكن هذا كما قلنا ليس الدين بل الموقف الفقهي المرتبط به، وكل هذا لاعلاقة له بنفي الإله، فهو في النهاية يثبت هزال بعض المباحث الفقهية أو الطقوسية ولا علاقة له

دوكنز حول عمر كوكب الأرض، وغيرها من قضايا الطبيعيات، وإن كان هو يصوّر أن ما يقوله هو عبارة عن إجماع قطعي دائم لعلماء الطبيعيات، وإذا كنا قد عرفنا أن دوكنز يقرّ بأن العلوم الطبيعية لا يمكنها أن تنفي الإله، فما الذي يتبقى لعالم الطبيعيات من المحاجة هنا؟! خصوصاً وأن خطاب ريتشارد دوكنز، كما حدده بعضهم[1]، هو خطاب مؤمن أصولي. فهو خطاب رسولي تبشيري، يطرح فيه الإلحاد نفسه باعتباره المسيح الجديد أو المسيح البديل، وهو إذ ينادي بضرورة حجب الفكر الديني عن الأطفال باعتباره أساطير[2]، لا يستطيع المحاجة حول ترسيخ قيم الوطنية والاعتزاز بالقانون والأرض والعلَم القومي، وغير ذلك من الأساطير التي لا حقيقة «تجريبية» علمية لها وتدحضها علوم الطبيعيات، فليس هناك شيء اسمه الوطن ولا عاطفة وطنية كحقيقة واقعية، بل مجموعة تلقينات مُعزّزة بوسائل تكرار وتلميع وتعميق سرديات تضحية الإنسان بحياته التي لا يملك سواها، على معبد متعالٍ اسمه الوطن

بنفي أو إثبات فكرة الإله. حيث يمكن للإنسان أن يكون موحِّداً لكن بلا دين، ويمكن أن يكون صاحب دين ولا يؤمن بإله خالق للكون بل الكون قديم تتصارع عليه قوى سحرية كما هي حال بعض أديان الهند والصين ومعتقدات آسيوية كثيرة.

(١) وصفه الحاخام في الجزء الثاني من برنامج أصول الشر.

(٢) ونحن بمقدار كبير نؤيده على ذلك لكن ضمن حدود وضوابط، فالمدارس الدينية للأطفال والشبيبة واحد من معاقل خلق المعازل الثقافية وتبني تحنيط تجارب الأسلاف الماضين كي يكونوا هم المستقبل للناشئين. وبما أن القضية مُعقدة ومشكوك أن يقبل الإنسان كل هذا الكم من المفارقات في الكتب الدينية، لذا تتم تهيئته نفسياً لقبولها لكون الطفل والمراهق أضعف بكثير من فحص كل تلك التعقيدات، وهذا يشبه تلقينه فكرة طبيعية المثلية الجنسية وأحقية العلاقة الجنسية بلا أي ضابط، أو الوقوف احتراماً وتقديساً للعلَم الوطني ونشيده وغرز روح التضحية لأجله، فالطفل والمراهق بالمقدار نفسه لا يستطيعان مناقشة ذلك.

أو القانون أو الأمة. لماذا لا يستمر دوكنز والملاحدة في تكملة مرافعتهم إلى نهايتها المنطقية؟! لنصل إلى مشكلة حقيقة أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون بناء أسطورة ما، وهذه حقيقة تجريبية إحصائية، إذن هناك «أُس»، هناك بنية تحتية تتجاوز الشكل الجزئي لهذه الأسطورة أو تلك، هذه العقيدة أو تلك، وعليه فلماذا يتم «تقنياً» الكفاح ضد قسم مُعين من الأساطير والميثيات، وتعزيز أخرى؟!

قد يُجاب هنا: «إن هذا التفريق قائم على المصلحة والمفسدة. الأساطير الدينية مضرة والأساطير حول الصداقة والحب والاحترام، مفيدة. فيجب محاربة الأولى وتنمية الثانية».

لكن جواباً كهذا هو منتقى حيث للمساجد والكنائس والمعابد، أعمال خيرية كثيرة، وقد أدى الدين لدى شرائح واسعة من الناس في كل العصور، دوراً إيجابياً في تحسين المشاعر وخلق المودة التراحمية بين الآخرين، وتنمية مشاعر الأمل، فلم يكن الدين متطابقاً مع الشرّ في أية مرحلة تاريخية وإلى يومنا هذا. رغم أن الدين تم استخدامه في الشرور بالتأكيد كما تم ويتم استخدام العلم في الشرّ بالوتيرة نفسها. إن عبارة الدين هو أصل الشرّ أو شر بنفسه، عبارة إعلامية ليس إلا، ولا علاقة لها بعمليات الإحصاء ولا الاعتراف بالواقع، بل هي مجرد شعار أيديولوجي تعبوي، لا يليق بعالم طبيعيات مختص رفعه بكل هذه الطريقة الفجّة الصاخبة. بل العلم هو الذي أوصل البشرية إلى إمكانية الكرة الأرضية نفسها في تدمير المجرة تماماً، وهذا يفوق كل الشرور التي وقعت باسم الدين أو بسببه.

وفي النهاية، إن جواباً كهذا لا علاقة له بالواقع العيني للحقيقة، بل هو جواب نفعي ليس إلا. الحقيقة هنا باتت تبعية براغماتية وليست فحصاً لواقع عيني هو مدار متخصص في علوم الطبيعة. وبالتالي تعود مشكلة الانتقائية بين

محاربة تعليم الأساطير الدينية وبين تشجيع الأساطير القانونية والدينية. وفي النهاية، هذا تكرار لخلط دوكنز المستمر بين إثبات خرافية النصوص الدينية أو الدين، وبين نفي الإله وكونه خرافة.

إن العلم لا شأن له بالغايات فهو يدور حول تفسير ما يقع فقط، فلماذا لا يكون دوكنز (لا أدرياً) على الأقل؟!

إن دوكنز يرفض الموقف الحيادي من العلم إزاء مسألة الدين والإله، ويرى أن اللاأدرية نظرية فقيرة. إن العلم اليوم قلص من لاأدريتنا في أمور الطبيعة والمجرات، العِلم مستمر في أكل اللاأدرية واقتطاعها، وبالتالي فحجم الاحتمالات يتناقص باستمرار، ولنا أجهزة تطوف المجرات وتُرسل الإشارات، لعل هناك حضارات أخرى ستكون مُتقدمة علينا حينها، ولو بلغونا لتعاملنا مع تقنيتهم المُتقدمة، فإنا سنشاهد عندئذ كآلهة، فهذه المخلوقات غير الأرضية ستُشاهد مواصفاتها الخارقة الحاضرة أمامنا راهناً، وسيغيب عنا مصدر هذه الطاقة التي تطورت عبر سنين طويلة متراكمة بشكل عادي. إذن، «مافوق الطبيعة» هذا ليس سوى جهلنا بالمصدر ليس إلّا، وبذلك انطلت هذه الحيلة على أجدادنا وتصوّروا الآلهة والأنبياء الذين نالوا الشرف غير المستحق في استغلال الجهل العلمي لمجتمعات مازالت تعاني فقراً معرفياً هائلاً[1].

هكذا يستمر دوكنز في انتقاد الدين والمعتقدات الشعبية، التي تحضر فيها بقوة صورة المسيح كونه إلهاً بحسب الديانة المسيحية المعتمدة على المعجزة والأعاجيب. حيث يبتعد دوكنز مرات عديدة عن الموضوع الذي أعلنه وهو نقض فكرة الإله المتعالي غير المُشخّص. وهو إذ يسرد لنا فرضية «أدبية» لم يقم عليها أي شاهد علمي . دوكنز ينسى هنا استمرار العِلم في نقض الكثير

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٧٥

من نتائجه حتى في أبسط الأمور مثل بعض خواص بعض المأكولات وبعض العقاقير وغير ذلك، مما هو موضوع يومي في نشرات الأخبار، وبالتالي إذا كان في الأمر كل هذه الثغرات المستمرة في أبسط الجزئيات، فكيف لنا التحدث عن المُطلق؟!. وينسى دوكنز أيضاً أنه وهو يعتمد الشرود بأحلام الافتراضات، أن واحدة من أهم الثغرات الهادمة لنظرية التطور كنظرية شمولية في الطبيعيات والثقافة، هو وجود (وليس افتراض مثل خيالات المخلوقات الفضائية) الثقافات القديمة، التي بلغت منازل راقية من العِلم والتطور، بما يناقض المدة الزمنية القصيرة التي تشل نظرية الانتخاب الطبيعي. أليس غريباً من كل التطوريين الشموليين إصرارهم المُشترك على تنحية الآثار الواضحة للحضارات القديمة وهي عينات كثيرة جداً، ومحاولتهم الدؤوبة للعثور على عينات أخرى يضعونها في سُلّم شواهدهم؟!. فإذ يطالبون بهدم النظرية بالعثور على كائن حي خارج التحقيب الزمني المفروض له في جدول التطور، يُغيبون حضارات بشرية كاملة تقع خارج التحقيب الزمني لتطور الإنسان ،تماماً!.

إن عملية التخيّل لوجود مخلوقات أخرى، كيفما كان لا علاقة لها بموضوع الإله غير المُشخّص. نعم في القضية حجم يُربك الديانة المسيحية مثلاً، لكن هذا لا يتنافى وفكرة الإله المتعالي الاستدلالي، فالتطور التقني قد تكون بدايته تحويل عصا إلى سلاح، وترويض حصان، لكن ناحت الرمح ومروض الخيول ، اعتبرا لأجل هذا من الأنبياء، وكل أرباب الاختراعات لم ترتبط بهم دعوى غيبية، فضلاً عن أن كل هذا لا يقع ضمن منهج الاقتناع للمؤمن المعاصر، الذي يقرأ كل مخلوق ممكن أو مُفترض على أنه وجود ممكن لا علاقة لكل تقنياته المتطورة بنفي واجب الوجود. نعم، إن الشرائح الشعبية سترتبك فيما لو تخيلنا استحضارأجهزة الحاسوب والهواتف الذكية من القرن الواحد والعشرين إلى القرون الوسطى، لكن ما يُدرينا كيف ستكون

ردة كبار الفلاسفة الإلهيين ساعتئذٍ؟! ثم إن هذا موضوع متعلق بطريقة القناعة الشعبية للدين وليس في حقانية أو بطلان فكرة الإله نفسها. فالإله ليس فكرة حقة باعتبار الإله هو ذلك الموجود المتفوق على الإنسان، كي نسأل حينئذ: وبأي مقياس حينما ندركه يكون الذي أمامنا هو الإله؟ وما يدرينا لو أننا فرضاً شاهدنا المخلوقات الفضائية، هل ستكون آلهة؟![1].

فهنا بناءً، على افتراض محض، وإغفالاً للواقع واعتباره كأنه ليس موجوداً، ثم سحب الفرض عليه، بالإضافة إلى بناء الحديث كله على رؤية شعبية للإله، يتم التمسك بها كدليل لدحض فكرة الإله بشكل مطلق.

الأشد سخرية، أن دوكنز «العالِم» العلمي جداً، سوف يعمم نظرية التطور، التي هي عقيدته الإيمانية الصُلبة، لتكون قانوناً كلياً ينطبق على كل العوالم التي يمكن افتراضها، فحتى المخلوقات الفضائية التي سنخالها آلهة، هي بكل بساطة مشمولة بجدول نظرية الانتخاب الطبيعي نفسه «قوانين الاحتمال تمنع فكرة كونهم أتوا فجأة بدون أشكال بدائية أبسط منهم، وربما يدينون بوجودهم لنوع (ربما غير معروف) من التطور الداروويني»[2].

فلنتخيل مليارات العوالم والمخلوقات غير المعروفة، ونضع إلى جانبها المخلوق الأرضي الذي نقول إنه ظهر بواسطة الانتخاب الطبيعي، كم نسبته ياترى أمام تلك الملايين أو المليارات من العوالم؟ لا نسبة . كيف إذن، قفزنا بالتعميم من جزئيات بسيطة إلى كل مخلوقات الأرض منذ ظهورها وحتى اليوم، ثم تعميم ذلك على كل ملايين أو مليارات الكون؟! أيُّ استقراء وتعميم تجريبي «علمي» هذا؟!.

وإذا كانت نظرية التطور قد غدت بهذه اليقينية الشمولية، ما الذي يفرق

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٧٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٦.

إذن، بينها وبين فكرة الإله، فكلاهما يلتهم النتائج الافتراضية والتخيلية، ويجعلها مجرد فروع جديدة لمصنوعاته، بكل بساطة، وإذا كان المؤمنون اخترعوا مخلوقات وهمية عن أصل الحياة فدوكنز هو الآخر يتخيل مخلوقات فضائية جلبت أصل الحياة للأرض؟!.

ينقل دوكنز كلمة كرستوفر هيتشنز:

«الكلام في اللاماديات هو كلام عن لاشيء، القول بأن الروح الإنسانية، الملائكة، والله غير ماديين، هو القول بأنهم لا شيء. بمعنى أنه ليس هناك روح ولا ملائكة أو إله. لا أستطيع التفكير في غير ذلك، بدون الغوص في متاهات لا يُسبر غورها أو في هاوية التخيّل. أنا سعيد ومكتفٍ بما أشغلُ نفسي به بدون اللاأشياء التي ربما تكون موجودة ولكن ليس لدي الدليل على وجودها»[1].

إن دوكنز في أحد لقاءاته لم يستطع الإجابة عن: «ما هي النسبة لعدم وجود الله؟!» أجاب: إنها تسعة وتسعون في المئة. فأتاه السؤال: «وكيف تم تحديد هذه النسبة؟!».

فأجاب: بأنه غير مرتاح لهذا السؤال لكن وجود الإله ليس محتملاً مطلقاً. فوقع في سخرية: كيف لا يكون ثمة احتمال وأنت من يقول إنه احتمال تسعة وتسعون؟! ثم قال: إن نسبة كون الإله غير موجود تتجاوز خمسين بالمئة بكثير، حينئذ سأله مُقدِّم البرنامج: وكيف عرفت وتوصلت إلى هذه النسبة؟!

أجاب دوكنز بشكل قطعي واضح بأنه بكل بساطة (لا يعرف). إن القضية إذن، نفسية وليست علمية، وهذا ما لأجله كتب دوكنز كتابه، فهو كتاب غير علمي بل مجرد زيادة شحنات الرفض لدى الأشخاص الذين لديهم ميول

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٤٤.

نفسية وعاطفية انحيازية إلى الإلحاد، وهذا هو الذي يُفسّر لنا كل هذا الخلط المتكرر من دوكنز بين مسألة الإله ومسألة الدين.

لا يمكن لعالم طبيعيات أن يشطب مفهوم «اللاأدرية» فهذا يعني أن كل البحوث العلمية سوف تتوقف في كل القضايا التي لم تصل معها إلى نتائج حاسمة وقريبة. ومن هنا سيحاول دوكنز الالتفاف بتقسيم اللاأدرية، إلى موقتة ومستمرة:

«سأبدأ بمناقشة نوعين من اللاأدرية موقتة عملياً، وهي الجلوس على السياج بانتظار أدلة. وهذا موقف صحيح من المسائل التي لها جواب محدد، بشكل أو بآخر، ولكن بما أننا لم نحصل بعد على الأدلة التي تثبت، أو لم نفهمها بعد، أو لم نقرأها بعد، الخ. اللاأدرية الموقتة عملياً موقف معقول من مسائل كانقراض الأحياء نهاية العصر البرمي. حيث هناك حقيقة نأمل معرفتها يوماً من الأيام، ولكننا لا نعرفها الآن بالتحديد.

ولكن هناك النوع الآخر من الجلوس على السياج وهو لاأدرية مبدئية دائمة. أسلوب اللاأدرية المبدئية الدائمة مُناسب لأسئلة ليس لها إجابات محددة أبداً، مهما حاولنا. السؤال موجود على بعد آخر، أو في مستوى آخر، وخارج المنطقة التي يمكن أن تصل إليها الأدلة... وبعض العلماء والمثقفين يعتقدون ـ بشكل مبالغ فيه برأيي ـ بأن مسألة وجود الله من عدمه هي من فئة لاأدرية مبدئية دائمة، وبناء على ذلك كما سوف نرى، يحصلون على النتيجة غير المنطقية، بأن نظرية وجود الله أو عدم وجوده، حسب رأيهم، لها الاحتمالية نفسها للصحة. الفكرة التي سأدافع عنها هنا مختلفة تماماً: اللاأدرية في حالة الوجود الإلهي هي من نوع لاأدرية موقتة عملياً. إما موجود وإما غير موجود. السؤال علمي بحت، ويوماً ما سنعرف الإجابة، وحتى ذلك الوقت نستطيع الكلام بشكل قوي عن الاحتمالات»[1].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٤٩

إن المفارقة الهزلية هنا: أن دوكنز الذي يُفلسف المعطى العلمي، حينما لا يجد لتحقيق غرضه الأيديولوجي سوى الحامل الفلسفي، يدعو إلى ترك الفلسفة وتبني فكرة قديمة طالما تكررت، خصوصاً منذ أواسط القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، القائلة بتبني التعاطي البراغماتي مع العلوم . فهو يتمسك بالتفلسف، خصوصاً وأن نظرية الانتخاب الطبيعي ليست نظرية تجريبية فقط بل هي مُشبعة بالتأملات المتفلسفة من جهة، وترك التفلسف من جهة أخرى، وهو يخلط بين كون الفلسفة التي تتحول إلى مرذولة، لا توصل إلى نتيجة نهائية، وبين كونها لا توصل إلى نتيجة نهائية مُحدّدة.

أما مسألة الاحتمالات فهي لا تخدم الإلحاد أبداً، لأن مستوى التعقيد في أبسط مخلوق وطريقة استمراره وعلاقته بمحيطه الصغير والكبير، يجعل صورة العالم كله قائمة على معادلات رياضية بمنتهى الذكاء الخارق، وبالتالي فكل الاحتمالات يُراد منها الاعتقاد بسير كل شيء وفق معادلات دقيقة، لكن مجموع هذه المعادلات مجرد مصادفة عمياء، يجعل الإنسان ينتهي إلى بلاهة لا يمكن قبولها طوعياً البتة.

فالأطروحات الجديدة في الفيزياء وغيرها، تصف العلم بأنه عبارة عن (تاريخ من بطلان النظريات) أو متابعة لنظريات باطلة، وبالتالي فهي ليس بمقدورها أن تقف بصلابة حقيقية أمام البحث الأنطولوجي الفلسفي الذي هو عبارة عن تاريخ من إثبات صحة النظرية، فضلاً عن أننا حتى الآن لم نعرف سوى واقعية واحدة ووجود واحد وكون واحد، وكل ما عداها لم يثبت إلا باعتباره إغراقاً تأملياً واحتمالية رياضية ذهنية فقط. وهي تأملات واحتماليات متفرعة من الوجود الذهني المحكوم بقوانين العالم والواقعية الواحدة التي نعرفها.

أما المصادفات التي تظهر لنا في مجاميع المخلوقات الحية (حسب اختصاص دوكنز) أو الكائنات في أصل وجودها بعد الانفجار الكبير (بحسب اختصاص ستيفن هوكنغ) فهي مصادفات وحظوظ بالنسبة إلى العنصر الجزئي وتلاقيه بجزئي آخر، لكنها تنقلب إلى ضرورة حينما نقايس هذا التلاقي الجزئي داخل النتيجة الكُلية لصورة الوجود العام. وهذا ما قرره الفلاسفة منذ القدم بأن الحظ هو تلاقٍ جزئي بمقايسته لآخر، لكن لكل منهما علل أوصلته إلى تلك النقطة .

لو قرأنا كتاب «الجينة الأنانية» و«الصعود إلى جبل المستحيل» و«وهم الإله»، لوجدنا ذلك الهاجس المُشترك المُتمثّل بتصوير الواقع السببي على أنه واقع تصادفي. ودائماً يتم اعتماد طريقة (تعليل) واحدة في تفسير ظهور الموجود:

مسافة زمنية كبيرة، لعملية تكرارية مستمرة= كائن مُعقّد التصميم.

وهي عملية تفكير تشبه محاولة تحويل القضايا المألوفة إلى أُحجيات، والقفز من القيمة البسيطة التي هي أساس الوعي البشري، إلى القيمة بالغة التعقيد، التي لا يسير عليها سوى بعض العصابيين النفسانيين. حتى ليغدو علم الفيزياء الحديثة وعلم الأحياء الداروينيي، عبارة عن اشتغال بالمصادفة، أو تحويل العلوم إلى حظوظ، أو جعل الحظ علماً!

ففي حين أن العلم لا يكون علمياً بدون التفكير في العلل والأسباب، وإلا لعدنا إلى العقلية السحرية والأسطورية، فإن هؤلاء يفسرون ظهور الكون بمصادفة انفجارية (انفجار بلا فاعل ولا محرك بدئي لتغيير وجهة الطاقة!)، والحياة ظهرت نتيجة المصادفة، فمن ذرة الوجود فيزيائياً إلى حيويم النطفة في التكاثر الجنيني، كله محكوم بهذه الصدفة السحرية، يتم قسر الذهن على كسر التتابع العليّ الذي بدونه لن نفهم أي شيء، من خلال مفهوم الطفرة

الساحرة هذه، وهي طفرة لم يكن لنا حتى افتراضها لو لم يكن لدينا واقع ثابت «نتخيّل» الخروج عليه بافتراض تماثلات له، والكف عن محاسبة هذا التفكير المستحيل لأنه يحوّل ما هو أدنى من قيمة الصفر إلى كونه يقيناً ثابتاً:

«كلما كانت الوحدة الجينية أصغر حجماً، تعززت احتمالات توافرها لدى فرد آخر، وتعززت بالتالي احتمالات تجليها مرّات عدّة في سائر أنحاء العالم على هيئة نسخ.

لابد من الإشارة إلى أن فرص تجمّع وحدات فرعية موجودة من قبل، جراء العبور التبادلي، تشكّل الطريقة الاعتيادية لتكوين وحدة جينية جديدة. لكن تتجلى طريقة أخرى ذات أهمية تطورية بالغة على الرغم من أنها نادرة، تُعرف باسم «التطفير النقطي». ويُقصد بالتطفير النقطي خطأ يقع في طبع حرف واحد في كتاب. وصحيح أنه خطأ نادر، إلا أن احتمالات حدوث تغيّر في الوحدة الجينية جراء تطفير يطرأ على أي موضع على طولها تتعزز، كلما كانت الوحدة الجينية أطول»[1].

دائماً هناك عمُر أطول، شريط جيني أطول، كون أوسع ..الخ، ودائماً هناك اعتماد على حدوث خطأ يكون هو المركز. مع أن هذه الاحتمالات تخلط بين عناصر الوجود الموجودة فعلاً، وبين الموجودات التي تم افتراضها. بين السنوات الفعلية وبين السنوات التي نتخيلها. الفرض الحقيقي هو في كتاب كوني وحياتي محصور بين دفتين من العناصر والزمن، وبالتالي فثلثا هذه الاحتمالات يسقط قبل عملية الضرب لكونها إما افتراض على جزء حقيقي وجزء مُتخيّل، وإما خارجة على حقيقة الزمن الفعلي وكمية التعقيد في

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٥٠.

العناصر نفسها حيث أبسط جُزيء لا يظهر للوجود تصادفياً إلا بعمر يتجاوز بلايين المرات عمر الكون بأجمعه كما هي حال البروتين في الخلية.

بالطبع يعتمد دوكنز على المصادرة المكررة في كتابات المثقفين الغربيين المعاصرين: حيث الأدلة هي الأدلة الملموسة، والنتيجة العلمية هي فقط تلك التي تُخضع للتجربة وأدواتها. وهذه المصادرة هي ليست تجريبية بالطبع ولا مادية، وإلا كانت العناصر المادية تحمل معارفها الصحيحة معها وبالتالي لما وقعنا في الاختلاف في تقويمها وتعريفها، هذا فضلاً عن مشكلة الدور الكلاسيكية.

ومن هنا يحتفي دوكنز بتعريف هاكسلي للأدرية: «اللاأدرية في الواقع، ليست مذهباً، ولكنها طريقة، خلاصة للطريقة الصارمة المطبقة على أي مبدأ...عندما يتعلق الأمر بالعلم فلا تتظاهر بأن النتائج صحيحة إذا لم تكن مُجربة أو بالإمكان تجربتها للتحقق. هذا ما أعنيه باللأدرية»[1].

لكن من قال إن قضية الإله قضية علمية فقط؟! ومن قال إن «العلم» هو التجريبي ليس إلا؟!.

يقول دوكنز عن وجود الإله:

«لـو كان موجـوداً وكشـفَ عـن نفسـه لوضـع حُكمـاً نهائيـاً لهـذا الجـدل بشـكل لا يقبـل الشـك. لكـن وحتـى لـو كان مـن غيـر الممكـن البرهـان علـى وجـوده

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٥١.

من عدمه بشكل قاطع، فإن الأدلة المتوافرة قد تعطينا احتمالات بعيدة عن الـ ٥٠ بالمئة»[١].

إن دوكنز يتحدث بغضب بخصوص كبار علماء الطبيعة المعاصرين الذين يقرّ بمكانتهم الرفيعة، يرفضون أن يتحدث العلم التجريبي عن نفي الله، فالعلم لا سبيل له إلى مثل هذه القضايا، وهذا ما كرر قوله حتى كبار الفلكيين المُحدَثين[٢]، ولا يملك دوكنز في المقابل سوى السخرية والدوران في المصادرة نفسها، بأن الله مطابق للخرافات والأساطير والشخصيات الكارتونية، وعليه فلماذا يتم منع العلم من الحديث عنه؟!.

إن دوكنز يهرب ببساطة من فلسفة العلوم، ويحاول القفز على العلاقة الضرورية بين كل علم مع موضوعه، والعلوم الطبيعية ليست علوماً غائية بل هي تفسيرية فقط، والعلوم التجريبية هي علوم عينات ماثلة تُدرس كما هي فعلاً، عبر قدراتنا الفكرية التي لا نستطيع الهرب منها، وبالتالي افتراض كون آخر يشبه افتراض نظام عقلي آخر، وبالتالي إنكار الواقع وعدم إمكانية الأخذ بأيٍّ استنتاج.

الأنكى من ذلك أن دوكنز يدخل في مغالطة الخلط بين سؤال الغائية كسؤال استنباط واقعي، قائم على نزعة إنسانية عامة طرحته وما زالت تطرحه بحيث حتى ستيفن هوكينغ لم يستطع سوى ختم كلامه به: «ما السر الكبير

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٥٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٧. وص٥٨. والمعيب أنه يحاول هنا تأويل كلماتهم بنقض صريح لنصوصهم، وهذا التأويل المستمر هو جزء من ضغط نفسي من أجل عدم تقبل الاختلاف، خصوصاً من داخل الاختصاص العلمي نفسه، لذا نجد عالم الطبيعيات يتحوّل إلى تأويلي وتبريري بما لا يختلف عن سلوكيات رجال الدين، حينما تواجههم أقوال ونظريات وحقائق لا تقبلها نفسيتهم وأمزجتهم.

الذي خُلق الكون لأجله ولماذا وجد أصلاً؟!» وبين سؤال الغاية الإنشائي اللغوي، الذي هو مجرد تركيبة اعتباطية داخل اللغة وليس موجهاً نحو الواقع:

«الكليشه المتكررة بملل (و على عكس الكليشيهات الأخرى، ليست صحيحة) التي تقول بأن العلم يبحث في أسئلة من نوع كيف، بينما الدين هو المجال الوحيد المهيأ للإجابة عن لماذا. وما هو تعريف (سؤال لماذا) بحق السماء؟ لا يمكن اعتبار كل عبارة تبدأ بكلمة «لماذا» سؤالاً شرعياً.لماذا وحيد القرن غير مرئي؟. بعض الأسئلة ببساطة لا تستحق أجوبة. ما هو لون التجريدية؟ ما هي رائحة الأمل؟. أن تكون الجملة صحيحة إعرابياً لا يجعلها ذات معنى، أو أنه يجب أخذها بجدية. ولا يعني ذلك أبداً، وحتى في حالة السؤال الصحيح الذي لا يستطيع العلم الإجابة عنه، أن الدين سيكون قادراً على ذلك»[1].

نحن هنا أمام لعب بالكلمات، وإلا فهل يتساوى سؤال: لماذا كارتون توم وجيري، شخصيتان عن قطة وفأر وليس عن امرأة وفأر؟!، لماذا بابانويل أبيض وأحمر؟! وبين سؤال: قوانين الكم هكذا وليست بطريقة أخرى، لماذا نرتوي بالماء وله هذه الخاصية المناسبة لنا وليس غيره، حيث يستطيع الذهن فرض سوائل خيالية أكثر إرواءً لنا؟!.

النوع الأول من سؤال لماذا، قائم داخل اللغة فقط لا علاقة له بالواقع الحقيقي، بينما النوع الثاني مُستخرج من الواقع نفسه وليس من أذهاننا، وموضوع البحث هو علاقة الإله كوجود حقيقي تنتسب إليه أسئلة النوع

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٥٨..

الثاني. لكن دوكنز ينقل دعوى المؤمنين من أسئلة النوع الثاني إلى أسئلة النوع الأول، لذا يبقى الله لديه مجرد فرضية خيالية لشخصية عجائبية في رسومات متحركة أو مقولة شعبية أو أسطورية سحرية، وبالتالي من الطبيعي أن تكون مجرد احتمالية أبدية، إمكان وقوعها ذهنياً فقط، ليكون الله مثله مثل الغيلان والسوبرمان، لا يمنع فرض العقل وقوعه لكن هذه الإمكانية لا تعني انتظار تحققه فعلاً. وهذا جوهر التفكير المشوش لدوكنز. في الصور الخيالية لاوجود لادعاء علاقة العلية والسببية كي تُقاس بفكرة الإله. فضلاً عن أن دوكنز نفسه سيذكر أن واحدة من حجج فكرة وجود الإله، هي قضية طرح فكرة الوجود الأعظم من أي واقع وتخيّل ممكن، بينما الشخصيات السحرية والكارتونية والأسطورية صورة قائمة على «التحديد» وليس التجاوز لكل صفة كمال وجلال يمكن تصوّرها.

الطريف أن دوكنز هو الذي يحتفي بحجاجية برتراند راسل، بأننا إذا آمنا بالإله فسنضطر أن نسأل لماذا وكيف ومَن خلق الإله؟! إن دوكنز هو أكثر من يستعمل سؤال الغاية والكيفية، لكنه يرفضه حينما يجد أن سياجه الدوغمائي سينكسر حينما توجه إليه مشكلة هذا السؤال!.

لكن ما الذي يبتغيه دوكنز من «الدليل» ؟!، هل لو قلنا، مثلاً، إن اخضرار العشب بعد موته دليل على وجود الله، لابد لنا أن نلمس الله أو نراه في العُشب؟!. ما المطلوب من الشيء كشيء طبيعي أن يدل على الله؟!.

لو كان المراد أن نُبصر الله أو نلمسه أو نجد إشارة أمبيريقية داخل الخلايا، لكن كل دليل مثل هذا نفياً لله وليس إثباتاً له. لأن المفروض هو وجود إله متعالٍ يبلغ سمو وجوده مستوى لايمكن مقايسته بخلقه، لكنه جزء من هذا الخلق، ومُضمر شيءٍ منه بمستوى من الضعف أن يكون ملحوظاً للتجربة البشرية واختباراتها. وهذا يعني أن الخالق مخلوق والمطلق محدود.

وبالتالي فالنتيجة ستكون معروفة بشكل مسبق وهي عدم وجود الله بشكل قطعي وليس لاأدرياً فقط. لكونه يستحيل على الطبيعة كطبيعة أن تُقدِّم لنا دليلاً أمبيريقياً محايثاً بشكل مباشربأن الله موجود وإلا لم تكن طبيعية.

نحن إذاً، لو كنا والأبحاث الطبيعية بلا مدخلية لأي استنتاج عقلي يربط بين الدال والمدلول، لكنا ملاحدة بما يتجاوز دوكنز، فهو هنا يُقدّم واحداً من اعترافاته الثقيلة على سمع المغالين به، حيث لا يزال الحديث عن نفي الإله يقع في دائرة الخمسين بالمئة فقط، أما ما يتجاوزها فهو مجرد إنشاء لغوي تلاعب دوكنز به لكونه لا يستطيع أن يُقدّم لنا محدداً علمياً لكيفية تقديره لمستوى الاحتمالات النافية للإله ما بعد مستوى الشك واللاأدرية.

«إن عدم القدرة على برهان عدم وجود الله مقبول وبديهي، ولكن هل من الممكن إثبات عدم وجود شيء ما؟. والمهم هنا هو ليس إذا كان من الممكن نفي وجود الله (ذلك غير ممكن) ولكن إن كان وجوده مُحتملاً. وهذا موضوع آخر. بعض الأشياء التي لا أحد يُمكن البرهان على عدم وجودها، ولكن نحكم على احتمالات وجودها بأقل من أشياء أخرى لا يُمكن إثبات أو نفي وجودها أيضاً. وليس هناك أي سبب لاعتبار الله منيعاً عن الاعتبار والوضع ضمن طيف الاحتمالات. وبالتأكيد ليس هناك أي سبب لاعتبار احتمال وجود من عدمه ٥٠ بالمئة فقط، لأننا لا نستطيع البرهان على وجوده من عدمه»[1].

وبحسب ذلك يجب علينا التعويل كلياً على العلم التجريبي، لكونه المفتاح السحري لكل الأسئلة، فهل يوافق دوكنز على ذلك فعلاً؟!

على خلاف كل مواقفه الصلبة في عملقة العلم ضد الإله، يقول دوكنز:

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٥٦.

«ربما هناك أسئلة عميقة وصادقة وذات معنى تقع خارج نطاق العِلم إلى الأبد، ربما نظرية الكم تدق بوابة اللإدراك».[١]

«نتفق جميعاً أقله بأن أهلية العِلم لنصحنا فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية فيها مشكلة»[٢].

يالشدة ما ينسى دوكنز!، فهو الذي قدم صفحات وحلقات برامج طويلة، بأن نظرية التطور ليست خطراً على معنى الحياة وأننا بالعلم نبني قيماً مدنية وإنسانية متحضرة مسالمة، بعيداً عن وحشية الدين ـ أصل الشرور. لقد وقف دوكنز مطولاً لنصحنا بشكل يبلغ الصخب في بعض الأحيان إن لم يكن جُلها، كل ذلك وهو الذي يُقرّ بأن الدين ليس بوسعه تقديم نصائح أخلاقية!.

بالطبع كل ما فعل دوكنز هنا هو أنه صاغ قضايا إنشائية بطريقة خبرية، وإلا فهي «أسئلة لماذا» واضحة: لماذا تبقى هناك معلومات تقع خارج نطاق العلم؟! ولماذا لا يستطيع العلم تقديم نصائح أخلاقية؟!.

إن هذه الثغرات المُتكررة في خطاب دوكنز، سببها أمر واحد: محاولة بناء خطاب فلسفي بالقفز على الفلسفة. لكون العودة إلى فلسفة العلوم، تجعل كل مرافعات دوكنز إما منتفية من الأصل، وإما خاطئة التوجيه، وإما تصب في الاتجاه المعاكس لما يبتغيه دوكنز. لأننا لو ارتبطنا بفلسفة العلوم فلن نستطيع بناء خطاب شمولي بدون الارتباط بفكرة المُطلقات وبالتالي ستطل الميتافيزيقا برأسها، والالتقاء مع المؤمنين الذين يعتبرهم دوكنز خصماً لا يستحق التعامل الأخلاقي معه[٣]. وإن كان هذا لا يعني (ودوكنز محق هنا) ضرورة العودة إلى رجال الدين، أو الاعتراف بأنهم قسم علمي اختصاصي.

---

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٥٩.

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) وهم الإله، مرجع سابق، ص٦٠. فالقضية لدى دوكنز ليست في واقعها حواراً علمياً أو اتباع أدلة، بل حرباً ضروساً، وهذا ما يُفسّر طريقته الاستفزازية وعنفه اللغوي بل السلوكي في بعض الأحيان.

فأن يعجز فلكي عن إثبات معادلة فيزيائية مُعينة أو يشكك في وجود سِعة كونية مجهولة أو أن نظرية الانكماش الشامل هي الصحيحة أم لا، فعليه مراجعة رجال الدين ليفتحوا كتبهم القديمة ويسردوا عليه، أخبارها. هذه مسألة أخرى، وكان على دوكنز التمسك بها، لكنه لا يفعل لأن معنى ذلك التفرقة بين مسألة رجال الدين والمحيط الشعبي لهم وبين الدين، وكذلك بين مسألة الإيمان بالإله. ودوكنز يحاول تصفية الدين ورجاله ومحيطهم الشعبي أكثر من كونه مهتماً حقاً بفكرة الإله.

*

«نظرية الإله تتضمن أن الواقع الذي نعيش فيه، له فاعلٌ خارق هو الذي صمّم الكون، والعديد من فروع هذه النظرية تدعي أن المصمم يقوم بالصيانة على الدوام، وأحياناً يتدخل بمعجزات، والمعجزات هي خرق للقوانين غير القابلة للتغيير»[1].

لكن ماذا لو كان هناك دين وإيمان لا يقبلان أن تكون المعجزة كسراً للنظام الكوني، ولا يتم فيه تصوير الإله على أنه لاعب نرد بالقوانين، بل حافظ لها وهو مُسيّر ذاتويتها الكامنة فيها، وأن خارقيته هي هذا الكون المحسوب بدقة رياضية مُذهلة؟!

إن دوكنز حينما يصر على سخريته المُستمرَّة فإنه يحاول إخفاء أمر سيقلب العلم إلى خصم لدود لكل مطارحاته، ألا وهو فروع علم الفيزياء الحديثة، وعلى رأسها فيزياء الشواش، وفيزياء المستحيل، اللتان تجعلان كل سرديات الخوارق ضمن دائرة المعقولات العلمية وتقدمان دعماً هائلاً لها.

(١) المرجع نفسه، ص٦٠.

وبالتأكيد لا يملك ريتشارد دوكنز هنا تطبيق فكاهته حول عدم اقتناعه باحترام التخصصات، ما يمنعه كعالم طبيعيات أن يُعطي حكماً تقويمياً ضد مطلق اللاهوت ونكران مفهوم الإله بشكل جذري:

«ما أسهل هذا أليس كذلك! بإمكان ذلك أن يكون أي شيء ما عدا «اختصاصات غير متداخلة» وبعيدة كل البعد عنها. وماذا يريدون القول أيضاً؟ على هؤلاء العلماء المنشغلين بمدارس فكرية تتعلق بـ«اختصاصات أخرى» أن يعترفوا بأن كوناً مع خالق خارق سيكون مختلفاً عن كون بدون خالق، والفرق بين النظريتين لا يمكن أن يكون أكثر مبدئية وعمقاً، بالرغم من أنه ليس من السهل تجربة ذلك عملياً. يتعلق الأمر بمسائل دينية بحتة. وجود الخالق الخارق أو غيابه هو سؤال علمي بشكل صريح، على الرغم من عدم قدرتنا ـ حتى الآن ـ على الإجابة عنه. وكذلك الأمر بالنسبة إلى كل واحدة من الأعاجيب التي يعتمد عليها الدين ليخلق انطباعاً في نفوس العديد من المؤمنين، إما تكون صحيحة وإما كاذبة.

هل كان للمسيح عيسى أب إنساني، وهل كانت أمه عذراء يوم ولدته؟. سواء كان أو لم يكن لدينا دليل نقرر به، فلايزال هناك سؤال علمي صارم وإجابة مبدئية مؤكدة: نعم أو لا. هل أقام المسيح اليعازر من الموت؟ وهل قام هو نفسه ثانيةً بعد ثلاثة أيام من صلبه؟ هناك إجابة عن كل سؤال من هذا النوع، سواء كان أو لم يكن لدينا دليل علمي، وهو جواب علمي محض. كما أن الطرائق الواجب استعمالها لحل المسألة، حالة العثور على أدلة مساعدة عملية، يجب أن تكون طرائقاً علمية صرفة. ولجعل المسألة أكثر درامية، لنفترض أننا ولسبب ما عثرنا على دليل يقول: إن الحمض النووي للمسيح لا يوجد فيه أثر لأب بشري. فهل ننتظر من رجال الدين أن يهزوا أكتافهم بمقولات على وزن «و ما يهم ذلك؟ الأدلة العلمية ليس فيها ما يخص علوم

الدين.هذا اختصاص آخر! ما يهمنا هو السؤال الأبدي عن المسائل الأخلاقية.لاحمض نووياً أو أي اكتشاف علمي آخر سيكون له أي تأثير في اختصاصاتنا بأي شكل من الأشكال»؟.

الفكرة في ذاتها سخيفة بل نستطيع أن نكون موقنين كلياً بأنه لو ظهرت أي أدلة علمية، فيما لو ظهرت، لتشبث بها هؤلاء ولوصلت الضجة إلى السموات.إن شيوع مبدأ «اختصاصات غير متداخلة» يعود إلى عدم وجود أدلة تدعم وجود الله. وفي اللحظة التي يظهر أي اقتراح لدليل ما في مصلحة الإيمان الديني فلن يتوانى رجال الدين في رمي مبدأ «اختصاصات غير متداخلة» من النافذة. لو تركنا رجال الدين المُحدثين (حتى هؤلاء يقومون بسرد الأعاجيب على البسطاء لجمع الأتباع) على حدة، فإن تلك الأعاجيب المزعومة هي السبب الرئيسي الذي يجعل من يصدقها مؤمناً، والأعاجيب بالتعريب هي شيء يناقض المبادئ العلمية»[١].

كم مرة ياترى سيعود دوكنز إلى نقد الأساطير والحكايات الشعبية وسرديات الأخبار في كتب المعتقدات[٢]، وهو الذي قال إن نظرية وهم الإله،

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٦٠.

(٢) والتي لم ينحسر عنها الفكر البشري بهذا الحد لولا ظهور الأديان التوحيدية، وإلا فيمكن مقارنة البلدان التي ظهر فيها التوحيد والبلدان التي لم يظهر فيها التوحيد لنجد تلكؤ نضج فكرة العلية، كما هي حال شرائح واسعة من الهند وسريلانكا والصين، ودور الدين في تطوير الفكر العلمي قصة لابد أن تكون غائبة كلياً في ذهنية ديماغوجية تصوّر أن الدين وحده مناقض للفكر العلمي وباني أساطير ليس إلا، حيث هو دائماً: شرّ فقط. طبعاً كل ذلك بدون أرشفة واقعية لما حدث كي ندرك كمية الإيجابيات والسلبيات، بل مجرد الاكتفاء بتعاطف سلبي مبني على استقبال أدلة النفي فقط.

لا يليق بها ذلك، وإنه لا ينتقد سوى نظرية الإله البرهانية الاستدلالية التي وحدها الجديرة بالمناقشة العلمية؟!.

إن الشفقة المثيرة تبلغ هنا من الانعطاف صوب جزئيات طقوسية استبدالاً بها بموضوع البحث الذي هو وجود الإله. بكل بساطة نجد أنفسنا في موضوع (الدعاء) وكأن المؤمنين قد قالوا: إن كل من يُدعى له، فهو مشافى، أو أن تحقق استجابة الدعاء مرتبط بـ«كثرة» الداعين. أو جود حتمية بين الدعاء والتحقق، أو غير ذلك من الافتراضات التي لم يقلها المؤمنون البتة[١]، وبالتالي يمكن لنا إجراء مقارنة بأخذ مجموعة عشوائية لمرضى يُدعى لهم، وبين مرضى لا أحد يدعو لهم، وبالتالي نحصل على «مفاجأة» بعدم وجود أي فرق، بل قد يكون العكس هو الصحيح[٢]. وبالطبع لو أننا أجرينا تجربة مماثلة بين الأثر النفسي لمؤمن متعمق يعاني السرطان مثلاً، وبين مُلحد متصلب، وكانت النتيجة لمصلحة المجموعة الأولى، فإن علينا أن لا نأخذ هذه النتيجة بشكل مباشر، بل علينا أن نخضعها لتأويل نفسي ينسجم مع مدارس مادية التفسير، وعليه فكل النتائج معروفة مسبقاً سواء كانت بالسلب أو بالإيجاب، بأن الدين ليس له أثر واقعي!. حسناً إذن، علينا وفق هذا أن لا نستغرب أن دوكنز يرفض النتائج التجريبية التي كانت لمصلحة الدعاء، ويتمسك بموقفه المُسبق منها، مهما كانت تكاليف التجربة اختصاصية وحيادية[٣].

---

(١) هناك قراءات عديدة ومتنوعة جداً حول موضوع الدعاء وموضعه في فهم الدين، انظر كنموذج: النقاء والارتقاء، الدعاء وثقافة المعنى بين علي شريعتي ومحمد الصدر، دار الفارابي ـ بيروت ٢٠١٢.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص٦٤.

(٣) يقول دوكنز في ص٦٥ من «وهم الإله» إن التجربة التي كانت نتيجتها لمصلحة الدين، لم تكن بسيطة فهي من ناحية التكاليف بلغت ٢،٤ مليون جنيه استرليني، ومن

فحتى لو كانت لدينا تجربة ملموسة وموضوعية، والذين قاموا بها غير دينيين وحياديين، تبقى النتيجة لا قيمة لها مادامت لمصلحة الدين. حيث يبدو أن على العلوم أن تنتج النتيجة التي ترغب فيها نفسية دوكنز وأشباهه ومقلدوه، وبدون ذلك فهي لا تستحق سوى السخرية!. يقول دوكنز في نهاية عرضه لتجربة اختبارات الدعاء بأن المؤمنين يعرفون أن للصلوات تأثيراً، وإذا فشلت الإثباتات التجريبية «فسوف نبقى على موقفنا حتى نحصل على النتائج التي نريدها»[1].

لكن أليس هذا بالتحديد هو موقف دوكنز بالذات، فهو يقر بأن للعلم حق الحديث عن الحقيقة لكن شرط أن تكون لمصلحة الإلحاد، ويبقى كجل التطوريين يؤمن باقتناعاته المُسبقة قبل أي تجربة وامتلاك شواهد وعينات، يبقون متحصنين بهذا الاقتناع بانتظار الحصول على النتائج التي يريدونها، ساعتئذ فقط سيتم الاعتراف بالطبيب أو الفيزيائي أو الفلكي، بأنهم «علماء» وبغير ذلك فهم مجرد سخف و«عمى مزدوج»!.

لكن أليس كل هذا عبارة عن تفرعات في وديان الدين، في حين أن موضوع بحثنا هو فكرة الإله كحقيقة استدلالية، لماذا نعود مرةً تلو أخرى للدخول في أزقة ودهاليز شديدة التفرّع والاستطراد؟!

في الحقيقة إن ريتشارد دوكنز لا يجد وسيلة للالتفاف على معضلة كيف يمكن لعلم الطبيعيات أن ينفي المطلق، إلّا أن يسرد حكايات رجال الدين

ناحية المباشرة كان الإشراف بواسطة فريق عمل برئاسة الدكتور هربرت بينسون، وهو طبيب قلب متخصص، ومن ناحية النماذج تم استخدام ١٨٠٢ من المرضى في ستة مستشفيات مختلفة، وقد نشرت الصحف الأميركية عام ٢٠٠٦ أن نتائج التجربة كانت أمينة وقاطعة. إذن، ماذا سيفعل الماديون تجاه تجارب كهذه؟ سيتركون الواقع الموضوعي ويجرون تأويلاً لها، هكذا ببساطة!.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٦٨.

وطقوس المؤسسات الكهنوتية. والجميع يتذكر كيف اختصر دوكنز القرآن والإسلام بحكاية الحصان السحري للمعراج، تشتيت انتباه المُتلقي وسحبه إلى صورة كاريكاتورية، كي يتحول الأمر إلى مرافعة لغوية يُنسى فيها أصل الموضوع الذي هو فكرة الإله ككيان وجودي مطلق ينتهي عنده سؤال الذاتية، سؤال الـ (ماذا).

لا يمكننا نفي حقل من الحقول المعرفية، أو التي تدعي ذلك (كالطب البديل، وعلوم الطاقة والباراسايكولوجيا..الخ) من خلال سلوكيات القائمين عليها، وإلا لسقطت علوم الأدب كافة لكون كبار الروائيين لديهم طقوس غريبة في القراءة والكتابة. لا يعني ذلك أبداً استبعاد العلم عن مراقبة المؤسسة الدينية ورجالها، على العكس تماماً، فالعلم يُقدِّم لنا باستمرار جزءاً من الحل لتعرية استخدام الدين من حاجة معنوية وقناعة استدلالية، إلى مقابر من المفاهيم المتعفنة.لكن كل هذا يخص رجال الدين وشرائح المجتمع الشعبي التابعة لهم، ولا علاقة له بالدين فضلاً عن فكرة الإله نفسها.

لكن ما الذي يطالب به دوكنز بالتحديد؟!

هو يسخر من الدين لكونه يتبنى فكرة المعجزات، لكن إذا ما قلنا له مثلاً: إن فكرة المعجزة بالمفهوم الذي يطرحه مرفوض من أديان ومذاهب متعددة، لكون الوجود بما هو هو، معجزة، وظهور الإله بشكل ملموس وتلاعبه بشكل مستمر بالنواميس كي يؤمن به جيل مُحدد ثم تكرار اختراق الطبيعة مرة أخرى كي يؤمن جيل آخر وهكذا، كلاهما يلغي فكرة الدين نفسه. حيث لايغدو هناك مجال للحرية بل للرضوخ فقط، وإذا انتفت الحرية سقطت العبادة، وبالتالي تبطل فكرة الإيمان من الأصل.

حسناً إذن، فلنقل إنه هنا دين يطرح الإله بلا معجزات ناقضة للطبيعة، هنا سيسخر دوكنز «أقتبس هنا تعليق «أليس» على خطاب أختها قبل أن تسقط

في أرض العجائب: ما فائدة الإله الذي لا يجترح المعجزات ولا يستجيب للصلوات؟»[1].

الغريب أن دوكنز إن طُرحت له فكرة الإله بأنه صاحب المعجزات، طالب بالحفظ على إله يحفظ الطبيعة واعتبر هذا النقض جديراً بنفي الإله. وإن طُرحت له فكرة الإله كحافظ للطبيعة بلا اختراق معجزة وأن هناك تصويراً آخر للمعجزة ينفي عنها صفة التعارض مع القوانين العلمية، اعتبر أن فكرة الإله غير جديرة بالإيمان لعدم وجود المعجزة!.

ثم إن هذا التهكم على مبدأ «اختصاصات غير متداخلة» والذي هو ليس طرح رجال الأكليروس واللاهوت، بل هي قاعدة مختلف في تصويرها في فلسفة العلوم القديمة والحديثة، لا ينسجم أبداً فيما لو تذكرنا أن دوكنز يقفز بنتائج علوم الأحياء التي هي مدار نظرية التطور والانتخاب الطبيعي، إلى الكون بأجمعه، ودوكنز كان يتهرب من النتائج المتعلقة بالفيزياء، حتى أعلنت الصحف تشكيكية ستيفن هوكينغ، وهنا انشرحت أسارير دوكنز، وبما أنه لم يكن مهتماً بنتائج الاختصاصات الأخرى، فهو ما كان سيتراجع فيما لو تم العكس وأعلن كبار علماء الفيزياء والفلكيات، مثلاً، إيمانهم. نحن نجد أن الفيزيائيين يعتبرون نظرية التطور «قصة منفصلة» ويتحدثون عنها بحيادية، لكونها ببساطة ليست من اختصاصاهم، مع أن كثيراً من فروعها يقع في دائرة شمولية معادلة الفيزياء النظرية المتعلقة بأصل نشوء الكون ونهايته. هذا فضلاً عن استقلالية علوم الاجتماعيات والسايكولوجيا والأنثربولوجيا وفروع كثيرة من الآداب، عن حقلي علمي الأحياء والفيزياء، كل ذلك ونحن في علوم

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٦٢.

موضوعها مُحدد في عالم الطبيعة والمادة المُباشرة، فما بالك بمواضيع علوم مُتغايرة، مع ذلك يتم الاكتفاء بالسخرية الإعلامية من مبدأ الاختصاصات غير المتداخلة فيما يخص غير علم الأحياء، والصمت عنه في جريانه بين بقية العلوم نفسها!. إنه طرح لا يبتغي «العلم» بل «السيطرة» فهذا الانحياز المُسبق يبتغي الاستحواذ والهيمنة، وليس الفهم والمعرفة[1].

«بالرغم من ذلك، لنتبع غولد ونلغي الكثير من الأشياء ونضع الحدّ الأدنى للدين: لامعجزات، ولا اتصالات بيننا وبين الله بالاتجاهين، ولا لعب بالقوانين الفيزيائية، ولا دوس ساحات العلم. أكثر ما هنالك الإيمان بظروف مبدئية بأنه في وقت ما تطورت النجوم والكواكب والعناصر الكيميائية، وظهرت الحياة. هل هذا الفصل كاف؟ هل بإمكان مبدأ «اختصاصات غير متداخلة» الاستمرار إلى جانب دين متواضع معتدل كهذا؟.

ربما تظن أن الأمر كذلك. ولكن سأقول بأنه حتى الإله «اللامتدخل» كهذا بالرغم من أنه أقل دموية وحماقة من الإله الإبراهيمي، فإنه أيضاً لا يعدو كونه افتراضاً علمياً. سأعود إلى النقطة الأساسية: الكون الذي يفترض أننا نعيش فيه بمفردنا أو مع مخلوقات ذكية أخرى تتطور ببطء، هو كون مُختلف تماماً عن كون صممته وتوجهه طاقة ذكية من نوع ما، ذكاؤها التصميمي كان سبباً في وجوده. وسأقبل بأن التفريق بين هذين الكونين لن يكون مسألة بسيطة. على الرغم من ذلك، فهناك شيء أساسي خاص تماماً بنظرية الكون المُصمم، ويوجد ما يقابله في الخصوصية في النظرية المغايرة والمعروفة:

التطور التدريجي بمعنى عام، نظريتان متناقضتان بأقصى ما يُمكن تخيله. نظرية التطور تُعطي تفسيراً لوجود كيانات احتمال وجودها صغير جداً لدرجة

(١) عبداللطيف الحرز، تأويل آية النور عند العلامة المجلسي، تعليقة في إشكالية التجريد والسيطرة والتجاوز، دار الفارابي ـ بيروت، ٢٠١٤، ص٣١، ٢٨٢.

يمكن إهمالها تماماً في أي نظرية أخرى، ونتيجة المحاجة تلك ستكون..ضربة قاضية لنظرية الإله ككل»[١].

هل نظرية التطور في الأحياء هي التي تعطي هذه الاحتمالات، أم أطروحات الفيزياء النظرية؟!.

إن ثمة محاولة لخلط الأمور كي لا تظهر عملية التعسف في توسعة نظرية الانتخاب الطبيعي من مجال الأحياء إلى مجال الوجود ككل.

مع دوكنز تتحول نظرية التطور الآن[٢] من نظرية لم تستطع قط تفسير كيف تتحول المادة غير الحية إلى مخلوق حيّ ويحتفظ بالصفات المطلوبة لمستقبل الأجيال، وتعتمد في استدلالاتها ليس على الاستقراء بل في كثير من الأحيان على نموذج واحد بل وحيد في كم هائل من الشواهد[٣]، إلى قواعد

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٦٣.

(٢) أو تتطور هي الأخرى لكن ليس بتوالد ذاتي، بل عبر خطة وتصميم وغاية!.

(٣) كأن يُقال مثلًا من قبل المعترضين على التطور: إن الطيور أصلها ديناصورات، وهذا اقتناع راسخ لا علاقة له بأي دليل ملموس!، لكن سيتحول من عين اليقين إلى حق اليقين، حينما يتم إعلان العثور على أحفورة عظام ديناصور له ريش وله مقدمة مختلفة لقوائمه، وفق نموذج واحد لن يُقال إنه نوع مختلف من الديناصورات، بل هو الحلقة الوسطى بين الطيور والديناصورات، أما كم من الناس يا ترى يستطيعون التحقق من هذه الأخبار الـ«علمية»؟! فهذا ما لايمكن لأحد الإجابة عنه، مع ذلك يجب أن تكون مثل هذه النتائج حقائق يقينية مسلماً بها للجميع وإلا باتوا مجاميع منغلقة ضد العلم!. أكثر من ذلك، مثل هذه الطريقة من الاستدلالات على موضوع جزئي يُراد له أن يتحول إلى خطاب شمولي لنفي المُطلق. إنه منطق بعض حملة الشهادات «العلمية»، ترفدها مؤسسات إعلامية ضخمة، وما باليد حيلة!. حتى أن الإنسان ليسأل نفسه مرات عديدة: هل نحن أمام «علم» حقاً» أم أننا أمام «إيمان» مجرد؟!.

محاجة فلسفية استنباطية، ثم تعاد السخرية من كل فكرة مناقضة بأنها أفكار غير علمية لايساعد عليها الاستقراء وتكرار التجربة!.

وأين التضاد والتناقض بين وجود العامل التطوري كقانون داخلي في اتساع الحياة، وبين كون ذلك قائماً على إله هو الذي منح هذه الذاتية وبذرة البداية، وجعلها وجوداً وليس ماهية فقط. فواحد زائد واحداً يساوي اثنين، لكن هذا لا يعني تحقق ذلك بالفعل، وهذا ما لم يفهمه ستيفن هوكنغ حينما خلط في فكرة الأكوان المتوازية بين «الافتراض» والإمكان، باعتبارها فرعاً من شيء واقعي عرفنا قوانينه التي لولاها لم نحصل حتى على هذه الفرضيات نفسها، وبين محض الفرض الذي لا يساوي التحقق بالفعل. فنحن لو تمسكنا حقاً بفكرة الأكوان المتوازية سوف يمكن افتراض بداية بصورة أخرى عن الانفجار العظيم وبالتالي تنتهي حكاية ستيفن هوكنغ عن كل شيء، قبل أن يبدأ بسردها.

وإقرار دوكنز بأن التفريق بين الكونين ليس قضية بسيطة، فضلاً عن كونه إقراراً يهدم أصل فرضية التوهم نفسها، يحوي مغالطة قياس علم الأحياء على الكون نفسه، وهذا ما لايمكن أن تقوله نظرية الانتخاب الطبيعي بكل صيغها. بإلاضافة إلى كوننا لا نعرف أي قانون معرفي أو طبيعي إلا من خلال هذا الكون نفسه، وفرض أي كون آخر هو مُنتزع منه محسوب عليه. فضلاً عن كون هذه القضية مجرد فرضية أخرى إضافية زائدة لاتقع ضمن نتائج نظرية التطور، وأن الدكتور الأكاديمي الـ«علمي جداً» بات يعتمد على الخيال المحض!.

مع توما الأكويني: المناقشة بترك المناقشة

حتى ص٧٩ من كتابه «وهم الإله» حاول دوكنز بيان السخف الذاتي للدين، لكنه لم يستطع. جهد أن يُبين أن الدين شرّ بنفسه، ولم تكن لديه شواهد استقرائية كافية، حاول تحديد موضوع بحثه بأنه هو الإله الاستدلالي غير الشخصي، لكنه ناقش الدين ورجالات المؤسسات الكهنوتية، ووقف عند المعتقدات الشعبية، تاركاً أصل الموضوع. ورغم كثرة الإسهاب والتكرار في مؤلفات ريتشارد دوكنز الكثيرة، إلا أنها لم تستطع سوى إعادة القفز على المقدمات الاستدلالية والاكتفاء بتحيزات مسبقة ينجر إليها الوجه المألوف لنتائج تقع لمصلحة نفي الإله أو الدين. فهذه الكتب الكثيرة القائمة على جعل الداروينية متكأ للإلحاد لم تستطع أن تنكر بأن الداروينية لا تعمل إلا بعد ظهور الحياة، وهذه الحياة هي بالنسبة إلى الكون مجهولة «نحن لا نعرف أي مواد كيميائية خام كانت متوافرة على سطح الأرض قبل نشأة الحياة»[١]، وهي بالنسبة إلى الكائن الحي الأرضي مجرد عملية تخيلية لم تنجح كل تطورات العلم في إثباتها: «من غير الصعب تخيّل جُزيء يستحدث نسخاً مطابقة له»[٢].

تعثر دوكنز بإيمان آينشتاين، فعمد إلى تأويل كلامه، ثم اصطدم بوجود علماء طبيعة متخصصين مثله، يقولون بالتطور مثله، لكنهم لا يجدون مشكلة

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق،ص٢٧.

(٢) المرجع نفسه،ص٢٩.

مع الدين، هنا لم يكن لدى دوكنز أي حلّ سوى التأويل أو السخرية. ليتطور الأمر إلى محاكمة الضمائر وخبايا النفوس، فالبابا بولص الثاني منافق لكونه دعم نظرية داروين، وزملاء العمل والاختصاص والمشتغلون بالبحث والصحافة، الذين يخالفونهم في الرأي، هم على التوالي نصابون وكذابون ومزورو كتابة.

وبعد أن تتم توسعة نظرية الانتخاب الطبيعي من نظرية في الأحياء لمخلوقات الكوكب الأرضي، إلى جعلها منطقاً كونياً يشمل كل المخلوقات الفضائية التي يمكن فرضها، ننتهي إلى تصور مخلوقات فضائية تبلغ حدّاً من التطور حتى يمكن أن نراها آلهة، وهذا الفرض الخيالي هو دليلنا على خيالية معتقدات أسلافنا، ولا يهم بعد هذا أن تكون هناك حضارات قديمة فعلية، وليست فرضية، متقدمة جداً بما لا ينسجم مع نظرية التطور، ولا يهم أن من لديهم التقدم التكنولوجي لم ترتبط بهم دعاوى غيبية، والذين لهم دعاوى غيبية لم يكونوا يستخدمون آلات مُعينة. فضلاً عن أن كل هذه الفرضيات الخيالية لا علاقة لها بمشكلة الواجب والممكن وأدلة ضرورة انتهاء المتغيرات التي لا تعي تغيراتها، إلى ثابت يعي كل شيء.

الآن يحاول دوكنز أن يعرض لنا النقاش التاريخي للإلهيين وكيف استدلوا على ضرورة فكرة الإله. ولا نستغرب هنا أن نجد دوكنز يفتتح فصله الجديد بتوماس الأكويني. فدوكنز خطابه مُشبع بالمحلية وليس العالمية، وهو الذي يُنظِّر لما وراء المجرات والكواكب!. فأغلب أحاديثه عن الإله والدين مرتبطة بالمسيحية بشكل أساسي، ولا تشمل ديانة أخرى. لكن خطاب المركزية الغربية ومُقلديه يطرحونه بصيغ تخيّلية باعتباره خطاباً عاماً يشمل فكرة الإله بشكل مطلق.

وعليه لن نستغرب إذا وجدنا دوكنز يقفز على أهم مسألة في بحث فكرة الإله: ماهو ملاك الحاجة إلى العلة؟!.

وهنا يتبين الضعف الذهني الاستدلالي لريتشارد دوكنز. فهو يخلط أبسط المفاهيم التي يقرأها. لن نُبين هنا حقيقة ما قاله توما الأكويني، وسنفترض أن ما نقله دوكنز صحيحاً. لكن لنرى كيف يستدل دوكنز نقضياً على أدلة فكرة الإله، إنه يخطىء في مقام التصوّر، لا قدرة له على فهم ما يقوله الآخر، قبل أن يسوق أحكامه وبراهينه في مقام التقويم والتصديق.

يستعين توماس الأكويني بتراث الإغريق والمسلمين[1]، باستحضار دليل الحركة، بأن كل شيء متحرك بحاجة إلى مُحرِّك، وأن كل شيء مرتبط بأسباب، ولكي لا نقع في الدَور، ولا التسلسل ،لابد من الوصول إلى محرِّك وسبب أعلى لا محرِّك ولا سبب له. والدليل الثالث هو أن الأمور المادية والفيزيائية لابد أن يكون فوقها أمر غير مادي ولا فيزيائي أوجدها، لأن ما هو مثلها ينطبق عليه الحكم نفسه، وحكم الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحد.

أولى جهالات دوكنز أن قال: «كل الحجج الثلاث تعتمد على مبدأ التراجع الزمني»[2].

في حين أن مبدأ التراجع الزمني يشمل الدليل الأول والثاني فقط. أما الدليل الثالث فقائم على مبدأ أن التماثل في الماهيات يعني التماثل في الحُكم ومن ثم نوعية الوجود.

مع ذلك فلنقل جدلاً، إن الأدلة الثلاثة، التي هي أدلة توما الأكويني وليست أدلة جميع الإلهيين، تعتمد التراجع الزمني فأين هي المشكلة؟!

«الافتراض الذي لا مبرر له هنا هو أن الله منيع عن الزمن. حتى لو أننا

(١) الظمأ الأنطولوجي، مقدمة تفسيرية، منشورات نوارس - بغداد ، ٢٠١٦، ص٣٣٦.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص٧٩.

سمحنا لأنفسنا بالتبجح بأي شعوذة عبثية لإيجاد منهٍ للتراجع الزمني اللانهائي وأعطيناه اسماً ما، لأننا ببساطة نحتاج إلى واحدٍ، فليس هناك أي سبب إطلاقاً لمنح هذا الذي أنهينا به التراجع الزمني أياً من المواصفات التي يتصف بها هذا الإله: القدرة الكلية، العِلم الكلي، الرحمة، الخلق الذكي، ناهيك عن الصفات الإنسانية كإجابة الدعاء وغفران الذنوب وقراءة الأفكار»[1].

كم غريب هذا الرجل!، نحن هنا نقوم بافتراض وهو يعامل الفرض كأنه رحلة حقيقية، لانريد هنا العودة إلى آينشتاين ومجموعة الفيزيائيين القائلين بإمكانية العودة إلى الماضي، لكن كيف يتم الاستدلال هنا بعنجهية لاأخلاقية تصل إلى درجة من العمى الطوعي لمحاولة تصوير كاريكاتوري لمقولات الآخر، لقد سبق أن سمعنا من دوكنز قصته الخيالية عن المخلوقات الفضائية التي تم اعتبارها من قبله الآلهة، ولم يكن يعني ذلك الفرض أية شعوذة، لماذا بدل أن يفحص مدى منطقية الفرض هنا يستخدم لغة التجريح الهابطة هذه؟!

وكيف يتم النقض هنا بالعودة إلى أصل الدعوى؟!. إن فرض استدلالات توماس الأكويني يعني لزوم أن يكون الله خارج الزمن، لأن الزمن جزء من مقولة الحركة وعلاقات الأسباب والمسببات، ولو كان زمنياً لكان مثلها وهذا ما يمنعه الدليل الثالث فضلاً عن جوهر الدليل الأول والثاني، حيث يبدو أن دوكنز لم يفهم أي شيء منها.

إن الجميع بإمكانه فرض العودة إلى بداية الزمن، ليس فلاسفة القرون الوسطى فحسب، بل مازال حتى علماء الفيزياء المعاصرون يفعلون ذلك وعليه اعتمد ستيفن هوكنغ، بل حتى دوكنز نفسه، حيث تخيل أنه لابد أن

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٧٩.

تكون هناك بدايات تطورية للمخلوقات الفضائية التي نفترض وجودها. كل ذلك بدون أي «شعوذة».

ثم إن دوكنز هنا يتكلم ولا يسمع، لذا يسقط مرات عديدة في تقويل الآخرين ما لم يقولوه ثم يحاسبهم على ما قاله هو لنفسه!. وإلا فالإلهيون هم أنفسهم من قال إن أدلة الثبوت لاتغني بنفسها لتثبيت الصفات. فنحن مثلاً حينما نؤمن بالإله عبر دليل الحدوث، لا يعني ذلك أن دليل الحدوث قد كفانا مؤنة الحاجة إلى أدلة أخرى لتثبيت الصفات الإلهية.

ثم إن الكلام الآن هو في ثبوت وجود الإله، وليس مناقشة صفاته. لأنه لو يثبت وجود الإله، فطبيعي عندها عدم الخوض في أسمائه وصفاته. من الواضح أن دوكنز يفزعه التوقف عند هذه الدلالة البسيطة لكونها يمكن أن تشمل سلسلة تطور الأحياء، فهذا لون من الحركة ،وهي سلسلة من الأسباب والمسببات المتتابعة والمتصلة، وكلها سلاسل الأنواع التطورية تجري في متماثلات مادية، وهكذا حينما نعود إلى الخلف، كما يفعل التطوريون أنفسهم دون أي حاجة إلى تسخيف البحث بالشعوذة، نجد أنفسنا ننتهي إلى مشكلة الذاتية والعنصر الأول الذي تحرّك وتغيّر والذي لو كان السبب مشابهاً له ومن جنسه، لصدق عليه الكلام نفسه ولتسلسل الأمر ولم تظهر الحياة، وعليه لابد من فرض أن البداية غير مادية بالمرة كي ينقطع السؤال. مع ملاحظة أن دوكنز سوف يكسر ما يحتفي به داروين والتطوريون من قيام نظريتهم في الانتخاب الطبيعي على العشوائية والصدفة، ليقول إن الانتخاب الطبيعي ليس نظرية في الصُدف بل هو على العكس من ذلك تماماً[1].الأمر الذي يجعل نظرية التطور مرتبطة بالعلية، وبهذا لن تكون في مقابل فكرة القول بالعلية الكبرى مادامت

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١١٤.

قد دخلت في سياق نظريات السببية، لكن، ولن يفاجئنا ذلك لكثرة تكراره، دوكنز سينسى أو يتناسى هذا ليعود بالاكتفاء بابتسامته الباهتة ليغدو البحث العلمي أشبه بالتعامل مع شخص مصاب بفقدان الذاكرة أو الزهايمر الطوعي.

ويبدو دوكنز تائهاً كلياً في معنى الزمن في البحوث الفلسفية لذا هو يزداد تخبطاً كلما حاول أن يخطو خطوة أخرى:

«لو كان الله كلي المعرفة فهو يعرف بالتأكيد ومسبقاً كيف سيتدخل بقدرته الكلية ليُغير مجرى التاريخ. هذا يعني بأنه لا يستطيع تغيير رأيه بهذا الموضوع، فهو بالتالي ليس كلي القدرة لأن هناك شيئاً لا يستطيع عمله. كارين أونز صوّرت ذلك التناقض الذكي في مقطع شعري لا يقل ادعاءً عنه:

هل يقدر الله، هذا العليم

بكل ما تخفيه الصدور

وقادر على كل شيء

أن يُغيّر ما في عقله يدور؟»[1].

لقد اعتبر دوكنز أن افتراض العودة إلى الوراء في عالم الخلق، الذي هو أمر ممكن بناءً على ما سبق معرفته من خبرة في تشابه الأشياء، أمر شعوذة ولا يصح الإنصات إليه، لكنه فيما يخص العودة إلى الوراء في عالم الخالق، الذي لايوجد لدينا عنه أي شيء كي نقيسه به، يكون أمراً منطقياً وسهل الإمكان!.

إن دوكنز هنا:

١ ـ خلط بين دليل الإثبات وبين مسألة الصفات. وهو يتصور أن القول بوجود الله يعني القول بهدم نظام الأسباب وقوانين الطبيعة وفوضوية العلاقات الوجودية، ويتحول العالم إلى دنيا عجائبية من الخوارق المتزاحمة.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٨٠.

٢ ـ منع إمكانية الافتراض في عالم الموجودات الإمكانية المعروفة، بينما احتضن الافتراض ما يخص عالم الربوبية الذي نجهله. فصار المعلوم مجهولاً كي لا نستفيد منه في استدلال، وصار المجهول معلوماً كي يتحول المجهول إلى سخرية.

٣ ـ يفرّ عالم الأحياء الأكاديمي المعاصر إلى شُبهات القرون القديمة، حيث هناك ما هو أقوى من كل الحجج التي لو عرفها دوكنز لسكر رقصاً وطرباً، مثل: لو كان الله كلي القدرة، هل بإمكانه أن يقتل نفسه، إذا لم يكن يستطيع فهو عاجز في بعض الأمور، وإذا كان يستطيع فمعناه صح نفيه فلا يكون واجب الوجود.

في حين أن هذه الشبهة هي:

أ ـ مجرد تفريع خيالي على افتراض ذهني صرف، وليس افتراضاً مبنياً على معلوم واقعي. فالذي يقبل الزوال هو الوجود غير الواجب، وفي اللحظة التي تفرض أن الله يُقتل أو يموت لن يكون هو الله حيث تبدل الموضوع، لذا فعبارة مثل عبارة نيتشه (موت الإله) لا معنى لها فلسفياً، وتبقى محصورة في عالم الأدب فقط.

ب ـ إن هذه الخيالات مبنية على تصوّر شخصاني للإله وليس حقيقة وجودية أعمق وأوسع وأعقد بكثير من كل أنظمة القوانين الفيزيائية والأحيائية. وموضوع الإله الشخصاني، يفترض أنه من السخافة أن فكرة وهم الإله، تترفع عن مناقشته، فيما هي في الحقيقة لا تملك غيره للحديث عنه!.

ج ـ تم حل هذه الشبهات عبر فكرة أن النقص في القابل وليس في الفاعل، وأن المستحيل بالذات لا يكون وجوداً .

د ـ في القضية انزلاق بإسقاط المجازات العاطفية على المقولات العلمية، فكلمة «عجز» مثلاً تحمل شحنة نفسية في حين أنها كلمة لامعنى لها فيما لو استخدمناها كمعيار شامل، فقولنا مثلاً إن الأثنين تعجز أن تكون بنفسها ثلاثة واثنين في الوقت نفسه، لا تعني نقصاً، بل إن حقيقتها الواقعية هكذا، وإن كمالها هو هذا، وإلا لم تكن اثنين أصلاً.

هـ ـ إن هذا التصور من دوكنز مبني على تصور الله زمانياً، لذا فهناك فرق زمني بين علمه وبين فعله، وهو تصور للإله أقرب للأفكار الشعبية،لا غرض للعلماء الإلهيين به.

إن عرض ريتشارد دوكنز للمقالات الفلسفية يشبه السكران المترنح الذي يدور حول نفسه، وهو يحسب أنه قد طاف كل الدنيا:

«لنعد إلى التراجع الزمني اللانهائي والعبث الناتج من إدخال إله لحل الموضوع. لأنه من الأرخص استحضار شيء ما، كنظرية «الانفجار العظيم» أو أي مبدأ فيزيائي غير مُكتشف بعد. إن تسمية هذه الأمثلة بالإله هي في أفضل الأحوال عبثية وفي أسوئها مضللة بشكل خبيث»[1].

نحن إذن، حتى لو أثبتنا عدم إمكانية اعتماد أية نظرية لنفي وجود الله، علينا الاكتفاء ببساطة بالقول إن ثمة نظريات لعلة نكتشفها ذات يوم!. قضية

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٨٠.

الإلحاد إذن، ليست اقتناعاً متفرعاً من نظرية علمية، بل اقتناع سابق لكل نظرية وجدت أو حتى يمكن أن توجد!.

إذن، سنكتفي بالرد على المحاجات الفلسفية بأنها ببساطة: أمثلة عبثية ومضللة خبيثة، هكذا يكون الرد «العلمي الدقيق»!.

علماً أن ما يصفه دوكنز بالعبثية هنا وأنه مستحيل تصوره وفرضه، سيعود ليقر أن فكرة التراجع الزمني هي «حجة قوية، وأتصور أنها غير قابلة للنقض»[1]!.

لقد قرأنا أن توما الأكويني استعار تنظيرات أرسطو والفلاسفة المسلمين، وقال إن كل متحرك وسبب يجعلنا نسأل عن علته، فنضطرب للعودة إلى الخلف ونسأل السؤال نفسه عن حقيقة ظهور حركته ووجوده، وهكذا لو أننا افترضنا العودة إلى الخلف لوجدنا سلسلة متشابهة ينطبق عليها السؤال نفسه، ولا نتوقف إلا حينما نضع أمام هذه المعادلة الكونية الهائلة فكرة الإله، هنا سيكون ظهور الوجود مفهوماً[2]، لكن دوكنز يعود ليختلق للافتراض صورة أخرى، لم يذكرها توماس الأكويني ولا غيره من الإلهيين، حيث أن افتراض العودة الزمنية، يعني القول بالعودة بشكل خارجي وواقعي. وبما أنه ليس هناك عالَم غير الماديات يعترف به دوكنز، كان من الطبيعي عندئذ أن يرى أن هذا الافتراض يعني العودة القهقرى في أصول الأشياء المادية وصولاً إلى الذرة والبروتون. لكنه حينما يصل إلى ذلك لن يسأل أبداً: حسناً وكيف ظهرت هذه الذرة وفيها كل هذه القوانين، ولماذا هذه القوانين دون غيرها؟!

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١١٤.

(٢) على خلاف ما قاله ستيفن هوكنغ بأننا لا نحتاج إلى فكرة الإله كي نفهم الكون، بالطبع هو لم يفسّر ذاتية الجزئيات ولا كيف تنشأ البداية من اللاشيء.

«أغلب أشكال التراجع الزمني تصل إلى مرحلة من النهاية الطبيعية. سابقاً كان العلماء يتساءلون عم إذا كان من الممكن تقطيع الذهب مثلاً، إلى أصغر قطعة ممكنة. لماذا من غير الممكن تقطيع تلك القطعة الأخيرة والاستمرار في تقطيعها أجزاء ذهبية أصغر؟ التراجع في هذه الحالة محسوم النهاية عندما نصل إلى الذرة. تلك هي أصغر القطع الذهبية وتتكون بالضبط من ٧٩ بروتوناً وأكثر من ذلك بقليل من النيوترونات، وبحضور حشد من الإلكترونات. عندما «نجزىء» ذرة الذهب إلى حد أبعد من الذرة، فإنه لا يعود كي يكون ذهباً»[1].

ومن قال إننا نبحث في الطبيعة فقط؟!

ثم لو قلنا إن افتراض العودة بالسلسلة الوجودية إلى الخلف يعني الدوران في عالم المادة فقط، لبطلت صورة البراهين الثلاثة من البداية، لكون هذا يعني أننا نبحث عن عنصر مادي نفترض أنه الإله، ونسكت عن تماثل هذا العنصر مع غيره ولا ينقطع السؤال عن علة حركته وظهوره. إن هذا تقويل للآخر، فرضه دوكنز ثم داخ به كعادته.

إن الفلاسفة لا ينكرون أن المادي يُمكن أن يُقطع إلى حجم لايمكن بلوغ ما هو أصغر منه، لكنهم لم ينسوا أن اختصاصهم هو الفلسفة وليس أمراً آخر، كما ينسى دوكنز، لذا فهم حينما يقولون: (استحالة الجزء الذي لا يتجزأ) يعنون به أن الجزء حينما يصل إلى أقصى صغره تبقى هناك إمكانية قسمته بواسطة الوهم والعقل. بمعنى أنه بما أننا نجري عملية قسمة مستمرة، فهنا موضوع وفاعل، وكلها «وجودات» لا ينتهي السؤال أبداً عن علة وجودها لو تم إرجاعها إلى ماديات من جنسها.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٨٠ .

إذن فأدلة توماس الأكويني الثلاثة أجاب عنها دوكنز جوابين:

الأول هو السخرية والشتيمة.

والثاني هو تغيير الموضوع، والتمسك بالدعوة كجواب، فطرح الله كوجود زمني، وجعل العودة إلى أصل سلسلة ظهور الموجودات إلى حلقة داخل الطبيعة فقط.هكذا لا يتبقى لدينا في النهاية سوى:

دعوى الإلحاد+شتيمة= دوكنز.

لكن لتوما الأكويني دليل رابط فكيف قرأه صاحب الوهم؟!

يلاحظ الأكويني أن جميع الأشياء تقع ضمن متدرجات مختلفة في وجودها وفي صفاتها: هذا طويل وذاك أطول فأطول منهما، هذا أسمر وذاك أشد سمرة منه...هذه نبتة خضراء وتلك أشد اخضراراً منها، هذا طيب وذلك أطيب منه، ونستطيع في الجميع تصوّر حد أعظم من القباحة أو الجمال أو أو الكِبر أو الصغِر، أو غير ذلك، بأنه غير موجود في الواقع العيني، بل قد لا يقع بالمرّة، إذن، فإمكان المقايسة يقع في ميزان لا ينتمي إلى كل الأشياء بل هو خارج عنها.

يُعلِّق دوكنز على دليل التدرج هذا بالقول:

«ما هذا الدليل؟ من الممكن أن نقول إن الناس مُختلفون في روائحهم وإمكانيتنا بالمقارنة تكون ممكنة فقط بالرجوع إلى الحد الأعلى الممكن للروائح النتنة. ولذلك يجب أن يوجد شيء ما، ورائحته لا تضاهى بالنتانة ندعوه الله. وباستطاعتك استبدال مواصفات المقارنة بما تشاء واستنتاج نتائج مشابهة بالضحالة»[1].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٨١.

لكن مهما فرضت من أمر نتن كنتانة تعبيرات دوكنز التهكمية، فإننا يمكن لنا تصوّر ما هو أعلى وأشد منها، وهنا تظهر مشكلة: أننا حسب الفرض أبناء متطورون من سلسلة ماديات واقعية عينية مُحددة، من أين لنا هذا المقياس المتعالي الذي بإمكانه باستمرار وبكل سهولة تصنيف كل الأشياء بمقياس أعلى منها جميعاً. القضية إذن، ليست في الرائحة أو في الطول أو الطيبة، بل في هذه الطاقة بالذات. القضية هنا ليست حداً أعلى «ممكناً» بل حداً يتجاوز كل ممكن يُطرح واقعياً وخيالياً. فنحن مثلاً حينما نقول هذه فتاة جميلة، لا نضعها في مقايسة مُحددة بل في سلم لامتناهٍ، أفق مفتوح يطرح تصورات لفتيات جميلات منذ بدء التاريخ حتى نهاية أصغر منه. إنه إذن، مقياس خارج عن كل النماذج المعروفة أو حتى المرفوضة. هنا دوكنز من جديد لا يجُيب سوى بالألفاظ النابية ويهمل المسألة، وذلك لأنه سيجد نفسه في زاوية حرجة حيث ترتبط نظرية الجمال التطوري بمشكلات عديدة هنا، لكون أسسها مبنية على أن كل عواطفنا وأذواقنا ليست سوى نتاج لكمية محددة من خبرات ونماذج مُحدَّدة. في حين أننا نمتلك كمية هائلة من الاستذواقات والتنظيرات، تتجاوز بكثير كل حاجاتنا. وهذه المعضلة هي التي ستجعل دوكنز لا يحاول التبصّر بالحجة الوجودية التي طرحها «سانت آنشليم»، حيث إننا يمكننا فرض كائن أعلى يتمتع بالحدّ الأعلى لكل صفات الكمال والجلال، وهذا الحدّ الأعلى لا علاقة له بكل خبراتنا في الجزئيات ولا تسعف نظرية التقشير ولا التعميم المبهم على طريقة ديفيد هيوم، في طرح موجود كهذا.

هنا لايمكن النقض بأنه إذا كان يمكننا تخيل كائن عظيم فيمكننا تخيّل ما هو أعظم منه، فهذا خلاف الفرض، فكل ما فرضته أعلى منه سيكون عائداً إليه، وبالتالي تبطل نقضية الفيلسوف الأسترالي «دوغلاس غاسكينغ»، بأننا لو فرضنا أن الكون أوجده خالق عظيم لأمكننا تصورّ ما هو أعظم منه، فكل

تصور إضافي سيعود إليه لكون الفرض هو أن الخالق هو صرّف كل عظمة وكمال يمكن افتراضه أو تخيّله، والوجود المقصود بأنه كمال ليس الوجود الجزئي بل الوجود بما هو وجود[١]. وهذا ما لم يستطع دوكنز حتى تصوره لكونه متخشباً في الجزئي المادي فقط، أو هكذا هو يتعنت، ومن هنا تبطل سخرية دوكنز ببساطة شديدة ولا يبقى من كلماته سوى ألفاظ السباب التي اعتدناها: «مجرد الفكرة بأن استنتاجاً كبيراً كهذا، يأتي من خدعة رخيصة كهذه يسبب إهانة للفكر الإنساني»[٢].

ونحن بالطبع لا نبتغي الدفاع عن هذه الحجة الوجودية، لكن دوكنز نفسه يعترف بأن هذه الحجة التي يوصفها بأنها مجرد(خدعة رخيصة وإهانة) هي نفسها التي قد بهرت عقلاً عظيماً مُتخصصاً في علوم الاستدلال والرياضيات هو برتراند راسل، وجعلته من المؤمنين في القسم الأول من حياته[٣]. وبدون أية قدرة على الدخول في المناقشة الاستدلالية، يكتفي دوكنز بالقول إنه يكتفي برفضه العفوي لكل استدلال ما لم يُقدِّم أية معلومة عن (العالم الحقيقي) ويقصد المادي التجريبي الجزئي، إذن، فلماذا نعرض حُجج الإلهيين من الأصل، مادمنا قد حكمنا سلفاً بأن كل ما هو غير مادي هو وهمي، وكل ما لايمكن تقديم وثائق مادية عنه سيكون مجرد بطلان؟![٤] .

---

(١) لذا لا قيمة لما فهمه دوكنز من قولنا: منزلي هذا وجود فهو كمال، في حين منزلي المستقبلي المتطور هو الكمال، فالوجود لا يقابله الوجود بل العدم، والوجود مقولة تشكيكية لاتتضاد مع مدارج الكمال.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص٨٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٨٣.

(٤) وهم الإله، مرجع سابق، ص٨٤.

أما كيف يبقى الإله إلهاً حينما يكون أمراً عينياً في مادة جزئية نقول عنها بأن فيها بصمة الإله؟!.

وكيف تم تحديد الحقيقة في المادة المباشرة فقط وبأي دليل عيني من «العالم الحقيقي» ثبت ذلك، ثم أليس حتى هذا العالم الحقيقي قائماً على فرضيات ومعادلات ذهنية لا يمكن أبداً تقديم أي دليل مادي عليها؟!. فهذه الأسئلة وغيرها يُدير دوكنز ظهره لها ويعتبرها ببساطة مجرد أسئلة للحمقى لا غير!.

إن دوكنز يحاول اللجوء إلى عرض ما يعرفه من تعقيدات علوم الأحياء وغيرها، كي يبهر المستمع العادي ويشتته عن أصل الموضوع، ويعتبر هذا التشتيت دليل صحة لدعواه في الإلحاد. لكن حينما يقع العكس ويجد أنه لا يستوعب الأدلة والأسئلة التي تنقض أقواله، يلجأ إلى السخرية والتفكّه وتصوير القضية بأنها مزحة بسيطة ساذجة. حينما سئل أنه بناء على أفكارك فأنت لا تستطيع فهم كيف ظهرت أعمال شكسبير وبيتهوفن[1] بكل هذا التعقيد والدقة غير المنسجمة والمشاعر الفائضة مع مقدار حاجتنا إلى التطور، ومع ذلك تريد تفسير الكون بأجمعه على أنه بلا فاعل ذكي؟! فكان جواب دوكنز بسذاجة مفتعلة: «إنها الروائع سواء كان الله موجوداً أو لم يكن، هذا لا يُبرهن على وجود الله، بل يبرهن على وجود بيتهوفن وشكسبير»[2]. وكأن النقاش هو هل شكسبير وبيتوفهن هما موجودان أم لا، أو أن معرفتنا ببيتهوفن وشكسبير تتطلب معرفة بوجود الله مسبقاً!. في حين أن السؤال أنك عجزت عن تفسير

(١) وفي الحقيقة إن الكتب الدينية أيضاً هي من الناحية الأدبية في الدرجة الأولى من التعقيد والدقة الفنية، وإذا صح قولنا إن أعمال بيتهوفن رائعة سواء وجد الله أم لا، هناك مشكلة في إسقاط طريقة التقويم تفسها على الكتب المُقدسة..

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص٨٨.

قضية في «العالم الحقيقي» وهي جزئية صغيرة ومع ذلك لا تمتلك أي جواب عنها[١]، وهذا ينطبق على الحياة والكون نفسه، وهنا سيتسع حجم المفارقة. تلك المفارقة التي لا يملك دوكنز حيالها سوى الافتراضات غير المصحوبة بأي دليل عيني من «العالم الحقيقي»، فهو لا يدري كيف يُفسّر ظاهرة الفن[٢]. حسناً! وبما أن دوكنز لا يعلم، وبما أنه يرفض الحجج العقلية والاستدلالات الرافضة لقوله، ولا يملك حيالها سوى السخرية، فعلينا بكل بساطة أن نقول: إن دوكنز قد استطاع تفنيد فكرة الإله!.

نصل إلى دليل توماس الأكويني الخامس، وهو حجة التصميم. حيث الموجودات، وبالخصوص الحيّة منها، ظاهرة التنظيم وهذا الوجود المُنظّم لابد له من منظّم، لأن فقدان العشوائية يحيلنا إلى الذكاء والقصد. وبالطبع

(١) بل إن دوكنز (وهم الإله، ص٩٤) يقر بوجود ظواهر خارقة ارتبطت بالدين، ولا يوجد أي تفسير علمي لها، لأن الشهود عليها كانوا بالآلاف ولايمكن رميهم ببساطة بالهلوسة أو الجنون، مع ذلك نحن لا نملك تفسيراً لها، لكننا نكذبها. ولو توقفنا عند مسألة حيرة دوكنز هنا لوجدنا المشكلة أعمق لكونها مرتبطة بالحجم الرياضي للتواتر، والتي تفتح علينا باب التراث الديني على مصراعيه، لكن دوكنز لا يدخل في المسألة حتى يتجنب الخوض في كل مشاكل النصوص الدينية من ناحية النقل ومن ناحية التركيب. على ماذا انبنى التكذيب إذن؟. على مزاج نفسي مُسبق وهذا كافٍ بالنسبة إلى إلحاد قائم على «علل» وليس «أدلة». ودوكنز هنا يقر بأن أصحاب التجربة الحضورية في الدين لايمكن دحض قولهم، لكن لايمكن اعتماد أقوالهم كحجة، وهذا صحيح وهم أنفسهم يقولون ذلك. علماً أن تجارب كبار الصوفية والعرفاء في الإسلام لا ينطبق على أغلبهم أي شيء من تحليلات أوهام الدماغ التي عوّل عليها دوكنز، فضلاً عن بؤس استخدام المناهج النفسية التي تم تجريبها مرات عديدة ولم تخرج بنتائج ذات قيمة.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص٨٩.

إن هذه الحجة ليست سوى واحد من عشرات الأدلة التي مازالت تُستخدم، بل دليل التصميم بنفسه له صيغ مختلفة متعددة، مع ذلك يطرح دوكنز أن الدليل الوحيد الذي يطرحه المؤمنون هو دليل التصميم فقط. وقد يكون هذا صحيحاً في المحيط الذي يعيش فيه دوكنز، لكن محلية دوكنز تنتفخ إلى عالمية مُطلقة[1]، وعلى أية حال لقد قرأنا كيف تقزّم حِجاج دوكنز بشأن الأدلة الأربعة السالفة، وبالتالي فحتى لو فرضنا سقوط دليل خامس، لا يعني ذلك أنه قد ثبتت وهمية فكرة وجود الإله:

«حجة التصميم هي الوحيدة التي لاتزال تُستخدم في أيامنا هذه وللعديدين لاتزال تبدو كالضربة القاضية في حلقات النقاش. داروين الشاب تأثر بها كثيراً عندما كان طالباً في جامعة كامبردج عندما قرأ كتاب ويليام بايلي «علم الطبيعة الديني». ولسوء حظ بايلي، فإن داروين الناضج استبعدها بشكل كامل. ربما لأنه ليس هناك في التاريخ أي تدمير لطريقة تفكير شائعة ببراهين ذكية كالذي فعله داروين بحجة التصميم.ذلك كان أبعد من كل التوقعات. وبفضل داروين، لم يعد صحيحاً بأن كل الأشياء التي تبدو لنا وكأنها مُصممة لا يُمكن أن تكون غير ذلك إن لم تكن فعلاً كذلك. التطور بالانتخاب الطبيعي ينتج ما يمكن أن يبدو أروع تصميم،بأعلى درجات التعقيد والأناقة. ومن تلك التصاميم المزيفة التي نسمع بها وكأنها تسلك سلوكاً ما، وحتى في حشرة

(١) لذا نحن ليس لدينا أية مشكلة في كل النقود التي يطرحها دوكنز حول وهمية ربوبية المسيح وعدم وجود أي دليل تاريخي على أنه طرح نفسه إلهاً (وهم الإله، ص٩٥ـص١٠٠)، وأن مكان ولادة المسيح مضطرب كثيراً في عدة مرات في الكتاب المقدس، بالإضافة إلى فظاعة خلط لوقا للتواريخ وتناقضه التام مع إنجيل متّى، لكن دوكنز لايدخل في مشكلة أخرى وهي تركيبة النصوص الدينية فنياً وكونها في أعلى سُلم الأعمال الجمالية رغم كونها أقدم من ناحية الزمن وهذا مناقض كلياً لنظرية التطور!.

صغيرة فإنه يوجد نظام متطور جداً للتتبع الحراري يشبه ذلك الموجود في الصواريخ أكثر مما يشبه السهم أو الهدف»[١].

حسناً ملخص هذه المناقشة العبقرية: أن التعقيد الهائل الذي قادنا إلى فكرة الإله هو أكثر اتساعاً وعمقاً لكننا مع ذلك لا نحيل كل هذه العمليات الرياضية في كل الخلايا الحية وعلاقات العناصر إلى نظم عقلي، وبالتالي إن دليل التصميم باطل لكوننا وجدنا أن الكائنات أشد تصميماً!.

«في مقابلتي مع واتسون، قصدت أن أقول له بأن البعض ،على عكس واتسون وكلارك، لا يرون تناقضاً بين العِلم والدين،لأنهم يزعمون أن العِلم يبحث في كيفية العمل للأشياء والدين يبحث في الغاية من ذلك. وعندئذ قال واتسون: «لا أعتقد أننا موجودون لغاية ما. نحن حصيلة طبيعية للتطور». هناك من يقول: «آه لابد أن حياتك تعيسة جداً لعدم اعتقادك بوجود معنى؟، ولكنني أتوقع وجبة غداء جيدة على أي حال». وغداؤنا كان جيداً فعلاً»[٢].

إن التطوري إنسان يُخدِّر الجانب الاستنتاجي العملي لإيمانه بالتطور، لذا هو يسير كما يسير الآخرون في حياتهم، في حين يفترض به أنه إنسان ثوري يعلم بحقيقة كل هذه الأوهام. لذا يتظارف بصرف مشكلة الأسئلة الكبرى بتحويلها إلى مجرد تلذذ آني بوجبة طعام آنية. إنه لم يجب عن السؤال بل طرح مزحة للتخفيف من هول السؤال على نفسه، وهو يحسب أنه يخفف بذلك عن الآخرين. لا قيمة حقيقية لجواب أن الملحد يهتم بالمجتمع والعائلة

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٨١.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٢.

كالآخرين حيث يشعر بالخلود من خلال إبقاء النسل. فهو يعلم بحسب الفرض أن ذلك مجرد أوهام وأن لا مشاعر ولا حقيقة له حينما يموت، فعن أي خلودٍ يتحدث؟![1].

في الحصيلة لم يفهم دوكنز دليل التصميم، وغالط في فكرة التراجع الزمني، وأقر بالعجز أمام حجة التجربة الشخصية، وقفز على جوهر الحجة الوجودية، هذا بالإضافة إلى عدم قدرته على مناقشة مشكلة قيمة الاحتمال في التواتر التاريخي الذي بدونه تنتهي الخبرات البشرية ولا يمكن الثقة بأي متكلم في علم من العلوم. وهذا يعني أنه حتى لو أن دوكنز استطاع عبر توظيف نظرية الانتخاب الطبيعي، أن يهدم واحداً من أدلة الإلهيين، فهذا لا ينتج الإلحاد أبداً، حيث تبقى النتيجة أصغر بكثير من الدعوى.

يحاول دوكنز بعد ١١٥ صفحة أن يكون رزيناً جاداً كي يناقش بُنية ذهنية الإلهيين:

إن الإلهي يرى أن اللاإحتمالية هي التصميم، فهذا يشبه عملية ضرب أرقام صحيحة بالصفر لتظهر الأعداد الصحيحة بدون أي أثر للصفر. لكن الإلحاد هنا يحاول قلب المسألة فضرب الأصفار ينتج لنا أعداداً ويبني لنا عالماً. كيف؟!

إنَّ توقفنا على متابعة الأرقام الصحيحة هو الذي أوقعنا في الفخ، فخ التصميم ومن ثم القول بالإله. إن نظرية الانتخاب الطبيعي رفعت مستوى وعينا، فهي حتى لو لم يكن لها شأن بالكون ومجالها محدود بعالم الأحياء

(١) في «وهم الإله» ص١١٨، يكتب دوكنز بكائية يرثي بها صديقاً له توفي، ويتحدث إليه فيها كأي مؤمن اعتيادي يتحدث مع روح صديق راحل!. وفي (العلم والحقيقة) نجد لدوكنز خطباً عصماء في التعزية تُلقى في الكنائس!.

الأرضي فقط، لكنها كنشاط وسّعت من مُدركاتنا، فلماذا لا تكون نظريات التصميم والتنظيرات المعقدة في الإلهيات الفلسفية وسعت من مداركنا ورفعت من وعينا هي الأخرى، فهي نشاط عقلي في نهاية المطاف؟!

لايمكننا أن نتوقع أي جواب من دوكنز بالطبع. لكن بدل التريث يندفع دوكنز للاستشهاد بعبارة غاية في السذاجة لشخص يُدعى «دانييل دينيت» يُرقيه دوكنز إلى رتبة «فيلسوف متمرس بالعلم» لا لشيء إلا لأنه ضد فكرة القول بالإله، يقول هذا الفيلسوف المتمرس بالعلم، إن القول بوجود الخالق الأعلى عملية تنزيل ذهني. كيف؟!:

«فكرة الحاجة إلى أشياء معقدة ذكية من أجل أشياء أقل تعقيداً. أدعو هذا بنظرية الخلق المُنَزلة. لم نر قط رُمحاً يصنعُ صانِع رماح. لم نر قط حدوة فرس تصنعُ حداداً، ولا وعاء فخارياً يصنع صانعه»[1].

مرحى لهذه العبقرية!.

لو كان دليل التصميم والحدوث هو هذا، فالجواب سيكون بمثل بساطته: وأين ذلك الرمح لنسأله عمن صنعه؟!.

وأين حدوة الحصان تلك التي لم يصنعها حداد؟!.

بالفعل من الأفضل أن نعطي هذه المقولة لعلماء الآثار مثلاً، كي يوقفوا جميع حفرياتهم عن ربط ما يجدونه من رماح وفخاريات بالحضارات والأناس الذين صنعوها. لماذا لا نقول إن هذه المقولة من «دانييل دينيت» هي أيضاً بدون قائل وبالتالي فهي لم تقع ولا دليل لها ولا استنتاج منها، فتبعاً

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١١٨.

للمقياس نفسه لم نر حروفاً صنعت كاتبها!. إن أطروحة دوكنز تنتهي إلى عدمية سلوكية ونظرية معاً، لكنه يزيغ عن ذلك عبر التأويل والتهرب.

أي مغالطة سطحية هذه التي تقلب علاقة الأثر والمؤثر، الدال والمدلول، إلى صانع وخالق؟!.

هل قال أحد إن قرع جرس الباب يدل على قارع، يعني أن صوت الجرس خالق للشخص الذي قرع الجرس؟!.

لايوجد أمر أشد سذاجة من هذا التفكير سوى طرح دوكنز أن فكرة القول بالإله عبر القول بالتصميم، ليست سوى «ردة فعل»، ليست سوى بديل متاح لعدم معقولية المصادفة[1].

بينما عدم معقولية المصادفة حجة متأخرة في كتب الفلاسفة الإلهيين، أما الحجج والأدلة المعتمدة فهي النظر في «الوجود» نفسه الذي لايمكن تصوره بغير حالات ثلاث، كما قال ابن سينا: مستحيل، ممكن، واجب. فالوجود سواء أدركنا أنه مُصمم أم أنه متطور، مُعرّض لأن يكون متصفاً بواحدة من هذه الصفات الذاتية. وبالتالي يتبين أكثر لماذا تعجز العلوم الطبيعية عن قتل الفلسفة، وتظهر مشكلة الحدود الاختصاصية التي لم تنفع كل عزاءات دوكنز التي قدّمها لنفسه، أن يتخطاها، حيث إنه بقي في كل كتاب أوهامه، ينقل كلمات «اختصاصيين» غيره!.

يفرح دوكنز حينما يجد بعض علماء الفلك أو الفيزياء، ينتقدون فكرة الإله الحاضر في كل شيء، فيظهر عالم بعد آخر ليقلص حضور الله في

(١) وهم الإله، ص١٢١.

العالم، ويعتمد على كتابات «بيتر أتكينز»[1] التي تسجل تفكير بعض علماء الطبيعة باستبعاد حضور الله في الكون بعد خلقه، فالكون يتحرك ويستمر بدون حاجة للإله، تظهر صورة للإله الكسول ثم الإله المعزول، عاطلاً من العمل ومستبعداً، بذهنية أقرب إلى ما نُسب إلى بعض المعتزلة من قدماء المسلمين.

لكن ريتشارد دوكنز، يعود ليقر بأن ذلك كله مجرد «تنظير» ماذا نفعل أمام الوجود الفعلي، الذي هو في غاية من التعقيد الذكي؟!.

إن التأمل البسيط بهكيل «الفِطر» أو زهرة من الأزهار أو نبتة أخرى، سيصيبنا بالدهشة لروعة النظام الذي تعمل به ويجعلها كياناً حياً متوازناً مع نفسه ومع بقية الموجودات المخلوقة، في أبسط ورقة عشب أو حشيش نباتي، تقع تلك المعجزة الحقيقية المسماة بالتمثيل الضوئي التي تحتوي ،فقط من جانب التفاعل الكيميائي، على سبعين تفاعلاً تنقلب فيه أشعة الشمس من الكهرومغناطيسية وفوتونات إلى طاقة كيميائية، أو حين نتأمل بذرة صغيرة تتحول إلى أضخم شجرة في العالم «شجرة كالفورنيا الحمراء»، وصولاً إلى ما ارتبك عنده داروين نفسه في أصل الأنواع، أعني «العين» ذلك الكيان الباهر الذي قال عنه داروين كلمته التي يعتبرها دوكنز «اعتراف داروين المقيت»[2]. حيث قال داروين:

«الافتراض بأن العين بكل مواصفاتها التي لاتقبل التقليد، كالتركيز على مسافات مختلفة أو السماح لكميات مختلفة من الضوء بالمرور عبر الحدقة، وتصحيح الشكل الكروي والانحراف اللوني، قد تشكلت بالانتخاب الطبيعي، يبدو، وأنا أعترف بهذا، أعلى درجات السخف». أمام كل هذا التعقيد الدقيق

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ١٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص١٢٤.

تتضاءل الصدفة، وتكون أعلى درجات السخف، حتى لو ثبت أن في العين بعض العيوب كما يقول البعض، وحتى لو لم ننصت إلى بعض المختصين الذين ينفون ذلك، فإنا لن نستطيع في المُحصلة سوى الاندهاش لدقة النتيجة وأن طاقة الإبصار تتطابق مع الحاجات إلى حفظ النوع وترقّيه. هذا كله كان قبل امتلاكنا للأجهزة الحديثة التي مكنتنا من معرفة دقائق الخلايا والأعصاب، بما يتجاوز حجم اختزال العين بتقدّم أجزاء بعضها على بعض بالنسبة إلى مسألة السقوط الضوئي وانتشاره. لقد كانت فكرة العين حين ذاك أبسط بكثير من الآن ومع ذلك وجدها داروين خارج أي تصور يُقام عبر الاحتمالات فقط.

إننا أمام اعتراف صريح وواضح من عالم رزين يدرك حجم اختصاصه كخبير خلوق مثل داروين، لكن عازف الأوهام سوف يحاول الاعتصام بجبل التأويل، بالقول إن داروين لم يُقدّم هذا الاعتراف الذي هو ليس سوى «أداة بلاغية يشد بها خصمه لناحيته حتى تكون الضربة أقسى»[1].

دوكنز صاحب ذهنية عنيفة يجهد في إسقاط شخصيته على الآخرين، ويلبسهم ثياب مسرحيته. فهو مع النصوص الدينية يتعامل بحرفية وتلقٍ مباشر بلا أي تأويل. ومع نصوص علمية في الطبيعيات، التي هي بعيدة عن المجازيات، يقرأها قراءة بلاغية تأويلية!.

في النهاية لدينا وجود في غاية من الدقة والتركيب الذكي، فلماذا ننكر أن وراءه خالقاً أذكى أوجده والوجود قائم به، مادمنا لم نستطع إثبات أنه واجب الوجود بذاته؟!

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٢٤.

صانع الساعات الأعمى: وهم الناظر لا المنظور

يقر دوكنز بصعوبة طرح نظرية الداروينية من أول وهلة، فتركيبة الحياة تجسد الدعوى المناقضة للصدفة، والتصميم المعقد فيما نعلمه أو نصنعه، من تكنولوجيا وفن وغير ذلك، يرتبط بوعينا بالتصميم. بالإضافة إلى كوننا كائنات زمانية، بينما الداروينية تفترض أزمنة عملاقة. والمشكلة مع التطورية هنا أنها تستدل بالأحفورات وتفسيرات الشفرة الوراثية المتشابهة والتحقيب الزمني للأثريات وأعمار الأنواع، كل ذلك كي تكون النتيجة صحة الداروينية، فهذه كلها شواهد لصحة الداروينية، لكن في الوقت نفسه فسرنا كل هذه الشواهد برؤية داروينية، فنحن أمام دور استدلالي واضح!.

ومن هنا عاب النقاد على هذه الاستدلالات أنها في المحصلة تقول: «إن التطور حقيقة لأنه حقيقة»، وذلك لأن العنصر المُشترك بين الدعوى وبين البرهان هو العناصر نفسها. وهذا الاستدلال الدوري هو قوام كتاب دوكنز الكبير «أعظم عرض على الأرض»، فهو يقوم بتفسير العينات الأحفورية والتشريحية داروينياً، ثم بعدها تكون دليلاً على الداروينية، فالداروينية من جهة هي مُتقدمة لأنها هي المنطق التفسيري، وهي من جهة متأخرة لكون خلاصة هذه التفسيرات والشروحات عن الأحياء هي القول بصحة الداروينية!.

وصاحبنا في كل كتاباته يعتمد حجة يقولها ستيفن هوكنغ باعتبار أن

تخصصه في الفيزياء يدور حول مواد عمرها طويل يتجاوز كل أعمار الكائنات الحية في علم الأحياء والبيولوجيا:

«وقد يبدو حدوث مثل هذا الأمر مصادفة مستبعداً جداً. وهذا ما كانت عليه الحال. فوجود مثل هذا المتضاعف كان مستبعداً إلى أبعد حدود. وفي عُمر الإنسان، يمكن التعامل مع الأشياء المُستبعدة باعتبارها مستحيلة، وذلك لأسباب عملية. ولهذا السبب تحديداً لن تربح يوماً جائزة كبرى في المراهنات على مباريات كرة القدم. لكن في إطار تقديراتنا البشرية لما هو مُحتمل وما هو غير مُحتمل، لم نعتد التعامل مع فترات تقدّر بمئات ملايين السنين.فإذا ملأت قسائم المراهنات كل أسبوع على مرّ مئة مليون سنة، فمن المُرجح جداً أن تفوز بعدد من الجوائز الكبرى المتراكمة»[1].

لكن الاحتمال لا يعني الوقوع فعلاً! والاحتمالات تجري في ملعب كون قائم بكل ما فيه، وليس في تكوين الملعب ثم المقامرة على فوز اللاعبين! بالإضافة إلى أن هذه سخرية بالقارئ غير المختص، ليس لأن جملة من المؤسسات الأميركية قامت بإجراء عملية حسابية حول الفترة الزمنية التي تستغرق ظهور بروتين واحد، وهي فترة تتجاوز عُمر الكون كله بلايين السنين، فكيف بظهور الكائنات المعقدة التركيب،ولا لأن الفوز برهان كرة قدم مرة واحدة مثال خاطئ لأنه لايوجد لدينا طفرة احتمالية واحدة بل تراكمية كما يقول دوكنز نفسه، بل لأن هذه الطريقة من التفكير تعتمد في النهاية على المعرفة العقلية: لماذا نقبل نتيجة احتمالية في نهاية المطاف؟!.

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٢٩..

إن عملية الرفض والقبول للحسابات الرياضية تعود لتربطنا بالمعرفة العقلية والمعرفة العقلية تُقسّم الشيء في ذاته إلى ممكن وإلى واجب. ثم هناك مُشكلة تذويت الذاتية: كيف تكون للعناصر خواص ذاتية عند تلاحمها وتلاقيها في شروط مُحددة، نفترض أنها حدثت مصادفة، وتكون نتيجتها بهذه الصفات وليس بغيرها، يظهر لنا عنصر الماء مثلاً من هيدروجين+أوكسجين، ولا يظهر لنا تراب أو أي شيء آخر؟!.

في النهاية عملية فرض الاحتمالات وتوسيعها، يعتمدان على نوعية الأمر الذي يجري فيه التضاعف الاحتمالي، فهل نحن حددنا سلفاً متضاعفات تقسيمات الخلية البسيطة التي هي بنفسها أمر فرضي، وصورناه على أنه بداية مصادفة الحياة؟!:

«و الجدير ذكره أننا لا نعرف تحديداً كيف أحدثت جزئيات المتضاعف الأصلي نسخاً عنها»[1].

ودوكنز يعيب على مذهب الذاتية للاحتمال الذي يستبعد المصادفة في المخلوقات والتكوين، بأنه لايمكن الاتكال عليه لكونه تم ضبطه بواسطة التطور نفسه:

«فنحن قد جُهّزنا لإدراك عمليات تكتمل في ثوانٍ، أو دقائق أو سنوات، أو هي في الأعظم تكتمل في عقود. أما الداروينية فهي نظرية عمليات تراكمية بطيئة جداً، حتى أنها تكتمل على مدى يراوح بين الآلاف إلى الملايين من العقود. وكل أحكامنا الحدسية عما هو محتمل تثبت في النهاية أنها خطأ

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٣٠.

بقدر مُكبّر كثيراً. فجهازنا من الشك والنظرية الذاتية للاحتمال، هو على حسن ضبطه، جهاز يخطئ إصابة الهدف بهامش خطأ هائل، لأنه قد ضبط ـ وياللسخرية بواسطة التطور نفسه ـ بحيث يعمل خلال زمن حياة من عقود قليلة. والهروب من سجن مقاييس الزمن المألوفة يتطلب جهداً من التخيّل»[1].

لكن بأي شيء أقررنا بالتطور، أليس بواسطة عقول وأدمغة كونها وضبطها التطور نفسه؟!.

ولو أن عقولنا هي هكذا فعلاً فمن الذي فهم نظرية التطور، وكيف يمكن عرضها كي تكون بديلاً من الإيمان بالنسبة إلى المتلقين؟!.

وفكرة صانع الساعات الأعمى، كأفكار أخرى، أخذها دوكنز من كتاب لمؤلف آخر، فدوكنز في واقعه ليس مفكراً أصيلاً ولا مؤلفاً مبتكراً، فجميع أقواله تستطيع أن تجدها لدى باحثين سابقين، بل وبألفاظها حتى، وإثبات ذلك يحتاج إلى بحث مستقل لا نراه ضرورياً لسهولته. لنقرأ المسألة لدى أستاذ علم الحياة بجامعة شيكاغو: جيري .أ. كواين:

«إذا كان أي شيء صحيحاً عن الطبيعة، فهو أن النباتات والحيوانات تبدو مصممة على نحو معقد وكامل تقريباً لعيش حياتها. فالحبار والسمك المفلطح يغيران ألوانهما للانسجام مع محيطهما ولعدم تعرضهما لخطر الافتراس. والخفافيش أيضاً، لديها رادار لاستهداف الحشرات ليلاً. والطيور الطنانة التي تقدر أن تحوم في مكان وتغير موضعها في لحظة أكثر رشاقة من

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص١٦.

أي طائرة عمودية (هليكوبتر) بشرية، ولديها ألسنة طويلة لترشف الرحيق عميقاً من الزهور. والزهور التي تزورها تبدو بدورها مصممة لاستغلال الطيور الطنانة في مساعدتها على التكاثر الجنسي بحبوب اللقاح. إذ بينما تنهمك الطيور الطنانة في رشف الرحيق، تلصق الزهور غبار الطلع بمناقيرها، ممكّنة إياها من تلقيح الزهرة التالية التي يزورها الطائر. تشبه الطبيعة آلة مزيتة جيداً، وكل نوع هو سن عجلة أو ترس فيها.

ما الذي يبدو أن كل هذا يتضمنه؟ بالتأكيد، ميكانيكي رئيس. هذا الاستنتاج عُبّر عنه بأكبر شهرة من قِبل فيلسوف القرن الثامن عشر الإنكليزي وليم بالي، الذي قال إذا عثرنا على ساعة واقعة على الأرض، سندركها حتماً كعمل لصانع ساعات. بطريقة مماثلة، فإن وجود الكائنات المتعضية المتكيفة جيداً وصفاتها المعقدة تتضمن بالتأكيد مُصمِّماً مُدرِكاً، سماوياً، هو الإله. فلننظر إلى جدلية بالي في كتابه (اللاهوت الطبيعي) وهي واحدة من أشهر الجدليات في تاريخ الفلسفة:

«عندما نقدم على فحص الساعة، ندرك أن أجزاءها المتعددة قد شُكلت وُجمعت لهدف ما، على سبيل المثال، فإنها قد شكلت وضُبطت للغاية لإنتاج الحركة، وتلك الحركة مضبوطة للغاية لتعيين الساعة من اليوم، إذ لو صيغت الأجزاء المختلفة على نحو مختلف عما هي عليه، فلا حركة كانت ستتواصل في الآلة على الإطلاق، ولا كانت ستفي بالغرض الذي تؤديه الآن، كل دلالة على الاختراع، وكل مظهر للتصميم مما يوجد في الساعة، يوجد في أعمال الطبيعة، مع فرق، من جهة الطبيعة، لأنها أعظم وأكثر، وذلك بدرجة تفوق كل حسبان».

إن الجدلية التي قدمها بالي بهذا الشكل البليغ للغاية كانت شعوراً مشتركاً وقديماً. عندما وصف بالي وزملاؤه من (اللاهوتيين الطبيعيين)

النباتات والحيوانات، اعتقدوا أنهم يفهرسون عظمة وإبداع الإله الظاهرة في مخلوقاته المصممة جيداً»[1].

ما هو نقيض التصميم ومن ثم القول بالإله؟!

هو التطور.

لكن هذا ليس بجواب حقيقي، فالجزيء الذي نسخ نفسه، بحسب الفرض، نقطة السطر في كتاب الوجود، وهو نفسه ليس منتوجاً للتطور. وهو يتمتع بصفات ذاتية تجعله يقع في سياقات التطوير والتغيّر ومن ثم الارتقاء، وهي صفات لم يضع قابليتها لنفسه بنفسه، وهو الأمر الذي يجعلنا نخرج عن أصل المادة.

وبالطبع فهذا التطور يجري للمادة الحية داخل ظروف وعوامل واحتكاك بعناصر، لادخل للمادة الحية بها. فليس الزمان مهما امتد هو العنصر الوحيد الفاعل في التطور، بل المُحيط الظرفي بكل عناصره، وهذا المُحيط وعناصره لايمكن فرض أن المادة الحية علة لوجودها بينما هي نفسها علة نشوء وتطور هذه المادة الحيّة!.

ثم إن هذه السياقات التطورية نفسها يمكن قبولها على أنها نظرية الانتخاب الطبيعي، لكن أن تكون عملية الانتخاب الطبيعي تذويتاً للذاتيات وتراكماً تصادفياً خارج كل علية، فهذا ما لا يمكن قبوله:

«والجانب الثالث الذي يبدو فيه أن مخاخنا معرّضة لمقاومة الداروينية

(١) لماذا التطور حقيقة؟ مرجع سابق، ص١٧.

ينشأ من نجاحنا العظيم كمصممين خلاقين. فعالمنا تسيطر عليه روائع هندسية من أعمال الفن. وقد تعودنا تماماً فكرة أن الأناقة المُرَكّبة هي مؤشِّر على تصميم البارع المقصود. وتطلب الأمر وثبة واسعة جداً من الخيال من أجل أن يرى داروين ووالاس، عكس كل حدس، أن ثمة طريقاً آخر، وأنه ما إن تفهمه فهو الطريق المعقول أكثر لأن ينشأ «التصميم» المُركّب من البساطة البدائية. وكانت وثبة الخيال هذه كبيرة جداً حتى أنه يبدو ،ليومنا هذا، أن كثيراً من الناس مازالوا لا يودون القيام بها»[1].

عبارة دوكنز مخادعة بتصميم ذكي، حيث نفى العلية بكلمة (تعودنا) لا توجد عليّة أبداً. ولم يكن له أن يبسط ذلك واضحاً فمن الذي جعل من العلية موقفاً موحداً بين الشعوب والأقوام في تعاقب مستمر من السنين، وكيف يمكن التخلص منها وهي قائمة حتى في عالم الذهن وعلى علاقة كل قضية أخرى، وإلا لم يكن التطور صحيحاً والإلحاد طرحاً؟!.

وهل يمكن لدوكنز أن يؤمن بنفي العلية كاملاً؟! هذا سيطيح حتى كلامه ومؤلفاته، فالعادة تشمل هنا القضايا العادية والموقتة وليست نظرية القرون المتطاولة للداروينية.

ألم يصوّر ريتشارد دوكنز علماء التطور على أنهم فريق من محققي الجريمة بعد وقوعها؟

ما الذي يجعلهم يبحثون ويسألون سؤال لماذا وكيف؟ وبأي شيء يريدون الوصول إلى المعرفة اذا كانت الآثار ليست دالة على الأثر؟!. أم أن بداهة العلية تتعلق بأصل فكرة الداروينية فقط، وبعدها سيتم هجران سؤال الـ (ماذا)؟!:

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص١٦.

«تذكّر أن علماء التطور هم في موضع المحققين الذين جاؤوا متأخرين إلى مسرح الجريمة، ليحددوا متى حدثت الأشياء، فنحن نعتمد على آثار تركتها عمليات تعتمد على الوقت، ساعات بالمعنى الواسع للكلمة. إن أول الأشياء التي يفعلها محقق عندما يتحرى في جريمة قتل هو سؤال الطبيب الشرعي أو أخصائي الأمراض»[1].

إذا كانت كل الآثار مجرد حجر عشوائي في الطريق، كيف سيتم الوصول إلى نظرية الانتخاب الطبيعي؟!.

أليس غريباً من شخص طوّر نظرية التطور عبر فكرة الجينات المتعاونة مع الجينات الأخرى، أن ينكر العلاقات المتشابكة الواضحة في كل الموجودات بينما لايمكن وصفها بحجر على الطريق؟![2].

لماذا لأجل التحرك صوب الانتخاب الطبيعي تكون البداية هي فكرة الساعات؟ وحين تتعلق بغيرها يتم الاكتفاء بالحَجر؟!.

---

(١) أعظم عرض على الأرض، مرجع سابق، الفصل الرابع.

(٢) دوكنز.. غيرّ أفكارنا مرجع سابق، ص٢٨. من المعلوم عدم وجود علاقات بين الجينات، إلا أن تكون موجهة، فإذا كانت حيادية تكون أفكار دوكنز مجرد طرفة خيالية، وإذا قلنا إنها موجهة وقعنا في التصميم الذكي، بل كون الانتخاب الطبيبعي يفضل الجينات المتعاونة لمصلحة أنانيتها، لامعنى له بدون القول بالخطة المسبقة والثابتة والذكاء المُهيمن، وهذا هو معنى «الانتخاب»، حيث عزل ما لا يُراد وغير المُنسجم واللاصالح. ولا يجري الأمر عشوائياً ولا تصادفياً أبداً بل من خلال «أنماط» ثابتة. مرة أخرى، نجد البحوث الطبيعية حتى في مسألة الجينات وقضايا أنسجة الخلايا وكيفية أعمالها مرتبطة بمجازات وحدسيات، انتقلت من عالم البشر وتغير مواد وتصاميم منازله، إلى قياسه على الخلايا الداخلية ومسائل الأحياء العضوية: ريتشارد دوكنز.. عالم غيرّ أفكارنا ص٥٤.

بخصوص سؤالنا عن يرقة أو ورقة عشب سوف نتوجّه إلى أخصائي وطبيب شرعي، بينما في الكون كله نرفض ذلك الطبيب الدوار بطبّه؟!.

«وقد تكون «كتب» الفيزياء معقدة، ولكن كتب الفيزياء هي مثل السيارات والكمبيوترات، نتاج أشياء بيولوجية ـ المخاخ البشرية. والأشياء والظواهر التي يصفها كتاب للفيزياء هي أكثر بساطة من خلية واحدة في جسم مؤلفه. وهذا المؤلِّف يتكون من ترليونات من هذه الخلايا والكثير منها تختلف كل خلية فيه عن الأخرى، وقد جهزت بمعمار مُعقد وهندسة دقيقة لتكون ماكينة عاملة لها القدرة على تأليف كتاب (الترليونات عندي أميركية مثل كل وحداتي. والترليون الأميركي هو مليون بليون، والبليون الأميركي هو ألف مليون). ومخاخنا لم تُحسن »[1].

وكمثال على هذا التعقيد حيث إن المشكلة هي: «مشكلة التصميم المُركّب. إن الكمبيوتر الذي أصف عليه هذه الكلمات له قدرة على اختزال المعلومات لما يقرب من ٦٤ كيلو بايت (البايت الواحد يُستخدم لاختزال كل حرف واحد من النص) وقد صمم هذا الكمبيوتر بوعي وأنتج إنتاجاً مُتعمداً. أما المخ الذي تفهم به كلماتي فهو نظام من بضع عشرات الملايين من الكيلو عصبات وفي كثير من هذه البلايين من الخلايا العصبية، يوجد لكل خلية ما يزيد على ألف «سلك كهربي» يصلها بعصبات أخرى. وفوق ذلك، فإنه على مستوى الوراثيات الجزئية، تحوي كل خلية واحدة ما يزيد على تريليون خلية

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٢٣. ودوكنز هنا وقع في تضليل يخالف الانتخاب الطبيعي الذي ينطلق من الأسفل إلى الأعلى في قراءة تاريخ الكائن الحي بينما السيارات والكمبيوتر وغيرهما هما قراءة من الأعلى إلى الأسفل.

في الجسم، إذ إن قدراً من المعلومات المرقومة في شفرة دقيقة يساوي ما يحتويه كل الكمبيوتر الذي لديّ، وتركيب الكائنات الحية تضارعه الكفاءة الرائعة لتصميمها الظاهر»[١].

مع ذلك فالكمبيوتر مُصمم، أما المخ[٢] فهو مجرد وليد صفة لا غاية لها ولا فاعل، حاله حال الفرق بين أجسادنا المعقدة بما لا يُقاس بالطائرة لكن الطائرة الأبسط لا نعقلها إلا مُصممة، بينما أجسادنا الأعقد هي وليدة العشوائية![٣].

وعلينا أن نتصور أن المادة التي لا عقل لها ولا دراية بمتغيرات المستقبل، تقوم بتكييف نفسها وإحداث تغييرات داخل الكائن، أي تغييرات متناسبة مع العناصر الأخرى المكوّنة للكائن مع تغيّرات متناسبة دائماً مع تحولات في المناخ الخارجي، هكذا مثلاً سنتابع كيف تم تزويد الخفاش بجهاز دقيق مُذهل لمعرفة الأشياء ليلاً وكيف أن الأذن لا يؤذيها إطلاق الصوت العالي، وكيف يتناسب الصوت العالي مع تكوين الأذن وطريقة الطيران، وغير ذلك من دقة تصل إلى أن أصوات الخفافيش لا تختلط معاً ولا يؤثر فيها صوت

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص١٣.

(٢) حيث يبلغ عدد المسارات التي ينسجها العقل بين خليتين فقط ما يعادل مسافة الأرض عن كوكب نبتون. ذهاباً وإياباً!، وشريحة لحم بسيطه فيها ما يتجاوز المئة بليون نسخة من الموسوعة البريطانية!، انظر ص٤٣ من: الجديد في الانتخاب الطبيعي. لا يفوتنا أن نُذكّر بكتاب «دوكنز.. غيّر أفكارنا» ص٥٦ حيث يبين أنه لا مندوحة عن استعمال الفرضيات المنطقية العقلية، التي هي السابقة لكل اختبار تجريبي، وبالتالي فلسنا أبداً أمام رفض للمعرفة العقلية إلا بطريقة براغماتية حينما تتعلق بفكرة وجود الله!.

(٣) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٢٤.

أو أصوات اصطناعية عندما نعمد للتشويش عليها ،إلا بجهد جهيد، ويبقى الخفاش مخلوقاً زودنا بأفكار طورت تقنياتنا التكنولوجية المدنية والعسكرية، كل ذلك علينا أن نتخيله كتحولات ذكية وهادفة ومتوافقة مع حاجات الكائن في أجياله المستقبلية،وهي تغيّرات عمياء لمادة لا اختيار لها ولا علم ولا مُعلِّم، وكأن كل ذلك حركة جبرية يجب أن تكون كذلك مع أنها حركات وتنقلات وتشكلات تصادفية غير حتمية![1].

بل إن هذا الطائر، أي الخفاش الذي تبلغ تعقيدات المعادلات الرياضية والتأملية لفهمه حداً يجعلها فوق مستوى الخيال[2]، له دلالة مُثيرة ضد عشوائية الواقع:

«وإذا سمع مخ الخفاش صدى لصيحة خفاش آخر، وحاول إدماجها في صورة العالَم الذي كوّنها من قبل، فلن يكون لها معنى. وسيبدو وكأن أشياء العالَم قد تواثبت فجأة في اتجاهات عشوائية مختلفة. وأشياء العالَم الواقع ليست بالتي تسلك بمثل هذه الطريقة المجنونة»[3].

لكن هذه الطريقة المجنونة الشواشية الجديدة[4]، هي خلاصة طروحات وهمية الإله باعتبار العالم ظهر بلا مُبرِّر وينتهي بلا غاية.

---

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٦٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٦٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٦١.

(٤) يكتفي دوكنز في: الجديد في الانتخاب الطبيعي، ص٣١٣ وكذلك في «وهم الإله» وفي «النمط الظاهري الموسّع»، و«أعظم عرض على الأرض» بأن ما يصوّره احتماليته ضعيفة جداً، لكنه يتمسك به لكون هذه الاحتمالية ليست صفراً تماماً، وكأن المعرفة ترفض فقط درجة الصفر والمحال، أما الاحتمال القريب من الصفر فهو يُمكن قبوله!.

في ص ٤٦ يُفسّر دوكنز بنية حياة الخفاش بكون النهار مزدحماً بالصيادين من المخلوقات الأخرى بينما الليل أقل تنافساً، لكن لماذا الخفاش وحده دون الآخرين، خرج من تنافس النهار واتجه صوب الليل؟!

أوَليست طيور ومخلوقات أخرى أقل إمكانية من الخفاش بكثير لكن ومع ذلك تصطاد طرائدها في النهار، فلماذا الأضعف بقي في ميدان التنافس النهاري والأقوى انعزل إلى الصيد المسائي؟!

في صانع الساعات الأعمى، يكرر دوكنز حديثه (في هذا الكتاب نفسه وفي كتبه الأخرى) عن قفل خزنة البنك، وتجميع طائرة بوينغ [1]٧٤٧،حيث القضية هي مجرد أوهام بين نقل خبرتنا في قراءة التكنولوجيا والمصنوعات، وبين قراءة تكوينات الطبيعة، بينما الأولى أنتجها التصميم الذكي القصدي السابق، والثانية ظهرت كتراكمات للمصادفة واللاغاية:

«وخبرتنا بالتكنولوجيا الألكترونية تهيئنا لأن نتقبل فكرة أن ماكينة غير واعية تستطيع أن تسلك وكأنها تفهم أفكاراً رياضية مُركّبة. وهذه الفكرة قابلة لأن تنقل مباشرة إلى ما تفعله الماكينة الحيّة. فالخفاش ماكينة قد تم توصيل الكترونياتها الداخلية بحيث أن عضلات أجنحته تجعله يقع على الحشرات، بمثل ما تقع قذيفة موجهة غير واعية على طائرة. وحتى الآن فإن ما حدسناه،

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٣١٣. و«العلم والحقيقة» ص٣٦٨_٣٧٠.وكعادته ينسى دوكنز بعض كلامه في أمر آخر حينما يستدل بقضية ما، حيث استبعد نصفها الآخر. ففي مثال طائرة البوينغ، تم استبعاد كون الشفرة الجينية شفرة رياضية حتمية، فليس هناك فوضى تجميعية، وأن التحسينات عبارة عن طفرات ولامعنى لطفرة تراكمية، لأن مستوى التشابهات التي تسري فيها الطفرات ستلغي كونها طفرة أساساً.

مستمد من التكنولوجيا، صحيح. على أن خبرتنا بالتكنولوجيا تهيئنا أيضاً لأن نرى تصميماً هادفاً في تكوين الآلة المُعقدة. وهذا الحدس الثاني هو الحدس الخطأ في حالة الماكينة الحيّة. «فالتصميم» في حالة الماكينة الحيّة هو للانتخاب الطبيعي غير الهادف، صانع الساعات الأعمى»[1].

لكن ما هو الأساس الذي جعلنا لا نقبل مصنوعات التكنولوجيا إن لم تكن إلا معلولة لعلة، ويجعلنا نحكم وفق قاعدة كُلية: «أنه من البديهي على نحو ما، أن أي شيء رائع هكذا لا يمكن احتمال تكوّنه بالتطور بالانتخاب الطبيعي»[2]؟!

لكن كل هذه المنتوجات غير المعلولة والتي بدون غاية لا تقع في مصلحة نوع واحد أو كائن بحاله، بل تقع لمصلحة بقية الكائنات: «هذه الظروف المتعاقبة ضرورية لنجاح الكل. إلا أن كل واحد بذاته لا فائدة منه»[3].

بأي تفسير طُرح يبقى هذا التفسير عبارة عن تعليل لشرح الظاهرة أو الحدث، ننتقل من التدقيق في ذرات هياكل الديناصورات المتحللة في الماء، كي نعرفها ونقر بها، ولو لم تكن هناك علاقات تلازم وانتقال لم يصح أي نوع من الاستدلالات العلمية. وهذا أمر مهما حاول الإنسان الخلاص منه بتلاعبات ذهنية أو لفظية، فإنه في النهاية لا يملك سوى اتباعه، وهذه التبعية واحدة من الدلالات على محدوديتنا وحقيقتنا الإمكانية:

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٦٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٦٩.

(٣) المرجع نفسه، ص٧١.

«ما رأيك في محقق شرطة استغرب جريمة قتل، وكان على درجة من الكسل أنه لم يحاول العمل على حل المشكلة وبدلاً من ذلك قلل من غموض الواقعة وسجلها باعتبارها «عملاً خارقاً»؟[1] .

لماذا يتم طرح بداهة العلية عند السخرية من الشعوذات والخرافات والأديان والمذاهب المكتفية بالإيمان بلا دليل، بينما في بحث فكرة وجود الإله القائمة على مبحث العلية، يتم الهروب منها للاحتماء بجبل الاحتمالات؟!

إن دوكنز يطرح فكرة مطابقة القول بالإله وإنكار علاقات السببية العلمية والمنطقية في العالَم، وهذا ليس صحيحاً بتاتاً. على العكس تماماً: فالاعتراف بالعلل والأسباب الطبيعية والعادية هو الذي أوصل المؤمنين إلى القول بوجود الإله. وهم يؤكدون أن كل شيء لا يمكن أن يتحقق لو لم يصل إلى درجة الحسم فيكون وجوده واجباً حيث تتوافر كل شرائطه وأسبابه (الشيء ما لم يجب لم يوجد) وبدون ذلك تتفكك العلاقات بين الأشياء وتفقد صفاتها الذاتية، ونقع في فوضى ذهنية وواقعية، وهذا غير موجود قطعاً، وبما أن كل هذه العلاقات والموجودات تحمل عيوباً ونقصاً وصفات الاحتياج الذاتي، فلا بد أن ينتهي الأمر بوجوب ذاتي هو الذي أرفد الوجوبات بالغير، وهكذا يكون الوصول إلى فكرة العلة الأولى أو الإله قائماً على نفي العلاقات الاعتباطية بين الأشياء، ورفض التفسيرات الخوارقية والخرافية، وليس العكس كما يطرح دوكنز، الذي ليس في ذهنه سوى اعتقادات بعض القساوسة ودين العجائز. لذا هو لايفهم الإله إلا بكونه علة في عرض العلل المادية، بينما الإلهيون يقولون إن الإله هو في طول العلل الأخرى وليس بديلاً لها، كي يتم استبدال

(١) سحر الواقع، مرجع سابق، ص١٩.

أسباب الزلازل والبراكين وأدوية الأمراض ووسائل النقل بالإله، ويكون الإله تفسيراً مباشراً بلا أي توسطات في علاقات موجودات العالَم، وبالتالي يكون أي قول بالإله قولاً بعبثية العِلم، وبما أن دوكنز واحد من العلماء، فحتمي أن يكون معادياً لفكرة الإله. ويكون كل طلبة العلوم وهواة قراءتها يبتعدون عن فكرة وجود الإله بمقدار تعمقهم بالعلوم وشروحاتها في تفسير الظواهر الوجودية. وهذا كله تهويل لمغالطة وقسر في قراءة مدعيات الآخر المؤمن، فهو لم يقل مثل هذا إطلاقاً. حيث موضوع البحث ليس هو الأساطير ولا الاعتقادات الشعبية، ولا سذاجات الأديان والمذاهب السلفية حرفية التفسير المختزلة للحقيقة بظواهر النصوص فقط. فمثل هذه التيارات ينتقدها الفكر الديني الاصلاحي ويسخر منها بأشد من انتقاد التيارات الإلحادية وسخريتها. وكل هذا التغليط سببه مركزية إله الثغرات في الفكر الغربي المعاصر الذي بات هو المُطابق الوحيد لفكرة الإله وصورته، لذا ما إن تحدد الفيزياء لحظة الانفجار الكبير، وما إن يتم تحديد أصل بداية الحياة، أو تفسير أي قضية طبيعية أخرى، فكأنما تم اقتطاع مساحة من فكرة الإله، وهذا سببه بنية نفسية شعورية وفكرانية متحزبة، اختزلت الحقيقة بأصالة المادة وحدها، وحسبت بيقين أن الإله يجب أن يكون داخل العالم وجزءاً من الكون، وهو تفكير استشرى في الفكر الغربي المعاصر بسبب تهويد الفلسفة، فصارت فكرة سبينوزا في تجديد التراث اليهودي، بحلولية الإله في الكون، هي القضية المتبادرة في أذهان الأكاديميين في الغرب، مضاف إليها فكرة كون الإله استبدالاً للعلل الطبيعية وأسبابها، وبالتالي فهو نقيض العلم. وهو أمر تحول وكأنه بديهية مطلقة منذ بيانات أوغست كونت بأن الوعي ينقسم إلى مرحلة الأسطورة ومرحلة الدين ومرحلة العلم. فهنا مراحل منفصلة بعضها عن الآخر. علماً أن القوم حينما يأتون إلى البحوث الاجتماعية والنفسية نجدهم يحللون الوعي

البشري على أنه خليط من هذه الثلاثة وأنه لايمكن فصل أحدها عن الآخر فصلاً نهائياً، فحتى للعلم أساطيره وحتى للأساطير علميتها. إن فكرة الإله المناقض للأسباب الطبيعية يخالف ما لدينا بخصوص أن الإله مهيمن على العالَم (هو الأول والآخر، وليس كمثله شيء، وخارج عن كل شيء من دون مباينة)، وليس هو جزءاً منها ولا استبدالاً لقوانين الحياة والكون. وبالتالي فأي اكتشاف علمي والوصول إلى حقيقة علمية عن قانون لوجود ما أو للكون كله (على افتراض قدرتنا على ذلك) لا تعني سوى معرفة علاقات السببية وسخريتها داخل» العالَم وبين أجزائه بعضها مع بعض، وليس علة تفسيرية للكون ككل وهو تفسير تابع لقوانين ذهنية نحن عبيد لها، نتعرف بها إلى قوانين في الموجودات لاندري لماذا هي هكذا بالذات، واكتشاف قوانينها لايعني عدم حاجتها إلى علة خارج موضوعها، حيث اكتشاف قانون الشيء لا يعني أن القانون بنفسه علة لوجود ذلك الشيء.

رغم أن تفسير دوكنز يحمل بعض المشكلات في بعض الأحيان، كرفضه أن يكون الانتخاب الطبيعي عشوائياً وبلا بمعنى، مع أنه لا علم له بشيء ولا يسير نحو غاية![1]. وقيمة حصول ترتيب حالة واحدة مكونة من ثلاثة عشر جزءاً تحتاج إلى تكرار محاولة متصلة لمدة ألف ألف مليون سنة[2]، في حين أنها تركيبة أقل بألف ألف مليون مرة من تركيبة خلية بسيطة، وكل خطوة مهما بلغت ضآلتها في تحولات الكائن الحي هي أقل من ذلك، وبالتالي تتقارب رياضياً من قيمة الطفرة الواحدة في التطور، مع ذلك يتم طرح الاحتمالات الهائلة بأنها ممكنة ومعقولة من حيث تفسير كل ظواهر الحياة على أنها مجرد

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٦٧.

(٢) سحر الواقع، مرجع سابق، ص٢٢.

مصادفة احتمالية!. ونحن نرفض قيمة هذه الاحتماليات الضعيفة حينما نتكلم عن نصرة العلم ضد المعجزات، لكننا نقبل تحويل الكون كله كمعجزة خارجة ضد فكرة الإله! «إن ما نراه في الحقيقة ليس نتيجة للمصادفة أو الحظ أو من أعمال السحر التي تتم عن بعد»[1].

وبالرغم من أن مدارس تطورية متعددة تستعين بفكرة الطفرة لسد ثغرات الداروينية، لكن دوكنز، يستبشع فكرة الطفرات العشوائية[2]. ففي بعض

(١) سحر الواقع، مرجع سابق، ص٢٣.

(٢) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٧١، لكنه في ص٨٩، وص٩٠، وص٢١٨، وص٣٠٩–٣١٦، لن يستعين بشيء سوى الطفرات!. ودوكنز نفسه يذكر (الجديد في الانتخاب، ص١٠٩)أن هناك قضايا أساسية في علم الأحياء جعلت علماء تطوريين يتنازلون عن الداروينية لتفسيرها، حيث قرروا التدرج المنضبط في حسابات بيومورفاتنا حيث تساوي الخلية حشرة عقرب أو ثعلب أو أي كائن آخر، وبالتالي مشكلة الترجيح بدون مُرجّح، إلى اضافة الحيرة في أن الجين حيادي لكنه يُعين ظهور نوع مُعين ويكوّن قرابة بين نوع مُحدد وآخر، بينما لا يوجد أي مسوّغ لذلك، لكنه أمر دائم ومستمر بدقة رياضية(الجديد في الانتخاب، ص٣٦١)، ودوكنز نفسه يقر بأنه أمام معضلة حسابية في التمسك بتفسيره وسيكون من المُحرج مطالبة القارئ بتأييدها فيما لو حولناها إلى لغة الأرقام المتفجرة والإعجازية(الجديد في الانتخاب، ص٣٦٣). ويضطرب دوكنز(الجديد في الانتخاب، ص١١٠) بين إضافة عنصر جديد للتفسير بوجود مكافأة لتعيين الخلية في اتجاه دون آخر، مما يعين السير وفق هدف، وبين نفي أن يكون للانتخاب الطبيعي أية غاية. ويبتعد دوكنز عن كتابة القضية بلغة الأرقام لكونها ستبدو حداً غير معقول من البلاهة بأرقامها فوق الفلكية الضخمة لتفسير مسألة جزئية واحدة، حيث حتى خلية البكتيريا الواحدة هي شيء يعادله معمل كيميائي ضخم(الجديد في الانتخاب، ص١٧٢) فكيف بالكائن المتعضي نفسه، بل الموجودات الحية كبيرة وصغيرة حيث لا قيمة لها لو نفينا عنها صفة العمل التعاوني(الجديد في الانتخاب، ص٢٣٢). بل أكثر من ذلك فجأة نقفز من لا نظام إلى تنظيم رياضي صارم لو سرنا به لأمكننا إعادة ولادة حتى

الأحيـــان يقـــول دوكنـــز بوضـــوح: إن هنـــاك تسلســـلاً وتراكمـــاً وتنظيمـــاً ولا مجـــال للعشـــوائية:

«إن التسلسل الكلي للخطوات التراكمية يتكون من أي شيء إلا أن يكون عملية من المصادفة... فالعملية التراكمية يوجهها البقاء غير العشوائي.. إن قوة هذا الانتخاب التراكمي هي أساساً عملية لاعشوائية.. الاعتقاد بأن التطور الدارويني «عشوائي» ليس مجرد اعتقاد زائف، إنه عكس الحقيقة بالضبط. فالمصادفة عنصر ضئيل في الوصفة الداروينية، أما أهم عنصر لها فهو الانتخاب التراكمي الذي هو في جوهره «لا عشوائي»»[1].

بـــل بعـــض الأحيـــان يقـــول: إن ظهـــور الكائـــن مـــرده إلـــى «سلســـلة الســـببية»[2].

المخلوقات المنقرضة (الجديد في الانتخاب، ص١١١) والعلم الحتمي الرياضي بُعمر الأسلاف لكل نوع (الجديد في الانتخاب، ص٣٦١)، هي عملية ملاحة لا تُفهم إلا ببوصلة سير ونظام رياضي وحتمي يتم الإصرار على جعله بلا معنى!. لذا اتفق أن تكون الخيول ذات أربع سيقان راكضة، و«اتفق» أن الكنغر لديه ساقان يقفز بهما(الجديد في الانتخاب، ص١٤٩)، و«اتفق» أن تركيب كل جسد متوافق مع نوعية الطعام الذي يحتاجه وطريقته في التناسل وطريقته في الحماية وطريقته .الخ، كل هذه «اتفاقات» في كون مجموعة مُحدد بدقة رياضية! ففي النهاية لم يختلف الكنغر عن الخيول في التركيب الجسدي سوى بسبب «عارض» تصادفي لا غير(الجديد في الانتخاب، ص١٥٠)!. لا شيء ذاتياً في الكون والحياة لكن الحياة لبنتها الأساسية على الدعم الذاتي الذي تكونت الأنواع بفضله (الجديد في الانتخاب، ص٢٣٥)، الغريب أننا نجد الحياة حتى بالنسبة إلى الحشائش والنباتات، فضلاً عن الكائنات الحية أو العاقلة،(الجديد في الانتخاب،ص٢٥٠) ينتهي مسارها بنتيجة عقلية تماماً!.

(١) المرجع نفسه،ص٧٣، ص٨١.

(٢) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص١٩٢.

لنجد في نص دوكنز توأمة الحتمية مع التصادفية حيث الأمر يظهر بتكوين «غير مُتعمد ..ليكون محتوماً تماماً»!![1].

في حين أن المشكلة ليست في الانتخاب الطبيعي كآلة لصنع التصميم، لكن في أن يكون عشوائياً وبدون هدف، فهذا هو الذي ينتهي بمناقضة فكرة العلة الأولى. بدون ذلك يكون المعلوم من تفسيرات الداروينية ،وليس المجهول منها، محيلاً إلى العلة الأولى وليس إلى المجهول من تفسيراتها أو الأمور التي لم تستطع تفسيرها، وبالتالي ليس من الصحيح تصوير قاعدة الإيمان على أنها شك ذاتي لا قوام له سوى الجهل[2].

المُحاجة الوحيدة التي يُقدِّمها الملاحدة التطوريون هي أن الزمن الوحيد يجعل التعقيد من المصادفة معقولاً، فإذا قبلنا تغيّر لون فراشة ما بسبب أدخنة المصانع، حيث حدث هذا في مدة مئة سنة فقط، فلماذا لانقبل أن يكون أي تعقيد مهما كان، معقولاً أنه نتاج مصادفة ليس إلا[3]. بل وأن تكون هذه التغيرات حدثت من لاشيء![4].

علينا أن نفهم عمى الكون كله قياساً على عمى أمواج البحر وهي تقوم بتنظيم الحصى الصغير والكبير على الشاطئ، فالأمواج بدون عقل ولا نيات ولا هدف، وكذلك الحياة والكون. تماماً مثل ثقب يسمح بمرور حصى

(١) المرجع نفسه، ص١٩٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٦٨.

(٣) المرجع نفسه، ص٧٠.

(٤) المرجع نفسه، ص٧٠.

صغير ويترك الكبير جراء هزة قوة عشوائية، وتكون النتيجة عملية فرز مُنظّمة للغربال، مع أن حركة الأمواج مبنية على قوى فيزيائية لا يستوعبها سوى العقل، والأمواج جزء من كون عقلي بشكل دقيق، حيث قوة الهزّ الكونية مُنتظمة وعمليات فرزها مُنتظمة ومكررة ولا تخرج عن دقتها في البنية المترابطة للوجود، وفوق ذلك نسأل عن بداية ظهور الأشياء الأصلية لغربال الحياة والكون ودفعة القوة الأولى التي أعقبها كل هذا التنظيم؟![1].

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٧٣–ص٧٤. وفي ص٧٥ من الكتاب نفسه، يدرك دوكنز أن التصوير باللاعلية فكرة مجنونة فمادة بسيطة كالهيمولوجين المتكون من أربع سلاسل من الأحماض الأمينية كل سلسلة منها تتكون من ١٤٦ من الحامض الأميني تحتوي على عدد من الاحتمالات يجب أن نتخيل فيه مليوناً أمامه ١٩٠ صفراً!. ليأتي الحل عبر تخيل الزمن العملاق الذي يسمح بوقوع احتمال هائل كهذا، لكن أليس هذا نفسه هو مجرد احتمال؟!. إن هذا وحده غير كافٍ بدون انضمام شواهد عيانية أخرى. أما الاستنتاج بنقل التصوير من الانتخاب بخطوة واحدة، إلى الانتخاب التراكمي، يجعلنا ننتقل إلى الاحتمالات المُركبة وليس البسيطة وبالتالي يزداد الاحتمال إلى الصفر وبالتالي تضعف مقولة نفي العلية وليس تقويتها. أضف إلى ذلك أن كل عملية مترابطة بغيرها في كون لا يوجد فيه شيء لا علاقة له ببقية الموجودات. فضلاً عن بقاء مشكلة بقاء الكون معقولاً. وعرض دوكنز لفكرة كمبيوتر تطوري (ص٨٠ من الجديد الانتخاب الطبيعي) وهي كبقية حجاجيات دوكنز مُكررة في كتابه عن وهم الإله الذي هو مجرد مختصر لبقية كتبه، هو عرض مبني على الهدفية والخطة المُسبقة. بل فكرة دوكنز عن القرد الكاتب (ص٨١ من الجديد في الانتخاب)هي فكرة صبيانية لكونها هي نفسها فكرة مُصممة تضع الوجود في خطة مُنضبطة.أمر آخر يطرحه الملاحدة عبر فكرة الداروينية (الجديد في الانتخاب، ص٨٢)، وبحماسة معيبهم بالقول إن الإنسان هو الغاية التي انتهى إليها التطور، ومع ذلك فالإنسان هو الوحيد الذي فهم التطور واستفاد منه وبه يتم الاحتجاج بنفي الإله، بينما بقية المخلوقات تعيش به بدون أي وعي أو توظيف لمسائل أخرى!، لو صح توصيف دوكنز بأن الغرور هو الذي أنتج فكرة أن الإنسان غاية التطور، فإن من الغرور القول إن الإنسان يجعل من التطور طرحاً علمياً غايته نفي الإله.

إذن، محاجة دوكنز الأساسية هنا ليست ضد التصميم كنظرية في تفسير الأحياء المُعقدة، بل أن يكون الوجود الحيّ جزءاً من مقدمات استدلالية على فاعل أذكى وأعظم، وهو ما يسمى بدليل النَظم، الذي دارت حوله أبحاث اللاهوت الطبيعي:

«و صانع الساعات في عنوان كتابي قد اقترضته من رسالة مشهورة لوليم بالي عالم اللاهوت في القرن الثامن عشر، وهي رسالة «اللاهوت الطبيعي» التي نُشرت في العام ١٨٠٢ وهي أحسن عرض معروف لحجة التصميم.. ويبدأ بالي «اللاهوت الطبيعي» بفقرة مشهورة:

«لنفرض أنني أثناء عبور مرج حطت قدمي على قطعة «حجر» كيف وصل الحجر إلى هناك، لعلي أُجيب بأنه ما لم أعلم بعكس ذلك، فإنه يقبع هناك منذ الأبد. ولعله قد لا يكون من السهل جداً إظهار سخف هذه الإجابة. ولكن لنفرض أني وجدتُ «ساعة» على الأرض وأنه ينبغي البحث عن كيفية عثوري على الساعة في ذلك المكان، فلا أكاد أظن أني سأفكر في تلك الإجابة التي سبق أن أدليتُ بها، وهي ما لم أعلم بغير ذلك، فإن الساعة ربما كانت هناك دائماً».

و«بالي» هنا يدرك الفرق بين الأشياء الفيزيائية الطبيعية كالحجارة، والأشياء المصممة المصنوعة مثل الساعات. وهو يواصل حديثه فيبين الإحكام الذي تصاغ به تروس الساعة وزنبركاتها والتعقيد الذي توضع به معاً. فإذا عثرنا على شيء مثل الساعة فوق مرج. فإننا حتى لو كنا لا نعرف كيف وصل إلى الوجود، فإن إحكامه هو نفسه وتعقّد تصميمه يجبرنا أن نستنتج:

أنـه ينبغـي أن يكـون للسـاعة صانـع، وأنـه ينبغـي أن يوجـد، فـي وقـتٍ مـا وفـي

مكان أو آخر، مُصنِّع أو مصنِّعون، هم قد شكلوها للغرض الذي نجد أنها تفي به فعلاً، وهم أدركوا تركيبها وصمموا استخدامها.

ويصرّ «بالي» على أنه لا يوجد من يستطيع أن يخالف بصورة معقولة هذا الاستنتاج، ذلك أن: كل دليل على الاختراع وكل مظهر للتصميم، مما يوجد في الساعة، يوجد أيضاً في أعمال الطبيعة، مع وجه اختلاف في وصف الطبيعة وهو أنها أعظم وأكبر وذلك بدرجة تفوق كل تقدير.

ويسوق «بالي» وجهة نظره إلى مداها مصحوبة بتوصيفات فيها جمال وتبجيل لماكينة الحياة، إذ يتم تشريحها بادئاً بالعين البشرية، وهي نموذج أثير استخدمه داروين فيما بعد .. ويقارن «بالي» العين بآلة مصممة مثل التلسكوب ويستنتج أن «هناك بالضبط الدليل نفسه على أن العين قد جُعلتْ للرؤية بمثلما يوجد الدليل على أن التلسكوب قد جعل للمساعدة عليها» فلابد أن للعين مُصمماً تماماً مثلما يكون للتلسكوب مُصمِّم.

ومحاجة «بالي» قد صُنعت بإخلاص وأُفعمت بمعلومات من أحسن دراسات البيولوجيا في ذلك الوقت ولكن التمثيل بين التلسكوب والعين، وبين الساعة والكائن الحيّ هو تمثيل زائف. فصانع الساعات الحقيقي له تبصّر للأمام: فهو يُصمِّم تروسه وزنبركاته ويخطط ما بينها من ترابطات وقد وضع نصب عينيه هدفاً مستقبلياً، أما ما يصنع الساعات في الطبيعة، وهو الانتخاب الطبيعي، تلك العملية الأوتوماتيكية العمياء غير الواعية التي اكتشفها داروين والتي نعرف الآن أنها تُفسّر بيولوجيا الحياة، فليس له عقل ذو هدف. إنه بلا عقل وبلا عين لعقل، وهو لا يخطط للمستقبل، وليس له رؤية ولا بصيرة للأمام، ولا بصر على الإطلاق، وإذا كان من الممكن أن يُقال عنه أنه يلعب دور صانع الساعات في الطبيعة، فهو صانع ساعاتٍ «أعـمـى»..إن ثمة

شيئاً واحداً لن أفعله هو الاستخفاف بروعة «الساعات» الحيّة التي ألهمت «بالي» على هذا النحو. وعلى العكس من ذلك فسأحاول أن أبين إحساسي بأنه كان في استطاعته هنا أن يذهب إلى مدى أبعد. وعندما يصل الأمر إلى الإحساس بما «للساعات» الحيّة من روعة فإنني لا أذعن لأحد. وإني لأحس بأني أشارك القس وليام بالي»[1].

فالعائق الوحيد لعدم الإقرار بأن الكون يُحيل على خالق هو نظرية داروين فقط، بدون ذلك لا مفر من الإقرار بالألوهية. علماً أن دوكنز يصر على تصوير ذوي العقول البشرية الكبيرة حتى ما قبل داروين، أمثال كانط، بأنهم ملاحدة لكون الإيمان والتفكير النقدي والعلمي لا يجتمعان!. وهو لا ينفي أن بعض الداروينيين ليسوا ملاحدة!. وهو يكتب أن الانجراف في الداروينية كغلواء مُتشددة تصل إلى تفسيرات تعتمد على احتمالات متساوية لكيفية ظهور مسارات خلية دون أخرى، وهي بلا ريب: احتمالات عبارة عن مستحيلات منطقية[2]. وهو يقرّ، في كتابه صانع الساعات الأعمى، بأن الطفرات المعروفة غير مفيدة، مع أن التطورية لم تجد حلاً سوى الطفرات لتفسير ظهور التنوع. ودوكنز يعلم بأن الانتخاب الطبيعي لامعنى له بدون فكرة البداية، لكن كل بداية حتماً هي ستكون خارج الانتخاب الطبيعي، فالانتخاب الطبيعي بنفسه يدل على مدار غير داروينى، وهذه البداية التي لا نعرف عنها أي شيء داروينياً يتم القفز على إشكاليتها بأننا لا نعرف، لكن هذا يجب أن لا يكون حجر عثرة في الأيديولوجيا الداروينية ونظرية التطور، أما لماذا علينا أن لا نعتبر ذلك ليس

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي: ص٢٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٠٩.

حجر عثرة؟! فهذا ما يتم السكوت عنه، حيث يتم اللجوء هنا إلى المجهولات والفراغات وكأننا أمام صورة مقلوبة لإله الفراغات المعيب!![1].

١ ـ حينما نلغي ارتباط الانتخاب الطبيعي بالمستقبل، لا يكون ثمة انتخاب طبيعي. فالعناصر التي تبقى وتتطور مرتبطة بصلاحية الكائن للحياة. بل أليس القول بأن الانتخاب الطبيعي لا رؤية له للمستقبل، هو نفسه قول مستقبلي يُحدد طبيعة عمل الانتخاب الطبيعي في المستقبل؟!.

٢ ـ ينقل دوكنز جملة من بحوث الفيزيائيين عن عظمة الوجود بأنها تفوق قدرتنا على الخيال في دقتها. فهناك ما لا نهاية بما لا يُتناهى من الدقة التي لايمكن وضع أي رقم قبالها لمصلحة النقيض العشوائي الأعمى.

٣ ـ ثمة تحكيم على المؤمنين بأن الإيمان رهين التصميم منذ البدء، في حين أن حجة التصميم تسري حتى في التصميم البعدي. ففي النهاية لدينا تصميم وهذه النتيجة مستمرة ودائمة وبالتالي يقع السؤال عن العلة وليس عن كيفية عمل العلّة.

٤ ـ لو ألغينا ترابط وعليّة ظهور صنف في شجرة الحياة مما قبله، سقطت النظرية الداروينية، ولو أثبتنا ذلك لكان معنى ذلك أن السابق في حلقات فروع تشجرات أصل الحياة، دليل على علاقات العلية، وبالتالي ينفتح الباب لبحوث الفلسفة والأفكار الكُلية ومن ثم قبول فكرة الإله وليس نفيها، حيث

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٢٢٩.

نفيها ينفي علاقات ظهور حلقات التطور الجيني والنوعي، فكلاهما مبني على أصل واحد هو التعليل، الذي بفضله نعلم عمر كل فصيلة ونُخمن باحتمالية عالية جداً وجود الأحفورات في مناطق مُحددة، ونحتمل بصورة قريبة من اليقين كيف سيكون الجيل المستقبلي لبعض الأنواع. وهذا التعليل يجب أن يكون خارج حلقات التطور، وإلا لكان التعليل مجرد خدعة مادية لا تنفي العلية بل تنفي أن يكون هناك تطور.

٥ ـ ولعل واحداً من أهم الأسئلة المُهملة في الطرح المادي على اختلاف مدارسه هو سؤال البقاء: بغض النظر عن البداية أو النهاية للكائن، هناك مشكلة بقاء الكائن في كل آن، إذا لم يكن محتاجاً إلى علة، لا يُعقل إلا لكونه واجب الوجود.فالكائن الذي تركب «مصادفة» من عدة عناصر كل عنصر ليس واجب الوجود في نفسه ولا شيء أوجب لالتقائه العناصر الأخرى، لكن مع ذلك كل عنصر يجب أن يكون في موضعه في الكيفية التي يعمل بها بدقة متناهية، بحيث أن أبسط خلية متكونة من آلاف البروتينات والجسيمات الأخرى، لو نقص واحد منها أو زاد فإن الخلية تنقلب إلى شيء آخر كلياً!.

٦ ـ لو قبلنا كل ما يقوله دوكنز، مع تشدداته الأرثوذكسية، فإن الأمر لا يتعدى كونه بحثاً في علم الأحياء يقرأ مجموعة من الجزئيات الخارجية[1]،

(١) وبعضها ليس كذلك لكونها غير موجودة ولا يمكن اختبارها فعلًا، فهي مجرد فرض يقول إنه قبل ملايين السنين كانت المخلوقات كذا وكذا، أو أن المخلوقات الفضائية التي لايوجد لدى التطوريين أي معلومة عنها البتة، هي مشمولة بالداروينية، فهذه كلها فروض ذهنية وتعميمات استقرائية بعضها على جزئيات قليلة جداً، قياساً

في حين أن مسألة الله أو الإله، بحث في قضايا المُطلق، وبالتالي فأقصى ما يقود إليه التشدد في الإلحاد المتذرع بالداروينية، هو القول بعدم وجود علم في مجال الأحياء، يُثبت وجود خالق وقوة ذكية عامة. وبالتالي يكون البحث اللاهوتي قد خسر واحداً من أدلة كثيرة، تماماً كقول بعض الفلاسفة إن الدليل الآني دليل غير تام، وسقوط دليل من الأدلة، لايعني أبداً سقوط الموضوع المُستدل عليه، خصوصاً وأن مجال علوم الطبيعة لا علاقة له لا ببحث الكليات عموماً، ولا بنفي أي مسألة تخص المُطلق بالخصوص.

وهذا ليس اختلافاً «مبنائياً» يمكن القول فيه إن دوكنز ينتمي إلى مدرسة الفكر التجريبي ولا يمكن محاجته بمفاهيم ترتبط بالمدرسة المثالية؟. فمثل هذا ليس تاماً: أولاً لكون حتى المدار التجريبي مرتبطاً بفلسفة العلوم وبقضايا كُلية بها يتم تأمين صحة الاستقراء ونتائج التجربة وإمكانية معرفة الواقع وغير ذلك من مسائل. وثانياً إن دوكنز نفسه يدافع عن العلم والسعادة والحقيقة، لا كقضايا جزئية بل كمفاهيم كلية تتحول لديه إلى نوع من العَقدية والشعاراتية التي تستحق أن يقاتل الإنسان لأجلها ويتصادم مع مؤسسات كاملة، ولا يقبل مقولة نسبية الحقيقة ورفض المنهجية العلمية على أساس ذلك، لذا هو يدافع عن شمولية المنطق وعمومية الدقة المنهجية[1].

بملايين السنين لحياة الكائنات كما هو مُفترض، وبعضها لا يوجد حتى جزئي واحد نُعمم عليه بطريقة تجريبية واستقرائية كما هي حال ما يؤمن به دوكنز بشأن المخلوقات غير الأرضية!.

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢١. ودوكنز يضطرب في ص٢٧ و٢٨، في سجالية العلم والحقيقة بين السخرية باستخدام أمثلة حسية مباشرة، وبين كون العلم يتجاوز بنا المعطى الحسي المباشر وهو الحقيقة. وبسبب استصغاره للفلسفة يحتار كيف أن العلم افتراضات تحت الاختبار (ربما يتم تفنيدها غداً لكنها لن تفند قط) وأن معطيات النظريات العلمية (حقيقة بالمعنى نفسه بالضبط مثل الحقائق العادية

٧ ـ لكن سؤال العقبة الحقيقي هو سؤال المعرفة: فدوكنز وأشباهه يطرحون الوعي البشري على أنه تصميم أولده تطور مادي بما يوافق حياة الكائن البشري. فهو ليس وعياً حقيقياً، كوعي طائر الخفاش في «صانع الساعات الأعمى» يدرك صورة عن الواقع ليست حقيقية عبر الصوت فقط، صورة تكفيه للحياة. كذلك الإنسان لديه صورة عن الواقع سمعية وبصرية غير حقيقية تتناسب مع حاجاته الحياتية. لكن كيف لا تكون التطورية صورة زائفة هي الأخرى فهي مُدركة بهذا العقل التطوري نفسه؟! وهل المعادلات الرياضية ونتائج العمليات الحسابية قائمة وفق هذه التطورية؟:

«العقل البشري هو نفسه نتاج مصنوع يتشكّل عندما تعيد الميمات بناء المخ البشري، حتى تجعل منه مثوى أفضل للميمات. وتتعدل طرق المدخل والمخرج لتلائم الظروف المحلية، كما تتقوى بمختلف الأجهزة الاصطناعية التي تدعم درجة دقة أداء النسخ والإطالة فيه: فتختلف العقول المحلية والصينية، اختلافاً درامياً عن العقول الفرنسية المحلية»[1].

للحياة اليومية) وهذا كله كما نعلم غير صحيح. ودوكنز نفسه يستشهد بتحقيقات الفيزياء الحديثة التي تصل إلى علمية تحرك تمثالاً من المرمر، والنتائج الغريبة للفيزياء الكمومية التي هي أغرب من السحر نفسه (\العلم والحقيقة، ص٢٨). يقول دوكنز (\العلم والحقيقة، ص٣٠): تعلمنا الفيزياء الحديثة أن ما يوجد من حقيقة هو أكثر مما تتلقاه العين، أو أكثر مما يتلقاه العقل البشري بكل أوجه قصوره، ذلك لأن العقل تطور ليتلاءم مع أشياء من حجم متوسط. لكنا نسأل دوكنز وأي عقل غير العقل البشري ،هذا الذي تعلم من الفيزياء الحديثة وتوصل إلى هذه الحقيقة التي تتجاوز العقل؟!.

(١) \العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٢٥. ولا حاجة للإطالة هنا حول بيان وهن رفض التطوريين وصف الدراوينية بأنها نظرية عنصرية وقد كانت النازية استنتاجاً سليماً وليس تعسفاً منها أو سوء فهم لها. فها نحن أمام كلمات واضحة جداً، مع

هذا يعني لو أن مصادفة ما جعلتنا نتكون بطريقة أخرى وبقفزة مختلفة لخلايانا، لكنا لا ندرك أن عملية جمع خمسة زائد خمسة تساوي عشرة، بل تساوي ثلاثة عشر مثلاً. أن تختلف عملية الحساب البسيطة هذه فيما لو عرضناها على أسلافنا الماضين، وستختلف عن الأجيال المُستقبلية التي من المُحتمل أنها ستعيش في كوكب آخر، أسلافنا يقولون خمسة زائد خمسة تساوي ثلاثة، وأحفادنا سيقولون خمسة زائد خمسة تساوي خمسمئة، كل واحد بحسب وزن دماغه وبحسب محيطه الضاغط عليه، حيث سيُعطي كل جيل إجابة توافق الشروط الصالحة لبقائه وتطوره «الأعمى». وبالتالي: فإما أن نقول إن الرياضيات كغيرها جزء من وعي مخاخنا المادية الوليدة للداروينية فهي لاتحكي عن الواقع كما هو، وبذلك لن تثبت التطورية حيث تسقط جميع المعادلات المُتعلقة بها[1]، ولن تبقى أي حقيقة هناك ويكون التمسك بالتطورية كخطاب شمولي، معناه هدم كامل المعرفة البشرية. وإما أن نستثني الرياضيات مثلاً. عندئذ ستكون لدينا حقائق ليست تطورية ولا مادية، بل ستكون مُجردات+مفاهيم كلية وقواعد مُتعالية، وهذا يعني العودة إلى الفلسفة

ذلك جملة الملاحدة على أساس التطور يلجأون إلى محتملات لفظية وتأويلات لا تختلف بشيء عن تأويلات متعصب ديني عن نصوصه التراثية، لكن بينما يرفض التطوريون، ودوكنز أشدهم، عملية حل إشكالية النص الديني عبر التأويل، يكون التأويل نفسه الملجأ المتكرر للتطوريين!.

(١) سواء في الحسابات المتعلقة بعمر الأنواع والأحفورات أو بشفرة الجينوم، أو باستخدام الاحتمالات المفتوحة الانفجارية نفسها التي على أساسها يتم نفي الإله، أو تصوير تغيرات المادة الجامدة إلى مادة حيّة. فهي في النهاية حسابات رياضية يجريها المخ وحده،وليس لها مطابق خارجي، منفصل عن الإنسان، والآن بدون مثل هذه الحسابات لن يعي أي شيء ولن يكون قد فهم أي شيء، فهي مجرد إفراز كيميائي لخلايا عصيبات المخ. بدون أية إضافة إلى عنصر ميتافيزيقي، ينتفي الواقع الفيزيقي كله.

ومن ثم إلى قدر ما من الإيمان باللاهوت. وهكذا نعود إلى التفرقة بين حجر على الطريق وبين ساعة مُركّبة، وأن هذا الفرق مرده إلى بديهيات قبلية هي مرجع قراءة الحقيقة.

مُحتمل أن هذه المفارقات المزدوجة هي التي جعلت الداروينية ،ومنهم دوكنز، ينتقل من القول بنفي «التصميم» الذكي للكائن، إلى القول بطرح الـ«التصميم» الذكي للانتخاب الطبيعي[1].

(١) ريتشارد دوكنز... عالم غيّر أفكارنا، مرجع سابق، ص٢٨.

الإله ذو الأزرار السّتة

هنا يحاول دوكنز منحنا عدة مستويات من الإجابة فيما لو قمنا بترتيب كلامه المتهرئ البيان، حيث ويا للأسف أن كتاب «وهم الإله» هو أشهر كتبه لدينا لكنه أسوأ مؤلفات الرجل على الإطلاق، بخلاف كتبه الأخرى التي تحتوي عناية أكبر:

المستوى الأول: أن الوجود مركب بدقة خارقة الذكاء، لكن لا نقول بالتصميم «التصميم ليس البديل الوحيد للصدفة. الانتخاب الطبيعي هو البديل الأفضل. بالتأكيد التصميم ليس بديلاً بالأساس لأنه يؤدي إلى إثارة مشكلة أكبر من المشكلة التي يحاول حلها: مَنْ خلق الخالق؟. الصدفة والتصميم حلان فاشلان لتلك اللااحتمالية المنطقية، لأن أحدهما هو المشكل، والآخر مجرد ارتداد لها. الانتخاب الطبيعي هو الحل الحقيقي»[1].

وهذا المستوى سقيم:

١ ـ فالقول بالإله ليس ردة فعل أو مجرد بديل لعدم معقولية الصدفة، كما قلنا سابقاً.

٢ ـ التصميم لا يؤدي إلى مشكلة أكبر منه كما في الصدفة، فالسؤال من

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٢٢.

خلق الخالق، مجرد سؤال الجهول بالمباحث الفلسفية، فالواجب بذاته منتفٍ عنه أصل هذا النوع من الاستفهام، والوجود ليس هو مدار الاحتياج إلى العلة.

٣ ـ الانتخاب الطبيعي، حتى لو ثبت لن يكون «هو الحل الحقيقي»، بل هو في أفضل الأمور، النظرية التي حصلت على أكبرعدد من الشواهد. فالانتخاب الطبيعي هو الحل المتاح في هذه المرحلة من العلم، وليس هو الحل، بألف ولام الحقيقة المطلقة والدائمة. لأنه لأحد يدعي أو سيدعي أنه حصل على استقراء تام لكل عينات التاريخ الأرضي والكوني، إلا أن تكون هذه النتيجة ليست نتيجة علم تجريبي.

المستوى الثاني: تطوير القول بالصدفة إلى تراكم الاحتمال المتدرج. وهو مأخوذ من علم الفيزياء، الذي تبناه ستيفن هوكنغ، وبالتالي فهذا الطرح ليس في حقيقته لدوكنز حتى يقول إنه أطروحته في كتاب خاص حول «الصعود إلى جبل اللااحتمال». فهنا يتم الإقرار بأن الصدفة البسيطة، مستحيل لها أن تبني أبسط مخلوق، كورقة عشب صغيرة يجري فيها التمثيل الضوئي، لكن لو فرضنا زيادة مستمرة في اللااحتمالية العالية ومضاعفتها، تكون فكرة التصميم أقل احتمالية[1]. والذي يريد دوكنز قوله هنا، هو نفسه ما يقوله ستيفن هوكنغ في «قصة كل شيء»، مجرد آلاف من الاحتمالات، ملايين من الاحتمالات، لن تقنعنا بظهور أي مستوى من الوجود. لكن لو ضاعفنا الأمر إلى بلايين البلايين المُكثفة، فإن قيمة ظهور الوجود مصادفة سوف ترتفع، نضاعف البلايين فيرتفع مستوى المصادفة، وتكون كفة نظرية التصميم مرجوحة

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٢١.

شيئاً فشيئاً. وهذه الفكرة يمكن تخيلها على شكل انتخاب طبيعي حيث إن «الانتخاب الطبيعي عملية تراكمية، مما يجزئ مسألة اللااحتمالية لأجزاء صغيرة. وكل منها صغير بحيث أن لااحتماليته منطقية بشكل ما، ولكن ليست من المستحيلات الحدوث. وعند تراكم العديد من التراكمات، فإن الناتج النهائي سيكون لا احتمالياً بشكل كبير جداً جداً بالطبع، لا احتمالياً بشكل لا يقبل مجالاً للشك أن يكون قد حدث عن طريق المصادفة.. في كتابي «الصعود إلى جبل اللااحتمال» وضحتُ هذه النقطة بمثال: تخيّل جبلاً أحد طرفيه مُنحدر بشكل حاد، من المستحيل تسلقه، والطرف الآخر مُنحدِر بشكل مُتدرج لطيف حتى القمة. في القمة يجلس نظام مُعقد كالعين مثلاً أو البكتيريا ذات المحرك المروحي. الفكرة السخيفة بأن تعقيداً كهذا يتجمع بشكل آني يرمز إلى الانتقال من وادي الجبل إلى قمته بقفزة واحدة. التطور على العكس من ذلك، يذهب حول الجبل من الناحية الأخرى ويصعد المُنحدر البطيء زحفاً.. استعارة أخرى مفضلة عن تطرف اللااحتمالية في حالة قفل خزنة بنك. نظرياً ليس لسارق أن يكون محظوظاً بالحصول على تسلسل الأرقام الثمانية بالصدفة وحدها. عملياً التسلسل يُصمم بلااحتمالية عالية لدرجة تجعل ذلك أشبه بالمستحيل بدرجة فكرة فريد هويل نفسهاعن البوينغ ٧٤٧. ولكن تخيل قفلاً مُصمماً بشكل سيىء وأنه يعطي إشارات استطرادية تعلو كلما قرب الرقم من الرقم الصحيح. افترض اقتراب القرص من الرقم الصحيح، فإن باب الخزنة يُفتح قليلاً وحفنة من النقود تسقط منها، فاللص في هذه الحالة سيحصل على الجائزة الكبرى في وقت قصير جداً»[1].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٢٣.

ولنا أن نلاحظ هنا:

١ ـ أن هذه الأطروحة ليست «علمية» بمقاييس دوكنز عن العلم والعلمية، فلا يوجد لدينا أي نموذج عيني ملموس ومختبري نضع فيه الكون كعينة تقيسه وتخضعه أو تكون لدينا أعمار وقدرات خيالية الطول والتطور، جعلتنا نعايش مراقبة كل هذه العمليات، في النهاية هذه مجرد صفنة خيال.

٢ ـ اعتماد مجازات أدبية وبلاغيات إنشائية تخيلية، في مجال علوم طبيعية. والغريب أن الملاحدة لا ينطلقون من أمثلة واقعية أبداً، وهم الذين يعيبون على الدين والفلسفة تنظيراتهما وتعاليها!.

٣ ـ أن في مقايسة الاحتمالات الخيالية الأرقام التي طرحها علماء الفيزياء النظرية، والتطور، مقايسة مع الفارق. فروح الاستدلال هو الحجم الخرافي للاحتمالات، في حين أن نظرية التطور لاتوجد فيها هذه الأرقام الضخمة، فأكبر رقم في جداول الانتخاب الطبيعي، لا يساوي عشر رقم واحد للفيزياء الفلكية في أبسط قضية من قضاياها.

٤ ـ أن في الأمثلة تسخيفاً للقارئ: فنظرية التطور لا تقول بالتصميم والغائية، وهنا السير إلى الجبل واللص يتحركان وفق غائية ما[1]. لذا لو

(١) وهذا شبيه بما سيذكره دوكنز في ص١٩٦ من توهمه حول الإله، حيث يضرب بعض الأمثلة عن عمل الجينات والميمات، لكنه مثال قوامه القصدية والغائية ولا معنى له بدونهما، وهذا شبيه بما ضربه من مثال الكمبيوتر التطوري، ففي جميع الأمثلة لا نجد صانعاً أعمى بل ذكاء مهميناً حيث يُحفظ نسق القصد ونفي الفاعل الأعلى عبر أرقام خيالية تصعب كتابتها فيتم ترميزها ورقياً فكيف بوقوعها واقعياً!

كانت القضية عشوائية كأن يكون اللاعب بالخزنة مجرد طفل أو مجنون لا يعي شيئاً، فإنه لن يهتم لوسمع صوت نجاح رقم من الأرقام لتتراكم التجربة وتتسلسل الأرقام بعد ذلك، في هذه الحالة حتى لو وصل إلى رقم صحيح فإنه سوف يتعامل معه كبقية الأرقام ولن نصل أبداً إلى تسلسل أرقام صحيحة تفك الخزنة، وهذا هو روح فكرة التطور، فلو كان هناك أية إشارة تدلل على حصولنا على رقم صحيح، أو اقتراب القرص من رقم مُحدد، لكان ذلك معناه وجود تصميم وهيكل أعلى هو الذي يجذب ما نسميه مصادفة في حين أنه روح واحد (خلقكم من نفس واحدة) حيث العقل الموحّد للكون كما يقول بذلك جملة من باحثي فيزياء الكم. علماً أن نظرية التطور تجري في عالم خالٍ من التفكير والوعي بشكل تام، هكذا سارت البدايات، بينما للوعي وتفكير اللص هنا الدور الأكبر في تراكم الأرقام الصحيحة وعزل الأرقام غير النافعة.

وأكثر منه تسخيفاً للقارئ مثال الطائرة، فنحن حسب نظرية التطور لا يجب التفكير في حصولنا على طائرة بوينغ ٧٤٧ من عاصفة في حطام للخردة في نهاية سلسلة العواصف، بل لابد أن توجد لدينا طائرة بوينغ متطورة تتطور منها طائرات ومركبات فضائية، باعتبارها هي الخلية الأولى. نحن لابد أن نفكر في عواصف تقع في الربع الخالي، حيث لا يوجد أي شيء وهذه العواصف الرملية والهوائية تنتج لنا حديداً ومعدات صنع طائرة بوينغ ٧٤٧ ثم هذه الطائرة تتطور إلى أنواع مغايرة كلياً عنها، هكذا وحدها بدون غاية ولا مسيرة نحو جهة معينة من جبل التطور.

٥ ـ أن كل هذه هي في النهاية «افتراضات» شواهدها لا تسعف الاحتماليات الضعيفة، ولا يوجد لدينا أي دليل أن مجرد معقولية افتراض ما، يعني صحة وقوعه في عالم الفعلية، اللهم إلا على مبنى الفلسفة المثالية التي

تقول إن كل ماهو عقلي فهو واقعي، ولا أحد من هؤلاء يؤمن بالفلسفة المثالية التي هي فلسفة إلهية. وهذا ما يُسقط حجية الاحتجاج بالمبدأ الأنثروبي الذي يقول إن وجود الحياة في كوكب الأرض العائد إلى دقة المقاييس في أبعاد كل شيء، عائد إلى كوننا مجرد عملية احتمالية لرقم هائل من التلاقي العشوائي لعناصر الكون، فهذا مجرد «افتراض» وهو افتراض عقلي ليس من الشرط أن يكون قد وقع هكذا فعلاً، إلا عبر توسط قاعدة فلسفية مثالية سوف يصاب دوكنز وأشباهه بالرعب لو أنهم وعوا أن طرائق استدلالهم قائمة عليها. هذا بالإضافة إلى أن المبدأ الأنثروبي لا يُفسّر العنصر الفرد الأول الذي انطلقت منه البدايات[1].

٦ ـ يوجد هنا خلل رياضي في المسألة، فالاحتمالات مهما تراكمت تبق احتمالات أما لو ظهر منها نظم تراكمي نوعي، فهو قوانين.

٧ ـ وحتى لو قلنا إن هذه الاحتمالات العملاقة الأرقام نفسها، لا تجري في عدم بل في بداية وأصل. هذا مع فرض سكوتنا عن أن هذه الاحتمالات متطابقة مع قيمة الصفر الرياضي بل متجاوزة ذلك فهي أكثر من قيمة عشرة ناقص عشرة.

٨ ـ أغرب الأمور لدعاة الإلحاد عبر توظيف التطورية، أنهم من جهة يقولون بحماسة مفرطة إنهم عثروا على سر الحياة بلا حاجة إلى الإله، وإن الحياة نشأت من تفاعل كيميائي معلوم حُدد عمره وتكوينه وجزئياته بدقة عالية، وبين اعترافهم بأن صناعة الحياة هذه لم تكن بشكل كيميائي عشوائي

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٣٨.

إلا مرة واحدة، وأننا حتى بعد كل هذا التقدم والسيطرة اللذين بفضلهما يمكن اختصار تلكم العمليات الطويلة التي تستغرق كماً هائلاً من الحياة لم نستطع صنع أي مستوى ولو بسيط من الحياة، فضلاً عن خلق مخلوق متكامل، وبالطبع علينا هنا تناسي ما ردده دوكنز عن مساحة الغموض الكبيرة في مجمل عناصر الخلية الحيّة:

«أصل الحياة يزدهر ،كموضوع بحث تخميني، والخبرات المطلوبة كميائية وليست من اختصاصي. وأنا أقف كالمتفرج الفضولي، ولن أفاجأ لو أنه في خلال بضع سنين مقبلة، نجح الكيميائيون في توليد أصل للحياة في المختبر. على الرغم من أن ذلك لم يحصل حتى الآن، ولا يزال من الممكن المحافظة على الرأي القائل بأن احتمال حصولها كان ولا يزال ضئيلاً بشكل هائل، بالرغم من أنها حصلت في وقت ما ولمرة واحدة»[1].

كل هذه الدقة العقلية والقصدية عاجزة، لكن التصادفية العمياء صنعت الكون برمته، إن هذا ببساطة خروج على مبدأ التماثل الذي تقوم عليه نظرية التطور. والقضية برمتها «تخمينية» لذا حين يتم الاعتراض عليها يُجاب بتخمين آخر، باحتمالية وجود حياة أخرى حصلت، وكأن هذا هو الحل في حين أن أصل السؤال يبقى: مع القصدية والغائية ودقة الأجهزة والإمكانيات لم نصنع حياة لخلية بدائية، فكيف تُحال حيوات الكون برمته إلى مصادفة عابثة؟!.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٣٩. فلنفرض أن الكيميائيين توصولوا إلى توليد حياة، هل يكون هذا عملية خلق؟ إنه في النهاية مجرد خضوع لقانون معين في تركيب معادلة وعناصر ما، هذا كل الموضوع وهو لا يعني أننا تحولنا إلى الآلهة. ولا أن موضوعنا بات نفياً للإله بل خضوعاً للقوانين الثابتة في مخلوقاته.

إن لدينا وسائل وتقنيات تحضير مادة كميائية ما نختصر بواسطة الأجهزة تفاعل ملايين السنين فلماذا نحن غير قادرين على إنتاج مخلوقات كاملة، كبناء مصنع لإنتاج المخلوقات المنقرضة أو ما شابه، مع أننا بالتأكيد لن نبدأ من الصفر بل من خلال مراحل متقدمة جداً، مع ذلك تبقى التطورية تشرح الجدول الحياتي بشكل «نظري» ولم تسعفنا بشيء في المجال الفعلي الذي هو ميدان الحياة وليس تسطيرات الكتب. بالطبع إن كل هذا لا يعني بالضرورة نظرية التصميم، حيث لاعلاقة ضرورة بين القول بوجود الإله ونظرية التصميم، كي يسقط أحدهما عند سقوط الآخر أو بالعكس[1].

المستوى الثالث

وبما أن دوكنز يفترض عبر عملية وهمية (وتضليلية من قبل بعض المؤمنين للأسف) أن كل عملية تفسير لظاهرة ما، تعني تقويضاً لفكرة الإله، لكونها فكرة قائمة على حشو الفراغات فقط فكأن قولنا بالإله يكفينا مؤونة البحث العلمي[2]، فإن دوكنز لم يستطع قط قراءة فكرة الإله بذاتها على أنها

(١) البعض يتصور مثلًا أن قوله تعالى (كن فيكون) يعني التصميم التام آنياً ونفي التطورية، في حين أن الإله ليس زمانياً فكلمته بها يظهر الزمان وليست هي في الزمان، فكل الوجود بالنسبة إلى الإله ظهر بأقل من لحظة لكن الوجود بالنسبة إلى نفسه ظهر عبر مليارات السنين. وبالتالي لا تعاني فكرة الإله أية مشكلة فيما لو قلنا بالمبدأ الأنثروبي، اللهم إلا عند التصويرات الساذجة للإله كالقائلين بألوهية المسيح أو عند العقيدة الوهابية التي لديها الله صبي أمرد ينزل ويصعد وغير ذلك من الأقوال التي لا تصلح إلا للتسلية والفكاهة. أو تأويلات جمالية لا علاقة لها بالعلم.

(٢) وهذا غير ممكن التصور إلا حينما نطابق بين الإيمان وبين الجهل، ليكون من ثم تطابق بين الإلحاد وبين العلم، حسب معادلة تلاقي النسب المتوافقة بعضها مع بعض وتلاقي النسب المناقضة لها هي الأخرى، وهذه عودة مرة أخرى إلى مصادرة

قراءة في «الوجود» بما هو وجود، لا يختلف الأمر عن الإطار والشكل اللذين ظهر ويظهر بهما الوجود[1]. وفي النهاية يحسب دوكنز أنه بلغ مستوى حقيقياً من التقدّم في حلبة النزال، فهو لا يطرح فكره بروح البحث بل بروح الخصومة والاعتراك، هكذا صوّر لنا داروين وهو ينظر إلى مرآة نفسه، سيحاج دوكنز واحداً من اعتراضات القائلين بالتصميم الذي يقول: إنه إذا كان تطور كل عضو أو تركيب ما في مخلوق ما، مساوياً لحاجته وصلاحه، فكيف يُمكن لنا أن نتخيل خرطوم فيل صغير جداً جداً، مجرد نتوء، لا يصلح لشيء، يبقى آلاف وملايين السنين، وتحتفظ به خلايا التوريث وتطوره بما يصلح للأجيال المستقبلية التي لاجود لها الآن وليس معها أي صراع، حتى يصل إلى الطول المناسب، أو كيف تبقى شحيمة رقيقة جداً ملايين السنين كي تتطور وتكون العين الحاوية لكل ذلك النسيج الهندسي المُعقد. خلال فترة كل هذه القرون لايوجد أي صلاح ونفع لهذه النتوءات فكيف سيتم الاحتفاظ بها حتى تصل إلى المستوى الذي تكون فيه نافعة؟!.

من الواضح أن «التوسطيات» البعيدة تشكل محنة حقيقية في عملية التفسير، مهما جلبنا لها من شواهد جزئية من هذه الأحفورة أو تلك واعتبرناها حلقة ضمن جدول حلقات التطور للكائن، وبالتالي يكون وضع كل أحفورة في الحقبة الزمنية التي فرضها التطور، أقوى دليل على صحة نظرية الانتخاب الطبيعي. لكن مع بقاء مشكلة علاقات مخلوقات كل شعبة من شعب المرحلة التطورية فيما بينها قيد الإهمال، وإلا انفتح لنا سؤال الخصائص المشتركة

تناقض العلم مع الإيمان وأن كل إلحاد قائم على العلم أو أن العلم وحده هو مقولة نفي إلحادية، وهذه كلها مجرد مدعيات يُفترض أننا نبحث لتبيانها لا أن يقام البحث على أساسها!، انظر سطحيات دوكنز في وهمه عن الإله ص١٣٤، كمثال.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٢٨.

التي هي أقل من الخصائص الخاصة في كل نوع حيواني، وهو أمر يهدم أصل فكرة الشجرة الواحدة للحياة.

وفي الحقيقة لقد كنا ننتظر جواباً نوعياً من ريتشارد دوكنز عن هذه القضية، جواباً يوازي شهرته كمتخصص في علم الأحياء وله مؤلفات معروفة على نطاق واسع في هذا العلم، لكن الأمر الصادم هنا، أن دوكنز يعالج هذه المشكلة بطريقة شبه وعظية، وبعيدة كل البعد عن الاختصاص.

«ما هي فائدة نصف عين؟ أو ما فائدة نصف جناح؟ حجتان جاهزتان من نوع «التعقيد غير القابل للاختزال». الجهاز الوظيفي يكون مُتعذر الاختزال في حالة توقفه تماماً عن العمل بمجرد إنقاص أي جزء منه.هذا كان من المسلمات في حالتي العين والجناح. ولكن عندما نُفكر لبرهة في هذه الافتراضات، نرى الخطأ مباشرة. إن مريضة ماء العين المُعتم التي رفعت عدسة عينها جراحياً لا تستطيع رؤية صورة واضحة بدون نظارات، ولكنها ترى ما يكفي لتفادي الاصطدام بشجرة أو الوقوع من حافة جبل عالية. ونصف جناح ليس فعالاً كجناح كامل، ولكنه أفضل من لا جناح على الإطلاق. يستطيع نصف الجناح أن يُنقذ حياتك بتخفيف الصدمة الناتجة من الوقوع من على شجرة بعلو ما. و٥١٪ من الجناح يساعدك في حالة شجرة أعلى بقليل. ومهما كانت نسبة الجناح الذي نملكه سيكون هناك علو مرافق يستطيع جزء الجناح إنقاذ حياتك فيما لا يستطيع جزء أصغر فعل ذلك. والتجربة الفكرية عن الأشجار المُختلفة الارتفاع، والسقوط من أعلاها، هي فقط إحدى الطرائق لنرى، نظرياً، بأنه من المتوجب وجود تدرج متسلسل للمنافع على طول الخط بدءاً من ١٪ من الجناح وانتهاء بجناح كامل. الغابات ملأى بأمثلة عن حيوانات تنزلق أو تهبط «مظلياً» لُتنير الفكرة عن كل خطوة صعوداً إلى جبل من اللااحتمالية.

بالقياس على الأشجار المختلفة الارتفاع من السهل تخيل ظروف تستطيع فيها نصف عين أن تنقذ حيواناً في حين أن ٤٩٪ من العين لن تكون قادرة على ذلك. تدرج سلس بناء على معطيات الإضاءة المتوافرة، والمسافات التي تستطيع بها لمح الفريسة، أو المفترس، كما الجناح وسطوح الطيران، فمتوسطات معقولة كهذه ليست سهلة التخيّل فقط بل إنها منتشرة بوفرة في مملكة الحيوانات.الدودة المسطحة لديها عين، وبكل المقاييس تعتبر أقل من نصف العين البشرية. الأخطبوط المعروف باسم الناوتيلوس أو قارب اللآلئ (أو ربما أبناء عمومته المنقرضون الذين كانوا مسيطرين على البحار) له عين متوسطة بين عين الدودة والإنسان. وبخلاف عين الدودة المُسطحة التي تميز الضوء من الظل فقط ولا ترى أي صورة، فإن عين الناوتيلوس المشابهة لـ«آلة تصوير ذات ثقب» تستطيع عمل صورة حقيقية، ولكنها مشوشة ومُعتِمة مُقارنة بصور أعيننا. من غير الممكن وضع سُلّم دقيق لتدرج تحسّن الرؤية، هذا يعتبر غشاً، ولكن لا يوجد عاقل يستطيع أن ينفي بشكل ما بأن الأعين للافقاريات، وغيرها كثير، هي أفضل من عدم وجود عين أساساً، وبأن كل الأعين مصفوفة على المنحدر السلس للجبل اللااحتمالي، وأعيننا قريبة من القمة، ليست العليا ولكنها عالية حتماً في صعود الجبل اللااحتمالي.. وبذلك نر بأن العين والجناح بالتأكيد ليسا من نوع «التعقيد غير القابل للاختزال» ولكن الأكثر إثارة من هذا المثال هو في الدرس الذي نستنتجه بشكل عام. ألا وهو الواقع بأن الخطأ المميت، الذي وقع فيه الكثيرون فيما يتعلق بهذه الأمور البديهية، يجب أن ينبهنا لأمثلة أخرى أقل بديهية، مثل البحث الخلوي والكيمياء الحيوية المفضلة عند الخلوقيين الذين يختفون خلف قناع سياسي مناسب يعرف بـ«نظرية التصميم الذكي».. لا يجب علينا، نحن الذين في جانب العلم، أن نكون اعتقاديين بثقة. ربما هناك شيء ما في الطبيعة لا يمكنه، بسبب تعقيده

المتعذر الاختزال، أخذ مكان على المنحدر السلس لجبل اللااحتمالية. الخلوقيون محقون في أنه لو ظهر التعقيد غير القابل للاختزال بصدق وبشكل صريح، فإن ذلك مما يمكنه أن يهدم نظرية داروين. داروين بنفسه قال:«لو كان بالإمكان الاستعراض بأن أي نظام مُعقد موجود ليست له الإمكانية أن يكون ناتجاً من تطور تدريجي ناتج بدوره من تراكم العديد من التغييرات البسيطة، فإن نظريتي تنهار بدون شك. ولكنني لم أجد حالة كهذه». لم يجد داروين تلك الحالة ولا أحد من بعده حتى الآن استطاع ذلك.. على أي حال، وبالرغم من أن التعقيد غير القابل للاختزال من الممكن أن يسبب انهيار نظرية داروين، لو وجد، فإنه سيؤدي إلى انهيار نظرية الخلق أيضاً.. ومرة أخرى أكرر السبب ألا وهو: مهما كانت معرفتنا قليلة عن ماهية الله، فإننا نستطيع أن نتحقق بأنه على درجة عالية من التعقيد وبالتالي متعذر الاختزال أيضاً»[1].

إن مقولة الإله لا يمكن اختزالها واللامحدودية هي التي تجعله بحسب الفرض علة العلل، ومتعالياً وحينما يمكن اختزاله يمكن تحديده وبالتالي لا يكون متعالياً ولا إلهاً، إن هذا جهل بأبسط تصورات موضوع المناقشة وجهل فاضح لأحد طرفي المحاورة والنقد.

ومختصر القول هنا:

١ ـ القضية كلها «تجربة نظرية» مجرد تأمل فلسفي وليس تجريبياً عينياً. إنه تفلسف يعتمد فكرة شاملة يصبغ كل الحفريات بلون مُحدد للوحة مرسومة مُسبقاً.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٢٥.

٢ ـ وجود أنواع متدرجة القدرة في أعضائها، لا يعني تكوّن هذه الأنواع عبر المصادفة، خصوصاً وأن تراكم الاحتمال يولّد لنا في كل مرة الدقة الزوجية نفسها في النوع الواحد. تراكم المصادفات لا يعني سوى مصادفات متراكمة، ولا ينتج أفقاً لقانون يجعلنا نتوقع أن حلقة من الحلقات المفقودة لنوع معين هو في منطقة في الأسكيمو مثلاً، لو كانت القضية مجرد تراكمات مصادفة لما أمكن لبحاثة التطور العثور على أحفورات متعددة.

٣ ـ دوكنز يقر بأن نظرية التطور لاتبلغ منزلة «الحقيقة» وأنها في أفضل الأحوال مجرد نقطة تعوم على سرّ أكبر منها لم يُكتشف بعد. بالرغم من أن دوكنز يعود لينقض قوله بأننا أمام «حقيقة» التطور وليس نظرية التطور![1].

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٠٣، يقول دوكنز صراحة: إن القضية كلها مبنية على «زعم» على أساسه قلنا بوجود سلف مشترك بين الإنسان والشمبانزي. ونحن بالطبع لا يهمنا ما سوف يثبت العلم غداً. فليست فكرة الإله لدينا مبنية على سد الثغرات، لكن ما يهمنا هو طريقة التفكير هذه، التي تستخدم أدنى الاحتمالات لطرح خطاب صلب يقيني في قضايا شمولية. وهو طرح ينتقي ما يريده من البحوث العلمية، ففي مقابل تأكيد دوكنز على أن الطيور أصلها من سلف مشترك من الديناصورات (العلم والحقيقة،ص٢٠٤) على الرغم من وجود كشفيات في تسعينيات القرن العشرين عثرت على الأحفورة السابعة لطائر الأركيوبترس، فإذا بها تحوي عظمة القص، وهذا يعني أن الأركيوبترس طائر كبقية الطيور، وليس مخلوقاً وسطياً بين الزواحف والطيور. وبسبب مثل هذه المشكلة وغيرها في قراءة الأحفورات، قام دوكنز، في كتابه «أعظم عرض على الأرض»، بطرح تأويل جديد لمعنى الأحفورات التوسطية. وهذه مشكلة حقيقية: فليست المسألة بكون (الأدلة على التطور البيولوجي تزداد بمرور الوقت) كما يفتتح دوكنز كتابه «أعظم عرض على الأرض» بل المشكلة في كيفية قراءة هذه المعروضات الجديدة بكونها دلالات على مدلول التطوريين الخاص. وللأسف الشديد أن يلجأ بعض الأكاديميين المسيحيين في الولايات المتحدة الأميركية إلى تقديم برامج قدمت معلومات مغلوطة تم فيها

وكيفما كان فإن هذه التصويرات غير قادرة على نفي فكرة العلية والسببية، التي بها تقوم علوم البيولوجيا والأنثروبولوجيا. فأي شيء غير السببية تجعلنا نحاول معرفة لغة الجينوم ثم محاولة إظهار الحيوانات المفقودة بواسطة السيطرة على هذه اللغة التي هي قانون داخلي لم نوجده نحن في الجينات؟! إن علماء التطورية لا يخرجون عن التفسير من خلال السببية في كل شيء، سواء لكي يعرفوا ما مضى أكثر، أو لكي يتحكموا بيقين في النتائج التي سوف تحصل[1]، فلا معنى لتفسير ما سبق والتنبؤ بما سيلحق، بدون فكرة التعليل والسببية، فلكوننا عرفنا العلة فهمنا أن ما بأيدينا مُرشد لما جرى في المراحل الغائبة عنا، وبالتعليل نُحدد ما سيقع أو ما يمكن أن نكوّنه، حيث نوجد العلة فيوجد المعلول، وعلى أساس ذلك تجتهد البحوث الطبية اليوم في معالجة الأنسجة المريضة والسيطرة على المهارات الوراثية (التي هي قوانين لم ننشئها نحن ولا هي ضرورية للمادة)، وهم يرفضون نظرية التصميم الذكي لكونها بالذات لا توفّر لهم قواعد وضوابط علة تمكنهم من التنبؤ العلمي، وهم يرفضون قبول أو رفض أطروحة علمية ما من قبيل (الميمات) أو غيرها، إلا على أساس التشدد تفسيراً في بيان «علة» و«سبب» القبول أو الرفض[2].لكن هؤلاء التطوريين حينما يأتون إلى المجموع الكُلي للحياة يجعلونه بلا سبب، ويهجرون التفكير من خلال السببية!!.

اتهام التطوريين بالخداع، هؤلاء بدورهم لهم منتدياتهم وصحفهم وبرامجهم التي تتهم الخلقويين. ولكل من الطرفين جمهوره البالغ التوتر حيث تنتقل أفكار الرفض والقبول بما يشبه «الفيروسات العقلية» وحيث تتحول الأطروحات العلمية إلى ما يشبه التراث العقائدي في مجتمعات تفكك جانب كبير من هويتها العقائدية.

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٠١.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠٧.

٤ ـ لو قايسنا حجم التعقيد بين إثبات وجود الإله، الذي يفهمه أبسط إنسان ونظرية التطور، سنجد أن الثانية تبلغ من التعقيد حجماً لايمكن اختزاله أبداً، وبالتالي فالمقايسة خاطئة، خصوصاً وأن المؤمنين لا يقولون بمعرفة «ماهية» الله بل «إثباته» فقط.

٥ ـ إن هذا مجرد «تحايل» فالسؤال ليس عن نصف جناح أو عن عين لا تُبصر جيداً، فهذه وجودها أفضل من عدمها، وهذا أمر يشبه ما هو لدى أصحاب الإعاقة، حيث نجد هذه الإجابة نفسها من قبل التطوريين وهي موجودة في كتب الفلسفة القديمة ولدى المؤمنين من أن الوجود خير من العدم، وأن المخلوق الناقص هو وجود دقيق التركيب يدل في النهاية على مصدر أعلى، الآن التطوريون يستخدمون المحاجة نفسها.

إن السؤال الحقيقي عن تلك المراحل الضئيلة التطور التي سبقت نصف الجناح وسبقت ظهور العين كعين ضعيفة، هذه المراحل كيف بقيت ثم نُقلت إلى الأجيال، مادام ليس لها أي نفع بتاتاً، والمفروض أن نظرية التطور تقول إن البقاء للأصلح، وهنا الصلاح معدوم البتة.

إن هذه الأجوبة من عالم أحياء يثير الشفقة، فالجناح حينما لا يكون جناحاً فإنه لن ينتج أي ارتفاع، الأجنحة «الكاملة» هي التي يحصل بها الارتفاع بمستويات مختلفة. نقص الجناح هو ليس جناحاً ناقصاً بل هو كغير جناح.

أما اتهام دوكنز للآخرين بأنهم مجرد لاعبين سياسيين، فهذا حري أن نتركه لأنه لم يحدث تزوير أكبر في تاريخ العلم مما فعله أنصار التطورية وحتى اليوم يعاني كل منتقد للتطورية في أميركا وبريطانيا، الكثير من المضايقات التي يصل بعضها إلى درجة العنف والمحاصرة الوظيفية، كجملة من الباحثين الذين كتبوا عن معضلة داروين بما يخص حفريات الانفجار الكامبري، أو

الذين لهم صلاتهم بخبراء أحفورات المواقع الطبيعية في الصين وغيرها. ثم لا يوجد دعم إعلامي لأي طرف مثل الذي يتمتع به أنصار الداروينية والملاحدة منهم على الخصوص، فهناك آلاف البرامج والندوات وتغطية المحاضرات، وملصقات الدعاية للكتب وغير ذلك الكثير الكثير.

المستوى الرابع

هنا يتم تكرار المبدأ الأنثروبي وإدماجه في نظرية التطور كي تكون لدينا نظريتان في مقولة واحدة. فالتطور لا علاقة له بالكونيات، والكونيات لا تكفي أبداً لبيان كيفية نشوء التنوّع في الحياة، وهذا ما يقرّ به دوكنز نفسه.بل إن دوكنز يقرّ بأن ملاحظة كل كائن حي وحده وتلك الكمية الهائلة من المناسبات المتوافقة مع حياة ذلك النوع (مدى قدرته على الحركة والإبصار، وطريقة التوالد والحماية..الخ) تجعل الذهن يأنس بنظرية التصميم الذكي[1]. مرة أخرى يتبين أن نظرية تفسير ظهور الأحياء، عاجزة عن تفسير أهم قضية فيها وهي التنوّع، فيجري ردمها باستحضار نظرية أخرى من تخصص آخر بالقول إنه «يمكن» تفسير ظهور التنوع الضخم في الوجودات الحية، من خلال «توسعة» المبدأ الأنثروبي، تماماً كما وسعنا نظرية التطور لسد عجز المبدأ الأنثروبي أن يولد لنا قولاً في نفي الإله. هنا نستعين بفكرة أن العدد الهائل من المصادفات والاحتمال هو الذي كلما ازداد وتضخم يجعل نشوء الأنواع من المصادفة، أمراً معقولاً. بدون هذا الإدماج ستظهر لنا ثغرة كبيرة في كلا النظريتين لا يمكن بهما الحديث عن أي استبعاد لفكرة الإله:

«ليس من المهم كم عدد الكواكب التي نلعب بها، الحظ السعيد لا يمكن

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٤١.

أن يكون كافياً لشرح التنوع المتشعب للأنظمة الحياتية المعقدة على سطح الأرض بالطريقة نفسها التي استعملناها لشرح وجود الحياة أساساً. تطور الحياة مختلف تماماً عن حالة نشوئها . وسأكرر هنا، لأن أصل الحياة كان (ومن الممكن أن يكون) ظاهرة فريدة في نوعها حدثت مرة واحدة فقط...المبدأ الأنثروبي عاجز عن تفسير تنوع تفاصيل الكائنات الحية. ونحن بحاجة حقيقية إلى تفسير داروين القوي لتفسير تنوع الحياة على الأرض، وبصورة خاصة الوهم المغري لنظرية التصميم. وبعكس ذلك فإن أصل الحياة يقع خارج حدود هذا التفسير، لأن الانتخاب الطبيعي لا يمكن أن يبدأ بدونه. وهنا يأتي المبدأ الأنثروبي من تلقاء نفسه. بإمكاننا معالجة فكرة أصل الحياة بافتراض عدد هائل من الفرص الكونية. وبمجرد أن نحصل على ضربة الحظ، والمبدأ الأنثروبي يضمن لنا حصولها بشكل أكيد، يبدأ الانتخاب الطبيعي في العمل، والانتخاب الطبيعي بالتأكيد ليس موضوع حظ أبداً. وعلى الرغم من ذلك ربما لم يكن أصل الحياة الفراغ الوحيد في نظرية التطور الذي نجتازه بمجرد الحظ، المبرر الأنثروبي. فعلى سبيل المثال زميلي مارك ريدلي ..يقترح بأن أصل الخلية الحقيقية النواة ..شديدة الأهمية، صعب ولااحتمالي إحصائياً بشكل أكبر من أصل الحياة نفسها. وأصل الوعي يمكن أن يكون فراغاً آخر من الدرجة اللااحتمالية نفسها. يُمكن تفسير الظواهر التي حصلت مرة واحدة بالمبدأ الأنثروبي كما يلي: هناك المليارات من الكواكب التي تطورت فيها الحياة على مستوى بكتيري، لكن جزءاً بسيطاً منها فقط استطاع العبور إلى مرحلة الخلية الحقيقية النواة. ومن هذه إلى جزء أصغر عبر تلك المرحلة للحياة الواعية. لو أن كلتا الحالتين تعتبران ظواهر تحصل مرة واحدة، فإننا بصدد عملية منتشرة ومتخلخلة في كل شيء، كما هي الحال في عملية التأقلم الحيوي الدائم المستمر. المبدأ الأنثروبي يصرّح بالتالي: إن كوكبنا يجب أن

يكون من النوادر حتى يستطيع اجتياز كل تلك العقبات الثلاث،لأننا أحياء، وأجسامنا حقيقة النواة ولدينا درجة من الوعي.

الانتخاب الطبيعي يعمل لأنه تراكمي ذو اتجاه واحد للحصول على نوعية فضلى. فهو، أي الانتخاب الطبيعي، ليس تصادفياً مطلقاً[1]، رغم أنه بحاجة إلى بعض الحظ ليبدأ الأنثروبي لمليارات الكواكب، يضمن لنا ذلك الحظ. وربما هناك بعض الفراغات الأخرى في نظرية التطور مما يحتاج إلى الحظ، مع تحليلات أنثروبية. وعلى كل حال مهما أردنا قوله فإن نظرية التصميم في النهاية ليست عملية تراكمية، وبالتالي تطرح سؤالاً أكبر من ذلك الذي تحاول الإجابة عنه ،إنها تعيدنا إلى السؤال الأصلي عن البوينغ ٧٤٧ الكبرى»[2].

وخلاصة النظر في طريقة المحاجة هنا:

١ ـ إننا نقوم بتوزيع رقعة شطرنج مرة تكون النقلات عشوائية ومرة تكون مناقضة للمصادفة، وذلك كي تتطابق مع رغبات ومقاصد أعم قسم من الفيزياء النظرية حيث تتمات الانتخاب الطبيعي، وهي أعم من الانتخاب الطبيعي لكونها تابعة لعلوم الفيزياء والفلك.

٢ ـ قياس ما لم نره وما لا يخضع للتجربة والملاحظة، الذي هو قسم الفيزياء النظرية حول المبدأ الأنثروبي، مع ما يطارده «جزء» من الملاحظة الذي هو ليس تدرج ظهور الأنواع بل عملية «التأقلم» التي هي أخص بكثير

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق،ص١٦.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٤١.

من نظرية التطور، وبالتالي هناك مسافة شاسعة بين التحليلات التي «يُمكن» تفريعها على المبدأ الأنثروبي وبين فرع متعلق بالانتخاب الطبيعي الذي هو تأقلم الأنواع مع البيئة. علماً أن قياس مجال وجودي على آخر، تم هنا بلا أي تبيين لأساسه، فلا توجد هنا وحدة عليّة ولا تشابه أسباب، بل إن هذه المقايسة تجرنا إلى القول بالعلية السابقة التي هي تكون الحدّ الأوسط في مقايسة العالَم الكبير، الذي هو المبدأ الأنثروبي، على العالَم الصغير، حيث التأقلم، ثم نجري عملية مقايسة أخرى من التأقلم الذي يجري وفق المبدأ الأنثروبي، بحسب المدعى، إلى التطور، ثم نعود من التطور لتفسير كل شيء ليكون المبدأ الأنثروبي الذي فسّرنا به الانتخاب الطبيعي، هو نفسه الذي تم تفسيره عبر الانتخاب الطبيعي باعتبار الانتخاب الطبيعي رافعة للوعي.

٣ ـ لكي نقتنع بالمبدأ الأنثروبي باعتباره قاعدة لترك فكرة الإله يتوجب علينا إهمال ثلاثة أمور:

أ ـ أن يتم هجران فكرة ضرورة العلية تماماً، لأن الفرض هنا يقول بوهم العلة، لكون الكمية الهائلة من الاحتمالات تقتضي معقولية أن تحدث حالة واحدة مصادفة بشكل دقيق جداً تنتج منه الحياة.

لكن هنا سنتورط في معنى «المعقولية» ؟ وثانياً مهما كان التفسير لا نستطيع الأخذ بأي تنظير لكونه لم يعد علة لاقتناعنا، فحتى هذ الاقتناع ليس حقيقة لكونه جزءاً من عالم المصادفة الأكبر.

ب ـ أن تكون نتيجة المبدأ الأنثروبي، ضرورة شاملة، باعتبارها حسماً لمعادلات رياضية عالية، فتكون شاملة بمنطقية المصادفة كل شيء بما في ذلك نظرية الانتخاب الطبيعي، وهذا ما يرفضه التطوريون وعلى رأسهم ريتشارد دوكنز نفسه.

ج ـ لو آمنا بأن المصادفة منطقية في ظهور أدق الأشياء وأعقدها، فعلينا أن نتقبل الصدفة في الأمور البسيطة، وهذا ممتنع في أبسط قضايانا المعيشية. فضلاً عن أن كل هذه الجعجعة لا يمكن لها أن تبدأ من العدم.

٤ ـ من الواضح أنه لايمكن للمبدأ الأنثروبي أن يكون أيديولوجياً، ولا الانتخاب الطبيعي أن يتحوّل إلى خطاب شمولي، لكل منهما حدوده، وبالرغم من أن عملية إدماجهما، والتي هي في الحقيقة إدماج لنظريات كثيرة، وليست نظرية الأوتار الفائقة ونظرية «إم» جزءاً بسيطاً منها، بقيت هناك فراغات كثيرة، وهي فراغات ليست في الأمور الصغيرة بل في أهم الأشياء التي هي الحياة والوعي والضمير وجملة من الخُلقيات والجماليات.

٥ ـ إن عملية الارتباك واضحة في نص دوكنز:

أ ـ فهو بقي يرفض الالتزام بحدود الاختصاصات، لغرض واحد وهو هنا، كي يمكنه من الاستعانة بالفيزياء وأن يقوم اختصاصيو الفيزياء النظرية كستيفن هوكنغ وزملائه، بعلم الأحياء. ذلك الرفض لم يكن وفق قاعدة علمية بل غرضية.

ب ـ لا يمكن الموافقة على استنتاج رفض وجود الإله لكون نظرية التصميم أقل تفسيرية من المبدأ الأنثروبي والانتخاب الطبيعي، ألم يسخر دوكنز من مبدأ كون الجهل بأمر ما يعني أن هذا الجهل حجة في تبرير الإسقاط أو الإثبات؟! ألم يعب دوكنز على نظرية التصميم أنها «ردة فعل» فكيف تنقلب نظرية التطور والمبدأ الأنثروبي إلى ردة فعل؟! رغم أن هذا هو المنطقي من الناحية الترتيبية لكون نظرية التصميم هي القول القديم.

ج ـ في النهاية عدنا إلى الحكاية الخيالية عن البوينغ ٧٤٧ التي أنتجها

إعصار في محل للخردوات، وقد قلنا إن فرض البوينغ ٧٤٧ وأطروحة المبدأ الأنثروبي والانتخاب الطبيعي، بينهما فرق هائل: ففكرة الطائرة فيها عناصر سابقة كثيرة، وهناك قلب للمراحل فالعنصر المتطور المتقدِّم موجود في بداية السلسلة وليس في نهايتها.هذا ويبقى سؤال حول ترتيب الاستدلال هنا: هل تمت العودة إلى مثال البوينغ ٧٤٧ لقولنا بفكرة الإلحاد وفق توسعة الانتخاب الطبيعي، أم أن الانتخاب الطبيعي لا يمكنه أن ينتج فكرة حول الإلحاد بدون فرضية طائرة البوينغ ٧٤٧؟!.

٦ ـ ماذا لو فرضنا أن التصميم لا يأتي عبر التصوير الساذج، لبداية كاملة لكل نوع، بل أن يظهر بشكل تدريجي طويل، فتدرج الطعام إلى خلايا دموية ثم إلى نطفة مخترقة لبويضة ثم مشيمة فجنين فإنسان، رحلة قصيرة نمذجية حتى في فكرة اللااحتمالية حيث لايوجد أي يقين أن النطفة من الألف هي التي ستكون جنيناً، هذا كله لا هو يلغي التراكم ولا هو بخالٍ من تلاحم المصادفات ولا هو بنافٍ للإله، فلم يجعل ذلك «رافعة لمستوى الوعي» لإعادة قراءة البطن الأكبر للكون حيث المبدأ الأنثروبي وقصة التطور وسردياتها المُسلية. لنر كيف ياترى يُمكن التمسك بـ«النطاق الذهبي» حيث التوازن الدقيق في كل شيء به تقوم الحياة، ما الذي يمنع من وجود قوة عليا، وبما أنها أعلى ستكون كل هذه العوالم مجرد حصاة بالنسبة إليها؟!

٧ ـ في نظرية المبدأ الأنثروبي كما في الانتخاب الطبيعي، يوجد رهان كلي على نظرية الاحتمالات في الرياضيات، كي يتحول الكائن الأصلي من نوع إلى آخر، أو يتطور عنصر بسيط إلى كوكب، فالحوت كما يقول التطوريون تحول من كائن بري إلى حوت بعد ملايين السنين، وقد استغرقت العملية أكثر من ٥٠ ألف تغيير وكل تلك التغييرات يجب أن تكون متطابقة فيما بينها

ومتكاملة ومتراكمة، كل تغيير يحتاج إلى الآخر، وطبعاً احتمالية حدوث مثل هذا الأمر تقارب المستحيل من وجهة نظر رياضية، أما إذا نقلنا المسألة إلى مجموع الكائنات بل الوجودات، فسنغدو أمام تلاقي صدف ثم تراكمها بشكل مناسبات وتحولات دقيقة جداً، برقم فوق منتهى التصوّر،هل يتم الاعتماد على الرياضيات في نتيجة لا تقبلها الرياضيات؟!

*

يتكرر في حديث دوكنز نفي للدين ككل ولكن فهمه للدين ونقضه متعلق بالمسيحية فقط:

«لن أتطرق إلى كل ثوابت ريس الستة، فالنتيجة لكل منها تبقى هي نفسها. كل ثابت له قيمة تقع ضمن «النطاق الذهبي» والحياة لن تكون ممكنة خارجه. كيف يمكننا الرد على ذلك؟مرة أخرى لدينا رد المؤمنين من طرف، والمبدأ الأنثروبي في الطرف الآخر. المؤمن يقول بأن الله، عندما صمم الكون، وضع هذه القيم لهذه الثوابت الأساسية بحيث أن كلاً منها يقع داخل نطاقه الذهبي لإنتاج الحياة. وكأن الله عنده ستة أزرار يديرها لضبط المقدار الخاص بكل ثبات ليقع في نطاقه الذهبي. وكالعادة فإن جواب المؤمن ليس مقنعاً لأنه يترك موضوع وجود الله بدون شرح. اللااحتمالية في الإله القادر على حساب القيم الذهبية للأرقام الستة يجب أن يكون على أقل تقدير مساوياً لاحتمالية ضبط الأرقام الستة نفسها، وهذا فعلاً قليل الاحتمال، وهذه المسلمة هي الأساس في نقاشنا. وبذلك فإن جواب المؤمنين يفشل تماماً في دفعنا بإتجاه حل المسألة. ولا أجد أي بديل من إهماله، وفي الوقت نفسه انظر إلى أعداد الناس الذين لا يرون حجم تلك المعضلة ويبدون مُكتفين بفكرة الإله ذي الأزرار الستة»[1].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٤٥.

من بين عبر هذه النصوص:

أ ـ بعض الأحيان يتحول النقاش إلى سفسطة حقيقية: فمرة تتم المطالبة بوجود دقة عالية في الوجود، وإذا وجدنا أمراً ما نقرأه على أنه عيب أو نقص، كالتحام أجنحة الخنافس التي تمنعها من الطيران مثلاً، سيكون هذا دليلاً على انتخاب أعمى. لكن حينما تتضح لنا الصورة الكلية للكون بأنه قائم على معادلات دقيقة جداً ومنها الثوابت الست للعناصر، هنا لن يتم اعتبار هذا الكمال بدليل، وبالتالي فالنقص وعدمه، والكمال وعدمه، يعطيان النتيجة نفسها: عدم وجود الإله، وهي نتيجة عجيبة، ولعلها الفكرة الوحيدة التي تنسجم مع القول ونقيضه!.

ب ـ الامتناع يحتج هنا بفكرة الإله الشخصي السحري الساذج ،وهذا كما قلنا غير مرة إنه خارج الكتاب، وفكرة وهم الإله ادعت أنها أسمى من هذه السطحية.

جـ ـ هذا يجعل من الإلحاد القائم على المبدأ الأنثروبي والانتخاب الطبيعي، عبارة عن ردة فعل لعدم فهمه معنى الله أو عدم كفاية هذا المعنى للاقتناع.

د ـ كيف يكون القول بأن هناك مصدراً أعلى واحداً هو الذي أوجد العناصر الستة الأساسية مستبعداً من ناحية الاحتمال، في حين أن القضية معكوسة تماماً، فلدينا هنا رقم صحيح في مقابل زخم هائل من الكسور التي تقوم بمحاولة شرح تلاقي العناصر وتوالدها، من ناحية الاحتمالية الصِّرفة، توالد اليقين في الرقم الصحيح حيث فكرة الإله، أقرب بكثير من الاحتمالات الضخمة المرتبطة بكل عنصر وكل ظاهرة:

«من المغري التفكير (والعديدون وقعوا في هذا) بأن العالَم المُتعدد الأكوان نوع من الترف المسرف الذي لا يجب السماح به. ولو سمحنا بتعدد الأكوان المسرفة، فدعونا نسمح بالوجود الإلهي أيضاً كما تفترض الحجة. أليست الفرضيتان على الدرجة نفسها من التبذير والرداءة؟. الذين يفكرون بهذا الشكل لم يمروا في مرحلة رفع الوعي بالانتخاب الطبيعي. الفرق الأساسي بين فرضية الأكوان المتعددة الجريئة وفرضية الله الجريئة هي الإحصائيات اللااحتمالية. وبرغم التبذير في تعدد الأكوان، إلا أنها بسيطة، أما الله، أو أي وجود واعٍ يتخذ قراراً بحسابات، عليه أن يكون من الضخامة في اللااحتمال أقله على الدرجة نفسها للكيان الذي نحاول شرحه. العالَم المُتعدد الأكوان يبدو نظرية في غاية التبذير من ناحية عدد الأكوان. ولكن إذا كان كل من تلك الأكوان بسيطاً في قوانينه الأساسية إذن، نحن هنا لا نفترض أشياء على درجة عالية من اللااحتمال. ولكن العكس يُقال في أي نوع من أنواع الوجود الذكي.

بعض الفيزيائيين معروفون بالتدين (راسل ستانارد والقس جون بولكنغتون مثالان من بريطانيا ذكرتهما قبلاً). وكما هو متوقع فإنهم يتعلقون بلااحتمالية الثوابت ووقوعها في مجالها الواسع أو الضيق لنطاقها الذهبي، ويقترحون بأنه يجب أن يكون هناك ذكاء كوني قصد تحديد تلك الثوابت. وأنا قد نفيت كل ذلك لكون هذه الاقتراحات تؤدي إلى مشكلة أكبر من التي تحلها. وما هي محاولات المُتدينين للرد على ذلك؟ كيف يمكن لهم المحاجة بأن أي إله قادر على تصميم كون، بشكل دقيق وببصيرة كاملة بشكل يؤدي إلى تطورنا فيه، عليه أن يكون على درجة من التعقيد واللااحتمالية مما يجعل وجوده يحتاج إلى شرح أكبر من الذي يفترض أنه يقدمه؟»[1].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٤٩.

دوكنز وجملة الملحدين، يفترضون دائماً بشكل مُكرر ومُتعب، أن القول بوجود الإله، يعني الاكتفاء والاستغناء عن العلوم التي تُفسّر شيئاً. وهم لا يأخذون هذا التقويم من نصوص الدين ولا من نصوص المؤمنين بل هو دعوى مكتفية بنفسها، كما أننا لا نعلم ما هي العلاقة بين وجود الإله والشرح التفصيلي لقوانين الأشياء؟!.

ففكرة الإله تقول بمرجعية كل شيء إلى قوة عليا لا يمكن إدراكك ماهيتها كما هي، وإلا لأحاط المحدود باللامحدود والممكن بالواجب، واخترق العنصر المادي ما هو فوقه وانقلب ضد نفسه. وهذا الأمر يبدو عسير الفهم على أذهان لا تعرف عن البحوث المعرفية خارج تخصصها في بعض علوم الطبيعة، شيئاً، لذا تتم إعادتنا بشكل محبط، إلى صورة الإله الشخصي الشعبي أو التجسيدي الأسطوري، وتتم تنحية صورة الإله مرة لكونها في غاية التعقيد ومرة لكونها في غاية البساطة!، مرة يسخر من فكرة الإله لفهمه أنه تدخل مخرّب متلاعب بنواميس الطبيعة، ومرة يسخر من الإله فيما تم تفهيمه بأن فكرة الإله تعني حفظ ناموس الطبيعة لا خرقه، الفكرة الثابتة هي أن الله وهم ولا وجود له، بغض النظر عن حقيقته أو صورته أو أي شيء متعلق به[1] .

ومن هنا فلن نستغرب أن نجد ريتشارد دوكنز لا يفهم معنى «البساطة» الفلسفية حينما نقول مثلاً: إن الله بسيط الحقيقة، إذ يحسبها نوعاً من البساطة الكيميائية أو الفيزيائية، حيث تعني البساطة عدم القابلية للتجزؤ الفعلي أو الوظيفي[2].

ما هو الشرح الأكبر من الاعتراف بدقة كل شيء، وكون مصدر كل مبدأ يقع خارجه؟!

(١) المرجع نفسه، ص١٥١.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٥٢

ما المطلوب من الإله بالتحديد أن يفعله كي يكون وجوده واضحاً معقولاً، أكثر من كل هذه الثوابت النفسية والوجودية والذهنية،التي لانملك حيالها شيئاً، ولا يمكن تعقلها إلا بإحالة أساسها على واقع خارج عنها، بل حتى ذهننا وفكرنا لا يمكن أن نصل عبره إلى أي اقتناع ما لم يعد ويرتبط بأُسٍ واحدٍ يتوحد فيه النظر؟!

نحن سابقاً عرفناً أنه لاوجود لتلك المشكلة التي هي أكبر من الحل، فلا يسأل من هو الذي خلق الله؟ إلا شخص لا يعرف عن بحوث الوجود شيئاً. وإذا كانت هذه هي الحجة الوحيدة لدوكنز(لكونه لا يذكر غيرها أبداً) فإن هذا يعني فتح الاقتراحات المُستبعدة كافة، ولا يبقى لسلسلة الاستدلال أي وحدة مُتسقة.

ر ـ كما تساوت النتيجة بين القول بالنقص والقول بالكمال، فإن نفي الإله يبقى ثابتاً بالنسبة إلى دوكنز بين إثبات الأزرار الستة للوجود وبين كونها جزءاً من حقيقة أكبر غائبة، أو أن القضية برمتها ليست كما تبدو لنا اليوم، وهذا يعني أننا نحتج بقضية ليست ثابتة، ونحتج بمجهول صرف!:

«بعض الفيزيائيين المتزمتين يقولون بأن الأزرار الستة لم تكن لها الحرية في أي وقت من الأوقات لتتغير. وعندما نصل إلى النظرية الجامعة التي طالما أملنا بمعرفتها، سنجد أن الثوابت الستة تعتمد كلياً بعضها على بعض، أو على شيء آخر ليس معروفاً بعد، وبطرائق لا نستطيع بعد تخيلها في أيامنا هذه. ربما تكون الثوابت الستة عديمة الحرية في التغيير تماماً كما في محيط الدائرة بالنسبة إلى مساحتها. وسنعرف حينئذ بأن هناك طريقة واحدة لوجود الكون. كون لا يحتاج أساساً إلى إله ليضبط أزراره الستة، ليس هناك أزرار أساساً»[1].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٤٦

وهذا الكلام رغم إغراقه في الخيال العلمي والافتراض، هو لا علاقة له بنفي الإله كخالق وأصل، بل فقط، لو صحّ، بحاجة الوجود باستمرار إلى الإله. لكن هذا لو قلناه لن ينفعنا الخيال العلمي بشيء في مشكلة الذاتية، ولماذا كل عنصر له هذه الخاصية بعينها، ثم إن استمرار الوجودات لا يعني تحولها من ممكنات إلى واجبات، في مثال محيط الدائرة ومساحتها، كما يذكر دوكنز هنا، أو كون جمع الأعداد الرياضية يؤدي إلى نتيجة واحدة بالضرورة، كما ذكر ستيفن هوكنغ في بعض مقابلاته، فيه مغالطة كبيرة لكونه يخلط بين الماهيات وبين الموجودات، فمحيط الدائرة وزوايا قوائم المثلث، والعمليات الرياضية، كل ذلك لايعني التحقق الفعلي للمواضيع، فهناك فرق بين الدائرة الموجودة فعلاً وبين الدائرة المفترضة، كلاهما لها الأحكام نفسها وهما بالنسبة إلى المعادلات الرياضية واحدة، لكن هذا لايعني أن كلاهما أمر واحد، ما الذي يجعل المعادلة الرياضية والهندسية الصحيحة موضوعها موجوداً فعلاً؟ هذه هي المسألة التي تبتعد عنها كل الاحتجاجات بتنظيرات الفيزيائيين وغيرهم.

ز ـ إن مشكلة الذاتية لا يحلها ولن يحلها أي علم طبيعي، إذ ستنتهي في آخر المطاف إلى السد المعرفي ولن ينقطع سؤال «لماذا؟»، وهذا أمر يقلق دوكنز نفسه ويجعله ينتهي في نهاية الحديث إلى التمسك بأي قشة عابرة فمن الاحتجاج بالاحتمالات الضخمة للمبدأ الأنثروبي، إلى الاكتفاء برقم صغير جداً جداً، ومع ذلك فحتى مع هذا الرقم الصغير تتسع شساعة المفارقة!:

«من المعقول طبعاً أن تكون هناك طريقة واحدة لوجود الكون. ولكن لماذا بالذات هذه الطريقة التي تناسب بشكل مذهل تطور الحياة فيها؟ لماذا

بالذات على الكون أن يكون بالشكل الذي يبدو فيه وكأنه «من المؤكد قد عرف بقدومنا؟» كما أشار الفيزيائي النظري فريمان داسيون. والفيلسوف جون ليسلي يستعمل التشبيه عن رجل محكوم بالإعدام رمياً بالرصاص. من الممكن أن يخطئ جميع أعضاء فريق الإعدام العشرة الهدف. يجد الناجي نفسه في وضع يفكر فيه بحظه السعيد ويقول: «يا للروعة، من الواضح أنهم جميعهم أخطأوني، وإلا فلن أكون واقفاً هنا، وأفكر في هذا». ولكن من الممكن أن يتساءل فعلاً لماذا»[1].

بغض النظر عن أن هذا الاحتمال ضئيل جداً جداً وغير معقول، رغم أنه رقم صغير ولايمكن قياسه بالأرقام الفلكية للمبدأ الأنثروبي، فإن منطقية هذا الاحتمال الضئيل لا تساوي وجوده، هل وقعت حادثة كهذه أو يمكن أن تقع فعلياً، وكيف سيتم نقلها وحفظها ومن ثم تصديقها والاقتناع بها لو حدثت؟!. هذا كله في رقم صغير يمكن دحرجته احتمالياً بين العشرة والمئة والألف والعشرة آلاف، فقط وفي حالة واحدة ليس إلا (رجل واحد لن يموت بتصويب عشر بنادق حوله من قبل فرقة إعدام) فما بالك بملايين العناصر والمخلوقات والعلاقات الدقيقة المتوازنة فيما بينها، كل ذلك كيف يكون معقولاً بل واقعاً، بل هو الواقع؟!.

إن هذا بالفعل سحر ومعجزة تفوق أية معجزة نقلتها الأديان أو تحدثت عنها كتب الأدب فضلاً عن اللاهوت!.

هـ ـ ما معنى عبارة (موضوع وجود الله بدون شرح)؟! إن هذا بنفسه يحتاج إلى شرح!.

---

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٤٧.

المستوى الخامس

بعدها هذا كله بوسعنا أن نتخيل مع ريتشارد دوكنز،لماذا تكون نظرية التطور بديلاً من فكرة الإله؟!:

«التطور نحو التعقيد لا يأتي نتيجة لسِمة متأصلة نحو التعقيد المتزايد، وليس بسبب التحيز في الطفرات الوراثية. بل يأتي من الانتخاب الطبيعي، تلك العملية التي كما نعرفها حتى الآن تُعتبر الوحيدة القادرة على تفسير نشوء الأنظمة المعقدة من الأبسط. نظرية الانتخاب الطبيعي بسيطة وصريحة. وكذلك الأصل الذي بدأت منه. ومن ناحية أخرى، فإن التفسير الذي تقدمه لنا عن التعقيد اللامتناهي: أكثر من أي شيء نطمح إلى تخيله، وبدون إله يحتاج إلى تصميمها»[1].

لكن هنا يمكن أن نقف على عدة ملاحظات:

١ ـ نظرية التطور وهي تسير نحو التزايد في التعقيد، تمشي عبر «نسق» تراكمي وحتى الصدف التي تقال هنا فهي تقع ضمن «إطار» مُحدد بين البقاء للأصلح في صراع من أجل البقاء+الزمن المتطاول= تغيّراً نوعياً. وهذا يعني اعتماد مجموعة مطلقات مثل: البقاء للأصلح، وأن التراكم الكمي ينقلب إلى تغاير كيفي، ومعقولية تلاقي الصدف، بالإضافة إلى سير الكائن نحو ما ينفعه بدون أي إدراك منه وبدون وجود هادٍ خارجي. وبالتالي فنظرية الانتخاب لا هي ضد فكرة المطلق بذاتها، ولا هي بسيطة ولا صريحة.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٥٣.

٢ ـ عدم حاجتنا إلى الإله لمعرفة خصائص الطبيعة، لايعني عدم وجوده، وذلك لاختلاف موضوع البحث والسؤال، ففي العلوم الطبيعية نحن نسأل عن تركيبة الماء الطبيعي وعن المعادلات الرياضية لعلاقات الكواكب والعناصر فيما بينها، ولا نسأل عن العلة الأولى لها.

٣ ـ في عملية استبدال نظرية الإله بالتطور، يتم تناسي عدة أمور مركزية:

ـ لامعنى لنظرية التطور بدون فكرة «التراكم» وهذا التراكم التصادفي لايمكن تعقله، بما أنه أعمى، بدون فكرة تدخل هداية خارجية، تبقي المصادفة الملائمة وتحفظها وتتوزع على قسمين ذكر وأنثى، سواء في تكوين النوع بدءاً أو في بقاء الصفات المطلوبة كجينات وراثية، لأن المصادفة وحدها مهما تكاثرت تبقى مصادفة ولا تتحول إلى تراكم يشكل قانوناً منتجاً.

ـ إن نظرية التطور لم تُفسّر أهم القضايا مثل الحياة والوعي والجمال ونزعة الدين.

ـ لايصح قيام علاقة تضاد بين نظرية التطور وفكرة الإله، إلا بأن تكون شواهد نظرية التطور من نماذج الكائنات الحية لها قراءة واحدة، وهذا معلوم البطلان، فهناك علماء طبيعة يعتمدون جميع الشواهد التي يعتمدها التطوريون لكن مع ذلك يخرجون بنتيجة مخالفة للتطوريين، كما فعل العالم البريطاني «ماك جراث».

ـ وإن نظرية الانتخاب الطبيعي مجالها الكائنات الحية الأرضية، ولاعلاقة لها بفكرة بداية الكون، لذا يجري تتميمها عبر المبدأ الأنثروبي.

ـ إن نظريـة التطـور ليسـت بسـيطة فـي أقـل جزئياتهـا، فهـي تنقلـب مـن

العلم التجريبي إلى التأويليات. وإذا كان دوكنز قد أقر بالمشكلة النظرية في استقرائية شروق الشمس (من أين لنا اليقين الرياضي بأن الشمس ستشرق غداً فعلاً، اعتماداً على كونها أشرقت على أجيال ماضين لم نرهم؟!) فإن نظرية التطور تتجاوز كل أعمار الأجيال البشرية باعتمادها على زمن طويل هائل، يجري فيها الانتقال من محسوس جزئي (تماثل جيني أو أحفورة عظام مثلاً قد تكون نوعاً قائماً بنفسه) إلى انتقال ذهني وهو التطور. وبالتالي فإن نظرية التطور المتشددة في المادية تتجاوز النظرة المادية مرتين: مرة حينما تعتمد على أصل غير مادي حين تتكلم عن الظهور الأول للوجود، حيث ليس عندها ما تقوله هنا سوى التمسك ببداية ما.

ومرة في عملية الاستنتاج بالقول إن بين عنصرين تشابهاً ما، إذن، هناك تطور جرى عبر ملايين السنين، فالعنصر الأول مادي تجريبي أما الثاني فهو ليس بعلمي تجريبي.

ـ هذا كله ونظرية التطور لاعلاقة لها البتة بتفسير ذاتيات الأشياء الأولى، التفسير المجهول المتعلق بتحليل فكرة قيام الأزرار الستة بأصابع الإله وحدها.

ـ مهما حاول دوكنز الاستكثار من أمثلة في رفض العلية المُفضية حتماً إلى فكرة الإله، فإنه لا يستطيع في النهاية سوى عرض القضية على أنها مجموعات تراكمية وغائية وذات نسق مُحدَّد، لذا نجد القضية تنتهي إلى نقيض التصادفية «وكالعادة في الميمات، فإننا نستطيع دائماً فهمها بالعودة إلى نظيرها في الوراثة الطبيعية. لغرض تعليمي بحت تناولت موضوع المورثات وكأنها وحدات منعزلة تتصرف بشكل مُستقل. ولكن بالطبع هي ليست مُستقلة بعضها عن بعض، وهذا واضح من خلال نقطتين، الأولى: المورثات

مصفوفة بشكل خطي على خيوط الصبغات الوراثية، وتميل إلى التحرك معاً عبر الأجيال بمرافقة المورثات المجاورة لها على تلك الصبغات. ونحن الأطباء ندعو ذلك الترابط بالترابط، ولن أقول أكثر من ذلك في هذا الموضوع لأن الميمات ليس لها صبغات أو آليات أو إعادة إدماج جنسي كالمورثات.

والنقطة الثانية التي يختلف فيها الميم تماماً عن المورثات، وهنا لدينا مثال قياسي للميمات، تتعلق بعلم الأجنة الذي هو علم مختلف تماماً عن علم الوراثة.. ليست الأجسام مصفوفة كقطع الموزاييك وكل مورثة لها مهمة خاصة بها. ليس هناك ما يربط كل مورثة بعضو أو سلوك معين في التركيب الأحيائي. كل مورثة تتعاون مع مئات أخرى من المورثات لبرمجة العملية التطورية التي تظهر في الجسد، بالطريقة نفسها التي تشترك فيها كلمات وصفة في كتاب طبخ لتظهر بعد ذلك في الطبق. كل كلمة في الوصفة لا تقابل لقمة مُعينة في الطبق. إذن تشترك المورثات بشكل مجاميع تعاونية لبناء الأجسام، وهذا أحد أهم مبادئ علم الأجنة. ومن المُغري القول بأن الانتخاب الطبيعي يُرشّح بعض أنواع المجاميع كشكل من أشكال الانتخاب الجمعي بين المجاميع المختلفة، وهذا شيء يبدو محيراً»[1].

لدينا غائية، لكنها تُفسر بالتطورية، والتطورية في ذاتها لا مشكلة فيها، لكن المشكلة في تصويرها كعملية تصادفية عمياء، بلا مبتدأ ولا مقصد، هنا الحيرة تنتهي بنص دوكنز نفسه إلى مفردة (اليد الخفية) والحيرة، حيث تماثل تركيبة الميمات لا يُعطي أي مائز يجعل بعضها يختلف في وظيفته الاختصاصية عن المجموعة الأخرى. وإذا كنا لا نستطيع في ورقة نبات صغيرة عدم تخيّل أي

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٩٩.

تصادفية قادرة على الوصول إلى نتيجة متوازنة في صنع غشاء كوفل وتركيبه وغشاء النواة ومساماتها والتركيب المحزز والجسيم المحزز، والنسيج الأساسي والتركيب البلوري مع ما يحتويه بيت الطاقة من الماليوكندريا وغير ذلك مما لا نستطيع تلقيه بغير كونه تركيباً يعمل لغاية بدونها لن يكون، فكيف والحال أن الحياة والكون أعقد بما لا يُقاس من ورقة نبات صغيرة!. وبالتالي فعدم فهم أي جزئية في الكون أو الحياة (كقول دوكنز بوجود وظيفة شاغرة في بعض مجاميع الميمات) لا يعني في الإطار الكلي للحياة أنها دليل على هدم الكم الهائل من الموجودات الواضحة التنظيم والمترابطة غائياً، ليست في الحاضر فقط بل في المستقبل أيضاً، وحفظ ما ينفع في المستقبل هو إحدى الثغرات في التطورية حيث لا تستطيع الداروينية تفسير لماذا يقوم هذا الصانع الأعمى المُفترض بالرؤية الواضحة للمستقبل بل المستقبليات البعيدة والمتعاقبة؟!.

إن نفي التعليل «مجموعة طفرات عشوائية ومصادفات متراكمة»[1] هنا

(١) كشرح دوكنز (ص١٩٤) للخلايا المورّثة والـ (دي أن أي)، فهنا يتم إغفال مشكلة أن المورّثات تعمل ناظرة إلى المستقبل دائماً، فهناك عناية وليس عمى، وهناك إطلاق وليس مصادفات، مع ذلك لا نجد في الشرح سوى (شاءت الصدف) أو هكذا هو عمل (الطفرات) ولو كانت القضية هكذا فعلاً فكيف صار لدينا عِلم أحياء من الأصل، وكيف أمكن العلماء فيه من التحدث عن الأمراض والعلاجات وغير ذلك ارتكاناً إلى قواعد ثابتة؟!. علماً أن شرح دوكنز عن المورثات لا يمكنه أن يُفسِّر القضايا الأساسية ومنها تفسير الذكاء الانساني. ومعنى التشفير نفسه، أي اختزال عنصر مادي إلى صفات عناصر مادية غير موجودة، وجدت في الماضي أو ستوجد في المستقبل.وكل ذلك عبارة عن انتقالات دقيقة ومعقدة من أعمى إلى أعمى، وهذه المصادفة لا تقع مرة واحدة بل تحدث ملايين المرات ودائماً!. وكالعادة فإن دوكنز (ص١٩٨) حينما يحاول تصوير تصادف لفعالية المورّثات اعتسافاً، ويُقدم

يقــود إلــى جعــل الكــون لا معقــولاً، وحينمــا لا يكــون معقــولاً لــن تكــون هنــاك قواعـد وبالتالـي يسـتحيل وجـود أي علـم علـى الإطـلاق، وهنـا تظهـر أهميـة مقولـة الإلــه الاســتدلالية، بأنهــا رابطــة فــي وجــود الأمــن الاجتماعــي والأســاس العلمــي. وعنــد ذلــك يظهــر لنــا الديــن وفكــرة الإلــه مــن الزاويــة نفســها التــي أُريــد نفيهــا.

أمثلة تقريبية فإنه لا يصوغ سوى أمثلة قائمة على وجود خطة مُسبقة وعلى غاية وقصد بدونهما ينتفي المِثال والمُمثَل له. وكل تفسير تطوري قائم على احتمالية الوقائع المُتغيرة (كل ما لا ينفع يتم استبعاده) بينما الملاحدة يستنتجون نفي الإله عبر استنباط قائم على احتمالية ثابتة. ومن هنا يعود دوكنز(ص١٩٩) ليقر بكونه قدّم تصويراً مغالطاً للميمات إذ صورها وكأنها مستقلة في حين أنها مترابطة مع غيرها، وينتهي الأمر إلى ما يُسميه دوكنز «بنك المعلومات» في خلايا المورّثات، فهنا تراكم غائي وثبات ماهوي، هذا في الميمات وحدها، فكيف بعالم الأحياء كله، فضلاً عن الكون أجمع؟!.

القمر القاتل إله حشرة العِث

ضمن الأمور التي يتم القفز عليها هي أن الأديان العميقة تحتجّ بالتعقيد البالغ والاستثنائي في نصوصها بحيث إن حجم الاستثنائي تنطبق عليه الاحتمالات الرياضية نفسها، لذا يتم تقديمه كدليل إعجازي لا يختلف عن المادة الطبيعية من ناحية القدرات العادية أن تنتج مثله، وهذا الدليل لا تتم مقاربته سوى بسخرية لا تليق بضرورة احترام اختصاصات العلوم، وإلا لانقلبت سخرية علماء الطبيعيات ضدهم فهم يتصرفون بمثل ما يتصرف رجال الدين عبر تطفلهم وإنشائيات خطاباتهم التي لاتفهم أبسط مفاهيم النظريات الطبيعية لكنها تنتقدها وتعتبر أنها ليست سوى فرضيات فاشلة. هنا عالم الطبيعيات يسلك الطريقة المتطفلة نفسها وذات السياج الدوغمائي لحراسة ما به اعتزاز الذات وتكسّبها الذي هو قسم خاص من العلوم.

لكن ليست هذه هي الثغرة الوحيدة في استدلال يحاول التفكير رياضياً بعض الأحيان، ففي النهاية مازال الدين رغم كل العيوب التي تُقال عنه حاضراً وموجوداً. وبالرغم من تحقيب التاريخ إلى عصور الأسطورة وعصور الدين وعصور العلم، لايزال الدين حاضراً وله الهيمنة في التأثير أكثر من العلم نفسه، فكيف من جهة ينمو العقل ويتطوّر ومن جهة هذا الدين الذي يُفترض أنه كائن منقرض أو أثري، وكائن عجوز طاعن في الشيخوخة، لديه من الحيوية أشد من أي مفهوم شاب ويافع جديد؟! الموقف الإلحادي لا يقر بفكرة الفطرة التي تحدثنا عنها في كتاب (البناء والانتماء) وعلى ذلك لديه مشكلة في تفسير هذه

الاستمرارية، ومثل كل مرة تتم التغطية على وجود قراءات مختلفة وتقويمات غير مستقرة، ومع ذلك يتم طرح تفسير واحد وكأنه تفسير ليس بشخصي ولا رؤية لشخص واحد أو مجموعة صغيرة ممن استطلعوا الواقع الذي تكشّف بحسب مداركهم وأدواتهم المحدودة، فإذا بهذا الرأي هو الحقيقة نفسها!.

يحاول دوكنز تقديم فرضية مادية تُفسِّر كيف يستمر بقاء الدين وهو الذي يجعل الإنسان يُقدّم حياته فداءً له، تماماً كما تفعل حشرة العِث مع لهب الشمعة، كيف يكون هدر الحياة أمراً مقبولاً داروينياً؟!.

فأعسر الأمور على التطورية أن تُفسر السير الطوعي لفقدان الحياة عوض التمسك بها، فهذا يهد أساس قواعدها.

يقوم دوكنز هنا بإعادة صوغ السؤال على أن القضية ليست انتحاراً من قبل حشرة العِث، ولا الدين بأمر له قيمة حتى يفديه الإنسان بنفسه، كلاهما نتاج عرضي لشيء آخر . حيث يمكننا افتراض أن حشرة العِث تعتمد على ضوء القمر والنجوم لتهتدي به، أما المصابيح الكهربائية وغيرها فهي نتاج حديث لا يقع ضمن حياة حشرة العِث، وبالتالي فهي تسير إليه كسيرها في ضوء القمر. وبالطريقة نفسها فبعض الأفكار المفيدة تطورت لتكون مصادفة عبارة عن دين، حينما كانت البداية مجرد تطوير لطاعة الأطفال للأبوين ثم الصبيان للكبار، ثم الكبار الراشدين لزعماء القبيلة. لابد من تقديس الطاعة كي لا يقع قتال في اللحظات الحرجة، وإلا لو شاع النقاش لوقعت الهزيمة ساعة المعركة حيث سيصعب تنفيذ الأوامر والتوجيهات لصد الخطر والأعداء. هذه الطاعة العمياء ستولد الخرافات وسيقبلها الناس الذين تعودوا الرضوخ:

«أنا أحد الكثيرين الذين يزداد عددهم من الذين يرون الدين نتاجاً عرضياً لشيء آخر. بشكل عام أعتقد بأنه يجب علينا نحن الذين نعرف قيمة بقاء

الداروينية لشيء ما ،حفاظاً على هذه الفكرة في الذاكرة. عندما نسأل عن قيمة البقاء لظاهرة ما، فربما نحن نطرح السؤال بصورة خاطئة. نحتاج إلى إعادة كتابة السؤال بطريقة أكثر وضوحاً. ربما تكون المادة التي تهمنا (الدِين في هذه الحالة) ليس لها قيمة مباشرة للبقاء، ولكنها ناتج عرضي لشيء آخر له قيمة. ولتوضيح المسألة بصورة أدق سأضرب مثلاً من حقل اختصاصي في سلوك الحيوان.

حشرة العث تطير باتجاه لهب الشمعة، ولا يبدو ذلك من قبيل المصادفة. بل يبدو وكأنها تجاهد كي تكون ضحية تلك المحرقة. بإمكاننا أن نُسمي ذلك «سلوكاً انتحارياً» وتحت هذا الاسم المثير نتساءل عن كيفية تفضيل الانتخاب الطبيعي لسلوك كهذا؟!. النقطة التي أشير إليها هي أنه علينا أن نعيد كتابة السؤال قبل حتى محاولة التفكير في إجابة ذكية. ليس هذا انتحاراً. ما يبدو انتحاراً هو في الواقع نتيجة أعراض جانبية غفلنا عنها أو نتائج عرضية لشيء آخر. ولكن ما هو هذا الشيء؟ حسناً إليكم إحدى الإمكانات التي يمكنها أن توضح تلك النقطة:

الضوء الاصطناعي ظاهرة حديثة نوعاً ما، على المشهد الليلي. وحتى وقت قريب، فإن الأضواء الوحيدة في الليل كانت تنعكس من القمر والنجوم... ومن المعروف عن الحشرات استعمالها للأجسام السماوية كالشمس والقمر للتوجه بشكل صحيح في خط مستقيم، وبإمكانها استعمال البوصلة نفسها، وبالاتجاه المعاكس للعودة. والجهاز العصبي للحشرة تأقلم لوضع قاعدة من النوع التالي: «توجه بحيث أن إشعاع الضوء يصل إلى عينك بزاوية ٣٠ درجة». وبما أن الحشرات لها أعين مُركّبة(مع أنبوب ضوئي يشع من مركز العين إلى الخارج كأشواك القنفذ) فإن ذلك يعني ببساطة أن عليك الحفاظ على الضوء ليدخل من جزء معين من العين. ولكن البوصلة الضوئية تعتمد بشكل حرج

على الأجسام السماوية المُتناهية البُعد. وإذا لم يكن الوضع كذلك، فإن الأشعة لن تكون متوازية، بل متباعدة مثل قطر الدولاب. أي جهاز عصبي يطبق قاعدة الـ ٣٠ درجة (أو أي زاوية حادة) إلى جانب شمعة، سوف يقود العث بشكل لولبي نحو اللهب.. بالرغم من أن قاعدة الاستدلال هذه قد تكون مميتة في تلك الظروف الخاصة، فإن القاعدة تبقى بشكل عام جيدة للعث، ذلك لأن رؤية شمعة لهي من النوادر مقارنة برؤية القمر. نحن نلاحظ المئات من العث الذي بهدوء وفعالية يهتدي بالقمر أو النجوم، أو حتى الضوء المشع من بلدة على مسافة ما. نحن نر فقط عثاً يدور بشكل لولبي حول الشمعة ونسأل أنفسنا السؤال الخاطئ: لماذا ينتحر العث؟.. وعندما يُعاد صوغ السؤال يتبخر الغموض.. والآن سنطبق درس الناتج العرضي على السلوك الديني لدى الإنسان: هناك عدد هائل من الناس، يصل إلى مئة بالمئة في بعض المناطق، من المؤمنين بأمور تعارض العِلم بكل وضوح وتنافس اعتقادات دينية مُتَبعة من قبل آخرين. ولا يحفظ الناس هذا الإيمان بشغف وحسب، بل يُخصصون له وقتاً ومصاريف غالية. يموتون من أجله ويقتلون غيرهم من أجله. نحن نعجب لذلك كما عجبنا من «السلوك الانتحاري» للعث، ونسأل لماذا؟. ولكن النقطة التي أُريد لفت النظر إليها هي أننا ربما نسأل السؤال الخاطئ هنا. ربما كان السلوك الديني مُجرد حادث، مجرد ناتج عرضي لنزعة نفسية خفية، والتي في أحوال أخرى قد تكون أو كانت مفيدة. ومن وجهة النظر تلك، فإن النزعة التي أنتجت طبيعياً في أسلافنا لم تكن ديناً في ذاته بل كانت لها منافع أخرى، وبلورت نفسها كدين مصادفةً. سنفهم السلوك الديني أولاً عندما نعطيه اسماً ثانياً. فإذا كان الدين إذن، ناتجاً عرضياً لشيء آخر، فما هو هذا الشيء؟ ما نظير عادة العث للملاحة بالبوصلة السماوية؟ ما هي الميزة البدائية المُفيدة التي تخطئ الهدف أحياناً وتولّد الدين؟ سأسوق اقتراحاً موضحاً ..

فرضيتي الخاصة هي عن الأطفال. نحن أكثر من كل الكائنات الأخرى حفاظاً على بقائنا بواسطة تراكم الخبرات من أجيال سابقة، وهذه الخبرات يجب نقلها إلى الأطفال لحمايتهم وتحسين حالهم. نظرياً ربما يتعلم الأطفال من تجاربهم الشخصية أن لا يقتربوا من حافة جرف، أو يأكلوا توتاً برياً أحمر غير مُجرب، أو يسبحوا في ماء يعج بالتماسيح. ولكن، أقله، هناك بعض المُميزات الانتخابية لمخ الطفل الذي يمتلك قواعد غير مجربة: صدِّق بدون أسئلة كل ما يقوله الكبار لك، أطع أهلك، أطع كبار القبيلة.. ثق بهؤلاء الكبار بدون سؤال. هذه قاعدة ثمينة بشكل عام بالنسبة إلى الأطفال. ولكن كما في حال العث قد تترتب عليها نتائج زرية... سيكون الأمر جنونياً من وجهة نظر القيادة لو سمحوا لكل جندي أن يناقش قبل إطاعة الأوامر. وبلدان ذات جيوش تسمح لجنودهم بالتصرف بما يرونه مناسباً لأنهم إن رفضوا إطاعة الأوامر سيخسرون حروبهم. فمن وجهة نظر البلد فإن الطاعة قاعدة جيدة وحتى إن كانت في بعض الأحيان تؤدي إلى كوارث فردية. والجنود يُدربون ليكونوا آليين أو حواسيب بقدر الإمكان.

الحواسيب تفعل ما تؤمر به.. ببساطة يطيعون كما على الجنود أن يكونوا. وفي طاعتهم بدون سؤال التي تجعل الحواسيب مفيدة، تجعلها أيضاً معرضة للإصابة بالفيروسات لا محالة.. لو كنتُ قد نجحت في شرحي التمهيدي فإنك ربما تعرف الآن العلاقة بين مخ الطفل والدين. الانتخاب الطبيعي بنى مخ الطفل مع ميل إلى تصديق ما يقوله الأهل والكبار في السن من أهل العشيرة لهم. وطاعة الثقة تلك مهمة للبقاء: بطريقة مشابهة للاهتداء بالقمر بالنسبة إلى حشرة العث. ولكن الوجه الآخر للطاعة والثقة هو السذاجة الخانعة. كنتاج عرضي لا مناص منه يسبب الضعف تجاه عدوى الفيروسات الفكرية. ولسبب ممتاز مرتبط بالبقاء الداروينى يحتاج دماغ الطفل إلى الثقة

بالأبوين وبالآخرين الأكبر سناً والذين قيل لهم من قبل الأبوين أن يثقوا بهم... والشيء نفسه ينطبق على المقترحات عن الكون والعالم والأخلاق والطبيعة الإنسانية.. وبهذا النموذج المذكور علينا أن نتوقع أنه في مناطق جغرافية مختلفة يجب أن توجد أنواع مُختلفة واعتباطية من المعتقدات، ولا أحد منها يملك أي قاعدة واقعية وسيتوارث ويُصدق من قبل المجموعة بالطريقة نفسها على أنه جزء من التراث الحكيم. كما يستحق المُفيد منها تمثلاً بالسماد المفيد للمحصول. وعلينا أن نتوقع أيضاً أن الغيبيات والأمور الأخرى غير الواقعية ستتطور محلياً وتتغير عبر الأجيال بشكل عشوائي أو بشكل يتبع نوعاً من الانتخاب الدارويني، حتى نرى ظهور أشكال جديدة من المعتقدات المُستحدثة التي تختلف عن الأصل»[1].

وبتركنا التطويل حول الوقوف على مشكلة الخلط بين النموذج المعرفي وبين الحقيقة العلمية وتعميمها، نكتفي بالتعليق المختصر هنا:

١ ـ هذا مجرد افتراض بلا أي شاهد. وهذا يفترض أن استقبال حشرة العِث لضوء القمر ولهب الشمعة والمصباح الكهربائي الاستقبال نفسه، بأن يكون السير بواسطة ضوء القمر هو نفسه السير نحوه.

٢ ـ هو افتراض لشرح منشأ التمسك بالدين وليس مبدأ ظهوره، وهو افتراض مشوش فهو من جهة يقوم على التعليل، ومن جهة يستذكر رفضه للتعليل ويعود إلى المصادفة، فهو مصادفة مُعللة وعلة تصادفية!.

ونهاية البحث ستكون متناقضة أكثر: فدوكنز من جهة، يطرح الدين نظاماً غير مُعلَّل لأحد بل عبر تراكم لا واعٍ، ومن جهة، يبين أنه كيان ونظام

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٧٣.

ظهر واستمر بناء على مصالح أفراد، وبذا فحتى لو صح الانتخاب الميمي في تفسير تعقد تنظيم الأديان وتطورها، فإنه لا يُفسّر البداية ويتناقض مع مشكلة المصلحة، ودوكنز رغم مغالاته في استخدام العشوائية والتصادف هنا فإنه لا يسعه سوى الإقرار بوجود «جزء ما مصمم بذكاء، كما هي الحال في المدارس والموضة والفن.الدين الوحيد الذي صُمّم كلياً وبشكل مقصود بذكاء هو السينتولوجي، ولكني أشك بأنه حالة استثنائية. والمثال الآخر عن الدين المُصمّم كلياً هو المورون »[1]. ومن المعلوم أن نقيض الموجبة الكلية هو السالبة الجزئية، وهنا إذا تم نفي بعض الأمور عن كونها تصادفية، تسقط دعوى الفوضى الخالقة ونفي العلية. وفي الحقيقة إن الديانة المطروحة اليوم كتصميم ذكي هي الإلحاد!.

وبالطبع دوكنز هنا غير علمي تماماً لكونه يهمل الحقل التاريخي وكيف ارتبطت الأديان بأشخاص مُعينين[2]، ولو صح الانتخاب الميمي هنا فهو

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٠٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٤٢، سيناقض دوكنز نفسه بالقول بأن الأديان تأسست على أشخاص، والنبي إبراهيم مثال واضح على أنه هو مرجعية الديانات التوحيدية الثلاث، وفي ص٢٤٥ يقر بأن اليهودية مثلاً هي صنيع (المؤسس والمُلقن الأول لتلك الديانات هو موسى) فالقضية إذن، قصدية ومنتظمة ومبنية على تأسيس اختياري مُتعين لا علاقة له بأي فوضوية أو تراكمات تصادفية أو عمى غير اختياري. لكن الأمر المهم الذي بودنا تسجيله هنا: أن دوكنز كبقية الملاحدة الأيديولوجيين يتعاملون مع النصوص الدينية وكتبها وتاريخها بشكل انتقائي. فهم من جهة يجعلون هذه الكتب مصدراً تاريخياً يأخذون منه معلومات عن الشخصيات والأحداث، ومن جهة يرفضون الأصل الذي تقوم عليه هذه الكتب وهو فكرة الإله. فهذه الكتب إذا كذبت في كبرى معلوماتها فكيف نعتمد عليها في غيرها؟!. هذا يشبه طريقة بعض المستشرقيين والملاحدة العرب الذين من جهة، يعتمدون في معلوماتهم التاريخية على كتب الدين والتراث الإسلامي، لكنهم يكذبون دعوى النبوة ويغفلون أي خبر

يصح في تطوير دعوتهم الدينية في أساس ظهور الدعوة نفسها، ومع ذلك تبقى المشكلة في مطاوعة المجتمعات لتقبل هذه الدعاوى وبذل كل مصالحهم بل أرواحهم، فداء لها؟. بل أغلب التطورات في الأديان، معروفة حيث ظهرت كأفكار من مفكرين أو زعماء[1]، فهناك أولًا أشخاص وثانياً قصد وغاية.

٣ ـ هذا الكلام من دوكنز هنا هو افتراض لشرح يتعلق بالدين وليس بالإله. وهو افتراض فاشل تماماً لكونه مبنياً على أن اتباع الدين كان مرتبطاً بالفائدة، لكن جملة الطقوس واضحة أنها مجموعة خسارات في الطاقة والوقت والطعام وغير ذلك، فكيف استمرت بل وتضخمت؟!، ثم كيف تم توريث القسم الكبير منها الذي كشفت الأيام عدم جدواه في شيء، بل ذلك القسم الذي ليس له أي مردود نفعي هو الذي بالذات قد تطور وبات هو الأهم؟!!.

أو حدث فيه معان ودلالات لمصلحة الإسلام والنبي، مهما كانت تلك الأخبار موثوقة ومكررة بكثرة في الكتب. لكن خبراً ضعيفاً واحداً يتيماً يتم نفخه ليغدو كأنه حقيقة الحقائق بل السر الأعظم، وما ذلك إلا لكون معناه يحمل مثلبة ضد النبي والإسلام. وقل ذلك في طريقة تعاملهم مع آيات القرآن الكريم، التي هي طريقة انتقائية تدخل إليه بنفسية العدو ولذة الانتهاك والتكذيب والاستخفاف والتبشيع. لذا يغدو جزء من آية هو القرآن كله، ومئات الآيات يتم إهمالها لكونها تناقض المعنى البشع الذي أُريد إشاعته إعلامياً ضد القرآن.

(١) على الرغم من أن الصيغة الحالية للمسيحية مرتبطة بصراعات مصلحة بين البابوات والانتصار بحكم سياسي للأمبراطورية الرومانية، فإن دوكنز يكنس كل التاريخ ليقول ص٢٠٩ بأن الأمر مجرد انتخاب ميماتي تصادفي! إننا أمام مغالاة في التطورية توصلنا إلى خطاب شمولي يلغي الاختصاصات الأخرى كافة، ولِمَ لا؟ ودوكنز يهجو الاختصاصات لكونها عائقاً أمام استبدال التفسيرات المتنوعة بتفسير وحيد هو: التطورية. وهذا شبيه بالمتدينيين الجهلة الذين يستبدلون التفسيرات العلمية بكلمة واحدة هي: هكذا أراد الله أو الإله.

٤ ـ الاستدلال قائم هنا على قياس المثال بين جزئي في حقل خاص على جزئي في حقل آخر، وهذا استنتاج غير علمي نتائجه مجرد احتمال ضعيف غير جدي. فضلاً عن أنه خالٍ من جهة الاتصال والتعليل بين الطرفين، إن لم يكن هذا مفقوداً فعلاً لكونه مجرد تشبيه مجازي ليس إلا، لأن كل طرف في عالم مستقل، أحدهما في الطبيعيات والثاني في الاجتماعيات. وفي الحصيلة لدينا افتراض هو مجرد مثال تقريبي مجازي لتوضيح أمر في حقل آخر. لكن هذا المثال هو في اختصاصه نفسه غير كامل حيث هو الآخر جزؤه التوضيحي مُعتمد على (إحدى الإمكانيات) على فرضية ذهنية أخرى، هذا هو الأصل فكيف يكون الفرع، الذي هو الدين، النتيجة فيه يقينية ودرجة مقبوليتها أكبر من القاعدة التي بُنيت عليها، في حين يُفترض أن كل نتيجة وفرع هما أقل مقبولية من القاعدة التي ولدتها.

٥ ـ هو عبارة عن مقايسة مُخلة: فحشرة العث سلوكها جبري غير اختياري، أما في الإنسان فبحسب هذا الفرض أنه ما أن يعي المسألة حتى يمتلك الخلاص منها. في حين أن الإلحاد نفسه يتخذ لنفسه تكتلات جماعية لا تختلف عن الدين بشيء. والإلحاد اليوم يتمدد بما يمتلكه من وسائل دعم في قتال قبلي بمعنى الكلمة.

٦ ـ لو افترضنا قبول هذا الفرض، فعلينا أن نقر بأن الدين معلول لهذا التفسير،وهذا يعود بنا إلى فكرة العلية، وفكرة العلية تدخلنا في براهين الحاجة إلى علة فندخل في الدين بدل الخروج منه.

٧ ـ علينا أن نتخيل هنا بعد سنين طويلة هذا «السؤال التطوري»:

لـم يكـن دوكنـز وأمثالـه وأتباعـه يتبعـون الإلحـاد فـي ذاتـه، كمـا لـم يكـن

للإلحاد قيمة في ذاته، بل كان لافتة لمنافع أخرى، وقد بلورت هذه المنافع نفسها كإلحاد ونظرية علمية مصادفة، فمن أي ناتج عرضي ظهر الإلحاد واعتماد الصيغة التطورية يا ترى؟!

من الواضح أننا نستطيع صوغ كل الفرضيات التي يطرحها دوكنز وأمثاله على أفكارهم ومقالاتهم نفسها، بهذه الطريقة نفسها، وبالتالي يتفكك ما يحملونه من خطاب هجائي.

هناك مثال لطيف يكرره دوكنز حول الدين: بتخيل وصول مخلوقات فضائية تجلب تقنية متطورة، جهلنا بهذا التطور واندهاشنا أمامه يجعلنا نتخيل أنهم آلهة، وكل ما يتعلق بجزئيات سلوكهم العادية عبارة عن طقوس دينية هي سبب انتفاضة العلوم المتطورة عليهم.

وهذا المثال الذي يذكره المؤلف في بداية الكتاب يعود إليه ليطوّره لتكون الآلهة تجاراً ومستعمرين غربيين بيضاً في ميلانزيا. هؤلاء المستعمرون البيض[1]، هؤلاء يتصلون ببلدانهم وتأتيهم البضائع الغربية وهي بضائع عجيبة غريبة، والسكان الأصليون سوف يقودهم الفضول إلى معرفة كيفية صنعها، لكن المستعمرين لا يعملون سوى التسكع ولعب الورق والتبضع ولا شيء حقيقياً له دخل في صنع البضائع التي لا يعرفون أنها تُجلب جاهزة لهم من البلاد البعيدة. هنا سيتم ربط اعتباطي بين السلوكيات اللاهية وبين البضائع الغريبة، وسيقولون إن هذه الأعمال هي طقوس دينية يتقرب بها البيض لتفيض عليهم الآلهة البضائع المتطورة[2]. وبالتالي آمنت الجُزر التي رست فيها سفن تفريغ البضائع بأن ثمة مُخلِّصاً سيأتي بشحنة في يوم القيامة.

---

(١) يخفّف دوكنز توصيفهم بأنهم مجرد: مهاجرين ومبشرين. فالعلم وحده لا يجعل النصير يترك تحيزه مع هويته.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٠٥.

وبالطبع فإن دوكنز يغفل، أو لا يفهم، بأن هذا القول هو ليس تأسيساً لدين بل قياس تصديق جديد على مفهوم موجود أصلاً، فالبضائع لم تكوّن عقيدة المُخلّص بل انصهرت في مفهوم كلي سابق، خصوصاً وأن دوكنز نسي هنا قضية أساسية وهي أن البضائع أتت مع كوادر متخصصة من المُبشرين المسيحيين، فهنا الدين ظهر بطريقة مُصممة وسببية، وهو احتاج أن يستغفل القارئ كي لا ينهدم تنظيره حول تصادفية الظاهرة الدينية.

وعلى أية حال، فهذا المثال القائم على ذهنية إله الفراغات، وهو يرتبط بالتديّن الشعبي، يمكن قلبه إلى كون عدة شرائح من شبابنا يتعلقون بالإلحاد عبر عملية قرن اعتباطي بين التطور التكنولوجي للغرب وبين شيوع الإلحاد في وسائل الإعلام فيه. إن تبني الإلحاد هنا غير مرتبط بتفسير موضوعي لكيفية صنع الحواسيب الذكية مثلاً، بل عبر إحالة علة التصنيع والتقدّم التقني إلى نكران الدين والإله.

٨ ـ هذا التصوير كله حول حشرة العِث، لا يصح إلا لأن الدين يحمل الخير والمنفعة في نفسه، وهو مخالف لأطروحة دوكنز الأساسية على اعتبار الدين أصل الشر.

الفصل الثالث

محو المعلوم وإحكام الموهوم

أخلاقية المادة

ليست نظرية التطور والانتخاب الطبيعي، بمسألة بسيطة في ذاتها ولا في التفرعات الأخلاقية واللاهوتية التي تُبنى على أساسها «الكثير من الناس يطلبون أكثر من مجرد الأدلة قبل أن يقبلوا التطور. بالنسبة إلى هؤلاء الناس، يطرح التطور أسئلة عميقة للغاية كالغاية والأخلاق، وهو ما يعني أنهم لا يستطيعون قبوله ولا يهم كمّ الأدلة التي يرونها. إنه ليس لأننا تطورنا من قرود عليا ما يقلقهم كثيراً، بل النتائج العاطفية لمواجهة تلك الحقيقة.

وحتى نعلم هذه الشؤون لن نتقدم في جعل التطور حقيقة مُسلماً بها عالمياً. كما كتب الفيلسوف الأميركي ميشيل روس: «لا أحد يؤرقه القلق بشأن الفجوات في السجل الأحفوري. بل الكثير من الناس يؤرقهم القلق بشأن الإجهاض والمخدرات وذبول نظام الأسرة وزواج الشاذين وكل الأشياء الأخرى التي هي نقيض لما يُسمَّى بـ القيم الأخلاقية».

تعبِّر نانسي بارسي، وهي فيلسوفة محافظة ومؤيدة للتصميم الذكي عن هذا الخوف الشائع:

«لماذا يهتم العامة على نحو عاطفي للغاية بصدد نظرية لعلم الأحياء؟ هذا لأن الناس يشعرون حدسياً أن ما هو على المحك أكثر من نظرية علمية. إنهم يعلمون أنه حينما يُدَرَّس التطور الطبيعي في الفصول المدرسية العلمية، فإن رؤية طبيعانية للأخلاق ستُدرَّس بالتوازي في الفصول المدرسية للتاريخ،

والفصول المدرسية لعلم الاجتماع، والفصول المدرسية لقيم الأسرة، وفي كل مجالات المنهج المدرسي». تجادل بارسي (والكثير من الخلقيين الأميركيين يوافقونها) أن كل الشرور المدرَكة للتطور تأتي من رؤيتين للعالم هما جزءٌ من العلم: الطبيعانية والمادية. الطبيعانية هي رؤية أن السبيل الوحيد لفهم كوننا هو من خلال الوسيلة العلمية. والمادية هي عقيدة أن الحقيقة الوحيدة هي المادة الفيزيائية للكون، وأن كل شيء آخر بما في هذا الاعتقادات والإرادة، والعواطف يأتي من قوانين فيزيائية عاملة على المادة. إن رسالة التطور، وكل العلم، هي مادية طبيعانية.

تخبرنا نظرية التطور أن الكائنات البشرية ـ ككل الأنواع ـ نشأت من عمل القوى العمياء غير الغائية خلال دهور من الزمن. بقدر ما يمكننا أن نقرر أن العمليات نفسها التي قد أدت إلى نشوء السراخس والفِطر والسحالي والسناجب قد أنتجتنا أيضاً. وبعد، فإن العلم لا يمكنه استبعاد إمكانية التفسير الخارق للطبيعة تماماً. فمن الممكن ـ رغم أنه غير مرجح للغاية ـ أن كل عالمنا يتحكم فيه الجن الصغار. لكن تفسيرات خارقة للطبيعة كهذه هي ببساطة لا نحتاج إليها أبداً: لقد نجحنا في فهم العالم الطبيعي على نحو ممتاز تماماً مستعملين العقلانية والمادية. فضلاً عن ذلك تعني التفسيرات الخارقة للطبيعة دوماً نهاية التساؤل: ذلك هو المحك الذي أراده الله لهذا، نهاية القضية. بينما العلم ـ على الجانب الآخر ـ لا يُشبّع أبداً: سوف تستمر دراساتنا عن الكون حتى الانقراض.

لكن اعتقاد بارسي بأن دروس التطور هذه سوف تنكب على نحو حتمي على دراسة الأخلاق والتاريخ و«روح العائلة» لا يدق ناقوس الخطر أو المخاوف بالضرورة. كيف يمكنك أن تستمد المغزى أو الغاية أو الأخلاق

من التطور؟ لا يمكنك. التطور هو ببساطة نظريةعن عمليات الحياة وأنماطها وأشكالها، لا نظام فلسفياً كبيراً بشأن معنى الحياة. فلا يمكنه إخبارنا ما علينا فعله، أو كيف ينبغي أن نسلك، وهذه هي المشكلة الكبيرة بالنسبة إلى الكثير من المؤمنين، الذين يريدون أن يجدوا في قصة أصولنا سبباً للوجود ومعنى لكيفية السلوك.

معظمنا محتاجٌ إلى المعنى والغاية والإرشاد الأخلاقي في حياتنا. فكيف نجدهم إن قبلنا أن التطور هو القصة الحقيقية لنشأتنا؟ هذا السؤال خارج مجال العلم. لكن التطور لا يزال يمكنه إلقاء بعض الضوء على ما إذا كانت أخلاقنا مُقيَّدة بوراثتنا. إن تكن أجسادنا مُنتَج التطور، فماذا عن سلوكنا؟ هل نحمل التراث النفسي لملايين سنواتنا على السافانا الأفريقية؟ وإن يكن كذلك فإلى أي مدى يمكننا التغلب عليه؟

من الاعتقادات الشائعة بصدد التطور أننا لو سلّمنا بأننا ثدييات متطورة فقط، فلن يكون هناك شيء يمنعنا من السلوك كالبهائم. ستخرج الأخلاق من النافذة، وسيسود قانون الغابة. هذه هي «الرؤية الطبيعانية للأخلاق» التي تخشى نانسي بارسي أنها سوف تعم مدارسنا... لكن هل يدعي علم الأحياء التطوري الحديث أننا مكيفون جينياً للسلوك كأسلافنا المزعوم أنهم بهيميون؟ ...هناك كم ضخم من الأدب العلمي عن كيفية تأييد التطور الجينات التي تؤدي إلى التعاون، والإيثار وحتى الأخلاق. لعل أسلافنا لم يكونوا بهيميين تماماً بالنهاية. وعلى أي حال، فالغابة ـ بتنوعها من الحيوانات التي يعيش الكثير منها في مجتمعات متعاونة ومعقدة تماماً ـ ليست بالانحطاط الذي يتضمنه القول المأثور.

إذن، لـو كان تطورنـا كقـرود عليـا اجتماعيـة قـد تـرك بصمتـه علـى عقولنـا،

فأي أنواع سلوك البشر قد تكون (مُعدّة)؟.. يسعى معظم علم النفس التطوري إلى تفسير سلوكيات البشر الحديثين كنتائج تكيفية للانتخاب الطبيعي الذي مر به أسلافنا. إن اعتبرنا بداية «الحضارة» مند حوالى أربعة آلاف عام ق.م، عندما كانت هناك مجتمعات معقدة سواء مدنية أو زراعية، تكون قد مرت ستة آلاف سنة فقط حتى الآن. هذا يمثل واحداً على الألف فقط من الوقت الإجمالي منذ انفصال خط تحدر البشر عن الشمبانزي. وكالحلوى السكرية على الكعكة يقبع حوالى ٢٥٠ جيلاً من المجتمع المتحضر فوق ثلاثمئة ألف جيل كنا في أثنائها عائشين عيشة الصيد والجمع في مجموعات اجتماعية صغيرة. وكان للانتخاب دهورٌ كثيرة لنتكيف مع نمط حياة كهذا.. لكننا لا ينبغي أن نفترض دوماً أن كل السلوكيات واسعة الانتشار تعكس تكيفات ذوات أساس جيني. إن إحدى المشكلات أنه سهل للغاية كلياً اختراع علة تطورية لسبب أن الكثير من سلوكيات البشر الحديثين تكيفت في البيئة التكيفية التطورية. فربما يكون الفن والأدب مكافئين لذيل الطاووس، مع فنانين وكتاب يتركون جينات أكثر لأن إنتاجهم راق للنساء.

الاغتصاب؟ إنه سبيل للرجال الذين لا يستطيعون إيجاد رفيقات لأبوة نسلٍ؟، ثم رجال كهؤلاء قد انتُخِبوا في البيئة التكيفية التطورية لأجل ميلهم إلى قهر ومزاوجة النساء بالإكراه.

الاكتئاب؟ لا مشكلة، يمكن أن يكون إسقاطاً على نحو تكيفي من المواقف المجهدة عصبياً، استجماعاً لذرائعك العقلية لكي يمكنك الكفاح في الحياة. أو يمكن أن يمثل شكلاً شعائرياً للإحباط الاجتماعي، يمكنك من الانسحاب من التنافس واسترجاع قواك والعودة إلى الصراع في يوم آخر.. هناك نزوع متزايد (و مقلق) من علماء النفس والأحياء، والفلاسفة لدرونة كل جانب من جوانب السلوك البشري، محولين دراسته إلى لعبة غرفة استقبال

منزلية علمية.. إلا أننا لا يمكننا أن نصرف النظر عن كل السلوكيات على أنها ليس لها أساس تطوري.. ليس هناك من سببٍ لأن نرى أنفسنا كدمى راقصة بأسلاك التطور. نعم إن نواحي معينة من سلوكنا قد تكون مشفرة جينياً .. لكن الجينات ليست قدراً..لا يزال العالم يعج بالأنانية وانحدار الأخلاق والظلم. لكن انظر من ناحية أخرى، وستجد أيضاً أفعالاً لا تُحصى من العطف والإيثار. ربما تكون هناك عناصر من كلا السلوكين قد أتت من ميراثنا التطوري. إلا أن هذه الأفعال إلى حد كبير هي مسألة اختيار للجينات. التصدق للمؤسسات الخيرية والتبرع لعلاج الأمراض المبيدة في الدول الفقيرة، ومواجهة النيران في خطر شخصي هائل، ولا واحد من هذه الأفعال يمكن أن يكون قد غُرِس على نحو مباشر بالتطور»[1].

لكن هنا عدة أمور جديرة بالتأمل من قبيل:

١ ـ المادية ليست جزءاً من المعرفة بل من العلم الطبيعي فقط. وحتى تحديد هذه القاعدة ليس بواسطة العلم ولا هي مادية بل هي قاعدة فلسفية قبلية، تقع خارج مدار العلم الطبيعي. وأكثر منها فلسفية القول إن فهم الكون محصور من خلال الرؤية المادية للمعرفة. وهو موقف ينتهي إلى سفسطة لأن المادة لاتعي نفسها لكي تعي ما سواها، فضلاً عن أن تعي الكون كله.

٢ ـ لايمكـن أن تكـون الفيزيـاء متـكأً إلحاديـاً، فهـي اليـوم تعتمـد الموجـات

(١) لماذا التطور حقيقة؟ مرجع سابق، ص٢٣٤.

والدقة الصارمة الشاملة لأصغر الجسيمات، فهي بذلك تحيل على عقلانية أضخم من أي مرجعية جسمية.

٣ ـ مشيئة الله للكائن أن يوجد هكذا أو هكذا، لا يعني توقف العلم، بل العلم هو الذي يشرح الآية الآفاقية ويخبرنا كيف تعمل إرادة الله، فالله فتح سؤال وليس سد جواب.

٤ ـ ثمة اعتراف بوجود مدار خارج العلم الطبيعي، وهو مدار حقيقي، وهذا يعني أن العلم الطبيعي ليس هو المنهج الوحيد لمعرفة الكون، ولا هو الطريق الكامل لمعرفة الحقيقة.

٥ ـ إن الداروينية في النهاية تؤكد ما يقوله كتاب (جدل التشكّل والاستلاب) من بقاء الماركسية كمركزية في الفكر الغربي. فكل الفنون والآداب والأخلاق والأديان علتها مادية إما جينياً وإما كونها منتوجاً للمحيط المادي.

وهذا بالطبع لابد أن يكون شاملاً للداروينية نفسها، فهي بهذا ليست حقيقة ولا وقراءة موضوعية للواقع، لأن قائليها والمقتنعين بها، وفق هذا، إما هم مجبرون جينياً وإما هم منساقون خلف مصالح وضغوط الظرف التعليمي والإعلامي والسياسي والاقتصادي الذي هم فيه.

٥ ـ كون الحضارة تمثل واحداً على الألف من التخلف، يطرح سؤالاً ميؤوساً منه على التطور: كيف نشأت كل هذه الحضارة بقفزة زمنية صغيرة قياساً على ركام كبير من التوحش؟!. إن نسبة واحد على الألف، تجعل المسألة وكأنها انقلاب في الجوهر وقفزة خلق بلمح البصر وليس تدرجاً انتخابياً بطيئاً!.

٦ ـ الموضوع ينتهي إلى هبوط حقيقي بمستوى الانهيار حينما لا نعتمد الاستقراء في شخصيات الأدباء والفنانين ومدى علاقتهم بالنساء، ونكتفي بهذه الطريقة الاستنباطية الأرسطية من التفكير التي تقول: إن الفنانين تشحذ عبقريتهم لجذب الجنس اللطيف! ولا نريد الدخول في شخصيات أدبية وفنية كان لها موقف سلبي من النساء، وإغراءات كثير منهم كان مصدرها المال أو الوسامة والنسب، وليس العمل الفني.

أما تفسير الاغتصاب، فهو جمع بين قولين متناقضين، ويمكن مراجعة الكتب المتخصصة في علم النفس لمعرفة مدى البلاهة المُتعمدة لمثل هذا الطرح.

أما تفسير الاكتئاب وبقية الأمـور فهي تعتمد المعنى غير العلمي لمصطلح «الفرضية»، التي لا يقبلها علماء الداروينية ويستنكرونها على الخلوقيين، وهي تفسيرات «تأملية» لا علاقة لها بالتجربة ولا بالاستقراء اللذين يُفترض أنهما مدار العلوم الطبيعية حيث التطور!!

٧ ـ لكي تكون التفسيرات التطورية صحيحة يجب إلغاء عنصر تغيّر المكان والزمان، وبذلك يمكننا مقايسة سلوكيات الإنسان المعاصر على موروثات المجتمعات الحيوانية. وهذا مناقض لفكرة أن المحيط والبيئة يؤثران في السلوك وإنتاج الأخلاق والفنون.

٨ ـ كل عمليات التفسير التطورية تقوم على ذهنية القياس: متابعة الحيوانات ثم استنباط علة مشتركة مع الإنسان، وهذا تفكير غائي وعِلّي، لمدرسة ترفض الغائية والعلية!.

وحتـى التطوريـة عبـارة عـن تعميـق لكـون العالَـم قابـلاً للفهـم والمعقوليـة،

ولايمكن عقلنة شيء غير معقول. ومن هنا نصل إلى تقويم آينشتاين المشهور بخصوص أن أكثر الأشياء غرابة في الكون هو أنه قابل للفهم.

٩ ـ في النهاية لم نفهم! فالتفسير قام على أسس مادية حيث الجينة والمحيط، ثم بات الإنسان أكبر من محيطه حيث ينتج أعمالاً تتجاوز عصره وتبقى تنتقل متحدية من عصر إلى آخر، من لوحات وكتب وقطع موسيقية. ثم صارت حتى الجينة ليست قدراً، من أين للإنسان كل هذا التحدي، ولماذا هذه النزعة أصلاً لأن نكون أكبر من خرائط الجينة والمحيط ولا يوجد شيء سواهما؟! . ثم أليس هذا هو الموقف نفسه الذي يجعل الإنسان كائناً استثنائياً ومغايراً، وهو المبدأ الذي يستنكره ملاحدة التطور؟!

الخلاصة: أننا رفضنا مرجعية الأخلاق خارج التطور، ثم قلنا إن هذه الأخلاق مرجعها ليس التطور، مع ذلك عليكم أن تلتزموا بالتطور فهو الحقيقة!!.

١٠ ـ وبالرغم من كل التطويلات وحماسة البدايات بأن التطور هو السبيل العلمي إلى معرفة الكون، ينتهي الطرح إلى أننا في فئة كبيرة من السلوكيات المتعلقة بالقواعد الأخلاقية والدين والموسيقى، لا نعرف عنها الكثير وليس لنا قدرة على تفسيرها تطورياً، مع ذلك هذا التطور ينتقد الدين والأخلاق ويطرح نفسه بديلاً منهما!!:

«ختاماً، هناك فئة كبيرة من السلوكيات التي تُرى أحياناً كتكيفات، لكننا لا نعرف عن تطورها أي شيء فعلياً. هذا يتضمن الكثير من أكثر السمات

البشرية العالمية إثارةً للاهتمام، بما في ذلك القواعد الأخلاقية والدين والموسيقى»[1].

كل هذا ولا يقبل هؤلاء أن موقفهم التطوري موقفاً «إيمانياً»، وأن اقتناعاتهم قبلية وسابقة على الأدلة وليس لاحقة لها. فمنذ داروين يبقى سلوك التطوريين نفسه: اعتماد الحدس وتعميم بعض الشواهد القليلة، وانتظار ما سيتم كشفه أو تفسيره مستقبلاً، لكنهم الآن وفي الحاضر يتمتعون بيقينهم الـ«العلمي» الذي لا يعترف سوى بواقع «المادة» ضابطاً في تحديد الحقيقة!!.

١١ ـ لقد تم نسيان المسألة الأساسية هنا وهي أن التطور والموقف المادي من البحث في علوم الأحياء والفيزياء، يجب أن يجعلنا ملاحدة:

«إن استمداد روحانيتك من العلم يعني أيضاً قبول حس حاضر بالتواضع أمام الكون ورجحانية أننا لن نعرف أبداً كل الإجابات. لقد كان عالم الفيزياء ريتشارد فيانمان واحداً من هؤلاء الأنصار الشجعان:

لا أحتاج إلى أن أعرف إجابة. لا أشعر بالخوف من عدم معرفة أشياء، ومن الضياع في كون غامض دون غاية، وهذا أقصى ما يمكنني التعبير عنه في الحقيقة، على الأرجح إنه لايخيفني».

لماذا يكون شعورك قاعدة يجب على الآخرين الاعتماد عليها؟!

هل هذه نرجسية هائلة تطرح نفسها كنبوة علمانية، وغرس ذهنية الوصايا الإلحادية كبديل من ذهنية الوصايا الدينية؟!

(١) لماذا التطور حقيقة؟ مرجع سابق، ص٢٤٠.

ثم ألم يكن الفضول للإجابة هو المحرّك والهازئ بكون الدين يمنعنا من لذة الفضول، فكيف صارت الإجابة الآن غير مهمة؟!

وهل الحجة هي في الدليل الملموس الذي يمكنه التنبؤ، كما قلتم، أم في الشعور؟! إذن، فلنقبل شعور المؤمنين والتجارب الإيمانية منذ البداية؟!

وإذا كان العلم يعلمنا التواضع، فهلا تواضعنا وتكلمنا بحسب مالدينا من علم وبحسب حدود معطيات الكشف العلمي الذي لا يتعدى عناصره المدروسة، فكيف بما وراء العلم وكل جزئيات الكون ومجراته وعناصره وكائناته، وصولاً إلى سؤال العلية الأولى التي لا يملك العلم فيها عصا يتوكأ عليها للنهوض من مقعده المادي ومجلس الطبيعة الملتصق به؟!

هاجس هتك الإنسان

لو تذكرنا المعاناة العائلية لدوكنز، وبعض المشكلات الصحية أو النفسية، لبعض زعماء خطاب الإلحاد، لسهل علينا تفهّم نزعة تهوين الإنسان وهتكه كنوع من الثأر لمشاعر استحقار ذاتي، واعتبارها إطاراً مرجعياً يتخذ قوالب الاصطلاحات العلمية والثقافية التي لا تطابق الإنسان مع أي شيء آخر بل أيضاً تجعله أدنى منها، مع أنه هو الذي يقرأها ويفككها ويستعملها، وهي أمور واقعية ملموسة، لكن التوظيف الغرضي يجعلها كأنها قضية مُبهمة لايمكن إدراكها إلا عبر تفلسف ثقيل!.

ففي حيال تهوين الإنسان والحط منه (باعتباره مادة مجنونة بأنانيتها ليس إلّا) هناك إعلاء لشأن الشمبانزي، علماً أنه لاتوجد أدلة علمية انتهت إلى صحة إمكانية مضاجعة هذا الحيوان من قبل الإنسان، لكن دوكنز طرح ذلك بابتسامة وغبطة، لم تنجح كل الأموال الباهظة التي صُرفت على محاولة تعليم الشمبانزي كلمة واحدة، لكن دوكنز يقول إنه يمكن للشمبانزي أن يتعلّم اللغة[1].

على طريقة دوكنز في استحضار قضية ما حينما تكون صالحة لانتقاد فكرة وجود الإله ووجود حقانية أو فائدة ما من الدين، ثم تناسيها حينما تكون تتمتها أو استذكارها يؤدي إلى نتيجة مناقضة، فإن دوكنز في مسألة الحقيقة والعقل النظري، يرفض الوجدان ويعتبره هراءً لا طائل فيه. لكن حينما يتعلق

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٢٠.

الأمر بضرورة إيجاد تركيبة ما لطرح الإلحاد عنصراً نافعاً أخلاقياً ومادياً، لا نجد دوكنز يعتمد على شيء سوى الوجدان فقط، حيث الاهتمام بالأصدقاء والمطالعة والسياحة في أفريقيا وغير ذلك، مما يعتمد على إنعاش الشعور الداخلي فقط. وهذا الشعور هو بالطبع باطل جزماً لأنه ليس هو حجة في شيء، فالحجة للأدلة الخارجية التي تقول بصحة مشاعر الوجدان هذه:

«إن «الشعور» الداخلي في ذاته ليس بالسبب الجيد للاعتقاد.. أنت بحاجة إلى دليل. نحن كلنا لدينا من آن إلى آخر مشاعر داخلية، وقد تثبت في النهاية أنها أحياناً تكون صواباً وأحياناً لا تكون صواباً. وعلى أي حال، فإن الأفراد المختلفين لهم مشاعر متضادة، وإذن، فكيف نقرر أن مشاعر أي منا هي الصواب؟.. يقول الناس أحياناً إننا يجب أن نؤمن بالمشاعر العميقة من داخلنا، وإلا فلن نثق أبداً ببعض أمور مثل القول بأن «زوجتي تحبني». ولكن هذه حجة سيئة. قد يكون هناك أدلة وافرة على أن شخصاً ما يحبك. وأنتِ عندما تكونين مع شخص يحبك خلال يوم بأكمله، سوف ترين وتسمعين الكثير من أدلة بسيطة سارة، وكلها تجتمع معاً.. أحياناً يكون لدى الأفراد شعور داخلي قوي بأن أحداً يحبهم من غير أي دليل يتأسس عليه ذلك، وعندئذ يصبح من المحتمل أن يكونوا على خطأ تماماً. هناك أفراد يكون لديهم شعور داخلي قوي بأن نجمة أفلام مشهورة تحبهم، في حين أن نجمة الأفلام في الواقع لم يحدث حتى أن التقتهم. والأفراد من هذا النوع لديهم مرض في عقلهم. المشاعر الداخلية يجب أن تدعمها الأدلة، وإلا فإنها لا تكون مما يمكن أن يوثق به»[1].

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٤٢٣.

ودوكنز، بما لديه من شغف بمطالعة كتب الأدب، يتلاعب بالألفاظ. فليست المسألة في دائرة الوجدان وضيقها وسعتها، بل كيف سنحكم على أي شيء بأي شيء حينما يكون الوجدان عديم الجدوى؟!

وكيف سنتحرك في القضايا الأخلاقية بشكل عام، وخصوصاً التي لا ننتظر منها انعكاسات من الشواهد في العالم الخارجي، كجمع تبرعات مالية لفقراء أفريقيا؟!.

وهو بنفسه يعتبر المشاعر عبارة عن واقع مُكثّف وليست أموراً غير واقعية[1]. بل هي الهرم الذي يطرحه دوكنز كملحد يحاول التمسك بالجمال والأخلاقيات بدون الحاجة إلى دين، فالتعمق بالكون وروعته هما نشوة السعادة القصوى وهنا يكون الشعور بالانتعاش وقشعريرة الإحساس بالواقع الباهر للموجودات، هو أعمق الواقعيات وأهمها حيث العلم كله بخدمة هذا الحس الشاعري «المناسب لكي يصبح الحسّ الحي»[2]، فكيف يتحول إلى كونه أسفلها ولا يكون حقاً إلا إذا شهدت له أطراف أخرى وصادقته عناصر أخرى خارجية؟!.

بعد أن أمضى صاحب الوهم مئة صفحة في محاولة نفي الإله مرة والدين أخرى، يصل هنا إلى محاولة طرح تفسير مادي للأخلاق تفريعاً لتفسير مادي للحياة والكون. بالطبع دوكنز لا يعلم، أو يُهمل ذلك، بأن هناك فريقاً كبيراً من المؤمنين يقولون باعتبارية الحُسن والقبح وعدم حقيقة الشرّ، وأن الأحكام الأخلاقية أحكام اعتبارية، وهذا طرح قديم منذ زمن الأشاعرة السنّة وحتى محمد حسين الطباطبائي الشيعي. وبالتالي فنفي حقيقة الأخلاق لا ينتج بالضرورة نفي الدين فضلاً عن نفي الإله.

---

(١) سحر الواقع، مرجع سابق، ص١٥.

(٢) المرجع نفسه، ص١٨.

دوكنز يعتقد بعدم حقيقة الأخلاق، الطيبة والوحشية، الخير والشر، العدل والظلم، العاطفة، الرقة، الكرم..الخ «كلها تناقش بأن معنى الصح والخطأ يمكن أن يأتي من الماضي الدارويني، وهذا القسم هو وجهة نظري الخاصة في هذا الموضوع»[1].

مغالٍ في التطورية مثل دوكنز لا يفاجئنا بحماسته باستبعاد أن يكون الانتخاب الطبيعي أداة تفسيرية لمواضيع الجسد المباشرة، كالجوع والخوف والجنس، بل هو بالنسبة إليه العصا السحرية التي تفتح مغاليق كل صناديق الوجود وتجعل جواهرها الخبيئة في متناول اليد. هكذا تكون فكرة الجين الأناني ليست شرحاً في مادة الأحياء وخلايا المتعضيات، بل نظرية شمولية، هي منطق عام يوزن كل شيء، هي نظرية كل شيء، فما من شيء إلا ويتم تفسيره بالانتخاب الطبيعي: بداية الكون، نشوء الحضارات، المخلوقات الفضائية، الثقافة، الدين، الاجتماع، الفن والجمال ..الخ. الانتخاب الطبيعي أشبه بكلمة «افتح يا سمسم» إن تُنطق حتى لا تبقى أية مغارة لسؤال إلا ويتم فتحها.

«المنطق الدارويني يفرض علينا استنتاج أن وحدات الحياة في تدرجها الطبقي والتي تبقى وتنتقل من خلال الانتخاب الطبيعي تميل لأن تكون أنانية. والوحدات التي تستمر، ستستمر على حساب الوحدات المنافسة لها في الدرجة نفسها في الطبقية. وهذا بالضبط ما تعنيه الأنانية بهذا الصدد. السؤال هو على أي درجة يكون فعل هذه المورثات؟ كل فكرة الجين الأناني، ولنركز على الكلمة الأخيرة، هو أن وحدات الانتخاب الطبيعي(الوحدة التي تهتم

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢١٥

بذاتها) ليست الكائن الحي الأناني وليست المجموعة الأنانية أو الصنف الأناني بل هي المورثة (الجين) الأناني. إن الجين بهذا الصدد هو ما يبقى للأجيال أو لا يبقى. وعلى عكس الجينات (و الميمات أيضاً) فإن الكائن الحي أو المجموعة أو الصنف ليسوا بالوحدات التي يمكن أن تخدمنا بهذا المعنى لأنهم ببساطة لا يصنعون نُسخاً متطابقة لأنفسهم ولا يتنافسون في موضوع النسخ الذاتي. وهذا بالضبط ما تفعله المورثات وهذا هو الأصل المنطقي الذي يبرر اختيار المورثة فقط لتكون الوحدة (الأنانية) بالمعنى الدارويني لكلمة الأنانية.

إن الطريقة البديهية للمورثات لضمان «أنانيتها» البقائية في علاقتها بالمورثات الأخرى هي أن تُبرمج الكائنات لتكون أنانية. وهناك بالطبع العديد من الظروف التي يقتضي فيها بقاء الكائنات من أجل بقاء المورثات التي تملكها. ولكن ظروفاً أخرى تصلح لخطط بقائية أخرى. وهناك بعض الظروف، ليست نادرة بأي شكل، حيث تضمن المورثة بقاءها بجعل الكائن يتصرف بطريقة إيثارية. وهذه الظروف أصبحت مفهومة بشكل جيد في أيامنا وتُصنف إلى فئتين رئيسيتين: المورثة التي تبرمج الكائن لإيثار الأقارب الحاملين للنوع نفسه من المورّثات، أي إن هذه المورثة ستخدم المورثات المشابهة لها فقط. مورّثة كهذه ستتزايد في بنك المورّثات بحيث إن التصرف الإيثاري سيصبح هو المعيار العادي لدى هذا الكائن. المثال الأوضح على ذلك هو رعاية الأطفال ولكنه ليس بالمثال الوحيد. فالنحل والنمل وسوس الخشب ونقار الدف، كُلها طورت مجتمعات حيث يقوم الكبار فيها برعاية صغارهم (والذين يتقاسمون المورثات الإيثارية معهم غالباً). وبشكل عام وكما استعرض زميلي المتوفى هاميلتون، فالحيوانات تميل إلى رعاية من

يقاسمها مورثاتها والدفاع عنه وتحذيره من الخطر، وإيثاره لأنها إحصائياً قادرة على حمل النسخ نفسها من المورثة نفسها.

النوع الرئيسي الآخر من الإيثار والذي له تفسير دارويني مُتكامل، هو الإيثار المتبادل (حك ظهري لأحك ظهرك). هذه النظرية قدمها لأول مرة في ميدان التطور الطبيعي، العالم روبرت تريفيرس . وغالباً ما يعبر عنها بمصطلحات رياضية تخص ألعاب الرهان، ولا تعتمد على تقاسم المورثات.وهي بالتأكيد تعمل بشكل ممتاز، وحتى بشكل أفضل بين كائنات متباينة ومُختلفة تسمى بالمتعايشات. المبدأ هو نفسه في التبادل والمقايضة الذي يعتمده الإنسان. الصياد يحتاج إلى رمح والحداد يحتاج إلى اللحم. واللاتساوي بينهما يؤدي إلى عقد من نوعٍ ما. النحل يحتاج إلى الرحيق والزهور بحاجة إلى اللقاح.الزهور لا تستطيع الطيران وبالتالي فإنها تدفع للنحل الرحيق كعمولة لاستعمال أجنحتها. الطير المُسمى بمرشد العسل يستطيع إيجاد عش النحل ولكنه لا يستطيع اقتحامه. والغرير (البادجر) يستطيع اقتحامه، ولكنه بدون أجنحة للبحث عنها. مُرشد النحل يقود الغرير (والإنسان في بعض الأحيان) إلى العسل بطريقة طيران مغرية، ولا تُستعمل تلك الطريقة في الطيران لأي غرض آخر. والطرفان يستفيدان من الصفقة. ربما تقع قطعة من الذهب تحت حجر لا يستطيع المُكتشف تحريكه بمفرده، ويطلب المساعدة من الآخرين رغم أنهم سيقاسمونه إياه، لأنه بدون مساعدتهم لن يحصل على أي شيء. ومملكة الحياة غنية بأمثلة كهذه عن العلاقات المشتركة: الثيران الأميركية والعصفور ناقر الثيران، الزهور الحمر والطائر الونان، البقر والبكتيريا المعوية. الإيثار المشترك يعمل لأن اللاتناظر في الحاجات والمقدرات يساعدها على ذلك، ولذلك تعمل بنجاح أكبر بين الكائنات المختلفة، حيث اللاتناظر أكبر وأوضح.

عند الإنسان تعتبر النقود والمدخرات، أدوات قابلة لإجراء دفوعات مؤجلة. والأطراف في صفقة ما، تتبادل البضائع بدون أن تُسلم أو تستلم بشكل مباشر. بل تحتفظ بما يشبه الدين للمستقبل أو حتى بيع الديون إلى الآخرين. وحسب علمي ليس هناك كائنات حيوانية غير إنسانية ممن لديهم ما يوازي النقود. ولكن الذاكرة الفردية والشخصية تلعب دوراً موازياً بشكل غير رسمي. الخفافيش المصاصة للدماء تتعلم من الذي تستطيع الاعتماد عليه من أبناء عشيرتها لدفع ديونها (بالقيء الدموي) ومن أولئك الذين يغشون.

والانتخاب الطبيعي يُفضّل أولئك المهيئين بما يتعلق بعدم تناظر الحاجات والفرص للعطاء عند المقدرة والتوقف عنه عند عدم الاستطاعة. وتفضّل أيضاً الميول لتذكرة الواجبات مثل تذمر الدببة ومراقبة شروط التبادل ومعاقبة الغشّاشين الذين يأخذون ولا يعطون عندما يأتي دورهم. وبما أنه سيكون هناك غش بشكل دائم فإن الحل المتوازن سيكون بفرض عقاب على الغشّاشين في قوانين «لعبة» الإيثار المتبادل. والنظريات الرياضية للألعاب تسمح بصنفين من الحلول التي تسمح باستقرار عملية كهذه: «كن لئيماً كل الوقت». عندما يكون الجميع كذلك فإن الفرد اللطيف لن تسنح له الفرصة ليؤدي عملاً أفضل. ولكن هناك استراتيجية أخرى تسمح بالاستقرار أيضاً.(الاستقرار هنا يعني عندما يصل عدد الأفراد إلى المستوى الحرج، فلن يكون هناك أي طريقة بديلة تؤدي إلى نتيجة أفضل). وملخص الاستراتيجية هذه هو: «ابدأ لطيفاً ثم أعط الآخرين الفرصة ليعرفوك، قابل المعروف بالمعروف وانتقم من التصرفات السيئة». وبلغة ألعاب الرهان الرياضية، فإن هذه الاستراتيجية (أو ما يشبهها) تصنف تحت أسماء مختلفة ومنها: «هذه بتلك» و«الانتقام والتبادل». وهي تسمح بالاستقرار التطوري تحت ظروف

ما، بمعنى لو كانت هناك عشيرة تطغى فيها المُشاركة المتبادلة فلا الفرد اللئيم ولا الفرد اللطيف سيكونان قادرين على التميز بأي شكل.

هناك تنوعات أخرى من «هذه بتلك» التي يمكنها أن تعمل بشكل أفضل في ظروف مماثلة.

كنتُ قد نوهتُ بالقرابة والتبادل كعمودين رئيسيين للإيثار في العالم الداروينى، ولكن هناك بناء ثانوي يقع على قمة تلك الأعمدة. وبخاصة في المجتمع الإنساني، بوجود اللغة والثرثرة تصبح السمعة مهمة. وأحد الأفراد تكون له سمعة كشخص لطيف أو كريم. وآخر له سمعة كغشاش وكسول ولا يلتزم بكلامه. وآخر تصبح له سمعة كريمة وطيبة، لكن في الوقت نفسه قاسٍ من خلال معاقبته للغش بشكل عنيف. النظرية غير المنقّحة عن الإيثار المُشترك تتوقع أن تبني الحيوانات سلوكها على تبادل غير واع لذلك السلوك نفسه لدى أقرانها. وعند الإنسان أردفنا اللغة وقوتها لنشر السمعة على شكل لغط كلامي. لا تحتاج إلى المعاناة الشخصية مثل فشل «س» من الناس بشراء المشروب لأصدقائه في البار. بل تسمع «على باب الدار» بأن «س» بخيل جداً. أو لأضافة بعض السخرية على الموضوع، بأن «ص» مثلاً نمام رهيب. السمعة مهمة وعلماء الطبيعة يستطيعون الاعتراف بأن البقاء الداروينى يقتضي ليس أن يكون الفرد مُشاركاً فقط، ولكن أن تكون له سمعة جيدة كمشارك أيضاً.. عالم الاقتصاد النرويج ـ أميركي «تورستين فيبلين»، وعالم الحيوان «آمتوز زاهافي»، أضافا فكرة جذّابة أخرى: الإيثار ربما يكون وسيلة لاستعراض السلطة أو التفوق. علماء السلوك قد رصدوا ما يُسمى بـ(فعل الكرماء) الذي سُمّي تيمناً بتقليد يتبارز فيه الزعماء المتنافسون في قبائل الشمال الغربي، بإقامة مأدبة مدمرة بكرمها. وفي حالات التطرف تتمادى النوبات الانتقامية حتى يصبح أحد الطرفين شديد الفقر تاركاً الآخر ليس بأفضل حالٍ منه.

مبدأ فيبلين عن «الاستهلاك المظهري» يضرب على الوتر الحساس عند الذي يشاهد المشهد المعاصر. ومُساهمة زاهافي التي أهملها العديد من الطبيعيين حتى وضع الرياضي اللامع «آلان غرفين» نموذجاً رياضياً لها، ساهمت في وضع نسخة تطورية لفعل الكرماء. زاهافي درس العصافير الثرثارة البنية التي تعيش وتتكاثر في مجموعات. ومثل العديد من الطيور الصغيرة فإن الثرثار يطلق صيحات تحذير ليفسح في المجال لأكل الآخرين. و تحقيق داروييني عن ذلك الإيثار سيبدو لأول وهلة وكأنه للتبادل والقرابة بين العصافير. وعندما يطعم الثرثار طيراً آخر فهل يتوقع بأن يحصل على الطعام منه في وقت لاحق؟ أم أن ذلك فقط يحدث بسبب القرابة الوراثية؟ وتفسير زاهافي غير متوقع بالمرة: الثرثار المتسلِّط يؤكد هيمنته بإطعام أتباعه. وباستعمال تعابير تشبيهية لإرضاء زاهافي فإن الطائر المهيمن وكأنه يقول «انظروا كم أنا متفوق بالنسبة إليكم، أنا عندي المقدرة على إعطائكم طعاماً». أو «انظروا كيف أتفوق عليكم بأن أجعل نفسي عرضة للنسور بالوقوف على فرع عالٍ لأعطي إشارة الإنذار للباقين الذين يأكلون على الأرض». وملاحظات زاهافي وزملائه ترينا بأن طيور الثرثار تتبارى بشكل دائم على دور الحارس. وعندما يحاول أحد الطيور الأتباع إعطاء الطعام لطائر مهيمن فإن محاولته تقابل برفض عنيف. ومُلخّص فكرة زاهافي هو أن استعراض التفوق يتماشى مع كلفته. والمتفوق فقط يستطيع استعراض تفوقه بتلك الهدايا الثمينة. وبذلك السِّعر يستطيعون جذب عدد أكبر من الإناث وذلك باستعراض الكرم، والاستعداد للمُخاطرة من أجل الآخرين.

لدينا أربعة أسباب جيدة من الناحية الداروينية ليتمتع الفرد بالإيثار والكرم و«الأخلاق الحميدة» تجاه الآخرين: الأول هو وجود القرابة الوراثية كحالة خاصة. الثاني: وجود رد الجميل المتبادل والمعروف بالمعروف،

وعمل المعروف «بتوقع» الدفع لاحقاً. وذلك يقودنا إلى النقطة الثالثة: المنافع الداروينية الناتجة من وجود السمعة الحسنة للكرم واللطف.

والرابع: لو كان زاهافي محقاً فهناك منفعة إضافية للكرم المتبادل كطريقة لشراء دعاية أصلية وغير قابلة للتزييف.

فيما قبل التاريخ عاش الإنسان معظم الوقت في ظروف تقتضي تفضيل مناحي الإيثار الأربعة المذكورة من أجل التطور. عشنا في قرى أو قبلها في مجموعات متجولة كما يفعل قرد البابون بشكل جزئي، معزولين عن الجيران أو القرى القريبة. معظم الذين يشاركوننا في الحياة من الأقارب وقرابتهم لك أكثر بكثير من القرابة للعشيرة الأخرى لك، وهنالك الكثير من الفرص لتطور الإيثار. وبشكل عام كنا لنقابل الفرد الآخر من العشيرة مرة تلو أخرى بغض النظر عن كونه قريباً أم لا. هذه ظروف مثالية لتطور الإيثار المتبادل. وهي أيضاً الشروط المثالية لبناء السمعة والإعلان عنها للشخص بإحدى أو جميع الطرائق الأربع التي ذكرناها. والاتجاه الوراثي للإيثار يجب أن يفضل من قبل الانتخاب الطبيعي في الإنسان الأول. ومن السهل أن نرى لماذا كان أسلافنا جيدين بالنسبة إلى مجموعاتهم وسيئين وخائفين من المجموعات الأخرى. ولكن ما سبب طيبتنا بعضنا تجاه بعض؟ بما أننا الآن نعيش في مدن كبيرة ولسنا مُحاطين بالأقارب بشكل عام وفي كل يوم نرى أشخاصاً لن نراهم بعد ذلك طوال حياتنا، نحن طيبون حتى بالنسبة إلى الآخرين الذين ينتمون إلى مجموعة خارجة عن نوعنا، كيف يكون هذا ممكناً؟

من المهم أن لا نخطئ بتقدير دور الانتخاب الطبيعي. فالانتخاب لا يُفضّل تطور من هو مدرك بوعي لما هو جيد بالنسبة إلى مورثاته. ذلك الإدراك كان عليه أن ينتظر حتى القرن العشرين ليصل إلى مستوى من الوعي بل الفهم الكامل في حال قلة من العلماء المُختصين. القاعدة فيما يفضّله الانتخاب

الطبيعي عموماً هي نشر المورثّات التي صنعته. والقواعد بشكل عام وبطبيعتها تخطئ أهدافها أحياناً. وفي الدماغ هناك القاعدة التي تقول: «ابحث عن أحياء صغيرة تزقزق في العش وادفع بعض الطعام في الفراغ الأحمر في رؤوسها» تؤدي إلى الحفاظ على المورّثات التي بنت تلك القاعدة. لأن الأشياء الصغيرة التي تزقزق ستكون بشكل طبيعي من نسله. ولكن القاعدة تخطئ عندما يصل فرخ طائر آخر إلى العش بشكل ما، وذلك شيء يبرع طائر الوقواق فيه. هل من الممكن أن يكون اندفاعنا الأخلاقي الجيد هو الذي يخطئ الهدف، كما أخطأتْ غريزة الطائر الأحمر وتسببت له بإجهاد نفسه من أجل طائر الوقواق؟ بل هناك تشبيه أقرب وهو اندفاع الإنسان لتبني طفل. وهنا عليّ أن أسرع بتوضيح أن «إخطاء الهدف» مقصود به المعنى الداروينى البحت، ولا يحمل أي معنى انتقاصي بأي شكل من الأشكال.

فكرة «الخطأ» أو «الناتج العرضي» الذي أريد الدفاع عنه يعمل بالشكل التالي: الانتخاب الطبيعي في زمن الأسلاف عندما كنا نعيش في مجموعات جوالة كالبابون، برمج في عقولنا الميول الإيثارية إلى جانب الجنس والجوع والخوف من الأجنبي.. الخ. وعندما يقرأ زوجان من الأذكياء كتاب داروين، فإنهما يعرفان بأن السبب النهائي لاندفاعهما الجنسي هو التكاثر. ويعلمان بأن المرأة لن تحمل لأنها أخذت حبوب منع الحمل.ولكن ذلك لم يؤد بأي شكل إلى تخفيض الدافع الجنسي بتلك المعرفة. إن الرغبة الجنسية هي رغبة جنسية في النفس وهي مستقلة تماماً عن هدفها الداروينى الذي ساقها. إنها حاجة قوية موجودة بشكل مستقل عن هدفها النهائي. وأنا أقترح هنا أن الحاجة والدافع هو نفسه بالنسبة إلى اللطف والطيبة والإيثار والكرم والتعاطف والرأفة. في أيام الأسلاف كانت لدينا الفرصة لنكون إيثاريين فقط بالنسبة إلى الأقرباء، ومن يُعتقد أنه سيبادلنا المعروف. وفي أيامنا هذه لم تعد تلك القيود

موجودة لكن القاعدة بقيت. ولِمَ لا؟ إنها كالرغبة الجنسية. ولا نستطيع شيئاً إزاء الشعور بالرأفة عند رؤية شخص يبكي لمصيبة ما (وليس بالقريب أو ممن نتوقع منه رد الجميل) تماماً كما لا نستطيع شيئاً إزاء رغبتنا في شخص من الجنس الآخر (رغم أنه من الممكن أن يكون عقيماً أو غير مهيأ للإنجاب) الإثنان أخطآ بالهدف أخطاء داروينية، أخطاء مباركة وثمينة.

لا تُفكِّر، ولو للحظة، بأن درونة الأشياء تُقلّل من قيمة المشاعر النبيلة والكرم. والأمر نفسه بالنسبة إلى الرغبة الجنسية، التي أدى استخدامها في اللغة والثقافة، إلى ظهور الكثير من الشِّعر الباهر والدراما العظيمة.. الرغبة الجنسية هي القوة الدافعة المُسببة للكثير من الطموح الإنساني والكفاح في الحياة وغالبها يأتي خطأً في الهدف. وليس هناك أي سبب لئلا ينطبق الشيء نفسه على الرغبة في الكرم أو التعاطف إذا كان ذلك يأتي من الحياة القروية للأسلاف. الطريقة المُثلى للانتخاب الطبيعي لبناء نوع الرغبة في وقت الأسلاف، هو بتركيب قواعد ما في العقل. وتلك القواعد لا تزال تهيمن علينا حتى اليوم، حتى عندما تجعلهم الظروف غير مناسبين للغرض الأساسي الذي كان مطلوباً منهم. قواعد كتلك تتحكم فينا حتى الآن ليس بطريقة حتمية ولكن بطريقة مُصفاة بتأثير الآداب والعادات، القوانين والتقاليد، وبالطبع أيضاً الدين. وكما تمر الرغبة الجنسية عبر مصفاة الحضارة لتظهر كقصة حب بين روميو وجولييت، فإن قواعد أخرى بدائية في الدماغ عن الثأر، مثلاً، على غرار المواجهات المستمرة في «كابوليت ومونتغيو». بينما قواعد بدائية أخرى عن الإيثار والتعاطف تؤدي نتيجة إخطاء الهدف، لأن نشعر بالفرح في مقاعدنا على المنصة عندما يمثل المشهد الأخير في مسرحية شكسبير »[1].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢١٥.

هل فعلاً درونة الأشياء لا تلغي جمالية الأشياء والميل الذوقي إليها؟! أم أن هذا لون من ألوان الدفاع باللغة لسد ثغرة النظرة العلموية؟!

وبالإمكان أن نناقش هذا الإيفاد من زوايا عدة:

أولاً: هنا توجد لدينا مُصادرة مبدئية: هل الأمور الاجتماعية والإدارية وما شابه، ضمن موضوعات العلم الطبيعي وعلم الأحياء بالذات بحيث يمكن نقل تفسيراتها من موضوع العلم الرئيسي إلى هذه الموضوعات الفرعية؟!

لا يُقال هنا، كما هي عادة جملة التطوريين الملاحدة، بأن هناك تفسيراً تم طرحه، فلماذا لا تكون مشمولة؟!.

لأن وجود تفسير ما، لا يعني أن الموضوع الذي سُلط عليه التفسير هو حقاً جزء من موضوع العلم التابعة له نظرية التفسير تلك. وإلا فالفلسفات القديمة لديها تفسيراتها أيضاً لكل شيء لكن ليس كل تلك المواضيع التي تم تفسيرها بالمناهج القديمة جزءاً من موضوع الفلسفة التقليدية.

وعليه، فحتى لو قبلنا عملية تدخل نظرية التطور في تفسير الأخلاق، فهذا لا يعني أنه يمكن أن تكون الأخلاق أحد مواضيع التطورية.

حينما تمتد الداروينية من علم الأحياء لتتحدث عن كيفية نشوء المخلوقات الفضائية المُفترضة، وحتى الفن والجمال والدين والأخلاق وعلاقات المجتمع، فإنها لن تكون مجرد نظرية علمية في تخصص ما، حالها حال النظريات العلمية بحسب موازين العلم الحديث، بل ستغدو والحالة هذه فلسفة هيغلية مقلوبة تجعل من الانتخاب الطبيعي عقل الوجود وروح العالَم. إننا هنا أمام ذهنية الفلسفة القديمة بشكل مثالي!.

ثانياً: لقد تم هجاء الميتافيزيقا ومن ثم الإيمان، على أساس الإيغال بما لا يُلمس، وتقديم اقتناعات ليس بإزائها فحص لعينات خارجية، وذلك بسبب

ذهنية الاستنباط القياسي. لكننا في التفسير الدارويني للأخلاق، الذي ينقل لنا دوكنز إحدى صوره، هو الآخر لا يعتمد على أي عملية استقرائية، ولم يقم على إجراء تجارب على عينات مُلموسة، ومصوغ بذهنية تنتقل من الافتراض إلى الاستنباط[١].

ثالثاً: التفسير الدارويني للأخلاق قائم على القصدية وحفاظ النّظم وليس على التصادفية والعشوائية[٢] ،فليس هناك فوضى بل نظام لا يحدث مرة بل يتكرر دائماً حيث (إن الجين بهذا الصدد هو من يبقى للأجيال أو لا يبقى). ولقد قلنا: إن الانتخاب الطبيعي ليس له أي مشكلة مع مقولة الإله أو الإيمان، وإن كانت له مشكلة مع بعض نصوص الكتب المقدسة، إنما المشكلة في تقويم الانتخاب الطبيعي على التصادفية والعشوائية.

رابعاً: كامل التفسير الدارويني قائم على تبادل المصالح وحفظها[٣]، لكن جملة من الأخلاق فيها خسارة وليس مصلحة، وثانياً هذا التفسير لو صح لكان علينا ترك التمسك بجاذبية الأخلاق والإذعان لها حينما تكشفت لنا حقيقتها. في حين أن هذا لا يحدث أبداً كسلوك عام. دوكنز يدرك حجم المشكلة ليقول: «لا تفكر ولو للحظة بأن درونة الأشياء تُقلل من قيمة المشاعر النبيلة والكرم».

لماذا لا تقلل؟

---

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢١٨.

(٢) وإن كان ثمة فرق في مقايسة العلاقة بين الصياد والحدّاد، وبين النحل والأزهار، فبدون وعي الكمالات ووجود الغاية يبطل كل تصوير تطوري أعمى، بل هذا التوازن ودورة التكامل ينتجان نقيض نفي الإله دائماً لأنه ما أن يتم نفيه حتى يبطل الكون كصورة واحدة متعالقة.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٢٠.

فهذا ما لا يقوله دوكنز ويسكت عنه. وذلك لأن أي قول معناه التنازل عن التفسير الداروينى. الكرم كان مرتبطاً بمصالح غير موجودة الآن، لماذا نبقيه إذن؟

الرأفة مجرد وهم توارثناه لحماية الأطفال والأقرباء وهو مجرد خطأ وراثي داروينى، لماذا تتم الشفقة على من لا نعرفهم إذن؟!.

لا محيص عن السكوت والاكتفاء بلغة الأمر (لا تفكر) هكذا يقودنا من يحسب نفسه كاهن التفكير العلمي الجديد!.

خامساً: يتم في كثير من الموارد الاكتفاء بالادعاء فقط من قبيل أننا منذ فرويد فسرنا الطموح الإنساني على أنه دافع جنسي، إذن، فلنفسر المفاهيم الأخلاقية كافة تفسيراً جنسياً: «الرغبة الجنسية هي القوة الدافعة المسببة للكثير من الطموح الإنساني والكفاح في الحياة وغالبها يأتي خطأ في الهدف. وليس هناك أي سبب لئلا ينطبق الشيء نفسه على الرغبة في الكرم أو التعاطف»[1].

سادساً: إن هذا التفسير مهما كان نوعه، لا يتعلق سوى بالمصاديق الخارجية، التي تتعلق بدورها بالعلوم التجريبية، ومن هنا يُمكن بنحو ما الكلام عن سلوكيات العدل والصدق والحب والعاطفة بين الناس وفي تاريخ الأقوام، لكن هذا مختلف عن بحث العدل والحرية والكرامة كمفاهيم كلية.

والغريب، أن دوكنز ينفي مطلقية أي مفهوم ونفيه لكلية المفاهيم، هو نفسه من طرح لنا مفاهيم كلية:

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٢٢.

«ما هو صح هو الإلحاد، الدين أصل الشرور، الانتخاب الطبيعي هو الحقيقة»، معتبراً أن إيمانويل كانط كان مُلحداً[1]، في حين أن كانط كان يبني العقل النظري على العقل العملي، جاعلاً من وجود الإله ضمان صحة الإدراك العقلي وتفسير حقيقة الخُلقيات فينا.

خطأ آخر يقع فيه دوكنز هنا بتصويره المواقف الخُلقية كافة على صعيد واحد بالنسبة إلى المؤمنين، وهذا غير صحيح. فالموقف العملي قد يضطرنا لأسباب قهرية، إلى مخالفة بعض الأحكام وهو عمل الفقه. فقد نوافق على منع الإجهاض بعد تعديه فترة مُعينة، لكننا قد نوجبه أو تقع فيه رخصة فيما لو جرت حالات خاصة، وبالتالي تصوير المؤمنين بشكل مطلق أنهم مطلقيون لاتهمهم النتائج[2]، هو قول في ذاته حكم إطلاقي وكلي، وفوق ذلك كاذب غير لائق استعماله في كتاب يدعي المحاجة العلمية.

سابعاً: على فرض صحة تصوير دوكنز للأخلاق فإنه يجب أن يصح عند فهمنا لحقيقة العدل مثلاً، عبارات من قبيل: أن العدل هو ما فيه مصالح أقاربنا فقط، ونستسيغ وجدانياً وعقلياً الظلم والحيف اللذين يقعان على غير أقاربنا أو الذين يرتبطون معنا بهوية أو قومية أو مذهبية. في حين أن مثل هذه العبارات تبقى خاطئة بغض النظر عن أي تفسير لمنشأ الأخلاق.

ثامناً: على فرض قبولنا كل هذا التنظير عن الأخلاق، فإنه يُفترض أننا قد عرفنا الأسباب والقواعد المولّدة للسلوك، خصوصاً وأنها أسباب بايولوجية في خلايانا الحيّة. لكن المفاجأة أن هذه الأسباب، التي احتكمنا إليها بكونها

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٣٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٣.

هي أسباب السلوك، ليست شرطاً لظهور المُسببات، فهذه الأسباب «قواعد كتلك تتحكم فينا حتى الآن، ليس بطريقة حتمية ولكن بطريقة مُصفاة بتأثير الآداب والعادات والقوانين والتقاليد وبالطبع أيضاً الدين»[1]. هكذا ننتهي إلى دور صريح: فنحن قد فسرنا الخُلقيات التي هي آداب وعادات وقوانين وتقاليد ومعتقدات، بأخطاء في خلايانا تراكمت نتيجة ضغوط المصالح، وهذه هي التي أنتجت لنا الآداب والعادات التي هي نفسها لم تكن موجودة لولا ضغوط المصالح وخطأ الخلايا!.

تاسعاً: يفاجئنا هذا البيان باعتماد مفاهيم عقلية خالصة مثل (البديهية)، وهذا طبيعي، فإحالة تفسير الحقيقة المادية إلى حقيقة مادية أخرى وهلمّ جراً، ينتهي بعدم وجود أي تفسير إطلاقاً، فلو لم تتم إحالة الوعي إلى ما وراء المادة، سنبقى في حلقة مُفرغة، وكذلك بالنسبة إلى التحليل العلمي نفسه فهو إن لم يرتبط بنهاية يبدأ منها التفسير لن نصل إلى اقتناع أبداً لاستحالة عملية أي فهم بالمرّة.

عاشراً: دوكنز أرجع الأمر إلى جينات تم حفظها وتطورها ضمن العضيات التي لها تشكيل مُجتمعي، وهذا يعني أنه يجب ظهور المجتمع الأخلاقي، والوعي بهذه الأخلاق، بشكل متشابه بين الإنسان والنمل والنحل وسوس الخشب، ولا نعرف أحداً يقول بذلك.

الحادي عشر: بحسب عقيدة دوكنز في الأخلاق، ستكون دعوته

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٢٢.

للإلحاد غير قائمة على الحقيقة، بل على المصلحة، وهذه المصلحة ذات مردود شخصي. وأن دوكنز وأمثاله ومتابعيه، لا يبتغون من رفع رايات الإلحاد وتكوين مجاميع ومؤسسات لنشره علماً، بل يبتغون سلطة وبناء قوة شخصية لهم في المجتمع، وهذا ما يؤكد أن الداروينية تنتهي إلى أخلاقية الاحتراب بين الناس وما تحمله من خطر في تمزيق الإنسان وتفكيك المجتمع، بينما المُفترض أن هؤلاء الملاحدة التطوريين من أشد الذابين عن الداروينية هذه التُهمة، الآن هم أنفسهم يُقدّمون شواهد جديدة لدعم هذا التقويم القديم للداروينية ونظرية التطور.

الثاني عشر: حكاية السمعة الإعلامية التي تخيلها دوكنز وصرح بها حد تصوير شخصيات سردية ساخرة، لا يمكن تصورها بدون وجود «اللغة» فهل من دليل علمي ،أحفوري أو غيره، يكون شاهداً على أن الأخلاق لاحقة لظهور اللغة؟!

وكيف سيصبح هذا الفرض مع اعتراف دوكنز بأن الأخلاق من القِدم حتى أنها قبل الديّن؟![1].

الأصعب أن قضية أن الفرد ليس مُشاركاً فقط بل هو حريص على السمعة الجيدة، يتطلب أن أن يكون الإنسان في مرحلة متقدمة من الرقي والوعي، في حين أن التفسير يعتمد على العودة إلى أزمنة سحيقة تُشكل بداية الإنسان، وبالتالي فليس لدينا من شاهد سوى الإسقاط التخيلي ليس إلا.

الفرض الأخير للأخلاق، أن يكون سببها تكوين القوة، حتى نستطيع العثور على تصوير أفضل له ، باتخاذ سلوك يومي في حياتنا الملموسة وليس

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٠٩.

افتراضاً مهموماً بربط سلوكنا بحيوان آخر، وذلك بتبدل أخلاق شاب يُقدِّم على خطبة فتاة. هنا نجد الشاب وذويه يبذلون الهدايا، مع الحرص على المظهر اللائق والكلام والسلوك اللطيف، والحرص على معونة عائلة الفتاة المخطوبة، بتقديم التضحيات والحرص على تلبّس الأخلاق الفاضلة من أجل إغراء الأنثى وعائلتها، حيث أن كمية التضحية بالهدايا والوقت والجُهد، محددة بالهدية الثمينة المُنتَظَرة.

لكن هذا المثال نفسه ليس دليلاً على تكوين الأخلاق بل هو مثال لعمل غير أخلاقي، فالجميع يقر بأن هذا احتيال ومحاولة غش، لا يحدثان إلا بين عائلات ذهنيتها قائمة على المادية ونفسيتها تجارية (وهذا ما يحدث كثيراً في عالمنا العربي المتشدق بالدين والأخلاق، وهو من أشد المجتمعات بُعداً عنها) وكل عائلة، وكلا الشابين، الزوج والزوجة، سيمتنعان بخجل بالغ أن يتم عرض هذه الحقيقة على أبنائهما وأصدقائهما، هذا الخجل والشعور به هو مبدأ أخلاقي، وهنا الخجل مورده المصلحة ومردوده المنفعة، بالتحديد: ما هو مصلحة وطريقة ضمان منفعة، كلما ازداد نقص منسوب الأخلاق، وليس العكس كما يفترض العقل الدارويني.

الثالث عشر: الفعل الأخلاقي لا يقوم على الأثر الخارجي بدرجة أساسية، بل بـ«نية» وإرادة الفعل النفسي الحُرة. فحينما يضيع درهم ويسقط مني في الطريق ويلتقطه فقير بحاجة إليه، لا يكون هذا الفعل «أخلاقياً». بينما حينما أخرج الدرهم نفسه وأضعه طواعية بيد الفقير سيكون هذا فعلاً اختيارياً. أكثر من ذلك: لو عُلِمَ أن لي غرضاً منفعياً في إعطائي للدرهم فلن يكون هذا فعلاً أخلاقياً بل سلوك معاوضة. إن حضور العائد النفعي والمصلحي يجرح الفعل الأخلاقي، كما أن عدم الوعي به يلغيه من البداية. وبهذا فحينما نجد

أسماكاً صغيرة تقوم بالتنظيف فتأتي الأسماك الأكبر منها وتعاودها كلما كان نشاطها أكبر، لا يكون هذا دليلاً على سلوك «أخلاقي» فهنا علينا أن نُحدد أن للأسماك وعياً وحرية بهذا السلوك. ثم إذا كان له مردود مباشر فلن يكون فعلاً أخلاقياً. ولا أدري لماذا عالم أحياء كدوكنز أطربه بحث زاهافي، والجميع يعلم سلوك جملة الحيوانات كبعض فصائل الغوريلا مثلاً، حيث يكون منصب الزعامة فيها قائماً على التضحية لحماية الجماعة والبحث عن سُبل إطعامها. لكن هل هذه الأمثلة التي ترتبك بين إرجاع الأخلاق إلى مسألة المعاوضة حيث السُمعة الحسنة (وهذا يعني أن الأصل هو الضعف)، وبين إرجاعها إلى تثبيت السلطة والهيمنة (حيث القوة وليس الضعف)، وهو أمر طرحه قديماً نيتشه، هي أمثلة حاوية للشرط الخُلقي؟!. المشكلة الحقيقية في الأخلاق، كما في الجمال، هي في تجاوز الأنا والتضحية والخسارة التي تصل إلى التنازل عن حصتنا في الحياة برمتها، مع علمنا وسبق إصرارنا على هذه الخسارة، مهما كان يقيننا بأنّا لن نحصل على أي مردود لا في تحسين سمعتنا بعد الموت ولا بوصول أي منفعة إلى أقربائنا وذوينا، كالتضحية في سبيل إنقاذ مجموعة في مرتفعات أو غابات أو صحارى مهجورة، وأن تكون تلك المجموعة تكرهنا ونعلم أنها لن تُحدّث الناس عما فعلناه من أجلها، هنا القيمة الأخلاقية ترتفع، أي إن الفعل يشتد في أخلاقيته كلما عظمت التضحية والخسارة، وليس المنفعة والقوة، ومن هنا الأُس الأخلاقي والجمالي، ما كان له أن يلتقي والأُس الدارويني رغم الفروضات المتكاثرة من قبل المغالين في النظرية، الذين يجهدون في جعلها فلسفة شمولية ومفتاحاً سحرياً لمسائل الحياة كافة بالوجود.

الرابع عشر: من تفسير الأخلاق على أساس الضَعف، حيث فرضية

السمعة الحسنة، إلى فرضية القوة وبناء السلطة، نصل إلى عنصر آخر في هذه الخلطة غير المُتجانسة فإذا بنا نجد أصل الأخلاق، لاهذا ولا ذاك، بل الأصل هو العامل الجنسي. وعلى الرغم من تنافر هذا الكوكتيل التفسيري، فإنّا بالوجدان نشعر بالفرق بين الرأفة على حيوان وبين الانجذاب إلى فتاة. الطريف أن دوكنز يصل إلى طريق مسدود حينما نجد شاباً يتعلق بفتاة مع علمه بأنها عقيم، هنا الرغبة تتخطى العامل الجنسي بشكل مؤكد، وهو تجاوز واعٍ ومختار، مع ذلك يجعله دوكنز بأنه عبارة عن خطأ دارويني، مع أن هذا ليس بصحيح البتة، فدوكنز نفسه قد قال بأن الانتخاب الطبيعي لا يعمل مع الوعي «فالانتخاب لا يُفضّل تطور من هو مدرك بوعي لما هو جيد بالنسبة إلى مورّثاته»[1].

الخلاصة هي خلاصة غير داروينية حينما تثبت، وهي من ناحية الفرض: خلاصة داروينية، لكنها لا تُفسِّر، لذا يتم جلب فرضيات أخرى مُرقِعة لها. فإذا قلنا بتفسيريتها لا تكون داروينية، وإذا قلنا بداروينيتها، تعجز وحدها أن تُقدِّم اقتناعاً ما.

الخامس عشر: لدى دوكنز وعي كامل بإرادة التغليط. فهو في خاتمة كلامه وجد نفسه قد انتهى إلى صيغة حتمية وإلى قواعد ثابتة، لسنا أمام عمل عشوائي، ولا تخبطات أعمى، ولا تراكمات مصادفات. تفسير أصل الأخلاق مادياً انتهى إلى نسق ثابت وإلى قانون. ولم يستطع دوكنز الخلاص من هذه النهاية سوى أن يصوغ صياغة لفظية بلا أي محتوى معنوي، بأن هذه القواعد ثابتة وبثباتها كقواعد تم تصوير المشاعر الأخلاقية كإرث مادي لحسن السمعة

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٢١.

لضعفاء يحتمون بالأقوياء، أو تكوين القوة لكبار يستغلون الضعفاء، أو بسبب العائد الجنسي ليس إلا، لكن هذه القواعد الثابتة ليست حتمية، وهذا يعني أنها ببساطة ليست قواعد، وكونها غير حتمية ولا قواعد، يعني أنها لم تشمل الموضوع الذي أريد تفسيره فالمواضيع خارج رؤية هذه الفرضية، هكذا إما أن نعود إلى الصفر، وإما أن نتخلى عن فكرة صانع التنظيم الأعمى. خصوصاً وأن هذه الأخلاق مرتبطة بقواعد ذات تنظيم ثابت كاللغة تماماً، ولو تخيلنا للحظة أنه غير ثابت ولا منتظم لفقد دلالته كاللغة تماماً، حيث عدم كونها قواعد ثابتة ومنّظمة يلغي كونها لغة من الأصل: «سلوكنا فيما يتعلق بالقرارات الأخلاقية هو عبارة عن قواعد عالمية، فرع من العقل قد تطور عبر ملايين السنين ليحتوي على مجموعة من المبادئ تُبنى عليها أنظمة أخلاقية. وكما في اللغة، تمر تلك المبادئ التي تقوم عليها قواعدنا الأخلاقية تحت مستوى رادارنا الواعي»[1].

يا لهذا الحرج لذهنية المصادفات!، قواعد عالمية و«أنظمة» ثابتة، أخيراً بات لدينا وبوضوح عمل غائي مقصدي، ثابت و«كلي»، ماذا عساها تريد الفلسفة واللاهوت والميتافيزيقا أكثر من ذلك، كي تدخل من النافذة بعد أن تم طردها من الباب؟!.

السادس عشر: إن عدم وجود سبب مانع لا يعني وجود سبب رابط. وفي بحثنا لايوجد أي تعليل بين عدم وجود سبب يمنعنا من إلحاق العاطفة والرأفة بالجنس، أن يكونا فرعين للقوة البيدية والجنسية. وللأسف كم في كلام دوكنز من قفزات استنتاجية كهذه لا هي منطقية ولا هي تلتمس شواهد تجريبية عيانية.

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٢٤.

السابع عشر: لنخرج من التفاصيل ونعد إلى بداية السؤال: ما حقيقة قيمة الأخلاق؟!

الجواب: إنها مجرد خطأ في هدف الخلايا، أو حيل للضعف أو فخاخ لتكوين القوة، أو مسارات غش لتفريغ الشحنة الجنسية.

وبما أن قيمة كل شيء هي قيمة ما تم تفسيره، إذن، فقيمة الأخلاق هي هذه الحقيقة المادية التي ويا للمفارقة، يستنكف منها الجميع. ليست هنا المشكلة الأصعب، المشكلة أن دوكنز قال: إن هذا لا «يُقلل من قيمة المشاعر النبيلة والكرم». بأي معنى يمكننا مع هذا التفسير الاحتفاظ بصفة (النبيلة)؟! كيف تكون نبيلة وهي منحطة إلى هذه الدرجة؟![1].

أم أن توصيفها بصفات الحُسن هنا يرفعها إلى ما فوق الماديات، بحركة وجدانية من دوكنز كي يسترد كرامتها، وهذا يعني بطلان أصل دعوة الإلحاد نفسها؟!

إن دوكنز هنا، وفي مجمل نهاية الموقف لكل تفسير، لا يجد مهرباً سوى بتقديم بعض الألفاظ الإنشائية، لا يوجد أي تفسير ولا تعليل، كأنه يخال أن

(١) علماً أن دوكنز يدافع بشكل لافت ومُكرر عن المثلية الجنسية في طول الكتاب وعرضه، وكأنه يريد تأكيد مقولة البعض بأن الإلحاد مرتبط بالشذوذ وبأثرياء لوطيين، وفي الوقت الذي ينكر دوكنز المطلقات ويقول بنسبية الأخلاق، فإنه يشمئز من التوراة التي تصور نوم بنات لوط مع أبيهن ويعتبر ذلك قباحة لو ثبتت لتستحق بلدة سدوم أن تُحرق بالكبريت (ص٢٤١)، لكن إذا كانت الأخلاق نسبية فلماذا يتم طرح الشذوذ الجنسي والإجهاض كحقيقة مطلقة يجب قبولها في كل الحالات وفي جميع الشعوب؟! وإذا كانت الأخلاق نسبية كاملاً فلماذا استبشاع مضاجعة بنات لوط لأبيهن، فهذا الفعل من جهة وقع في زمن غابر سحيق يبرر أي فعل وأي سلوك، ومن جهة هو موافق للداروينية بكونه مفيداً ونافعاً وفيه صلاح النوع وبقائه؟!.

شهادته الأكاديمية أو مجرد ألقابه الدراسية أو الإعلامية، تكفي وحدها للأخذ بفتاويه اللاعلمية هذه، باعتباره القس البديل لكهنة الأديان!.

الثامن عشر: لا يملك دوكنز المعتاد لغة التهكم والاستعلاء، سوى إحكام الحصار حول نفسه. دوكنز بعد أن أقر بكون الأخلاق سابقة على الدين. يهمل بأن هذا ليس بالاكتشاف الباهر فهذا هو ما يقوله المؤمنون أيضاً، فهم قد قالوا: إن الدين جزء من فطرة أولية لذا كان والأخلاق توأمين، وأحد أسباب تشوه الدين مقدار ابتعاده عن الأخلاق. ودوكنز يُفسّر الدين بأنه نتاج عرضي لأمر دخيل، ويُفسّر الأخلاق كذلك بأنها نتاج عرضي لأمر دخيل، مع ذلك فهذان الغريبان متلاحمان ومتلازمان .

واحدة من معضلات ريتشارد دوكنز إهماله للاختصاصيين المؤمنين، وهوسه بالرد على القراء الشعبيين العاديين [1]، ثم يصوّر هؤلاء العوام وكأنهم النموذج المثالي للمتدينين وللشخصية المؤمنة وذهنيتها ولُباب حججها العلمية!.

ولو تذكرنا بعض المفردات الهجائية الجارحة لدوكنز بحق المؤمنين فإنا على الفور سنطرح سؤاله نفسه[2]: لماذا الاختلاف في الرأي يولّد كل هذا الحقد؟

هذا التهكم يقود دوكنز الذي لم يقل لنا لماذا تبقى الأخلاق نبيلة ويجب التمسك بها بعدما عرفنا وضاعتها داروينياً، إلى السخرية من بعض

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢١١.

(٢) المرجع نفسه، ص٢١٢.

المؤمنين[1]، لكونهم لا يفعلون القبيح لتفادي غضب الإله والبُعد عنه، فلماذا أنت أيها المُلحد تلتزم بالأخلاق؟! .

يثور دوكنز ثورة هوجاء، بأن الالتزام بالأخلاق من أجل الإله مجرد نفاق وتلميع للمظاهر فقط. لكنه يسكت عن كون الالتزام بالأخلاق للوصول إلى فائدة، وتضليل الفتاة بغية الوصول إلى حضنها، أو الضحك على الفقراء بدعوى مساعدتهم بغية تسيدهم، نفاقاً. مع العلم أن التراث الديني هو أول من سفه عبادة العبيد وعبادة التجار الذين لا يفعلون الصلاح إلا بغية دفع ضرر أو نيل جائزة.

إن المبدأ الداروينى كله قائم على المصلحة، وبدونها لا يكون له ثمة معنى، لكن الآن فقط «لو وافقت على أنك في غياب الله ،سوف تسرق وتغتصب وتقتل، فإنك شخص لا أخلاقي»[2]، نجد الأمر الخُلقي مناقضاً تماماً للعائد النفعي والمصلحي، وهو ما يهدم كامل التفسير المادي للأخلاق!.

أمام دعوى أن نفي الإله يعني انفلات الشهوات والمصالح، ويغدو اللاأخلاقي هو الحقيقة الوحيدة، لا يملك دوكنز سوى أن يعتمد لغة الواعظ وليس العالم «يبدو لي بأن التفكير في ذلك يستدعي وجود عدم ثقة بالنفس». ما هو عدم الثقة هذا؟!.

أليس هو في النهاية كغيره مجرد خطأ في هدف خلايا تطورية؟!، أي

(١) ودوكنز يصور جميع المؤمنين وكأنهم يقولون ذلك، لأنه معتاد التعميم غير اللائق بالعلماء.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٢٧.

اطمئنان يمكن أن يقدمه المنطق الدارويني في القضايا الاجتماعية سوى زيادة الحريق؟!.

أمام وعورة النتائج منطقياً بحسب سلسلة التفسيرات الداروينية لقضايا الاجتماع واللاهوت، نجد أنه ولأول مرة يصف دوكنز نفسه بالسذاجة[1].

لذا لم يعد من سبيل سوى اعتماد مغالطة قديمة تخلط بين الإيمان كاعتقاد عملي وبين الإيمان اللفظي الذي وجوده وعدمه سواء بالنسبة إلى بحث الأدلة والبراهين.فكون أغلب إيمان الناس قلقلة لسان ليس إلا، إذ يسرقون ويزنون ويكذبون، لا يعني هذا محاسبة الدين فيما الناس غير مؤمنين، ودوكنز نفسه يقول:

«عليَّ أن أعترف بأنني مندهش من الجهل العام بالكتاب المقدس في العقود الأخيرة... حيث يذكر روبرت هايند في كتابه الفكري (لماذا تستمر الآلهة» استطلاعاً للرأي جرى في الولايات المتحدة عام ١٩٥٤ وجد بأن ثلاثة أرباع الكاثوليكيين والبروتستانتيين لم يستطيعوا تسمية نبي واحد من العهد القديم. وأكثر من الثلثين لم يعرفوا من ألقى موعظة الجبل. وعدد كبير ظن بأن موسى أحد تلاميذ يسوع الاثني عشر. وأكرر، كان هذا في الولايات المتحدة الأميركية والتي هي أكثر تديّناً بشكل درامي من كل البلاد الأخرى في العالم المتحضر»[2].

هذا فضلاً عن أن القول بأن الدين عنصر من عناصر الاطمئنان الاجتماعي لا يعني أنه عامل وحيد، خصوصاً في مجتمعات تقلص فيها الدين، فإذا ما جرت حادثة يتم التساؤل: لماذا لما غابت قوة الدولة لم ينفع الدين بحضوره

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٢٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٤٧.

لمنع الكارثة؟! في حين أن هذا المجتمع تعرض لعمل مؤسساتي عملاق لتقليص العامل الديني فيه، ثم حين تقع كارثة ما يطرح السؤال: لماذا لم ينفع الإيمان هنا ليُقال: «الناس يقولون إنهم بحاجة إلى الدين في حين أنهم في حاجة إلى الشرطة»[1].

وهو قول لا يعتمد على حادثة جزئية ليعممها كحقيقة مطلقة في الحاضر والماضي والمستقبل بشكل دائم، بل هو قول يتغافل عن وقائع أكثر دلالة في مجتمعات لم تتخل عن الدين كاليابان حينما أذهل المجتمع الياباني العالم أثناء كارثة تسونامي، ووقف الناس طوابير طوابير أمام الدكاكين المكسورة الأبواب ينتظرون بكل هدوء، مجيء مالكيها ليبتاعوا منهم حاجاتهم. هذه معجزة سلوكية لا يمكن مقارنتها بالفوضى الوحشية التي تجري في أميركا حينما ينقطع التيار الكهربائي ساعة واحدة بسبب هبوب إعصار عابر. ولو تنازلنا وقبلنا هذه المغالطة التي تحاسب الدين في مجتمع لاديني، فإنه في نهاية المطاف لا يوجد لدينا سوى واقعة يمكن معارضتها بوقائع أخرى. كيف ينتهي دوكنز من هذا المثال؟!

التاسع عشر: دوكنز رجل العلم والمتشدد في الأدلة والبراهين، يقول إنه لا يملك أي دليل حول حادثة في «مونتريال» أضربت فيها قوات الشرطة عن العمل، فدبت فوضى، لكن دوكنز، العالم الأكاديمي، تقوده علله النفسية، وليس براهينه أو أدلته البحثية، إلى القول: إنه بالتأكيد أن عدد المؤمنين قاموا بالسرقة أكثر من غير المؤمنين، ولا حاجة بنا إلى عمليات الإحصاء والتتبع الميداني[2].

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٠.

بل إن دوكنز يعترف، بشكل صريح، أن اقتناعه ليس تابعاً للمنهج العلمي، فهو يقبل الاحتمالات والأدلة الضعيفة «بالرغم من أنها بسيطة لدرجة أنها لا يمكن الاعتماد عليها لأي استنتاج»[1]، مادامت تقع في جهة الإلحاد. القضية إذن، نفسية وليست علمية. وهذا يُذكّرنا بما قاله دوكنز في بداية كتاب وهمه عن الإله، بأنه يكتب لمتلقٍ هو مُلحد فعلاً أو لديه ميل إلى ذلك. وإلا فالكتاب لا يسير وفق ذهنية غير مُتحيزة، تعتمد الموضوعية. لذا سنقرأ بكل أسف، أن دوكنز الأستاذ الأكاديمي وصاحب المطالعة الواسعة، العارف بأن الجريمة فعل متشابك العلة ولا يعود إلى تفسير بسيط، يطرح وجود جرائم بنسبة مرتفعة في ولايات أميركية مشهورة بتديّن ساكنيها، دليلاً ضد الدين[2]. في حين أنه يجب البحث عن الوضع الاقتصادي في الولايات التي فيها الجريمة مرتفعة قياساً بالتي فيها منخفضة. فإذا اتبعنا منطق دوكنز نفسه، بأن الإلحاد توأم للتعليم العالي، فإن التعليم العالي ينتشر بين الأغنياء وأصحاب القدرة المالية الجيدة، وبالتالي فغياب نسبي للجريمة في ولاية فيها الإيمان أقل، لا يعني ذلك دليلاً لمصلحة الإلحاد، بل لمصلحة الدخل المالي للأسرة، وغير ذلك من أمور. فصلاة الأب الخاشعة لا تسد جوع الأطفال ولا توفر تكاليف إجراء عملية جراحية للأم المريضة، مثلاً. وبالتالي فأي تقرير عن نسبة الجريمة في ولايات أميركية مُعينة تكثر فيها الجريمة بسبب القاطنين السود فيها، لا يعني ضرورة انتقاد الدين، الذي هو المعيل المالي الأكبر هناك عبر ما تدعمه الكنائس وتوفره مؤسساتها الخيرية، بل ضرورة انتقاد الوضع السياسي وطريقة سيطرة الأثرياء على البلاد، الذين يهدرون الأموال في محاربة الدين كي يشعروا بالارتياح، فلا ضمير أخلاقياً في الدنيا، لكون علماء مثل دوكنز

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٣٠ .

(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٠

يقولون إنه مجرد خطأ مادي، ولا إله سيحاسبهم في الآخرة لكونه بحسب قول هؤلاء الأساتذة مجرد وهم. هكذا لا يتبقى أي أمل للإنسان الضعيف، فالحياة ومافيها هي لمصلحة الأقوياء والمحتالين الذين حتى لو فعلوا خيراً ما، فإنهم يفعلونه بغية المزيد من السيطرة على الفقراء. كل هذا والداروينية تمنح الأمل، بحسب قول هؤلاء الأساتذة، نعم يبدو أن الأمل المقصود هنا هو أملهم هم: الأقوياء أو التابعون لهم والعاملون في مؤسساتهم ودوائر نفوذهم. حيث المردود الأول لكتاب «وهم الإله» بالإضافة إلى المال هو السلطة الإدارية والرمزية لمؤلفه، فهو وسع من دائرة قوته عن طريق خطاب الإنقاذ الإلحادي الذي يدعو إليه، كما كوّن مؤسسات وبرامج ووفرّ مبالغ إضافية في حسابه في البنك، وكل ذلك منسجم كتطبيق لنظريته الأخلاقية.

العشرون: يخلط دوكنز بين الرغبة وإحالتها. فالقول بأن الأخلاقية تحتاج إلى وجود الله كي تكون حقيقية، فإن هذا لا يعني أن الله شيء حقيقي بل هو أمر نرغب في وجوده كي نكون أخلاقيين ولا تعمنا الفوضى:

«حتى ولو كان حقيقاً أننا بحاجة إلى الإله لنكون أخلاقيين، فذلك لن يجعل بأي شكل من الأشكال وجود الإله أكثر احتمالاً، ولكن أكثر رغبة في وجوده (الكثيرون لا يستطيعون ملاحظة الفرق). ولكن ليس هذا هو المهم. إن مُتدين المُتخيل لا يحتاج للاعتراف بأن تملقه للإله هو الدافع لعمل الخير في الدين. بل زعمه كالتالي، لا يهم من أين أتى الدافع لعمل الخير ولكن بدون الدين لن تكون لدينا قواعد لتحديد الصالح والتصرف على أساسه»[1].

هـذا القـول فيـه أكثـر مـن مُشـكلة: كيـف لواقـع حياتنـا الحقيقيـة الواقعيـة، أن لا

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٣٢.

تكون مستمرة إلا بأمر وهمي بدونه تتعرض للتهشّم كالزجاج؟!، كيف تكون العلة أضعف من معلولها؟!.

يقول دوكنز:

«إن قدرة الدين على عزاء الناس لا يجعله حقيقياً. حتى لو أننا قدّمنا تنازلاً كبيراً، وحتى لو تبين بشكل حاسم بأن الإيمان بوجود الله ضروري وأساسي للاستقرار النفسي والعاطفي، حتى لو كُل الملحدين مُصابون بقلق انتحاري بسبب الشعور بالفراغ الكوني، فلن يساهم أي مما سبق، بأي شكل مهما كان صغيراً كدليل على أن الإيمان الديني حقيقي»[1].

لو أتينا إلى هذه الرغبة، فهذا لا يعني دليلاً على الوهمية بشكل دائم وأكيد. فرغبتنا الجنسية ورغبتنا في إسكات الجوع ،لا تعني أن ما تحيل إليه الرغبة أمر وهمي، بل على العكس إنه أمر حقيقي واقعي، ووهم نعلم أنه وهم ومع ذلك يستمر في منحنا الإيجابيات لانعدام أي مثال آخر شبيه!.

أمر آخر هنا يستغفل دوكنز القارئ فيه: فهو إذ يسخر من بعض النصوص الدينية في الأخلاق[2] باعتبارها نصوصاً يمكن أن يكتبها مطلع بسيط في الأنترنت في أيامنا هذه، فإنه ينسى أن هذا القول قول ضد التطور وغير تاريخاني، فما هو عادي في «أيامنا» لم يكن ليكون عادياً فيما مضى منذ حقب بعيدة زمنياً، ولم يكن لوعينا الأخلاقي، ليصل إلى ما هو عليه لو لم يمر عبر حلقات تاريخية، كانت تلك النصوص الدينية إحداها بل من أهمها تأثيراً، لكونها (ومن منطق دارويني بحت) لم تكن لتبقى مستمرة لو لم يكن لها أثر نفعي للكائن البشري. أليس الدين الذي هو شر مطلق بحسب مقولة

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٣٥٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٦٦.

دوكنز هو نفسه الذي لعب دوراً كبيراً باعتراف دوكنز في تطوير حرية الإنسان بعتق العبيد وتحرير النساء[١]، وكان عملًا قصدياً واعياً وعن طريق أشخاص وليس عبر تراكم تصادفي، وأن هذا العمل الخيري الكبير فعله متدينون لأنهم متدينون[٢]، تماماً كما يُقدم الكثير من أتباع الكنيسة والمساجد على تقديم المعونات عالمياً لأنهم فقط مؤمنون يحركهم وازع ديني وليس أي شيء آخر، معتقدين بقراءة رمزية للنصوص التي يسخر منها دوكنز ويعتبرها شراً كاملاً؟!

دوكنز يُحاصر في الأسئلة فيكثر من المدعيات وفي النهاية يقول:[٣] إنه مجرد هاوٍ في علم الاجتماع والنفس، فطبيعي أن لايكون لديه جواب، لكنه يعود مرة تلو أخرى حتى خاتمة كتابه/وهمه ليقدم تحليلاً نفسياً بأن الدين مُجرد وهم يشبه أوهام الأطفال الذين يتخيلون شخصيات غير حقيقية يتحدثون معها[٤]، وقد يكون الإله تطويراً لهذه اللعبة أو اللعبة تطويراً لفكرة الإله، ليس مهماً التناقض مادام كلا الحالين يعني نفي الإله!!. هل دوكنز في تحليله للدين والأخلاق مجرد مُقلِّد إذن؟! هذا يعني ببساطة وجود متخصصين آخرين لديهم طروحات وتفسيرات أخرى بعضها لا يناقض الدين فحسب بل يتصالح معه، وبالتالي لا مبرر لكل هذا الأنفعال في هجاء الدين.

لكن هل لتناقضات دوكنز من نهاية؟ دوكنز يطيل الهجاء للدين على أنه شر بنفسه، وحتى إذا لم توجد أدلة على أن عدد المجرمين بين المؤمنين أكثر من الملاحدة، فيجب أن نفترض ذلك، لكن حينما نضع أمثلة شهيرة عما

(١) وهم الإله، مرجع سابق،ص٢٧٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٧٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٥٢–٣٥٧.

فعلته عقيدة التطور والشغف بالقوة، يتراجع دوكنز ليقول ببساطة[1] لامنطقية إحصاء الشر والطيبة في المؤمنين والملاحدة: «لسنا بصدد عدد الرؤوس واستخلاص لائحتين من الأضداد المتنافسة». نعم هي لائحة لكن يجب تسويد جهة واحدة منها باستمرار، بشكل غائي وواضح العلة ومشخص، بكل ماهو بعيد عن تنظيرات العمى والصدفة. إن كتاب دوكنز كله عبارة عن تكذيب لمقولته:

«أنا بطبعي لستُ ذلك الشخص الذي يحب المواجهة، ولا أظن العداء طريقة مناسبة للوصول إلى الحقيقة»[2]. بل هو في الصفحة نفسها يقول بأنه: يمارس العداء!.

ويقول من حقه العداء والتطرف في أفكاره لكونه عالماً بنى معتقداته على براهين(ولقد رأينا كم مرة اعتمد فيها دوكنز على اللادليل!) أما المؤمنون فليس لهم حق في شيء، لأن أقوالهم كلها مبنية على الكتاب المُقدس[3]، وبالطبع لا يناقش دوكنز كيف أن الكتاب المقدس (كتاب أي دين كان) ليس حجة لمعتقديه عبر أدلة قائمة على الإعجاز اللغوي أو ما شابه؟!. وهل يكفي مثل هذا الفرق في أحقية جهة بالتعصب والتطرف، وحرمان الجهة الثانية من اختلاف الرأي؟!. الأمر الطريف أن دوكنز لا يملك هنا[4] سوى التمسك بذهنية التعليل والفلسفة وليس المصادفة والاحتمالات العمياء!.

(١) وهم الإله، مرجع سابق،ص٢٧٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٨٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٨٥.

(٤) المرجع نفسه،ص٢٨٥.

في النهاية يقول دوكنز إنه لا يملك سوى الانفعال ضد مخالفيه[١]، لماذا الانفعال في محاولة إرغام الآخرين على قبول أفكارنا، لماذا لا ندع الأمور لخلاياهم المادية يقودها الانتخاب الطبيعي لتطوير مسيرة الحياة؟!.

بالطبع يصعب علينا إحصاء كل تناقضات دوكنز فهذا يحتاج إلى فصل مستقل طويل، فأصغر التناقضات هو الدفاع المحموم عن قتل أصل الحياة (بويضة الحامل) وهو غير مقبول البتة للداروينية، لكن الدفاع عن حق الإجهاض ميزة من ميزات هذا النوع من الملاحدة،وهم أنفسهم يسخرون مختارين من أنفسهم في هذه النقطة[٢] التي تشبه مفارقة بعض المتدينين الرافضين لإجهاض بويضة لكنهم يذبحون الناس ببساطة. في الخاتمة يقول دوكنز إنه يجب شن الهجمات ضد الدين نفسه كدين، وليس ضد التطرف الديني فقط [٣]. وبالرغم من أن محاربة الدين كدين تعني محاربة ماهيته المشتركة التي تشمل أموراً عديدة مثل حب الوطن والذود عن الشعب الذي ننتمي إليه، لكن هنا يكتفي دوكنز بالتلاعب اللفظي[٤]، بأنه يجب التعامل مع الدين كـ«مبيد فعال لكل أنواع المنطق العقلاني»، أما متعلقات الماهية الأخرى فيتم السكوت عنها!.

بعدهـا[٥] يخـوض دوكنـز مرافعـة حـارة ضـد الإسـلام غيـر مهتـم بمـا بيـن

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ٢٨٦.

(٢) المرجع نفسه، ٢٩٥.

(٣) المرجع نفسه،٣١٠ .

(٤) المرجع نفسه، ص٣١١.

(٥) المرجع نفسه، ص٣١٢.

الإسلام والاستخدام السياسي له، رافضاً مقولة الإسلام المعتدل،، بينما هو بالتأكيد لا يقبل أن ندعوا لمحاربة العلم لأن السياسيين يستفيدون من وسائل الإعلام والتقنيات الحربية!.

إن دوكنز كشريحة واسعة من علماء الطبيعيات يصرّ على ضرورة بذل الأموال بمقادير فلكية من أجل إرضاء الفضول العلمي المحض، حيث مقدار بسيط من مصاريف ناسا مثلاً يمكن أن تسد حاجات قارة بكاملها، لكن في الوقت نفسه يبالغون في تصوير كونهم إنسانيين جداً على مستوى النشاط السياسي، مستذكرين إعلان اليونسكو ضد العنصرية سنة ١٩٥٠، الذي احتفى به ودعمه علماء التطور: «ومن المفارقات أن كثيراً من الموقعين وواضعي الإعلان هم من علماء التطور البيولوجي، ومنهم العالم الكبير «جوليان هكسلي» الذي كان أول رئيس لمنظمة اليونسكو. وهو العلم نفسه (تطور الكائنات) الذي اتهمه معارضوه منذ أيام داروين بأنه علم لا أخلاقي يدعو إلى سيادة القوي على الضعيف»[1].

لكن هذا التحذلق من دوكنز هنا غير مجدٍ، فدوكنز هو الذي صرح في ندوة حضرها على قناة الجزيرة بأنه بما يخص الحياة الاجتماعية مبغض ومناهض تماماً للتطور والداروينية، وبالتالي فلا تناقض في مسلكية جوليان هكسلي، وبالتالي فلا تصح مثل هذه الأمثلة لحل متناقضات مواقف التطوريين القائلين بالإلحاد.

ومن هنا يتضح خطأ تنظير دوكنز حول الأخلاق المأخوذة من الكتب

(١) فصول من الكتابة العلمية الحديثة، مرجع سابق، ص٤٢.

المُقدسة[1].فالسؤال الحقيقي هنا: على ماذا اعتمدت خطابات الكتب الدينية كي تكون وصاياها الأخلاقية مستمرة المقبولية؟! .

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٣٢. وهنا يناقض دوكنز نفسه في القول بأن الدين شر مطلق، إلى القول بأن الإنجيل ليس فيه قضايا شريرة مُضرّة! وفي ص٢٥٢ سيقول إن الإنجيل يماثل التوراة في فظاعتها بل (العهد الجديد أضاف ظلماً آخر مطعماً بسادومازوشية عنيفة لا تُقارن حتى بالعهد القديم)! .ونحن مع دوكنز في انتقاد المسيحية واستبعادنا لفكرة الفداء وغفران الذنوب بتعذيب سوانا، وكأنه لاغفران بدون دماء، وغير ذلك مما يذكره دوكنز ويصرح برفضه له، أما انتقاداته للتوراة وتاريخيتها، فهذا ليس فيه كثير أهمية بالنسبة إلينا، فلا نحن نؤمن بعصمة الكتاب الموجود، ولا نحن من القائلين بأنه ليس نصوصاً مطورة من نصوص أقدم، أسطورية بابلية أو غيرها، ولا القضية لها دخل بوجود الإله أو نفيه الذي هو موضوع البحث. لكن نفيَ أن يكون للذنوب أي دخل في الحياة، فبحث دوكنز خالٍ من القيمة، لكون قضية كهذه منتفية مبدئياً بالنسبة إلى من نفى وجود الله، فمسألة الذنوب وتأثيرها مرتبطة بسلسلة من المعتقدات الدينية ونتائج متتابعة يعتمد بعضها على بعض، فهي فرع من فروع، ولا معنى لهذا الحديث لمن أنكر وجود الجذع نفسه كما فعل دوكنز، وفعل كهذا لا فائدة فيه سوى زيادة الإمعان في التشويش الإعلامي ولغة الاحتراب ضد المخالفين. خصوصاً وأنه ليس من الضروري أن يكون الأثر التكويني للذنوب والمعاصي هو معاقبة مباشرة لاهتمام الله، كما فهم دوكنز(وهم الإله، ص٢٣٨)، بل جزء من نتائج مرتبطة بالفعل نفسه وهذا واحد من التفاسير الشائعة لمعنى تأثير الذنوب الوضعية، ومن هنا، إن المعاقبة الجماعية من فوائدها إحداث عملية ردع جماعي أكبر في مستقبل المجتمعات، وبهذا ينتفي لدى هؤلاء الاستغرب لماذا تتم معاقبة مدينة كاملة بزلزال نتيجة أعمال لبعض ممثلات سحاقيات؟!، ويبدو أن دوكنز حاطب ليل هنا لا يعلم عن هذه التفاصيل شيئاً..بل حتى في هجائياته لعالم الغرابة الديني ومعجزاته، ستكون القضية مُقلقة وغير مقنعة في أحيان كثيرة، فدوكنز نفسه (الجديد في الانتخاب، ص٢٢١) يصرح أن علينا أن لانستغرب حتى أية معجزة، فمن العلمي جداً أن نمشي قرب تمثال من مرمر حجري فيتحرك التمثال ويُحرك يده مُلقياً علينا التحية!، بل المعجزات كلها لها تفسير علمي مقبول فالمعجزة ليست سوى ضربة حظ هائلة ليس إلا، وهي لاتتناقض مع العلم بل هي تقع ضمن تفسيراته (الجديد في الانتخاب، ص١٩٥، ص٢٢٠)، إذا بلغت الأمور هذا المستوى فأي شيء سيملكه الملاحدة للتفكه على المؤمنين ياترى؟!.

فلو كانت الكتب المُقدسة لا تعتمد على قواعد ذاتية في الإنسان، لما استطاع أن يكون خطابها مقبولاً ومستمراً. خصوصاً بحسب نظرية الانتخاب الطبيعي التي تمنع استمرار قضية ما وهي ليست خالية من النفع للكائن بل مضرة به . وبالتالي فإن استمرار هذه الأخلاقيات والقول بأنها مرفوضة بحسب رؤية إلحادية تعتمد التطورية، هو قول متهافت.

الأشد مفارقة أن دوكنز القائل بنسبية الأخلاق وبأن أصلها مادي أخطأ هدفه، بشن حملات ضد لا أخلاقية التوراة وبعض الكتب المُقدسة[1]، وهي حملات شرسة وحادة، لا ندري لماذا هي متوترة هكذا، مادام لا توجد قيم مطلقة نزن بها كل فعل بما في ذلك الأحداث السحيقة القِدم أو حتى التي تتعلق بالله نفسه؟!.

ومن غير الصحيح أيضاً قياس دوكنز دعوى تهديد الإلحاد للإنسان، بشكل عام، للبؤس وانتشار بعض المشاكل النفسية، بالقول: «لا أملك أي أدلة على أن المُلحدين لديهم أي ميول عامة نحو البؤس، أو قلق مشبع بالندم. بعض المُلحدين سعداء، وبعضهم بؤساء. وبصورة مُماثلة: فإن بعض المسيحيين، اليهود، المسلمين، الهندوس والبوذيين، تعساء، بينما آخرون منهم سعداء.ربما تكون هُناك دلائل إحصائية عن العلاقة بين السعادة والإيمان (أو عدمه) ولكني أشك بأن هناك تأثيراً قوياً في اتجاه ما أو آخر»[2].

فهذا القول فضلاً عن غرابة عدم تحري صاحبه للوائح الإحصاءات، كما هي العادة، ومن شخص اهتم بمتابعة الإحصاءات في كل شيء ويعتمد على ما يُنشر منه كأحد الأدلة التي تتكرر في كتابات دوكنز بكثرة، لكن في

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٤٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٥٨

هذا الموضع بالذات يدعي دوكنز الجهل أو التجاهل!، فهو قول يخلط بين السعادة والتعاسة بسبب أمور الحياة ومشاغلها وتداخلات السياسة والاقتصاد وغير ذلك، بينما الدعوة تقول: إن الاعتقاد الديني نفسه يولّد أملاً، والاعتقاد بالإلحاد نفسه يولد مشكلات نفسية. وهذا لا يلغي ان يكون مؤمن يعيش بتعاسة بسبب مرض أو عوز، وملحد يعيش انتشاء بسبب معيشته في دولة رفاه ويتمتع بصحة جيدة ولا يوجد شيء يعكر صفو حياته.

فـي النهايـة، لا نجـد لـدى دوكنـز مـن شـيء سـوى عودتـه لانتقـاد المعتقـد الشـعبي ونفاقيـة سـلوكيات النـاس[1]، وهـي مواضيـع، يكررهـا الوعـاظ والباحثـون

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص ٣٦١، ٣٦٢. ومقولة القرآن صريحة: فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم. فالنص الديني هو السابق في مثل هذه الاعتراضات. ومن الطريف أن دوكنز يكرر مقولة مارك توين (ص٣٥٩،ص٣٦٢)بأن الموت غير مميت لكوننا كنا أمواتاً سابقاً حيث أنا تكونا من مادة جامدة: «أنا لا أخاف الموت. لقد كنتُ ميتاً منذ مليارات السنين قبل أن أولد ولم يسبب لي ذلك أي حرج». وهي مقولة تصلح للدعابة فقط لأن معنى كوني قد مت كإنسان، أنني صرتُ مخلوقاً بشرياً كاملاً عرفت الحياة الاختيارية وأنجزت أفعالاً حملتُ مسؤوليتها. أما كوني تراباً أو خلية وحيدة أو مشيمة أو أي شيء آخر قبل ولادتي، فهذا ليس موتاً، ولم أكن أنا أصلاً كي تتم مقارنة الأنا بين مراحل متعددة. ولو صح هذا المثال فمعنى ذلك أننا تخلينا عن التطورية من الأساس، حيث أنا كإنسان موجود في جميع الأنواع السابقة، بل ليس الإنسان كنوع بل كفرد أيضاً، لذا يدعي مارك توين وبعده صداه دوكنز بأن الموت لا خوف منه لأنني وإياك كنا ميتين سابقاً، في حين أننا في كل تلك المراحل لم نكن موجودين ولم نذق الحياة بعد، حيث الموت هو سلب الحياة ممن شأنه أن يكون حيّاً، وليس هو موتاً لحياة لم تقع بعد، تلك ألاعيب مجاز لغوي وأصنام كلامية ينحتها هؤلاء ويتورطون في كيفية أكلها بلا شبع. ثم يتلقفها بعض هواة المواقع الإلكترونية الذين يجدون متنفسهم في تحويل هواية مطالعة الكتب العلمية إلى تنفيس لغضب سياسي وفلتان اجتماعي . وعلى أية حال، فإن دوكنز عالم الأحياء يسرف في كثير من الأحيان في هدر اللغة،

المؤمنـون أنفسـهم، وفـي الحصيلـة لا نسـتطيع تحميـل الديـن مفارقـات المنافـق فيـه أو الذيـن يؤمنـون بـه لفظـاً فقـط. لـذا سـيقول بـكل بسـاطة حـول مشـكلة ارتفـاع الإحسـاس بالمعنـى فيمـا لـو نفينـا الإلـه: أنـا سـأتلهى بمطالعـة الكتـب، أمـا أنتـم فليبحـث كل منكـم عـن طريقتـه الخاصـة لمـلء هـذه الفجـوة![1]. أو القـول بـأن السـعادة هـي الشـرود مـع الاحتمـالات والفرضيـات الرياضيـة أو الفيزيائيـة والعيـش مـع تخيـلات مـن هـذا القبيـل[2]، هـذه هـي السـعادة القصـوى التـي ينتهـي إليهـا كتـاب وهـم الإلـه!. فـي حيـن أننـا أمـام مشـكلة اجتماعيـة عامـة لواقـع حيـاة يومـي فـي أبسـط مُتغيراتـه وحاجاتـه وصراعاتـه، وفـي شـعوب وشـرائح بعضهـا لا يملـك قـوت يومـه ولا أبسـط دواء لمرضـاه، وليـس لنخبـة مـن مهووسـي الفيزيـاء النظريـة وتناقضاتهـا وتشـابهاتها. ودوكنـز نفسـه الـذي أطـال بتصميـم ذكـي فـي

والمجازات الإنشائية، كتعويض عن المحاجة الاستدلالية. ألا يقول التطوريون إن السمكة في داخلنا وأنا كنا سمكة وزواحف، إذن، هل يعني هذا أن لا نخاف من أن نرمي بأنفسنا في الماء بدون تعلم سباحة، لكوننا فيما سبق كنا سمكة، أو ندخل في الحفر الترابية ونستكين إليها لكوننا فيما سبق زواحف؟!.يكفي أن نضيف هنا أن دوكنز نفسه (ص٣٧٧) ينقل القول: «المادة تتنقب من مكان إلى آخر وتجمع بشكل موقت لتشكّلك. فمهما كنتَ، فإنك لست المادة التي تتكون منها». مع ذلك فجأة نكون نحن المادة التي تكونا منها ليس لبناء محاجة الإلحاد وفق التطورية، بل لأن الموت غير مخيف لكوننا متنا سابقاً فنحن تلكم المواد الجامدة نفسها سابقاً. وفي هامش الصفحة نفسها يقول دوكنز: «نحن أشبه بأمواج أكثر من كوننا أجساماً مادية»، عبارة كفيلة لوضع كل انتقاداته قيد المراجعة والتزلزل..وإذا كان كل مخلوق لا يعرف حقيقة الحياة والوجود، بل يقوم بمكياج للحقيقة يتناسب معه(ص٣٧٨)، فلماذا لا تكون كل أقوال التطوريين عبارة عن مكياج للحقيقة وليست هي، تتناسب مع ميولهم في قراءة الحفريات والوقائع؟!. فلنسكت هنا بالطبع عن لغة المفاهيم الكلية حينما يتحدث دوكنز في هذه الأمور!.

(١) المرجع نفسه، ص٣٦٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٧٢.

مقدمــة كتابــه «وهــم الإلــه» وغيــره، انتقــاد الديــن علــى أنــه أصــل الشــر، هــو نفســه الــذي لــم يفتــه أن جملــة مــن الحــوادث التــي تقــع تحــت شــعار الديــن، لا علاقــة لهــا بالديــن حقيقــةً:

«كيف يكون لي أن أقول إني ألوم التعصب للتراث العقائدي على ما حدث؟. هل أنا أتصور حقاً أنه عندما يقوم الإرهابي بعملية قتل، فإنه يكون مدفوعاً بخوف لاهوتي مع ضحيته؟ .. أنا لا أعتقد بالطبع بأي شيء من هذا القبيل. فاللاهوت هو آخر ما يخطر على بال هؤلاء الأفراد. فهم لا يقتلون بسبب تراث عقائدي، وإنما بسبب مظالم سياسية. وكثيراً ما تكون هناك أسباب تبرر إحساسهم هذا بأنهم مظلومون...النقطة التي أريد أن أوضحها ليست أن التراث العقائدي نفسه هو الدافع للحروب وجرائم القتل وحوادث الهجوم الإرهابية، وإنما هذا التراث هو «بطاقة تصنيف» رئيسية وأكثر البطاقات خطراً.. وأنا حتى لا أزعم أن التراث العقائدي هو بطاقة التصنيف «الوحيدة» التي نُعيّن بها من يكونون ضحايا تحيزنا، فهناك أيضاً لون البشرة واللغة والطبقة الاجتماعية».

على القارئ أن يعيد قراءة القسم الأول من وهم الإله، أو في مواضع أخرى من منجزه، ويعرضه على التحديد الذي يقوله دوكنز هنا، ليحسب كم هي الخطوات التي تحققت باتجاه انتقاد الدين كدين، وبين الخطوات المتراجعة بانتقاده لأسباب أخرى؟. فالدين خطر باعتباره بطاقة تمييز أمر لايمثل عيباً داخلياً فيه، فكل شيء يمكن للإنسان تحويله إلى بطاقة تأويلية تمييزية. وحينما نقول إنه بطاقة تمييز غير علمية، لا يعني أنه هو بنفسه لا علاقة له بالعِلم، فهذه مغالطة مضاعفة[1]، نعم يمكن أن نقول إنه بطاقة تمييز

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٧٧.

غير علمية بمعنى أنها ليست ضمن طرائقه في التمييز، وهي لا تدخل ضمن اهتماماته الحسية. بغير ذلك سيكون تعميماً بلا حجة.

على أن دوكنز حتى في هذه النقطة ليس بموضوعي. كيف تم هنا تحديد بطاقة التمايز؟!:

«تعاني النفس البشرية مرضين عظيمين: الحافز على تمرير الانتقام عبر الأجيال، والنزعة إلى إلصاق بطاقات تصنيف جماعية على الناس بدلاً من رؤيتهم كأفراد»[1].

الدقة بحسب طريقة دوكنز في القراءة، كان يجب أن ترى في تمرير الانتقام أمراً إيجابياً فهو آلية مهمة في الانتخاب الطبيعي التي خلصتنا من الضعفاء، وهي منطقية لكون الوجود عبارة عن صراع مطلق، فالانتقام ليس مرضاً والرؤية الداروينية هذه هي سبيل الحياة. طبعاً لنسأل عن هذا التمرير المستمر كيف هو مستمر ولا يوجد لدينا تسجيل جيني متوارث، بل مجرد طفرات تصادفية فقط؟! فتلك مشكلة عامة كما عرفنا في الفصل الأول من هذا الكتاب.

أما البطاقات التمييزية فهي مجرد انحراف فرعي، وبما أنها كذلك فهي ليست خطأ بذاته بل إنها أمر جانبي غير مقصود بذاته، تماماً كما سبق أن صوّر دوكنز كيفية ظهور الإيمان. لكن قد يكون دوكنز قد حدس بذكاء، مشكلة أن يكون الدين مسار خطأ فرعي، ويتعلق به أمر فرعي يكون هو ماهيته الكاملة. وما دامت مشكلة الدين باتت محصورة بكونه مستخدماً كبطاقات تمايز، فيجب علينا والحالة هذه أن لا يفوتنا وصف دوكنز لجنازات تأبين الموتى

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٧٩.

بين الجنازات الدينية و(الجنازات العلمانية)[1] والتي يتعلق بها شكل تنظيمي صحيح وغير صحيح. وبالطبع إن هذا التنظيم للجنازات العلمانية، يجب أن نغض البصر عن كونه مجرد أوهام حيث الميت صار تراباً لا قيمة له، وكل ثرثرات العزاء والتأسي، عملية تخدير موقت، وهي من الناحية (العلمية) غير جديرة بالدعم مُطلقاً، وهذا بالطبع ما لا يقوم دوكنز، ولا أي إلحادي آخر، بتقديمه وتبنيه. رغم أن الإصرار نفسه على اختراع شكل طقوسي ذي مواصفات علمانية يؤكد إشكالية الدين ولا يدحضها، حيث يبقى ذلك التشبث الهائل بمحاولة الارتفاع على المادة، والاهتمام بما هو أبعد منها، وفي طابور المعزين هذا، بل في مُقدّمته ،نجد دوكنز نفسه![2].

الواحد والعشرون: لو أنا افترضنا أننا استدللنا بهذه الطريقة: الدول التي ينتشر فيها الإلحاد، مثل الدنيمارك، السويد، النرويج، سويسرا، فيها سلوك أخلاقي للمجتمع أعلى بكثير من الدول التي يتشدق مجتمعها بالدين، كجملة من دول الخليج العربي أو عموم الدول العربية، فإن هذا لا يقع لمصلحة دوكنز: فهنا نحتاج من جهة المجتمعات المؤمنة أن نثبت أن هذه المجتمعات هي مجتمعات مُؤمنة فعلاً وليس لديها إرث إيماني أو شعارات إيمان فحسب.

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٨١.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٨٢، وبعكس كل غلواء الغرور بالعقل الحسي والاكتفاء بالماديات يستطيع القارئ مراجعة ص٢٨٥ من «العلم والحقيقة» التي تحتوي على كلمات عديدة في مجالس العزاء، أُلقاها دوكنز داخل الكنائس!، حيث سطّر دوكنز بكائية طويلة وحارة العزاء لنفسه، لفقدان أحد أصدقائه، وهو مقال عبارة عن جهد لمقاومة الواقع الفيزيقي الذي يفترض الالتزام به لكونه الصندوق الكبير للقرد العاري.

كما أننا بحاجة من جهة المجتمعات غير المؤمنة أن نثبت أن سلوكها الراقي هذا مستند إلى وعي تام بالانتخاب الطبيعي ومردوداته الاجتماعية.

الثاني والعشرون: بالرغم من أن دوكنز أقر بأنه ليس سوى هاوٍ في علم الاجتماع والنفس، فإنه يعود ليقرر بأن الإله هو مشكلة نفسية تطورت عن لعبة الأطفال بتخيل صديق لهم.

«هل يملأ الدين فجوة مهمة في حياتنا؟ غالِباً ما يُقال بأن هناك فجوة في الدماغ يجب ملؤها بالإله: هناك حاجة نفسية للإله ـ صديق مُتخيل، أب، أخ أكبر، أب لأعترف، شخص محل ثقة ـ وهذه الحاجة يجب إشباعها سواء كان الله موجوداً أو لا. لكن هل من الممكن أن يكون من الأفضل أن نملأ تلك الفجوة بالله وليس بشيء آخر يجعلنا حالة أفضل؟ عِلم ربما، فن، صداقة، إنسانية، حُبّ الحياة في العالم الحقيقي بدون الحاجة للإيمان بحياة أخرى خلف القبر؟ حُبّ الطبيعة أو ما سمّاه عالم الحشرات العظيم أي.أو. ويلسون بـ«بيوفيليا».

خلال عصور مختلفة لعب الدين أربعة أدوار رئيسية في حياة الإنسان وهي: تفسير وحث وعزاء وإلهام. تاريخياً فقد طمح الدين إلى تفسير وجودنا والطبيعة من حولنا والكون الذي وجدنا أنفسنا فيه. دوره هذا في أيامنا هذه قد تولاه العِلم بشكل كامل..أما بالنسبة إلى الحث فما أعنيه هو تلك التعاليم الأخلاقية لما يفترض أن نعيش وفقاً لها.. في اعتقادي إن كريستوفر روبين ما كان ليصدق بأن صغير الخنزير بيغليت والدبدوب بووه(شخصيتان كرتونيتان) تكلما معه. ولكن هل كان وضع بينكر مُختلفاً.. هل ظاهرة الصديق المُتخيل وهم أكبر، من صنف مُختلف عن خيال الأطفال العادي؟. إن تجربتي بهذا الصدد لن تُساعد كثيراً هنا. وكالكثير من الأهل، فقد قامت أمي بتدوين كل

عباراتي الطفولية. باستثناء بعض الألعاب التقمصية.. لم أؤمن على الإطلاق بأني أحد تلك الأشياء، وأعتقد أن الحال نفسه في أغلب ألعاب الصبيان التقمصية.. أشتبه بأن هذه الظاهرة الطفولية يمكن أن تكون نموذجاً جيداً لفهم الإيمان التوحيدي لدى البالغين. لا أعرف إذا ما كان علماء النفس قد درسوا تلك الظاهرة من وجهة النظر تلك، ولكن بحثاً كهذا يستحق التعمق فيه. رفيق ومحلّ ثقة بينكر لمدى الحياة: ذلك بدون شك أحد الأدوار التي يلعبها الله، إنها الفجوة التي ستبقى فارغة إذا ما اختفى الله...هل تطورت الآلهة كناصحة ومواسية من هذه الظاهرة، كصنف من «البيدومورفوس» النفسي؟. البيدومورفوس هو استمرار الشخصية الطفولية لما بعد البلوغ. الكلاب البيكينية لها تلك الخاصية. فالبالغة منها تشبه الجراء. تلك الأنماط معروفة من تاريخ التطور، ومقبولة بشكل واسع كنمط مهم يفسر بعض الصفات كقرود يافعة وذلك صحيح بالتأكيد لأن أحداث الشمبانزي والغوريلا تشبه الإنسان بكثير مما تفعله كبارها. هل يمكن أن يكون الدين قد تطور بالأصل من تأجيلات متدرجة عبر الأجيال، بداية من النقطة التي يترك فيها الأطفال «بينكراتهم»، تماماً كما تباطأنا نحن من خلال التطور في تسطيح جبهاتنا وإظهار النتوءات في أحناكنا؟.

وكي نكون موضوعيين علينا أن نأخذ في الاعتبار الاحتمال المعاكس: عوضاً عن أن يتطور الإله من سلفه الإله؟. يبدو ذلك أقل احتمالاً بالنسبة إليّ. لقد دفعني للتفكير في ذلك عندما كنتُ أقرأ لطبيب النفس الأميركي جوليان جاينس في كتابه (أصل الوعي في العقل المزدوج) كتاب غريب كما ينبئ عنوانه. أحد تلك الكتب التي هي إما نفايات بكاملها وإما إنتاج لعبقري، ولا شيء بينهما!. ربما الاحتمال الأول لكنني لا أريد الرهان عليه.لاحظ جاينس بأن أكثر الناس يدركون عملياتهم الفكرية كنوع من المخاطبة بين «الأنا» ونصير داخلي آخر

في الرأس. اليوم نعلم بأن كلا «الصوتين» يعودان لنا، وعندما لا نعرف ذلك فإننا نعامل على أننا مرضى نفسيون.. جاينس يقترح نظريته بأنه في وقت ما قبل ١٠٠٠ سنة ق.م. لم يكن الناس مُنتبهين لوجود الصوت الآخر ـ الصوت نفسه الذي سمعه جلبرت بينفولد ـ يأتي من الشخص نفسه. بل إنهم تصوروا بأنه كان صوت الإله: أبولو مثلاً أو عشتار أو يهوه أو أغلب الظن، إله محلي منزلي يعطي نصائح أو أوامر. جاينس استطاع تحديد منطقة صوت الآلهة في القسم المعاكس للقسم المتحكم في القدرة على سماع الصوت المسموع. إن القضاء على النفسية الثنائية ، وفقاً لجاينس، هو تحول تاريخي. إنه ذلك المفصل الزمني عندما عرف البشر بأن الأصوات التي تبدو خارجية هي في الحقيقة داخلية.جاينس يذهب حتى أبعد من ذلك بتحديد أن الفترة الزمنية لذلك الحدث التاريخي هي نفسها الفترة التي بدأ فيها وعي الإنسان بالبزوغ.

هناك مخطط مصري قديم عن الإله الخالق بتاح، حيث توصف الآلهة المُختلفة الأخرى كأوجه مُختلفة لـ«صوت» أو «لسان» بتاح. الترجمة العصرية رفضت كلمة «صوت» واستبدلتها بمفاهيم مجسمة لعقل بتاح. جاينس رفض تلك القراءة المتكلفة وفضّل أن يأخذ المعنى الحرفي بشكل جديّ. الآلهة كانت هلوسات صوتية تتكلم داخل رأس الإنسان. يذهب جاينس باقتراحاته أبعد من ذلك بأن الآلهة تطورت من ذكريات الملوك الميتين الذين بشكل أو بآخر لا يزالون يسيطرون من خلال الأصوات المُتخيلة في رؤوس أتباعهم. بغض النظر عن كونك تجد لذلك أي صدقية أو لا، فإن كتاب جاينس مُثير للفضول بشكل كاف ليستحق الذكر في كتاب عن الدين.

والآن، لنتحول إلى إمكانية الاستعارة من كتاب جاينس لبناء نظرية حول أن الآلهة وأصدقاء الطفولة الخياليين يسلكون المنحى التطوري نفسه، لكن على العكس من نظرية البيدومورفوس. نستطيع تلخيصها بأن تلاشي

النفسية الثنائية لم يحصل بصورة فجائية بل تطور بشكل تدريجي بالتراجع نحو الطفولة عند تلك اللحظة حيث الهلوسات الصوتية والرؤى تم تجاهلها كأشياء غير حقيقية. بشكل يعاكس فرضية البيدومورفوس،الآلهة المُتخيلة اختفت من عقول الكبار أولاً وبدأت بالاختفاء في فترات أبكر وأبكر وصولاً إلى الطفولة، حتى لم يبقى منها اليوم إلا ظواهر مثل بينكر أو الرجل البنفسجي الصغير. المُشكلة في هذه الفرضية أنها لا تُفسّر بقاء الإله عند البالغين في يومنا هذا.

ربما كان من الأفضل أن لا نعامل الآلهة كأسلاف لبينكر، أو العكس بالعكس، لكن أن نعتبر كليهما كأعراض جانبية للظاهرة النفسية نفسها. الآلهة والأصدقاء الخياليون لديهم القدرة على تحقيق الطمأنينة وإعطاء مساحة واسعة لتجربة أفكارنا الجديدة»[1].

ولنترك معضلة الاستفادة من العلوم الإنسانية في سياق دوكنز المنغلق على التطورية التي هي حتى الآن لم تستطع أن تحظى بمقبولية فعلية ميدانية من قبل علم النفس والعلوم الإنسانية الأخرى، إلا بمقدار بسيط بالنسبة إلى البعض، وبالتالي يكون كل تحليله السابق أعلاه مبنياً على ثغرة منهجية إما أن نتمسك بها فنفتح ثغرة في انغلاقيته التطورية، وإما نهمله فتكون هناك ثغرة أكبر في مسألة فكرة الإله، ولنلخص القول هنا:

١ ـ دوكنز يطعن في الكتب التي يستشهد بها والتي الاحتمال الأقرب فيها أنها «نفايات كلها». مع هذا الاحتمال الكبير، يتم اعتماد قوله مادام هذا القول من (النفايات) يصب في مصلحة رفض الدين ونفي الإله. تماماً كما

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٣٥٢.

رأينا سابقاً كيف يتنازل دوكنز حتى عن التطورية في بعض الحالات، مادام هذا التنازل يصب في مصلحة همه الأكبر في نفي الإله.

بل إن انتقال دوكنز لتفريع صورة خيالية تطورية على كتاب جاينس، يُعطينا صورة ملموسة لكيفية صنع أطروحات تطورية بعضها قائم على تدبيجات أدبية وليس جراء استقرائيات لعينات مفحوصة.

٢ ـ لو صحت فرضية جاينس، التي لا نعلم ما هي شواهدها التاريخية؟[١]،لكان يجب أن يكون ادعاء النبوة ليس بالحدث الهام، ولا كان من المناسب أن تكون القلة النادرة كهنة، بل ستكون الكهانة والنبوة مهنة شائعة، وهذا مناقض لبديهية التاريخ.

٣ ـ دوكنز واضح القول بأن هذا التحليل مُجرد خاطرة على حافة الخطأ والاشتباه، ولم يُقدِّم أي شاهد على صحة هذه الخاطرة، التي قد تكون هي نفسها عبارة عن جزء من مشكلة نفسية لدى دوكنز. ففي الحصيلة لدينا هاوٍ في علم النفس، لا يعلم موقف علماء النفس من هذا التحليل الذي يطرحه كدليل لتفكيك الدين ووهمية الإله. إنها خاطرة ومجرد فرض لاشاهد له ولم يدعمه المختص الخبير، لكن نتيجته يقينية (بدون شك)!!.

٤ ـ في مقدمة كتاب الوهم، تم استبعاد فكرة الإله الشخصي وإله الأديان،

(١) إنه تفسير حرفي لاسم أحد الآلهة المصريين فقط، توجد له ترجمة أخرى! كيف من مفردة جزئية بسيطة تتحول إلى حكم تعميمي على كل البشرية، أي نوع من الاستدلال هذا؟!!. مع العلم أن هذه الطريقة من الاستدلال صارت شائعة لدى قطاع واسع من الباحثين في الأساطير ونقد الدين.

لكن دوكنز يُنهي الكتاب بالتركيز عليه وحده، بعدما تكرر حديث المؤلف عنه مرات عديدة.

٥ ـ إن دوكنز نفسه يقرّ بأن ألعاب الصبيان تلك فيها فرق جوهري: الوعي بأن تلك الشخصيات وهمية، بخلاف الأمر في الدين حيث المؤمن يعتقد بأن الإله وجودي واقعي بل هو أصل الواقعية. في الحالة الأولى يمكن لبعض الأطفال أن يكون لهم وهم بواقعية شخصيتهم المُتخيلة، لكن كلما تقدم بهم العُمر بَهُتت تلك الخيالات، على عكس الدين الذي يشتد بتقدم العُمر.

٦ ـ بالإضافة إلى فرق جوهري آخر: فالصديق المُتخيل، قوام وجوده هو العزلة والفردية، بينما الدين وفكرة الإله، مردهما إلى سلوك واختلاط جمعي.

٧ ـ هذا بالاضافة إلى أن هذا التحليل متناقض تماماً مع التحليل السابق لدوكنز عن أصل الدين، الذي كان تحليلاً قائماً على الحياة الجمعية للإنسان التي تضطره إلى تملق الأقوياء باعتباره ضعيفاً، أو قوياً يحاول فرض قوته على الضعفاء، أو الدين مرده إلى الطاقة البيدية والجنسية.

٨ ـ لكن هذه أول مرة نجد تماثل نوعين من المرض النفسي، بل حالتين من المرض نفسه، تختلفان في الأعراض تماماً.

الثالث والعشرون: لو سألنا دوكنز عمّ تقوم حركية الانتخاب الطبيعي؟!. سنجد الجواب: أنها على الأنانية الكاملة، وأن المنطق الداروينيي هو منطق

الأعداء المطلق وسباق التسلّح المحموم[١]، حيث كل شيء هو ضد كل شيء(وكأننا أمام لغة هوبز المعروفة!). الانتخاب الطبيعي جوهره بحسب ما يقول دوكنز عبارة عن قانون كلي شامل لكل الحياة بأن القانون الساري عبارة عن: التخلّص من الفائضين والمُضرين باقتصادنا وتقدّمنا، تماماً كما يتخلّص مدير حديقة حيوانات من شمبانزي زائد عن الحاجة[٢].

إذا كان الأمر كذلك أليس كل حديث عن الإنسانية والتعاطف والرقة والأمن والهدوء والرأفة بالضعفاء ونشر الخير، كل ذلك مما يدعي التطوريون الملاحدة قوله، عبارة عن أكذوبة وخداع أو تنازل عن نظريتهم؟![٣]. ولماذا ينفعلون حينما يُقال لهم بأن جوهر النتيجة من أطروحتهم أو «حقيقتهم» عبارة عن معاداة للإنسان ونشر روح عدوانية هدامة لكامل المجتمع البشري، لماذا يعتبرون أن هذا تأويل وفهم خاطئين أو مغلوطين للداروينية؟!.

---

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص٢٤٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٤٩.

(٣) على الرغم من مراوغات الإيهام بدقة الالتزام في مجال الحسّ فإن كتب دوكنز مُثقلة بالاستعارات المجازية والاستعمالات الأدبية وكتب الروايات والخيال، وتحضر في منجزه مساحة كبيرة للغة والأدب، وهو يهتدي بشكل واضح بنيتشه وحكمته أن متعة الحياة هي أن تعيش بخطر، والتي جعلت عبدالرحمن بدوي يرقص من الطرب لها في كتابه عن نيتشه. ودوكنز يستعير نيتشه بلا أي تردد لأسباب واضحة (العلم والحقيقة، ص١٠٣)، لكن دوكنز يتغافل أن نيتشه لا ينسجم مع أطروحة المغالاة بالعلم التجريبي، بل هو بالضد من ذلك تماماً، إن دوكنز كأغلب الملاحدة، يعتمدون فكراً التقاطياً انتقائياً ولايختلفون كثيراً عن المتعصبين الدينيين، وذلك لأن لكلا الطرفين ذهنية اعتقادوية. هذا بغض النظر عن مشكلة التهافتات التاريخية، من قبيل محاولة التملص من إلحادية هتلر في «وهم الإله» وكونه شخصاً لا علاقة له بالمشكل اللاهوتي، إلى اعتماد كلمة خطابية يتيمة لهتلر، يعتمدها دوكنز في كتاب آخر(العلم والحقيقة، ص٢٧٥)، لجعل الرجل يصاب بجنون العظمة بسبب الاعتقاد الديني.

وإذا صح سباق التسلح والتخلي عن الفائضين، (كتخلص نازي من العجزة أو اليهود والغجر، بحسب الإعلام السياسي لدول التحالف) فلماذا يستغرب بل يرفض التطوريون الملاحدة مقاومة الدينيين لهم، وتصدي المؤمنين لكل أطروحاتهم ومشاريعهم، أليس ذلك أمراً منطقياً يجب قبوله داروينياً، أم على المؤمين فقط أن يكونوا استثناءً من هذا المنطق الداروينى، وهم وحدهم جيناتهم ليست أنانية؟!.

وأصلاً تفسير جوهر التطور على أنه يقوم على الاقتصاد في الكائن يمنع أي تفسير أخلاقي بالشكل الرقيق المدني الذي طرحه دوكنز، بل هذا الشظف الاقتصادي في التطور منسجم تماماً مع أخلاق هتلر وستالين، المثال الذي ينزعج دوكنز من التطرق إليه ويحاول دفع شبهة أن الدافع الإلحادي له صلة بسلوك الدكتاتوريين. مع أن الدكتاتورية ليست سوى تسمية أخرى للأنانية!، فبما أن الطبيعة لم يكن لها طريق آخر لبناء جمهورية داروين الكاملة، سوى الموت، فلماذا نستغرب أن يستنتج البعض من الداروينية بأن القتل هو المثل الأخلاقي الأعلى؟! وهذا ما تفعله الدول الكبرى المتقدمة بشكل واضح في تعاملها مع الدول الضعيفة، وهذا ليس تنظيراً بل أمر واقع عيني ملموس، وكبار السياسيين هم أصحاب شهادات أكاديمية، درسوا بعمق الدراوينية باعتبارها ليست نظرية تقرأ الحقيقة، بل هي الحقيقة التي تؤخذ منها وعلى أساسها كل نظرية:

«أقصى ما يستطيع التطور أن ينتجه هو فكرة «ربما قد تصنع ما هو صواب». عندما أفنى هتلر ما يقرب من عشرة ملايين من الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال، كان يتصرف في اتفاق تام مع نظرية التطور»[1].

(١) \العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٤٦. للأسف إن دوكنز الذي يحرص على أن تكون أفكاره معتقدات شعبوية وكتابات موجهة إلى الجماهير، لا يناقش مثل هذه الأمور بعلمية بل بخطابية فجّة، يتهم فيها الآخرين بأنهم يستخدمون الشعبوية وجذب العامة من الناس!.

فلندع كل البلاغيات وتضمين معلومات مختلفة مع حيل مجازية وأمثلة متضاربة، يضخها دوكنز بلا ملل، ولنسأل دوكنز الذي يطرح الانتخاب الطبيعي كعقيدة حياة وسلوك وليس تفسيراً فقط في مجال بيولوجيا الكائنات العضوية: ما رأيك الصريح بذلك؟:

«أوافق على أن الانتخاب الطبيعي هو القوة السائدة في التطور .. وأقرّ بأنها مُنفِّرة»[1].

علينا أن نستذكر دائماً أن قضايا العقل العملي لايمكن فصلها بطريقة نقضية عن قضايا العقل النظري[2]، فبأي صورة كانت يجب أن يكون ثمة انسجام بينهما لأن الفاعل لهما كائن واحد وفي واقع تطبيقي واحد. وأكبر مدارات العقل العملي هو السياسة، فما الذي يقوله دوكنز هنا كي يعزز من حقانية الداروينية كخطاب شمولي باعتباره هو «الحقيقة»، خصوصاً وأن الداروينية هي سلوك الكائن وليست وجود الكائن فقط؟! .

(١) المرجع نفسه، ص٤٧. طبعاً ليس من الحل البتة القول إن المبدأ الأخلاقي لا يعتمد محاكاة الواقع الطبيعي، بل هو فرار منه. لأن مثل هذا القول،الذي ينقله دوكنز في الصفحة نفسها هنا، عبارة عن فرار من الداروينية نفسها، والوقوع بسؤال كيف نفرّ من أساس الحياة الأول وعصب وشريان شجرة الحياة الوحيدة؟!.

(٢) أما في جانب العقل النظري فليس لدينا بحسب المنطق الداروني أي ضمانة بأن المخلوق البشري يفهم حقاً حقيقة الحياة والكون، وأن الإنسان يتمتع ببصيرة فهم طرائق الانتخاب الطبيعي، فكل ما فهمه سيكون مجرد انعكاس صوت ذهني خلقه التطور بما يوافق مناخ الإنسان وحاجاته، كما يفهم خفاش من صدى صرخته. وبما أن القوم أعلنوا موت الفلسفة، فهم لابديل لهم هنا من محاولة التفلسف واستعادة المجاديف القديمة التي سخروا منها، وحقيقة أن الداروينية بمثل هذه الأمور لاتملك سوى تفرعات صغيرة لا تصلح كزعانف ولا كأيدٍ، حيث لايوجد لديهم الوقت الطويل كي يطوروا زوائد النقدية هذه!. إن كل تأمل محايد لكلمات كالتي يقولها دوكنز في «العلم والحقيقة» ص٥١، لهي مثيرة للشفقة حقاً، حيث لايجد عالم الطبيعيات سوى محاولة الضحك على نفسه بواسطة مجازيات الألفاظ!.

«فأنا دارويني مُتحمّس، أؤمن بأن الانتخاب الطبيعي وإن لم يكن القوة الدافعة الوحيدة للتطور، إلا أن المؤكد أنه القوة القادرة على إنتاج وهم لهدف يذهل له كل من يتأملون الطبيعة[1]. ولكني في الوقت نفسه الذي أتحمس للداروينية كعالِم، أتحمس لضد الدراوينية، عندما يصل الأمر إلى شؤون السياسة والطريقة التي ينبغي أن ندير بها شؤوننا البشرية.. ولو بدا للقارئ أنه يشتم في ذلك رائحة من عدم الاتساق أو حتى التناقض، سيكون مخطئاً. ليس هناك عدم اتساق في تأييد الداروينية بصفتي عالِماً أكاديمياً، بينما أعارضها بصفتي كائناً بشرياً، وليس في هذا أي عدم اتساق بدرجة أكبر مما يحدث إذا كنتُ سأشرّح السرطان كطبيب أكاديمي بينما سأحارب كطبيب ممارس»[2].

هل من الممكن تخيّل الفصل بين العالِم والإنسان؟!، العالم صفة خاصة به فكيف تُفصل عنه ولو فرضاً؟!.

ثم إنك لم تكتف بالتشريح بل قمت بحماسة غريبة، بنشره بكل ما لديك من قوة وجهد وبناء علاقات؟!.

من المدهش أن تنتهي السرديات الطويلة في بيان محاسن الوصفة الطبية، ثم فجأة يتم رفع لاصق علامة العلاج وإذا بها قنينة سُم وسرطان!!.

---

(١) الطبيعة وهذا في الحقيقة مبدأ أفلاطوني قديم ليس إلا، يتخيل أن إدراك المعرفة هو السعادة القصوى للإنسان، ومن المفروض أن الدارويني يناقض ذلك لأنه مناقض للفلسفة القديمة أولاً، وثانياً لكونه يعطي للأفكار قيمة أكبر من الواقع. لكن بما أنه لم يبق سوى حشد المعلومات فإن الملعومات نفسها تتحول من وسيلة إلى غاية، وتكون المعلومات التي هي مرحلة متقدمة لسعي الإنسان لتحسين حياته، تتأخر وتكون هي الغاية النهائية لهذا السعي!!.

(٢) \العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٤٧. ودوكنز هنا أكثر تواضعاً من كتابه «وهم الإله» الذي حاول بكل جهد أن يناقض قوله هنا ويجهد بيأس أن يجد حلاً لمن يلتزم بالداروينية في كل شيء.

لماذا ينزعج الملاحدة على أساس التطورية من أقوال المؤمنين بأن الإلحاد عموماً والداروينية الشمولية خصوصاً، ينتهيان بمشكلات نفسية وبمضار اجتماعية وخيمة دوكنز نفسه لا ينكرها؟!.

لماذا تم اعتبار ذلك من قبل هؤلاء الملاحدة، وبصخب وسخرية عارمة، بأنها محاربة للعلم وسوء فهم من قبل مجموعة من الخرافيين؟!.

الرابع والعشرون: لو أنّا سكتنا على كل ما سبق وقلنا بأن ضميرنا وحدوسنا الأخلاقية ليست سوى «التركة التطورية فينا»[١]، والتي هي ليست حقيقية حيث «إن فجوة التقطع بين البشر و«القردة العليا» التي نقيمها نحن في أذهاننا لهي أمر يؤسف له. وقد حاججتُ أيضاً بأنه بأي حال، فإن الوضع الحالي لهذه الفجوة المقدسة وضع تعسفي، نتيجة مصادفة تطورية. ولو كانت مصادفات البقاء والانقراض مختلفة، لكانت الفجوة موجودة في مكان آخر. والمبادئ الأخلاقية التي تتأسس على نزوات من مصادفات ينبغي ألا تنال منا الاحترام وكأنها شُكّلت من حجرٍ لا يزول»[٢]، فإن هذا يعني في الواقع[٣] عدم بشاعة أية جريمة مهما كانت، فالطبيعة هي في النهاية التحديد الذي يطرحه داروين ويعتمده دوكنز نفسه «الطبيعة التي تتسم بالخرق والتبذير، والتخبط والقسوة البشعة المنحطة»[٤].

فالوحشية هي الأصل في الإنسان وهي الحقيقة الوحيدة في هذا العالم، وبالتالي فلا شيء يمنع من الجرائم والبشاعات سوى تصادمات

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٢٦.

(٢) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٤١.

(٣) ومن ناحية ترابط استنتاجي متلازم، وإن كان جملة من الناس لا يدركون ذلك ولا يتصرفون بموجبه فعلاً.

(٤) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٤٣.

المصالح والردع ليس إلّا، لأنه حتى «إذا كانت هناك أي رحمة في الطبيعة، فهي أمر عارض»[١]، والإنسان بحسب وجهة نظر داروينية لا ميزة له على بقية الكائنات، وأي تمايز أو تكريم هو مجرد وهم ثقافي ليس إلّا، «الواقع أنه يمكن اختصار معظم ما يُعتبر غير اعتيادي في ما يتعلق بالإنسان، بكلمة واحدة هي: الثقافة»[٢].

وهذا ينتهي للقول بأن التطورية هي أصل الشرور وليس الدين!، وينافي مقولة الملاحدة حول ضرورة التمسك بقيم المدنية الغربية وأنهم دعاة سلام على نقيض المؤمنين. خصوصاً وأن دوكنز يعتمد مغالطة هاوسر التي تخلط بين كون الدين يُعزّز الأخلاق وبين دعوى أخذ الدين من الدين، وبالنسبة إلى الأول لا فرق بين الملحد والمؤمن في الموقف الأخلاقي باعتبار الأمر الخُلقي من الفطريات والأولويات، أما بالنسبة إلى الثاني فيصح تساؤل الملاحدة عن سبب عدم العثور على فرق بين الملحد والمؤمن أمام الموقف الخُلقي. فكأن الملاحدة هنا يتخيلون الفرضية ويسقطونها على الخصم ثم يستغربون من كون مخالفيهم قائلين بها![٣].

---

(١) المرجع نفسه، ص٤٤، وجعل الرحمانية مشكلة ضد الدين،لا تصح إلا لدى ديانة تطرح الإيمان فكرة رومنسية كالمسيحية، أما في دين يُشدد على الصفات الجلالية في الكون وفي خالق الكون، كالإسلام، فهذا أمر يدعو بحق إلى الرثاء. وأكثر مأساة منه تمنطقات بعض غلاة الملحدين الذين إذا طُرح لهم الدين كجلال وجمال استنكروا أن يكون في الدين اعتراف بالقسوة، وإن طُرح لهم الدين كحب وفداء فقط، رفضوا ذلك لكون العلم والطبيعة تقول غير ذلك. فهم والحالة هذه يستبدلون منطلقات رفضهم للإيمان في كل مرة تتم محاجة بشيء مرتبط بالإيمان.

(٢) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٣٠٩.

(٣) وهم الإله، مرجع سابق، ص٢٢٦.

إن دوكنز بعرضه المُتحيز للدين كشر مطلق بسرده أمثلة كثيرة من المجتمع الأميركي خصوصاً، لا يتبع أي توثيق وأرشفة للواقع الحقيقي، بل يعتمد فقط على التعميم الافتراضي الذهني التخيلي، وإلا لو أخذنا مثالاً بسيطاً كحركة مارتن لوثر كينغ لحق المواطنة للسود، سنجد أن المعين الأكبر كان للكنائس ورجال الدين، في حين كان الأساتذة الأكاديميون «المتعلمون جداً» هم إلى جانب العنصريين، وكانت التبريرات اللاحقة كافة قائمة على تنظيرات «علمية» وليست «دينية»، وواحدة من تلك العمليات الرفيعة هي نظرية الانتخاب الطبيعي نفسها، حيث على وفقها كانت صورة السود من ناحية المظهر وحجم الجمجمة وفتحة المنخرين وغلظة الشفتين، تُحيل إلى القرد مباشرة، بحسب منهج المماثلة الأثيرة للداروينية!.

إن دوكنز يحاول بطريقة إعلامية إسقاط بضع مشكلات إرهابية تخنقنا اليوم كي تُعمي أدخنتها معارك أكبر وأشنع بكثير، لم يكن للدين ذلك الدور المهم فيها، ولنا بما قامت به الإدارة الفرنسية في البلدان الأفريقية أمثلة مروعة كثيرة، جرت كلها على أيدي خريجين أكاديميين وليسوا قساوسة.

وإذا تفهمنا أن الكثير من المعلومات حول الطبيعة يتم طرحها بصورة خطاب أيديولوجي إيماني معاكس، فإن القيمة ستقل لكل حديث عن كون الدين ينتشر في الطبقات الأقل تعليماً، ويقل في الطبقات الأكثر تعليماً، فالمسألة هنا ليست للعلم نفسه كما تصور دوكنز وجملة من المثقفين[1]، بل

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص١٠٣، ١٠٥. نجد هنا بعض الشعارات «العلمية» من قبيل: الأكاديمية الوطنية للعلوم كافرة جداً!. يجب أن لا يغيب عنا أمام كل هذه الإحصائيات أنها متعلقة ليس بالإله بل بالدين، وليس الدين كدين بل متعلقاته الشعبية حول أساطير القديسين وتحول الإله إلى شخص يُلمس ويُصلب ويتم دفنه. وبالتالي ندرك حجم هزال كل تلك الابتهاجات لدوكنز وأشباهه المبنية على مثل هذا اللون من الاستدلال.

بسبب طريقة عرض هذه المعلومات العلمية حيث لا يتم الاكتفاء بكشوفاتها بل بما يمكن الاستنتاج منها على الصعيد الثقافي والفلسفي، وبالتالي ينكشف لك حجم المغالطة في عرض مثل هذه الإحصاءات كدليل على تناقضية العلم والدين.

وإذا تذكرنا أنه ما من علم بدون مال، ولا مال ضخم بدون سياسة، حق لنا التشكيك الواسع في خطاب دوكنز وغيره حينما نربطه بمجريات السياسة العالمية الراهنة، التي لو أجرينا منطق التماثل الداروينى عليها، لوجدنا تكرار استعمار الدول الضعيفة وإحراقها وتفتيت نسيجها الاجتماعي ومواطن قوتها، وأحدها الدين بالتأكيد، كان مصحوباً بحملة إعلامية إلحادية جعلت من الداروينية منطلقاً لها، وها هي المجريات السياسية نفسها تعود وتستخدم اللافتات العلموية نفسها واستعمالات العلم كخطاب أيديولوجي يُجهز على ما تبقى من الخصوم الذين أخطأتهم النيران العسكرية المباشرة. ألم يقترن ظهور نظرية الفوضى الخلاقة بنظرية علمية وطرح سياسي؟!.

لو التزمنا بالعلم فقط لكان حق على دوكنز الدفاع مثلاً عن تعددية زواج الرجل بأكثر من امرأة، حيث هناك شبه إجماع الآن على أن الرجل مكون عاطفياً وفيزيولوجياً على عدم القدرة على الاكتفاء بامرأة واحدة، لكن نحن نعلم أن دوكنز وبقية الملاحدة لن يقتربوا من مثل هذه المواضيع المتضادة مع أيديولوجيا الدول الكبرى.

ليست القضية تحليلاً تنظيرياً فقط، بل هي ما يقرّ به ريتشارد دوكنز نفسه. فهو يطرح أن نظرية الخلق ونظرية التطور، ليستا أطروحتين فكريتين فقط، بل هما تكتلان سياسيان تقوم كلاهما على مؤسسات سياسية متنافسة:

«سبب مُحتمل وراء رأي بعض العلماء الأميركيين الذين يؤكدون أن العِلم لا يملك الكلمة الفصل فيما يخص فرضية الله، قد يكون المناخ

السياسي هناك الواقع تحت رحمة أتباع نظرية الخلق الشائعة، في بعض أجزاء الولايات المتحدة، يحارب العِلم من قبل معارضة منظمة جداً ولديها علاقات سياسية رفيعة، وأهم من ذلك الكثير من المال. ونظرية التطور لداروين تقع في الخندق الأول للمعركة. العلماء لديهم كل الحق بأن يشعروا بالتهديد لأن الأبحاث تموّل بشكل رئيسي من الحكومة، وعلى المرشحين أن يتجاوبوا مع الفئة الجاهلة، والمجحفة كما مع الفئة المتنوّرة من الذين سينتخبونهم.

وكرد فعل على هذا التهديد، ظهر لوبي مدافع عن نظرية التطور، يمثله بشكل خاص المركز الوطني للتربية العلمية، برئاسة أوجيني سكوت.. أحد أهم أهداف المركز السياسية هو حشد آراء «المعتدلين» دينياً: عامة الشخصيات الكنسية الذين لا يرون مشكلة مع نظرية التطور، وربما يعتبرونها غير ذات تأثير(بل حتى داعمة) لإيمانهم. لهؤلاء الأقلية من رجال الدين، غير المتعصبين بل ربما مُحرجين من قبل أتباع نظرية الخلق التي قد تعطي انطباعاً سيئاً عن دينهم، هم من يسعى اللوبي التطوري إليه. وإحدى الطرائق هي أن يتكلفوا العناء بأن يتبنوا مبدأ غولد «اختصاصات غير متداخلة» ويقبلوا بأن العِلم لا يمثل تهديداً بأي شكل من الأشكال، لأنه منفصل تماماً عن العلوم الدينية.

نجم آخر لامع نستطيع أن نسميه نموذج السياسي التطويري هو الفيلسوف مايكل روس، الذي حارب بفعالية مذهب الخلق على الورق وفي المحاكم، ويزعم بأنه مُلحِد، ولكن مقالته في «البلاي بوي» تتخذ وجهة النظر التالية:

نحن المُحبين للعلم علينا أن ندرك بأن عدو عدونا صديقنا. التطوريون يصرفون الكثير من الوقت بإهانة من يمكن أن يكونوا حلفاءنا. وهذا أكثر وضوحاً في حالة التطوريين العلمانيين. الملحدون يصرفون وقتاً أكبر بإهانة

المسيحيين المتعاطفين بدلاً من مواجهة حلفاء نظرية الخلق. عندما كتب يوحنا بولس الثاني رسالة يدعم فيها الداروينية، كان جواب ريتشارد دوكنز ببساطة بأن البابا منافق، ولا يمكن أن يكون متماشياً أصلاً مع العِلم، وأن دوكنز يفضل متطرفاً صادقاً عليه»[١].

إذن، هناك تطوريون يقولون بمحدودية استنتاجات العِلم التجريبي «ربما هم [القائلون بنظرية التطور] يؤمنون فعلاً بأن العِلم لا يستطيع أن ينفي وجود الله، ولا أستطيع التوقف عن التساؤل هنا: كم من الوقت صرفوا بالتفكير، وكيف يتصرفون حيال النزاع الداخلي في عقولهم»[٢].

هناك علماء تطوريون يرون عدم تعارض الانتخاب الطبيعي مع الدين، وليست هناك علاقة ضرورة بين الداروينية والإلحاد!.

قد يكون الإحباط والحراجة النرجسية وحدهما اللذان يجعلان دوكنز في بعض الأحيان يصوّر حتى مخالفيه من علماء الطبيعة القائلين بالتطور لكن لهم صِلاتهم بالدين، بأنهم غير علميين، باعتبارهم ليسوا ملاحدة، إن الجنحة النفسية تتطور هنا من غلواء انفعالي يختزل المقولات إلى تضخيم الاقتناع الشخصي لتغدو هي ما يجب على الآخرين الأخذ به وإلا تعرضوا للمعاقبة اللفظية، باعتبار أن صاحبنا لا يملك سواها حتى الآن، هكذا ينتهي الإلحاد إلى كونه علمياً بنفسه، تماماً كما أن الدين شرٌّ بنفسه، كل ذلك عبر طرح علمي لايتبنى فكرة الذاتية!.

وهناك علماء تطوريون مرموقون ينتقدون الإلحاد بوصفه خطاب اعتداء وإهانة، إذن فهو: عنف. ويا للمفاجأة حتى كبير رجال الدين البابا يوحنا بولص

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٦٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٢.

الثاني أقر بالدراوينية ولم يجد فيها نقضاً لفكرة الإله، لكن دوكنز يفضل هنا إرهابياً متطرفاً صادقاً في عقيدته الإقصائية على مؤمن مثقف لايجد حراجة بين نتائج العلم والدين، حيث ليس الدين هو «الغيب» بالضرورة، ولا العلم عقلانياً دائماً، بدليل السوابق الإيمانية للداروينيين قبل ظهور أي شواهد تدعمهم، والفرضيات الكثيرة لفيزيائيين يعتمدون صراحة على الخيال الخصب. لكن دوكنز لا يقبل أية مقاربة ويعتبر كل هذا عبارة عن: «دق المسامير القمعية الوسخة.. يقاتلون بوساخة»[1]، إلى آخر لغة العنف المفرط الذي يصل في بعض الأحيان إلى عصابية نفسية صريحة.

وبطبيعة الحال يغيب سؤال سياسي هنا: أليست الدولة الليبرالية قائمة على فصل الدين عن الدولة، فكيف يمكن تحويل نظرية التطور إلى خطاب هجائي ونافٍ للدين،ذلك يعني أن الدولة تموّل وتسمح بمحاربة الدين وتتحيّز ضده، عبر دكتاتورية النخبة، وأبسط أشكال ذلك تفكيك الخلايا الأولية للدين بواسطة تدريس أساتذة ينتمون إلى حزب الداروينية، للطلاب المتعلمين في المدارس الحكومية؟!.

ثم ألا يقع دوكنز، وأشباهه، هنا في السلوك نفسه الذي يندد به بعدم قانونية تدريس الدين للأطفال؟!.

ودوكنز هنا يسلك سلوك المتطرفين الخطرين الذين يدّعون معرفة ما

(١) وهم الإله، مرجع سابق، ص٧٠. في ص٧١ مثلًا، نجد دوكنز يستمر في توتره العصبي ضد مخالفيه ليطرح نفسه العراف الذي يعلم بخبايا النفوس، فيتهم إحدى الكاتبات بأن المقال ليس لها بل كتبه شخص آخر، ولا يحاول التمعن أبداً في نصها ،حيث يكفي أنها غير مقتنعة بخطابه كي تتحول إلى صحفية مزوِّرة. وإذا كان هذا هو سلوك دوكنز مع رفاقه في العلم وفي مجتمعه الغربي، فإنه من الطبيعي حينئذ أن نتخيل حجم الإقصاء والتبخيس للشرقيين والعرب والمسلمين.

في نفوس الآخرين ويحاسبونهم وفق أمزجتهم وتقويماتهم المُسقطة عليهم كُرهاً وكراهيةً.

إن اتهام دوكنز للذين اقتنعوا بمحدودية العِلم التجريبي، هو اتهام يقوم على الفرض فقط، وهو اتهام قائم على «علل» نفسية بدون استدلال، لكون مقولة أن العلم لا يملك كلمة الفصل فيما يخص فكرة الإله، كُتب فيها الكثير في مجال الفلسفة وفلسفة العلوم،و كثيرون منهم خارج الولايات المتحدة الأميركية وصراعات أحزابها. مع ذلك تبدو لنا المركزية الأميركية وكأنها معيار شامل يسهل عليه شطب كل ما لا يتصل بهيمنته.

لكن السؤال الذي يبقى متعلقاً بهذه النقطة: إذا كان وضع العِلم كخطاب،هكذا في داخل أميركا نفسها، بحيث يصفه كبير الملحدين نفسه بأنه: ردة فعل، فكيف يتم طرح العلم كخطاب إلحادي، منزوعاً من السياسة، بكل هذه البساطة؟!

يُقال عادة إن هتلر والنازية، وستالين والشيوعية، زوّروا نظرية التطور، وفي هذا الكلام تحامل، فهم في الحقيقة أوفياء عمليون لها. لأنه لو لم تكن هناك أية قيمة متعالية على الماديات كان معنى ذلك خواء الحقيقة الأخلاقية والضمير والقيم، ولا يبقى سوى الاحتفاء بالشهوات والقوة . وإلا فالعدمية والانتحار. وأبسط من ذلك ما تقرره نظريات الجمال الداروينية التطورية، بأننا في الجنس، مثلاً، نميل إلى الأكثر صحة فقط، وهذا بلا شك تثقيف يجعل من العنصرية مطلباً علمياً، فوفق هذه النظرية نحن نبحث فقط عن العيون الواسعة والذقن الصغير والشفاه الممتلئة، وهذه صفات قد تكون نادرة في

بعض الشعوب. وبالطبع هي لا يمكن لها أن تُفسّر لماذا قام التراث الياباني على التغني بصغر العيون (عين حبيبتي صغيرة مثل الديك)!.

لأنها لا تبحث في عالم الواقع وأرشيفه الذي حصل، بل تدور في شغف بحث انتقائي عن اقتناع إيماني سابق لقواعد التطور.

ولا تمكن الإجابة هنا: بأن المُلحد لا يمارس، مثلاً الجنس مع أمه وأخته وابنته، لسبب نفسي نتيجة تراكم الاعتراف بالتابو، ولا يسرق خوفاً من القانون، ولا يمارس أعمالاً قبيحة نتيجة الضغط الاجتماعي ليس إلّا. فهذا يُعيد السؤال: ولماذا يقر وينضم إلى الجماعة حتى في الحالات التي وعى الكذبة التربوية ويستيطع أن يمارس ما يشاء بدون رقابة أحد؟!.

ثم إن هذا في النهاية يجعل المُلحد مخلوقاً وحشاً في الحقيقة وكنتيجة منطقية، أما بعض الأوروبيين، كالدنماركيين مثلاً، فهم إذ يسلكون سلوكاً إنسانياً طيباً، فإنما انصياعاً لوهم ثقافي آخر باسم الإلحاد، وإلا فالإلحاد لا ينسجم مع أخلاقيات التراحم التي لاعلاقة لها بمسائل الانتخاب الطبيعي المفيدة للبقاء.

تساؤلات العمى

إن نظرية التطور وهي تعتمد على عمى الطبيعة[١] لا تُفسِّر كيف تعي المخلوقات غير العاقلة (فضلاً عن المخلوقات الأولى لبدء التكوين) خطر المحيط، وبالتالي تقوم بتطوير بنيتها فتُغيّر الأسماك والفراشات والنباتات وكل شيء، مظهرها الخارجي وعدد أطرافها كي تستمر وتكوّن أنواعاً جديدة؟![٢].

وكيف تلتقي كل هذه الكمية من المصادفات في تطور عنصر مُعين مع عنصرآخر، مثلما هي حال الأزهار وبعض الحشرات، مثلاً. كيف تلتقي هذه العوالم فيما بينها وكلها لا يعلم بنفسه فكيف بعلمه بمخلوقات غيره، فيقوم ليس بإقليمه الزمني كي ينسجم معه ويستمر في الحياة، بل يتطور بما ينفع الأجيال المستقبلية التي سوف تأتي أيضاً؟!.

---

(١) ونظرية الانتخاب الطبيعي هي نظرية في الأحياء فقط،لكن يتم توسعتها عند الاحتجاج إلى جميع الكائنات!.

(٢) بالتعبير القرآني إن هناك خلقاً ثم هناك هداية لحفظ هذا الخلق، فالكائن لا يحتاج فقط أن يظهر كنوع مستقل بل لابد أن يسيرعلى نسق يحفظه، وهذا هو معنى الهداية، فالضلال هو عدم الوصول إلى المقصد والضياع (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى). فهو الذي خلق كل شيء «أطواراً» والنسق العام هو هيكل الحقيقة الذي نسميه الوجود أو الكون. فوجود نظام داخل الكائن لكي يتأقلم مع المتغيرات ثم يتطور ليبلغ الاستمرار أو مستوى آخر من صور الوجود، لا ينفي «الخلق» بل هو فرع منه. لا نستطيع هنا القول «لاحاجة لإدخال قوة خارقة لتفسير الحياة» لأن هذه القدرة نفسها الموجودة في الكائن هي قوة خارقة.

وإذا كان الخلق صانعاً أعمى كي يُبقي الصفات الصالحة في مستقبل الأجيال وليس في الجيل الآني فقط؟!

ثم حتى لو آمنا بكل ذلك تبقى المسألة مرتبطة بالنماذج العلمية التي تم قياس الحقيقة عليها، حيث النسبية تشمل نماذج المعرفة وليس الحقائق العلمية فقط كما أوضح توماس كوهن.

إن عملية التراكم الوراثي التي تقوم بتعديل الأنواع وإنتاجها، لا تتلاءم مع تكرار ينسجم مع غاية مُحددة تقع في النهاية بشكل حتمي وإلا لما كان انتخاب الأصلح قد وقع أصلاً، لكون الأصلح يعني هنا ما هو مفيد في إبقاء النوع، وكلمة «إبقاء النوع» تعني المستقبل بل المستقبلات البعيدة وليس ما يقع في جيل واحد، وإلا لانعدم الكون منذ أمد بعيد، لكنه استمر إذن ما فرضته صحيحاً خطأ والدليل هو الواقع المتواصل البقاء. الأمر الذي يعني انتهاء الإلحادية القائمة على فكرة التطور إلى الموقف السفسطائي القديم في إنكار الواقعية، وإن كان إنكاراً بالغ التعقيد والحيلة والذكاء.

أما الاحتجاج بوجود عيوب ما كما يُقال في شأن بعض أجزاء العين أو موقع كيسي المني، المسافة الطويلة بلا أي فائدة التي يسلكها عصب لارينغيل أو غير ذلك[1]، فهو فضلًا عن وجود إجابات طبية مقابلة، فإن المؤمنين أنفسهم

(١) لا يستطيع دوكنز (وهم الإله، ص١٣٦) منع نفسه من السخرية من الإله ونحن نجد الحيوانات المفترسة مُجهزة بدقة لنيل فريستها، والفرائس مُجهزة بدقة للفرار من صيادها؟! وهو سؤال يشعرنا حقاً بالحرج لكونه صادراً عن عالم أحياء كبير، فهل هذه الجهوزية منعت المفترسات من الحصول على فريسة، أو منعت الطرائد من الاستمرار والتكاثر؟! فحتى الحيوانات التي انقرضت لم يكن هذا العامل قط هو سبب انقراض أي نوع في أي واحد من الطرفين. ولم يكن دوكنز ليطرح سخرية ضحلة كهذه لو لم يكن قد حدس بمشكلة أن التطور ينتهي في كل مرة إلى دقة أكبر

قالوا إن كون الشيء مخلوقاً يعني أنه يحمل نقصاً ما، وأن قابلية الوجود للكل لا تعني وجود انكسارات في الأفراد، أو مقداراً من النقص الجزئي في النوع، فلكل شيء ضريبته . وهذا ما يقر به التطوريون أنفسهم.

وفي النهاية يمكن لنا تخيل تطور الأنواع من خلال هذه النظرية، لكن لا يمكنها أن تصوّر لنا كيف كانت البداية، فإذا لم تكن هناك علة متعالية هي التي وضعت بذوراً تفاعلت في محيطها لا يمكن أن ينتج شيء، فالعدم لا يظهر منه الوجود، كيف ظهر أول وجود، حيث إليه ينتهي تفاعل الكون كله؟!.

هذا ما يجعل نظرية التطوّر دليلاً علمياً على خالق أعلى وليس نفيه، فهي تصوير جميل لتشكيل الذكاء الأعلى وكونه هو الأمر الثابت في دوامة المُتغيرات. لأن افتراضاً مثل افتراض دوكنز (الجزيئي ذاتي الاستنساخ) فهو فضلاً عن كونه مجرد افتراض خيالي صرف، إلا أنه وجود محدود لا يقطع السؤال: كيف ظهر؟!.

ومن هنا يعود برهانا النظم والحدوث إلى الظهور مرة أخرى، باعتبارهما دليل حاجة الكون في ظهوره إلى خالق أعلى حتى لو احتجنا إلى أدلة أخرى أو نفيها على مسألة استمرار وجود العالَم للخالق المتعالي. ونظرية التطور وإن أمكن لها مناقشة الجزء الثاني فهي غير قـادرة بالمرة على مناقشة المسألة الأولـى، وإن كانت هي متورطة في مسألة تذويت ذاتيات الأشياء ولماذا لكل عنصر وجودي صفات خاصة به دون غيرها، ولماذا يسلك هذا السلوك دون سواه، وكيف يلتقي في النهاية الجميع بالجميع ليتحقق توازن الكون واستمراره؟!. وحتى أن داعية إلحاد فيزيائي مثل ستيفن هوكينغ لم يقرر سوى وجود «نقطة ضئيلة من الطاقة متناهية الحرارة» وهذا يعني وجود

من التي أراد هدمها وإلى تصوير ذكاء أعقد من الذي أراد إنكاره، في المجموع الطبيعي ليس سوى متواليات من التوازن المتلاحق وليس العشوائية المتراكمة.

موجود ممكن وبداية لمخلوق ممكن، في النهاية لم نخرج عن دائرة الواجب والممكن بل المُحدث، فضلاً عن أن نظرية التطور وبقية النظريات المطروحة كذريعة للإلحاد لا تتكلم إلا في عناصر الوجود وكأنها كمجموع ليس «نظاماً» لذا يتم تصويرها كمصادفات عمياء، أو «صانع ساعات أعمى» في حين أنه لو تم إلغاء النظام لما تحقق شيء ولما كان هناك انتخاب طبيعي حيث لايعد ثمة وظائف هناك، وبما أن النظام أكبر من مجموعة عناصره لكونه يعني مقدار العلاقات ونوعيتها فيما بينها، فإن أشد ما يجعل نظرية التطور العملاقة تنتهي إلى موقف في غاية من الحراجة الساخرة، هو انتهاؤها إلى رفض أي نوع من النظام كاستنتاج لحقيقة عينية تقع أمامنا وقد زودنا العلم الحديث بدقة عالية رؤيتها ومعرفتها، وكأن الأمر يصل في عناده هنا من إنكار الإله إلى إنكار الواقع نفسه واعتباره بغطرسة أكاديمية أنه لا يعدو أن يكون هو الآخر مجرد: وهم!. وهكذا علينا أن نُسلّم ببساطة أن العدم المحض والمصادفة البسيطة هي التي انتهت إلى «التصميم العظيم». وكأن قوانين الفيزياء بالإضافة إلى قوانين التطور في الأحياء، باتت هي قوة خالقة خارقة متعالية يُراد لها أن تكون كامنة في الطبيعة فلا تعلم مستقبلها لكنها أكثر دقة بما لا يُتصور في تحديد وتوجيه هذا المستقبل لكل هذا الكون الشاسع المُذهل التعقيد!. فإذا كان من الممكن الموافقة مع كلمة ستيفن هوكنغ حول كتابه «التصميم العظيم» بأن العلم لا يمكنه إثبات عدم وجود الإله، لكننا لا نحتاج إليه لمعرفة الكون، فإنه من غير الصحيح أن عدم إثبات وجود الله بشكل تجريبي يمنع من الاستفادة من المكتشفات التجريبية كدلالات استنباطية، فضلاً عن أن مجرد المعرفة لا يعني نهاية الطريق. فإذا كان كل شيء قد سار ويسير صوب تحقيق كمال بكل هذا البهاء، فإنه يحق لنا أن نسأله عن «الغاية» وبالتالي عن مجموع الكون نفسه.وهذا ما جعل ستيفن هوكنغ يطرح سؤال الغاية نفسه ويعتبره السر

الأعظم في الوجود. وهو سؤال لا يتم طرحه إلا في مقابل وجود حيّ عاقل، وليس وجود أصم لا يفهم، ذلك أن عقلاً فيزيائياً بارعاً مثل ستيفن هوكنغ يعلم جيداً أن الجذر الأولي للفيزياء لا يكون داخل الفيزياء، وأن كل قانون يتحكّم في موجود ما، هو يقع خارج هذا الموجود، وبالتالي حتى لو كانت هناك مصادفات بين جزئي وآخر فإن المجموع المُنظّم ونتيجة التصميم الكامل لكُلية العالَم، يقران أن هناك جذوراً أعمق تقع خارج الجزئيات التي درسها علماء الأحياء التطوريون وعينات الكواكب بالنسبة إلى الفيزياء التطبيقية. وبالتالي نصل إلى شكل من الحياة والعقل يفوق كل ما يمكن أن نعرفه من عينات الحياة والدقة الرياضية للموجودات، لأن كل ما يمكن لنا معرفته، هو جزء من الطبيعيات، للأحياء أو الفيزياء أو غيرهما، وهكذا نعود إلى ذلك الجذر الذي يقع خارج كل ذلك.

وعلى الرغم من أن عبارة ستيفن هوكنغ واضحة بعدم القدرة على النفي، فإن ريتشارد دوكنز قد علّق: «أخرجت الداروينية الإله من علم الأحياء، لكن حالة الفيزياء بقيت أقل وضوحاً. وأما الآن فإن هوكنغ يقود قتلاً رحيماً لفكرة الإله في الفيزياء». إذن، لم تكن نظرية الأحياء قادرة البتة حتى من الناحية العلمية التجريبية على نفي الإله، وبالتالي كان «وهم الإله» عبارة عن «وهم» من الناحية التخصصية. حيث تمت توسعة نظرية التطور في الأحياء كي يتم تعميمها عن طريق المماثلة والقياس الفقهي القديم، لتشمل بنتائجها الكون كله[1]. وبالتالي فإن ريتشارد دوكنز حينما كتب هذا الكتاب الصادر عام ٢٠٠٦، لم يكن يقف إلا على إيمان نفسي غير موضوعي، حيث إن كتاب هوكنغ صدر عام ٢٠١٠. هذا مع العلم أن كتاب ستيفن هوكنغ عبارة عن

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص١٤٣.

خلطة من النظريات المتعددة، مثل ميكانيكا الكم ونظرية الأوتار، ولم يُقدِّم أية نظرية، وتذرع في النهاية بمقولة شبه هرمسية احتار الجميع بتحديدها سُميت بنظرية «إم» التي لا إجماع على تعريفها سوى أنها غير قابلة للاختبار والتجريب. وبالتالي ينطبق عليها القسم الثاني من اللاأدرية الذي قال عنه دوكنز بأنه مخالف للمعرفة العلمية والحسّ السليم للتفكير العقلي الذي يجب على الملاحدة اتباعه!. هذا فضلاً عن أن فكرة العوالم الممكنة التي تمسك بها ستيفن هوكنغ متطابقة تماماً مع نظرية المتصوفة الإسلاميين حول دوام الفيض لكل الماهيات المُمكنة أو التي يُمكن أن تكون، وبالتالي فالوجود فوران من الإمكانات غير المتوقفة لعزف موسيقي لأوتار الإيجاد، ومن هذه الحقيقة تحول الدين الصوفي إلى رقص وعشق وهيام. بمعنى أن هذه النظريات لا تنفي الدين بل تُعزز أشد التيارات الدينية عُمقاً!

لو تجاوزنا نظرية المؤامرة والمساندة الإعلامية لكل ما فيه تقويض للإيمان، فإننا في كثير من الأحيان لا نملك سوى أن نحدس أن خلف هذه الكتابات دعماً إعلامياً لأغراض سياسية لتوحيد الناس خلف صيغ ذهنية موحّدة، خصوصاً وأن ستيفن هوكنغ اعترف بأنه أراد حذف بعض العبارات التي تخص الإله، لكن وجد أن هذا يُقلل من مبيعات الكتاب!.

وفي النهاية حينما نتابع كل افتراضات ستيفن هوكنغ والكمية الهائلة من تجميعات الـ«الحظوظ» والمصادفات، فإنه يحدث انكساراً وقفزة بين حديثه عن ولادة الكون والنجوم ثم الأرض والعناصر، ليظهر لنا كائن له قدرة ذاتية على نسخ نفسه، إن كل ما سبق لم يكن حيّاً فكيف تمتع هذا الموجود بهذه القدرة والميزة؟!. إنه مجرد خيال لا دليل عليه ولو من ناحية الحسابات الافتراضية.!

أما قصة أننا والقرود أولاد عمومة، فالأمر في نفسه، ليس فيه شيء مُرعب ولا فيه ما يقتضي حساسية الإهانة، أليست النصوص الدينية تقول إننا من تراب، أقله القرد وسلفه ،مخلوق حي مُتحرك له مقدار من الذكاء والإدارة. إن الدين جعل بداية الإنسان أكثر وضاعة من البداية التي اقترحها العلم. وإن كان هذا غير دقيق فمن الباهر أن نجد نصاً دينياً يقول: إن الماء ميزان وجود الحياة وإن هذا الميزان لايزال معتداً حتى يومنا هذا؛ حينما يبحث رواد الفضاء عن الماء عندها سيقولون إنهم وجدوا حياة. الماء ميزان كوني وليس أرضياً فقط. وبالتالي حينما حددت بعض النصوص الدينية بأن أصل الإنسان عبارة عن ماء لا يعني أي قيمة تسافلية. بل ألم يؤمن غالبية فلاسفة الإسلام بأن كون الموجود قديماً غير مسبوق بعدم، لا يعني وجوبه وضروريته بالضرورة، فملاك الاحتياج إلى العلة ليس الحدوث بل الإمكان الذاتي والوجودي (بحسب تقرير المسألة على القراءة المشهورة بين ملا صدرا وابن سينا، وإن كان هذا غير دقيق فابن سينا يقول بالإمكان الوجودي أيضاً). على أن تغيّر الأنواع وتطورها لا يصطدمان بمفهوم الحركة الجوهرية التي قال بها كبير الفلاسفة الإلهيين. حيث كل شيء في دوامة من التغيّر المستمر التي لولاها لانتفت حركة التطور الذاتي للداروينية، لكن كي تبقى الأشياء أشياء وتبقى داخل هذا المحيط الخاص والعام، تحتاج في ذواتها إلى قيوم يبقيها ويحفظها كي تستمر في مسيرة تغيّراتها. وإن كان الأمر مع نظرية الانفجار الكبير لا معنى حقيقياً لها وراء تخيّلها، فالعنصر الفرد البالغ من الصغر حافة العدم، وبالتالي يمتنع تفعيل أي قانون فيزيائي فيه، وهو كحدث جرى مرة واحدة يتناقض مع فرضية الاحتمالات الهائلة، فهنا المصادفة نجحت منذ المرّة الأولى، ولم نعثر، ولو لمرة واحدة، على نتيجة من هذا الحدث الفوضوي الكبير الذي هو الانفجار العظيم، إلا على حوادث متزنة بشكل دقيق جداً وبالغ التعقيد.

لو أخذنا صفة خُلقية مثل الكرامة لوجدناها تسير في كثير من الأحيان بعكس مسيرة تطوير الذات، بل تدميرها، فكيف تنتج الطبيعة ما هو مُتعالٍ عليها؟! وهذا ما يتجاوز انتحار بعض الطيور جوعاً حينما يتم حبسها. ولا يأتي جواب التطوريين إلا عبر تأويل لا يختلف عن مسالك التأويل اللاهوتي.

من الطرائف أن الملاحدة المعاصرين يقررون نفي الإله بتقرير ضرورة تبخيس قيمة الإنسان وأنه حيوان عادي كبقية الثدييات ولا قيمة جوهرية له، لكنه هو المخلوق الوحيد الذي لديه القدرة على التفكير في الكون ككل، كما يقول ستيفن هوكنغ في «تصميم كل شيء» لماذا إذن، يفكر في الكون ككل ولا يقع هذا التفكير في طريق الانتخاب الطبيعي، ثم أليست هذه القدرة جوهرة غير عادية تجعله يباين كل الموجودات لذا هو فكّر فيها جميعاً وتجاوزها؟!.

إن فرادة الإنسان أمر ملموس مادي، لكن لكون الأديان قالت به تم تكوين قضايا خيالية في محاولة تهوينه وتبخيسه والانجرار خلف تحيز عاطفي استحقاري، لا يقول إلا بالواقع الملموس لكنه في واقعه مبني على تعالٍ مترمنس.

في الخاتمة: هل تمكنا أخيراً، بفضل العلم التجريبي وحده، من معرفة الكون وبالتالي الحُكم عليه، لأنه لا حكم بدون مرحلة التصور والتعرّف؟! خصوصاً وأن حجم التصادف أكبر بكثير من عُمر الكون كله لولادة عنصر كيميائي أساسي على الأرض، قدرها البعض بعشرة بلايين سنة مضروبة بـ٢٤٣' مرة (ظهور عنصر بروتين أساسي كالكاربون والأوكسجين، وليس الخلية الحية فضلاً عن الحيوان أو الإنسان!!) أم إن الرياضيات وحساب عُمر الحياة لا يصلحان إلا للسخرية من الزمني الديني وقصة الخلق التوراتية أو الهندوسية؟!:

«إن الكثير من الكون، كما يكتشفه العالم، هو مما يصعب فهمه. فهناك نسبية آينشتاين، واللايقين الكمومي، والثقوب السوداء، والانفجار الكبير، والكون المتمدد، والحركة جد البطيئة للزمان الجيولوجي، كل هذه أمور يصعب استيعابها»[1].

هذا كله تواضع العقل أمام فكرة المخلوق الماثل، فكيف ينتفخ العقل غروراً أمام الوجود الخالق؟!. لماذا يتصور هؤلاء أن الخالق أكثر بساطة وأقل إدهاشاً من أي حقيقة علمية تخص حصى شاطئ البحر أو مجرات تسبح في بحر العالَم؟!.

يختم دوكنز كتاب وهمه بالاستشهاد بعدة باحثين مُختصين، بأن الكون ليس أغرب مما نعتقد بل هو أغرب مما نستطيع تخيله، وأن حقائق السماء والأرض فوق ما حلمت به الفلسفة أو تقدر أن تحلم به، وأن من يقول إنه فهم نظريات العلم فهو لم يفهمها[2] . حيث «قد تكون هناك بعض الأسئلة العميقة عن الكون ستظل أبداً مما يتجاوز العِلم»[3].

لم نتصور الكون لكن لم نحكم عليه فقط، بل على ما يتجاوزه!.

وإذا كان أشد ما يُزعج في دوكنز لغته الجزمية وتناقضاته مع نفسه خصوصاً في كتابه الدوغمائي وفي توهماته عن فكرة الإله، فإن كتاب وهم الإله لم يسعه سوى أن يختم صفحاته بتناقض أخير: لقد قال لنا دوكنز إن الوجود والحياة والكون، لغز فوق ما يمكن تخيّله وتصوره، لكنه هو نفسه القائل إننا قد توصلنا إلى حل أعظم الألغاز ولم يعد ذلك لغزاً لأنه قد تم

(١) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٨٨.

(٢) وهم الإله، مرجع سابق، ص٤٧٠، ص٤٧١.

(٣) العلم والحقيقة، مرجع سابق، ص٢٥٩.

حلّه[1]. والتطور ،كما سنرى، هو حقيقة الماضي والمستقبل، لكن عقولنا تجاوزت التطور ويجب أن لا نكترث له!.

إحدى طرائق التحقق من صحة النتيجة هي مقابلة النهاية بالبداية، فماذا كانت بداية دوكنز؟!

لقد اشتهر ريتشارد دوكنز من خلال أطروحته في تجديد الداروينية المُسماة بـ«الجين الأناني»، والتي ظهرت في منتصف القرن العشرين. وهذه الفترة الزمنية لها دلالالتها من جهتين:

الجهة الأولى البحثية، فمنذ رحيل داروين عام ١٨٨٢ تم إهمال نظرية الانتخاب الطبيعي حتى منتصف القرن العشرين، وسُميت هذه الفترة بخسوف الداروينية. بمعنى أن أكبر تطورات العلوم الطبيعية والتصنيع جرت كلها باستبعاد نظرية الانتخاب الطبيعي وليس من خلال التمسك بها. ولقد قلنا في مطلع هذه الأوراق إنه لا تلازم بين الإيمان بالانتخاب الطبيعي وبين التمسك بعلوم العصر أو العكس.

والجهة الثانية هي صراعات الثورة الجنسية والأزمة الاقتصادية، حيث كانت الاضطرابات عارمة في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية. وكأن ثورة التحلل الأخلاقي كانت واحدة من الطرائق السياسية لتخفيف التقشف الاقتصادي وضياع الناس بسبب حروب بريطانيا وأميركا ضد ثورات أميركا الجنوبية ضد الطغاة.

في خضم ذلك، وفي عام ١٩٦٤ توصل عالم تطوري مختص بعوالم الحشرات، يُدعى «بيل هاملتون» إلى كون الإيثار وليس الأنانية هو حقيقة الحياة، حيث يموت النمل العامل لأجل الملكة والملكة بدون أي مردود على

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي، مرجع سابق، ص١٣.

نسلها، بل قد يكون ذلك مناقضاً لذلك تماماً حيث تسبب دائرة حياتها بالعقم وانقطاع القدرة على الإنجاب، ودوكنز المعروف بأخذه لأبحاث الآخرين وإعادة صياغتها، أخذ أبحاث هاملتون واعتمد عليها (١٩٦٦ ـ ١٩٦٩) ليحدث فيها بعض الإضافة بحيث إن هذا الإيثار لامعنى له بدون ارتباطه بحقيقة الجين الأنانية: «إن الجين قد يتمكن من مساعدة نسخه الموجودة في أجسام أخرى.فإذا كان الأمر كذلك فسيظهر هذا على أنه إيثار فردي، ولكنه سينتج من الأنانية الجينية»[١].

فالأنانية هي الأصل والقضية ليست إيثاراً بل أنانية كاملة إن لم يكن المردود للذات مباشرة فللأقرب منها فالأقرب، وعلينا أن نلاحظ أن الضجة الإعلامية لكتاب دوكنز الذي ظهر بعد عام واحد (١٩٧٥) من بحوث اعتمدت تطوير أطروحة هاملتون جرت بين ١٩٧١ و١٩٧٤، على يد «بوب تريفرز» و«جون ماينرد سميث». وبالتالي فهو ليس بنظرية جديدة كما ادعى صاحبه بتفاخر كبير[٢]. وقد كان لدوكنز قدرة تعبيرية كبيرة، فصار من الواضح، وفق هذه الأطروحة، أننا مجرد آلات وعبيد لجيناتنا، وكل سلوكياتنا وأفكارنا وعواطفنا مردها لمصلحة الجينات فقط. وبالتالي فنحن أمام إشكالية ومفارقة واضحة: لقد صار الانتخاب الطبيعي أكثر منطقية وهو الرافض لمنطقية العالَم!!.

وبالطبع لكي تصح فكرة الجين الأناني يُفترض أن يقوم الجين بتشفيرات متحيزة لصفات معينة وهذا ثابت الخطأ ومناقض لتحديدات علم الوراثيات الموضِّح أنه لاتوجد علاقة متبادلة بين أي جين وآخر بالمرة. ومن هنا قال جملة من النقاد لدوكنز إن فكرة الجين الأناني فكرة خيالية:

---

(١) ريتشارد دوكنز.. عالِم غيّر أفكارنا، مرجع سابق، ص٧٥.

(٢) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٦٩.

«وعلى عكس تعريفه الدقيق للجين، كان دوكينز غامضاً إلى حد ما في تعريف الميم.إذ قال إنه «وحدة انتقال ثقافي أو وحدة محاكاة» فهل هناك طريقة لتعريف الميم كي يمتلك الخصائص التي تؤهله ليكون وحدة للانتخاب الطبيعي، ومن ثم يستحق وصفه بأنه «أناني»؟»[1].

وهو أمر جعل دوكنز يجهد لتقديم ردود قائمة على البلاغة اللغوية الإنشائية، حول موقع الجين في سُلّم الحياة من ناحية الانتخاب الطبيعي وغير ذلك من إسهابات ومعلومات لاعلاقة لها بأي إيجابية.

وفي النهاية تبقى المشكلة الكبرى التي تعانيها كل تصويرات الانتخاب الطبيعي، لكن مع دوكنز تبلغ الذروة، هي مشكلة الحرية، وفق الجين الأناني ينبغي انعدام وجود الحركات الاختيارية في جملة من نشاطات الحيوانات وفي سلوكية الإنسان «نحن آلات بقاء»[2]. وحينما ستكون القضية جبرية بحتة لا ندري كيف تم التوصل إلى مقولة الجين الأناني نفسها؟!.

وكل المحاولات اللاحقة والإضافات إلى الطبعات الجديدة للكتب، التي كررها دوكنز بروتينية بالغة الملل، غير مُجدية:

(فنحن، أي أدمغتنا، منفصلون ومستقلون كفاية عن جيناتنا لكي نتمكّن من التمرد عليها»[3].

وهل أدمغتنا كيان خارج عطاءات الجينة نفسها؟!، أم هل للدماغ خصائص مادية مغايرة لخصائص المادة في الجينة أو ما سواها؟!.

---

(١) عالِم غيرّ أفكارنا، مرجع سابق، ص٨٢. ونكرر أننا في هذا الكتاب لا نثبت ولا ننفي أية قضية متعلقة بالطبيعيات فهذا متروك لمدارات الاختصاصيين، لكن نعرض من باب إمكانية النقاش ودفع الطريقة السجالية لدوكنز.

(٢) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٣٧. ولا يسع الإنسان أن يصدق أن عالِماً بمستوى دوكنز يشرح الحرية بتلك الطريقة المغالطة في ص ٣٦، ونترك التعليق عليها للقراء.

(٣) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص٣٣٦.

وقد انتبه بعض النقاد إلى أن تصويرات دوكنز لا تصح إلا بأن يكون الإنسان عبارة عن ريبوت يتحرك ليخدم سيده الجين، وبالتالي ينفتح باب التبرير النازي والعنصري للأقوياء والمحتالين، وقبول كل السلوكيات العدوانية التي تقع لمصلحة حفظ منافع القرابة العائلية والقومية والجغرافية (أوروبا ضد غيرها، الغرب ضد سواه، الملاحدة أولاً.. المسيحيون في المقدمة، أهل العاصمة في المُقدِّمة، أهل السنة والجماعة الفرقة الناجية والبقية في النار..الخ). ولقد كان هذا المنطق مناسباً للسياسة البريطانية والأميركية التي أرسلت أساطيل الحرب ضد كوبا وإسقاط المُتغير الشعبي والديمقراطي هناك، من أجل حفظ مصالح بريطانيا وأميركا التي تتطلب المزيد من التفكير الأناني وتعميقاً للرؤية الاستشراقية وخطاب إرادة القوة، بالنظر إلى الآخرين بصفتهم أعداء وكائنات منافسة يجب عدم التساهل في فرض منطق الصراع معهم. وإذا كانت عودة الداروينية الحديثة ارتبطت بمفهوم منطق الفوضى التي خلقت الحياة، وكذلك بمفهوم «الفوضى الخلاقة» في إعادة ترسيم الدول الضعيفة ذات القوميات والديانات المُغايرة، فإن لدينا اقتراناً آخر مماثلاً: فمصطلح «الجين الأناني» قد ظهر في فترة صعود نجم مصطلح سياسي شبيه هو «الرأسمالية الأنانية»، وبالتالي كان كتاب دوكنز أقوى تبرير يُقدِّمه بلاط فقهاء العصر الذين هم علماء الطبيعيات، للحكّام وقادة السلطة، وعندئذ سيكون من المنطقي أن يتحوّل عالم البيولوجيا إلى «داعية» الإلحاد. وعليه يكون قد غدا من الواضح لماذا أصرّت كبرى مؤسسات النشر والدعاية على طبع كتاب دوكنز وجعله الأكثر مبيعاً[1]، إنها السياسة والسلطة وليس المعرفة والعلِم. هنا يتبين حجم المفارقة العلمية بين الشهرة الواسعة لكتاب «الجين الأناني»

(١) يقول الناشر في برنامج أعدته قناة البي بي سي، بأنه لم يستطع النوم من كثرة التفكير في ضرورة طبع الكتاب!.

و«المظهر الممتد» حيث تم تقديم إسعافات أولية لإنعاش التطور، وهما وبتحديد دوكنز نفسه في مقدمة كتابه «أعظم عرض على الأرض» يخلوان من أية مناقشة حول التطور إذ إنهما بحسب قوله هنا:

«يُقدِّمان رؤية غير مألوفة للنظرية المألوفة للانتخاب الطبيعي، لكنهما لا يناقشان الأدلة نفسها على التطور»[١].

ويبقى كتاب «الجين الأناني» يُذكّر بغزل مفرط من عشاق دوكنز والمحتفين به، ويجلونه لكونه الكتاب الأكثر منطقية وعلمية الذي حل مشكلات التطور، وعموم حقيقة الانتخاب الجنسي الذي صار مفتاحاً لحل المعضلات القديمة في الداروينية ،و إن كان هؤلاء المتغزلون والمبجلون هم أنفسهم من يقول: «والحق إننا حتى اليوم لا نزال لا نفهم تماماً ما يُسمى بـ«الانتقاء الجنسي» لأي نوع من الأنواع»[٢].

ونحن بدورنا لا نفهم والحالة هذه كيف سيكون الانتخاب الجنسي (قوة تفسيرية هائلة لعلم الأحياء بأسره) بحسب الكاتب نفسه وفي الصفحة نفسها، نحن والحق يُقال لا نملك سوى وضع علامة التعجب!!.

---

(١) ومع ذلك فقد بلغ الكتاب من التأثير أن صنف ضمن كتب جماعية لفلاسفة وأدباء ومفكرين يكتبون عن المدى العميق الذي تركه كتاب «الجين الأناني»!. انظر: «ريتشارد دوكنز، عالم غيّر أفكارنا» ص٨. ورغم الاحتفاء الكبير بـ«الجين الأناني» فإن كتاب «ريتشارد دوكنز عالم غيّر أفكارنا» ص١٩، يقول إن أفكار الكتاب كانت معروفة ومعمولاً عليها حتى تطبيقياً، لكن دوكنز بلورها ككتاب جامع فقط!.

(٢) ريتشارد دوكنز.. عالم غير أفكارنا، مرجع سابق، ص١٨.

خاتمة

دوكنز ينقض نفسه

ونحن بما أننا أصررنا على الالتزام بتقديم أقوال دوكنز نفسها بشكل مباشر، فلننه الملف بالإنصات إلى البروفسور ريتشارد دوكنز، وهو في برنامج لقناة الـ بي بي سي عن حياته وشخصيته، كيف يُقيّم دوكنز الداروينية بعيداً عن التنظير النخبوي، هل فعلاً يمكننا بناء حياة مدنية وعقلانية وطيبة فيما لو آمنا حقاً بالانتخاب الطبيعي؟!

يُجيب دوكنز بوضوح صادم لمقلديه والمتحلقين حول خطابه، بأن الداروينية غير صالحة للحياة وإذا «كنتَ ستعيش حياتك كما لو كنت تسعى بصورة دائمة لتحقيق هدف الداروينية، فإن العالَم السياسي الذي سيكون من نتاج الداروينية سيكون عالَماً بغيضاً يضطهد فيه الأقوياء الضعفاء».

فالعدالة التطورية رهينة سباق التسلح التي باتت مركزية من القرون والأنياب إلى إرهابية الدول النووية والقدرة العسكرية العابرة للقارات، كل هذه هي عدالة الوجود وهكذا تكون الحقيقة المتناسبة معها، حيث القوة هي كيمياء الحياة[1].

هذا يعني أن الداروينية ضد الحياة وقاتلة لها ،كيف ذلك وهي بالفرض النظرية الأدق في شرح بقاء الحياة؟!.

إذن، علينا إما أن لا نتبع الحقيقة التي قيل لنا إنها «علمية» وهذا يعود علينا

(١) أعظم عرض على الأرض، مطلع الفصل الثاني عشر.

بالمعونة حتى بالخرافات والأساطير والأديان، التي هي الوحيدة «النافعة» لتخديرنا من الواقع الذي هو شر متزاحم، فهي دافعة للشر ومعطّلة له وليست هي أصله.

وإما القول إن الواقع والوجدان والتطبيق العملي الاختباري، دليل حسي على أن تنظير دوكنز ليس مقولة صحيحة.

وها هو قسيس الشيطان ومطران الإلحاد الأكبر لا يملك في الختام سوى عدم الاكتفاء بالكائن والراهن، ويسعى إلى تجاوز الواقع ويتعالى عليه، بالرغم أنه من المُفترَض أن لا يوجد سوى المادية وأن وعينا نفسه مادي، فمن أين ينبع ذلك التوتر والارتقاء فوق كل هذا الحطام من خرائب المعلومات التي تفرز باستمرار ما هو الصالح منها والقبيح؟!، ومادمنا قد سمعنا كل هذه التناقضات من دوكنز الذي بات يرى في الوهم ضرورة يجب تقديمها على الحقيقة ،فإذا بكل ذلك الصخب حول نصرة التطور واختزال الوجود بالمادة فقط، هما أقرب إلى منزلقات نفسية من دون أدلة علمية ذات تناسق منطقي وموضوعي. حيث تعالق سايكولوجية الباحث مع مأزق البحث العلمي للموضوع نفسه، كتشابك بين الملاحظة العلمية والنظرية العلمية، وهي التأكيدات التي صارت موضوعاً بحثياً مستقلاً منذ مناقشات كارل بوبر وتوماس كوهن وغيرهما اليوم. وهو أمر يتطلب ضرورة التشديد على الممارسة الفعلية للعلوم وليس سجالات التنظير غير الميداني فقط، وهو ما أخذ العلم فيه يتحول في بعض الأقسام إلى أشبه بسرديات الخيال كتلك المتعلقة ببعض بحوث الفيزياء المعاصرة أو سجالات إدخال فرضيات الانتخاب الطبيعي في مسائل دينية، تخلط بين التخمينات وبين فعلية المقولة التي تدعي أنها علمية. وهي الخلاصة التي وقع في فخها دوكنز وتيار الإلحاد الجديد.

وإنها لوقاحة صلفة بالفعل، حينما سيقول دوكنز في هذه المقابلة نفسها (كطريقة تهرّب من الملازمات) بأن عقولنا قد تطورت بما فيه الكفاية لعدم الالتزام بالداروينية!.

فجأة صارت الداروينية أقل من عالمنا الصغير وهي التي كانت على طول الخط عبارة عن الحقيقة الشمولية التي تشمل حتى مجتمعات المخلوقات الفضائية في المجرات البعيدة في الكون الواسع!.

إذن، بحسب كلام دوكنز في هذه المقابلة الصريحة[1]، لا توجد أية فرصة لقيام أخلاقيات إلحادية صالحة:

«الاختيار الطبيعي، الصراع من أجل البقاء كما سماه داروين يعني أن كل كائن حي لديه أعداء يعملون بمنتهى الجّد لإطاحته»[2].

وسيكون هذا تناقضاً بين العقل النظري حيث لا يخرج من الداروينية سوى الشرّ، حيث التطابق بين الانتخاب الطبيعي والتطور الثقافي[3]، وأن الداروينية شاملة لكل شيء، وعليه لو طُبقت ستكون أكبر كارثة إنسانية، وبين العقل العملي حيث يطرح الملاحدة فكراً علمانياً مدنياً مسالماً ورحمانياً. وأنه بالتالي (ووفق كلام دوكنز وليس غيره) نحن نعيش في زمن ما بعد الداروينية وأن الداروينية فكرة ميتة وداعية الإلحاد الأكبر يقف في مُقدمة مُشيعيها!.

ومن مجموع كل مرافعات اختزال الإنسان بالمادة والحقيقة بالطبيعة والطبيعة بصراع التكيّف، يبقى السؤال الأهم: إذا كان الإنسان مادة فقط، ووعيه مادياً فقط، ورغباته وطموحاته وعواطفه وذوقياته، مادية فقط، فلماذا

---

(١) وفي ندوة أخرى عرضتها قناة الجزيرة، بدا فيها دوكنز يستحق المواساة فعلًا لكثرة تخبطاته وعدم قدرته على عرض آرائه بتماسك مقبول.

(٢) سحر الواقع، مرجع سابق، ص٢٤١.

(٣) دوكنز.. عالم غيّر أفكارنا، مرجع سابق، ص٦٩.

لا يوجد تطابق بين أشخاص النوع الإنساني وكل واحد منهم عالم مستقل بذاته؟! ولماذا لا يكتفي هذا المخلوق المادي فقط بالواقع المادي الراهن ويقف عنده، لماذا كُبرى هواجسه ومخاوفه ونشاطاته مرتبطة بما لم يحصل عليه وليس حاضراً عنده، ومستملكاً إياه؟! فحتى الانتخاب الطبيعي ليس سوى ضرب من ضروب مساعي تجاوز سطح الأشياء، وعدم الاكتفاء بظواهر الأمور، وهي دليل تطبيقي لذلك العطش الوجودي الذي يدفع فضول العلماء ويجعلهم أكثر صبراً ومتعة ومثابرة لنيل ذلك الغائب وليس الدوران بما هو حاضر.

وأصلاً: أليس كل هذا النقاش عبارة عن هراء؟! أليس من المفترض أن الانتخاب الطبيعي يسري في جيناتنا ويوجهنا وهو منطق الحياة منذ بداية التكوين وأنه أمر حقيقي وليس اعتبارياً، حتى يقع عليه التصويت والرفض والاختيار والنقد، هل نسير وفقه أم لا؟!:

«شخصياً أعتقد بأن المجتمع البشري القائم فقط على قانون الأنانية الكونية العديمة الشفقة للجينة، سيكون مجتمعاً كريهاً يصعب العيش فيه. لكن لسوء الحظ، ومهما بلغ استهجاننا أيّ أمر، فهذا لا يحول دون كونه حقيقة»[1].

ما معنى كون الجين الأناني هو حقيقتنا التي بنت الحياة تطورياً، وهي نفسها الحقيقة التي يجب التخلص منها والسير بالنقيض منها لكي تبقى الحياة ممكنة؟!، الجينة شفرات رياضية فائقة الدقة، لكنها تحوي ثغرات وليست بتلك الدقة لذا يمكننا الخلاص منها، لكن نتخلص منها بواسطة ماذا؟ هل

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص١١.

لدينا جينات أخرى ما فوق الجينات؟ أليس هذا تلاعباً لفظياً يحاول التملص من الأمر فوق المادي الذي هو حقيقتنا بل حقيقة كل شيء، وبه يكون كل شيء حقيقة. أي جين أناني هذا الذي نهايته التفسيرية تكون نقيضة له؟!

«إن الفرضية التي تقول إن الطباع المتوارثة جينياً ثابتة جينياً ثابتة لا يمكن تعديلها، تكوّن اعتقاداً خاطئاً وشائعاً جداً. فقد تعلّمنا جيناتنا أن نكون أنانيين، لكننا لسنا مجبرين بالضرورة على الامتثال لها طوال حياتنا»[1].

وهي محاولة عبثية فما دام ليس هناك من حقيقة سوى المادة، ولم يكن لهذه المادة أن تبقى وتكون حياة مستمرة بدون التطور، وهذا التطور قوامه الأنانية، فإن النتيجة المنطقية أن بقاء الأنانية هو بقاء المادية، وبالتالي يجب الحث على أكبر قدر من الأنانية وليس العكس، وهذا ما يحتار به دوكنز نفسه:

«ومفاد هذا المنطق أن الإنسان والقرد تطورا جراء الانتقائية الطبيعية. وإذا راقبت كيفية عمل الانتقائية الطبيعية، فقد يبدو لك في النتيجة أن كل ما يتطور جراء الانتقائية الطبيعية سيكون حتماً أنانياً. وعليه، ينبغي أن نتوقع لدى مراقبتنا سلوك القرود والإنسان ومختلف الكائنات الحية، أن يكون هذا السلوك أنانياً. وإذا ما اكتشفنا أن توقعاتنا في غير محلّها، ووجدنا أن السلوك البشري إيثارياً بالفعل، فسنجد أنفسنا في مواجهة مسألة محيّرة تحتاج إلى تفسير»[2].

---

(١) الجينة الأنانية، مرجع سابق، ص١٢.

(٢) المرجع نفسه، ص١٢، وبالأحرى القول: «بحاجة إلى الاعتراف» . فبهذا تكون الداروينية الجديدة دليلاً على وجود الروح وما وراء المادة وليس دليلاً إلحادياً.الطريف أننا لو دققنا بمقابلة دوكنز مع قناة بي بي سي، فعلينا القول إن دوكنز لا يفهم دوكنز، أو أنه يكذب بكل وضوح. وبعيداً عن لغة التهجم القاسية فإن دوكنز في طبعات لاحقة متأخرة من كتابه (الجينة الأنانية: ص٢٢) سيضع تفسيراً إضافياً لمعنى الأنانية، يدفع فيه (كأي لاهوتي في تعديل شروحاته حينما تُصدم مع الواقع)

أليس مجرد قدرة الحوار على رفضه وعدم تقبله والسير على النقيض منه، هو دليل أمبيريقي تجريبي على عدم صحته وأن الحديث عن «وحدة الانتقال الثقافي»[1] والمحاكاة الجينية مجرد استنباط خرافي عن الطبيعة، طرح نفسه

بكون الأنانية الجينية ليست جزءاً حتمياً، لكن السؤال يبقى هنا: هل هذه الحرية نشاط جسدي جيني أم لا؟! إن كان لا، فقد وصلنا إلى ماوراء المادة. وإن كان مادة فينطبق عليها منطق الداروينية وحقيقة الجين. لعل الأمر يصل إلى حد الاستخفاف بالنفس وبالمتلقي بأن يفسّر دوكنز في هذه الصفحة نفسها، معنى الحرية باعتبارها الأمر الذي يقع خارج الإحصاء كما هي الحال في التنبؤ بحالة الطقس غداً، فهو يمكن أن يقع هكذا أو لا. وهو كلام لامعنى له لأن الحرية البشرية في النهاية إذا كان مردها إلى المادة فقط فهي محكومة بها ونتائجها حتمية بنفسها بغض النظر عن توقع الآخر لها. فغداً تمطر حتماً فيما لو كانت جزئيات الواقع مترابطة لحصول هذه النتيجة أو لا تمطر حتماً حينما تكون الشروط أو بعضها غير متوافر، فالشيء ما لم يصل إلى حد الضرورة في الواقع لا يحصل ولا يوجد وبالعكس. لكن بالنسبة إليّ أنا الذي لا أعلم كل الأسباب والعلل قد تمطر غداً بنسبة كذا، وقد تكون الأجواء مُشمسة بنسبة كذا. الطريف أن دوكنز يقول في هذه الصفحة: «فنحن نعرف تمام المعرفة أن حالة الطقس تتأثر عبر طرائق معقدة». اترك للقارئ أن يجد لكلمة «تمام المعرفة» من معنى. وفي النهاية: هل ينبغي لنا إسقاط الداروينية على السياسة والسلوك الاجتماعي؟! لقد تم إسقاطها على علم النفس أي على السلوكيات والسياسة واحدة منها، فهل علم النفس وعلم الأخلاق وعلم الجمال التطوري مجرد وهم؟ لماذا تكون السياسة استثناء؟ وعلى ماذا يقوم هذا الاستثناء ولا يوجد سوى المادة؟! ومن أين ظهر هذا الاعتراض على الداروينية في السياسة والأخلاق كيف أخرجت المادة وما هو نقيضها الرافض لمنطقها؟!. إن كل الدفاعات التي كتبها دوكنز في الطبعات الجديدة من «الجينة الأنانية» والتي دعته ليكتب بعد ذلك كتاب «المظهر المتمدد» ليست سوى محاولة لجعل أطروحته باقية رغم تغير المشهد الثقافي والسياسي في بريطانيا وأميركا، وذلك عبر وضع بعض المساحيق على العجوز القديمة نفسها. وفي النهاية نجد أن دوكنز نفسه في تلك المقابلة أجاب على نفسه.

(١) دوكنز.. عالم غيّر أفكارنا، مرجع سابق، ص٦٩

بأنه هو الطبيعة متناسياً الفرق بين فهم الطبيعة بحسب قدراتنا الذهنية والطبيعة نفسها، فراح غرور الفهم يتخيل أن ما فهمه هو «العلم» فهو الميزان الذي يزن ما هو حقيقي وغير حقيقي على الآخرين في الناس وفي الطبيعة، في الأرض وفي مخلوقات الفضاء؟!

لكن ما جدوى النقاش في كل هذا، فدوكنز يبقى رغم كل هذا متمسكاً بإلحاديته؟!

إن هذا يعني الانتقال من الإلحاد الناقد لرجال الدين ومؤسساتهم وأحزابهم، والإلحاد الفلسفي الذي حاول نقد دليل النّظم، والإلحاد التنويري على أساس نقد التراث الديني، حيث بيان مفارقات النصوص المقدسة، والإلحاد العلمي على أساس عقلنة المصادفة وشواهد الأحفورات وتشريح الحياة وشواش عالم الجسيمات، إلى الإلحاد النفسي الذي لا يقوم على «الأدلة» بل على «العلل» النفسانية وعقدها الشخصية، ومؤثرات الخطاب الإعلامي فيها. لذا يعتمد التضليل اللغوي من القول بالمعجزة حيث كل شيء يتضمن شفرة معلومات توجيهية لبنائه وحفظه، إلى القول بـ «الطفرات» بينما لا تعني هذه الطفرات سوى الظهور الفجائي في نهاية المطاف[1].

(١) هذا بدون استعراض البحوث التي أخذت تتراكم من الصين وروسيا وحتى أميركا وبريطانيا، التي تؤكد تجريبياً بناء أبسط الأمور من المصادفة والعشوائية، كما هي حال منجز «دوغلاس إكس» سنة ١٩٩٢، حيث بين عبثية القول بأن التدرج البايولوجي يبيّن لنا تعقيداً في الخلية، فمضاعفة البروتين الواحد حيث التركيب الواحد مكوّن من ٢٠ حمضاً أمينياً متباينا، والأمر يتطلب الخضوع لـ«معادلات» كيميائية لجعل تسلسل بناء التركيب ناجحاً. وعليه خرج دوغلاس إكس من تجربته على بروتين مكوّن من ١٥٠ حمضاً أمينياً لترتيب الأحماض العشرين للخروج ببروتين واحد جديد عبر الطفرات التصادفية يعادل واحداً مضروباً في عشرة أس ٧٤، بينما الكون كله لا يوجد فيه سوى عشرة أس ٦٥!!. وعليك أن تتصور حجم التزوير في بحوث

يقول «جون جريبين» واحد من أكبر الكتّاب الحديثين في مجال العلوم، والمكثرين من الكتابة في الطبيعيات، التي تعد من الأكثر مبيعاً:

«عندما شرعت في تأليف كتب حول العلوم منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ظننتُ في البداية أنني أتعامل مع حقائق قاطعة، مثل قوانين نيوتن، وحركة القارات على سطح الأرض، وإطلاق النجوم الطاقة من خلال عملية الاندماج النووي التي تحدث في أعماقها، وما إلى ذلك. وبمرور الوقت عندما بدأت أهتم أكثر فأكثر بتاريخ العلم والسير، حيرتني حقيقة أن هذه البحوث غير موضوعية وقابلة للتأويل إلى حدٍّ ما. يستحيل أن نكتب تاريخ العلم (أو تاريخ أي شيء آخر) لأننا لا نملك كل الحقائق، وعلينا أن نملأ الفجوات بالاستدلال»[1].

إلحادياً لا يوجد لدينا وجود غير مادي، وتطورياً الانتخاب الطبيعي هو حقيقة الحياة وواقعها، وفكرياً السياسة هي هرم الحياة، وعليه لابد أن تتطابق السياسة مع حقيقة الحياة كي تكون واقعية، الواقعية التي لا حقيقة لها خارج

دوكنز وغيره حينما يتحدثون عن الصعود إلى جبل الاحتمال أو عرضهم الركيك للانفجار الكامبري حيث معضلة التاريخ الدارويني للحياة قبل ٥٤٣ مليون عام وبين وجود حيوانات كاملة الأعضاء معقدة، لخمس وخمسين شعبة لا ترتبط اتصالاتها النسبية بتصورات داروين لشجرة الحياة، وهي مازالت نفسها إلى اليوم لم تتغيّر..علماً أن دوغلاس إكس نشر بحوثه في مجلات تخصصية مثل مجلة البيولوجية الجزيئية، فإذا به يتعرض للتهديد من قبل جهة تدعي أنها مظلومة وتُقرأ بعدسات المؤامرة والتزوير وأنها مساندة للتحرر وعلمية خالصة وغيرها لاهوتيون إرهابيون!.طبعاً المشكلة سوف تتعقد باتخاذها مركزية بريطانية أميركية غربية، فيما لو استعرضنا بحوث العلماء الصينيين مثلاً، وكلها بحوث تقوم حفرياتها وشواهدها على نقض مبدأ الانتخاب الطبيعي الذي سيظهر مجرد قالب خارجي مُسبق يجري تحنيط الواقع لتتناسب مع حقوله وجداوله..

(١) قصة الكون، مرجع سابق ص١١.

كونها مادية، وعليه لابد أن السياسة الواقعية داروينية صرفة، فهل هذا يقبله شيخ الملاحدة التطوريين ريتشارد دوكنز؟!:

«وكعالم أكاديمي، فأنا دارويني مُتحمّس، أؤمن بأن الانتخاب الطبيعي، وإن لم يكن القوة الدافعة الوحيدة للتطور، إلا أنه من المؤكد أنه القوة القادرة على إنتاج وهم لهدف يذهل له كل من يتأملون الطبيعة. ولكنني في الوقت نفسه الذي أتحمس فيه للداروينية كعالِم، أتحمس ضد الداروينية عندما يصل الأمر إلى شؤون السياسة والطريقة التي ينبغي أن ندير بها شؤوننا البشرية»[1].

إنها حقيقة علمية لكنها ببساطة: انتقائية!.

فهي علمية حقيقية نرفضها نفياً للفقه المدني وتمسكاً به لكونه اليوم الثقافة المُنتصرة، ونقبله بولع يصل إلى التعصّب حينما يتعلق بهدم الفقه القديم حيث غدا الخطاب الديني مهزوماً.

إنها تحيزات خطاب قوة وليس وجهة نظر موضوعية. وككل خطاب غير موضوعي لابد من البحث عما خلف ستارة المصطلحات وسيل المعلومات، لكشف الوجوه الحقيقية لمشكلات شخصية وتكتلات مالية وسياسية، تجمعت في سياقات تكوين القوة وليس المعرفة.

(وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ {٨٨/٤٣} فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)[2].

(١) ريتشارد دوكنز، قسيس الشيطان، ص٤٨.

(٢) القرآن الكريم: سورة الزخرف، ٨٩.

من إصـدارات الـمؤلـف

١ ـ اغتيال القدس، صراع النفط والتاريخ (دار الحرمين ـ إيران).

٢ ـ آلام أخرى للحلاج (دار ألواح ـ أسبانيا).

٣ ـ محطة قطار براماتا (دار الفارابي ـ لبنان).

٤ ـ تواقيع على رمل الزبير (منشورات النوارس ـ بغداد).

٥ ـ مَن سرق الطماطة أيها الوطن (دار الفارابي ـ بيروت).

٦ ـ العراق الجديد، الامتناع والممانعة (دار الفارابي ـ لبنان).

٧ ـ الحسين قراءة زرادشتية، تعريف الهوية بالأديان ومعرفة الدين بالإنسان (منشورات النوارس ـ بغداد).

٨ ـ عاشوراء جرأة الحرية (دار المحجة البيضاء ـ لبنان).

٩ ـ محمد الصدر كفاح الجماهير (دار الفارابي ـ بيروت).

١٠ ـ في البدء كان المنفى (منشورات النوارس ـ بغداد).

١١ ـ الحسين طاقة الأمل، كربلاء بين محمد الصدر وعلي شريعتي (دار المحجة البيضاء ـ بيروت).

١٢ ـ حسناء الهور (الدار العربية للعلوم ناشرون ـ بيروت).

١٣ ـ بحوث في مدرسة الصدر، بين الخلدونية والهيغلية (دار الفارابي ـ بيروت).

١٤ ـ سفر إلى آخر الليل (منشورات النوارس ـ بغداد).

١٥ ـ من العرفان إلى الدولة (دار الفارابي ـ بيروت).

١٦ ـ قربان على مذبح آخر الآلهة (دار أزمنة ـ الأردن).

١٧ ـ أشعار الإسلام وديوان الحياة (دار المحجة البيضاء ـ لبنان).

١٨ ـ الإثم والكتابة، من النقد الاستعماري إلى مدح الدكتاتور (دار الجواهري ـ بغداد).

١٩ ـ البناء والانتماء، التوحيد والشرك، تجديدات نظرية ومواجيد ذوقية، ج١(د ار الفارابي ـ بيروت).

٢٠ ـ الفقه الأخلاقي، نقد ثقافة الحشد والفضيلة الناقدة (دار الجواهري ـ بغداد).

٢١ ـ أوراق متخالفة في النقد المختلف، استرابات الرصافي، حسن حنفي، محمد أركون، علي الوردي (دار المحجة البيضاء ـ لبنان).

٢٢ ـ المُخيلة والتاريخ والسلطة (دار نيبور ـ بغداد).

٢٣ ـ ما لم تشهد عليه النوارس (دار الفارابي ـ بيروت).

٢٤ ـ المقاومة السردية للاستعمار(دار نيبور ـ بغداد).

٢٥ ـ البناء والانتماء، التوحيد والشرك، تجديدات نظرية ومواجيد ذوقية، ج٢ (دار الفارابي ـ بيروت).

٢٦ ـ السرد الفلسفي، حكايات عقلية من أفلاطون إلى السهروردي والطباطبائي (المجمع العلمي العراقي ـ بغداد).

٢٧ ـ تكوين النسق الفلسفي، الوعي التاريخي والوجود الحيّ (مؤسسة الانتشار العربي ـ لبنان).

٢٨ ـ جدل التشكّل والاستلاب،محمد الصدر وأبو القاسم حاج حمد (دار الفارابي ـ لبنان).

٢٩ ـ نهج تطوير الذات، جدل النية وتمكين الفعل (دار الفارابي ـ بيروت).

٣٠ ـ علي ناموس المعنى (مؤسسة الانتشار العربي ـ بيروت).

٣١ ـ طرائق الوجود، أنماط السلوك من الكيلاني وحيدر آملي وأحمد الإحسائي (مؤسسة الانتشار العربي ـ لبنان).

٣٢ ـ تأويل آية النور عند العلامة المجلسي، تعليقة في السيطرة والتجاوز (دار الفارابي ـ بيروت).

٣٣ ـ اسمع صلاتي أيها القلم (دار الفارابي ـ لبنان).

٣٤ ـ الحرية المصلوبة والاستعارة المضللة (مؤسسة الانتشار العربي ـ لبنان).

٣٥ ـ الكلمة في زمن الفتنة، فقهاء بلا عمامة إسلام بدون الله (مؤسسة الانتشار العربي ـ بيروت).

٣٦ ـ إنسان النجاح في دعاء الافتتاح، تكوين التقوى الواقعية بين المحنة والمقاومة (منشورات نوارس ـ بغداد).

٣٧ ـ احتقار الحب، مدخرات جلال الدين الرومي لداعش، تحولات «بينوكيو» فتى الخشب (دار الفارابي ـ لبنان).

٣٨ ـ الحُسن الفائق، مباحث صوفية في إشراقات الخير وخلاص الفروقات المذهبية (منشورات نوارس ـ بغداد).

٣٩ ـ العودة إلى الإنسان، أنطولوجيا الهيام في حضرة مولانا الجمال (دار كنوز ـ لبنان).

٤٠ـ النقص التفسيري لآية الذار، (دار الفارابي، لبنان).

في مقابل التعصب والأصولية الدينية لدى بعض المؤمنين الذين يستبيحون كل مخالف لهم، هناك أصولية ثقافية وانغلاقية علموية لدى بعض الأكاديميين، الذين أغراهم انسجام ميولهم النفسانية مع الخطاب السياسي العالمي السائد، الذي بات جذلاً بانتصاره على اللاهوت والدين، ليتحول إلى آليات قمعية للمخالفين. وقد كان كتاب (وهم الإله) لريتشارد دوكنز، وكتاباته الأخرى، جزءاً من هذه النماذج التي تخلط بين الإعلام والعلم، وتجنح بالبحث العلمي إلى سجالات جدالية عنيفة، ما كنا نستطيع محاورته ونقده إلا باستعمال منهجه بشكل معاكس. لذا لم نخرج في هذه المراجعة عن كتابات دوكنز نفسه، بعيداً عن تكثير الأدلة والدخول في عرض كتب اختصاصية مطولة، بل لم نجد ثمة حاجة حتى إلى استعمال جملة المصطلحات الأكاديمية في كل حقل، فطريقة دوكنز الجدالية المشحونة بخطاب عنيف واستهزائي أكثر من كونه استدلالياً، ونقلي أكثر منه إبداعياً، وتكراري أكثر منه امتيازياً، أغنانا عن كل ذلك وسهّل عملية تبسيط الكتاب والمحاجّة معاً. لذا اعتمدنا على ما كتبه دوكنز نفسه، مع ملاحظة أننا لسنا بصدد شرح الداروينية أو الرد عليها كما فعل جملة من الإسلاميين إلى مستوى بلغ تسطيحها وتشويهها واعتماد لغة التكذيب والمؤامرة، وبعض هذه المستويات مُحرج فعلاً في سذاجته وقصور معلوماته التي تبلغ انتقائية مثيرة للشفقة حقاً.

ISBN 978-614-432-569-8
9 786144 325698